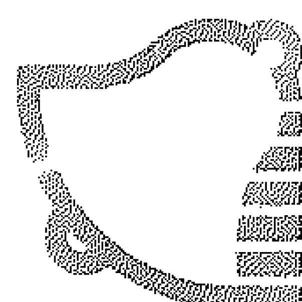


دار الثقافة



عقيدة الاختيار

القس بخيت متى

عقيدة الاختيار

بقلم

القس بخيت متى



طبعة ثانية

صدر عن دار الثقافة ــ ص.ب ١٢٩٨ ــ القاهرة

١٠ / ٢٣٥ ــ ط٢ / ٣ ــ ٥ / ٧٨ ــ ٩٠

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٣٩٣ / ١٩٩٠

دولى : ٩٧٧ ــ ٢١٣ ــ ٠١٨ ــ ١

طبع بمطبعة دار الجيل للطباعة

جمع فى سيوبرس

تصميم الغلاف : نادر جرجس

تمهيد

فى غمرة التقدم العلمى ، والتوسع فى الخدمة ، ننسى أحياناً بعض التعاليم اللاهوتية والعقيدية التى بنت الكنيسة عليها فلسفتها الفكرية قروناً طويلة .

وفى هذا الكتاب يقدم القس بخيت متى ، الفكر الكالفينى لعقيدة الاختيار . فقد حار الكثيرون أجيالا طويلة فى دراسة هذه العقيدة ، ومحاولة اكتشاف مكانها من كلمة الله ، وذهب فيها العلماء كل مذهب . إلا أن كالفن مؤسس الفكر المشيخى ، كان أول من وضع العقيدة ، مبنية على أساس كتابى .

وبذلك صارت عقيدة « الاختيار » محوراً للفكر المشيخى الكالفينى .

والكتاب الذى بين أيدينا ليس كتاباً مترجماً لكنه من تأليف قسيس مصرى درس الفكرة وصاغها فى أسلوب رائع ، بعيداً عن رطانة العلماء ، وغموض الفلاسفة ، فقدم الحل الإنجيلى المشيخى لقضية من أهم القضايا التى شغلت بال الإنسان قديماً وحديثاً وفى كل الأديان .

والكتاب يجيب على الأسئلة التى تحيرنا مثل : هل الإنسان مخير أم مسير ؟ وإن كان مخيراً ، فأين قضاء الله ؟ وإن كان مسيراً ، فلماذا يحاسبه الله ؟ .

والكتاب يقدم الفكر الكالفينى ويسنده بالشواهد الكتابية .

إن دار الثقافة يسرها أن تقدم هذا المرجع الرائع سجلا لدراسة الرعاة والقيادات العلمانية .

دار الثقافة

فى هذا الكتاب

الموضوع | صفحة

قضاء الله وحرية الإنسان

لم يخطر ببال إنسان سؤال يحير أكثر من هذا : « هل الإنسان مسير أم مخير ؟ » و « هل قضى الله بكل كبيرة وصغيرة فى الكون وفى حياة الإنسان ؟ » وكم تبلبلت الألسنة ، وكم تشتتت الأفكار وكم تعثر الناس ! لدرجة أن قال لى أحد أعضاء كنيستى فى مكان ما : « لم أسمع عظة عن الاختيار من قس حتى الآن . أنتم تخافون أن تتكلموا فى هذا الموضوع ! » . وخوف الوعاظ من الكلام ناشىء من عدم فهم السامعين ، أو إمكانية حملهم الموضوع إلى أسوأ محمل ..

وموضوع مثل « قضاء الله وحرية الإنسان » لا يمكن توضيحه فى بحث واحد . من أجل هذا ستكون لنا سلسلة من الدراسات . وما أريد توضيحه الآن هو الفكر العام الذى يسود فيها جميعها ، وفيه جواب بصورة عامة عن هذين السؤالين :

هل قضى الله ؟ وهل على الإنسان مسئولية ؟

هذه أسئلة نابعة من حيرتنا من جهة ، ومن رغبتنا فى الاطمئنان على النفس من جهة أخرى . أما رغبة الاطمئنان على النفس فترجع إلى أهمية هذا الجواب فى تقرير مصيرنا ، وفى تأكيد نجاحنا وسعادتنا .. فهو الموضوع الذى يتداخل فى كل كبيرة وصغيرة من شئوننا .

وأما الحيرة فقد نشأت عن الغموض الذى يشوب هذا الموضوع . وينشأ هذا الغموض من عدة عوامل هى :

١ ــ أولها أننا لا نعرف أنفسنا : فإن السؤال هل الإنسان مسير أم مخير سؤالى عن نفسى . ولو عرفت نفسى لما سألته .. ما هو مصدر أعمالنا ؟ أين مكان إرادتنا فى تقرير أمورنا ؟ : أهذه فى أيدينا أم فى أيدى قوة خارجنا ؟ هل أفعل كل شىء وأنا حر ، أم أفعل ما أفعله تحت ضغط قوة ترغمنى على ما أفعل ؟ إن عدم معرفتنا انفسنا يلقى سحباً من الغموض حول هذا الموضوع .

٢ ــ وعامل ثان أنشأ هذا الغموض هو جهلنا بقضاء الله (طبعاً لنفرض مبدئياً أن الله قضى) . قضاء الله سر ، سفر مختوم لا يمكن أن تقرأه إلا بعد أن تفك أختامه ــ أقصد بالذات ما يختص بحياتى وحياتك ، بمستقبلى ومستقبلك إن كان الله قد قضى على الإطلاق ، فلا أنا ولا أنت نعرف شيئاً مما قضى به .

٣ ــ ثم عامل ثالث يزيد من غموض هذا الموضوع أمامنا ، ومن ثم يحيرنا .. هو عدم فهمنا للحوادث : سار إنسان فى طريق وأصابته رصاصة طائشة ــ أهذا من مسئوليته هو ، أم تقع التبعة

على غيره ، أم على القدر ؟ . خسر تاجر .. رسب طالب مجتهد بسبب مرض فجائي .. مات مريض سهر عليه طبيبه الليالي — هل هذا الإخفاق يوقع اللوم على الذين أخفقوا أم على القدر ؟ إننا لا نستطيع أن نفهم هذا من أنفسنا ، فيتعقد المسلك أمامنا .

٤ — والعامل الرابع الذي يوقعنا في الحيرة والارتباك بالنسبة لهذا الأمر هو أن كل من جاوب على هذا السؤال وجد السند الكتابي . وما أبعد الفرق بين جواب هذا وذاك ، وكلاهما يدعمان آراءهما من الكتاب المقدس .

وأرجو أن يعيننا الله لنجد الجواب الشافي من كلمة الربّ .

واعتقد أنه يحسن بنا أن نعرف الأقوال المتضاربة في هذا الأمر ..

١ — قال رأى أن الله قضى ، ولهذا فإن الإنسان مسير بهذا القضاء .. أما قضاء الله منصوص عنه في كلا العهدين :

« هذا هو القضاء المقضى به على كل الأرض ، وهذه هي اليد الممدودة على كل الأمم » (إش ١٤ : ٢٦) . « مخبر منذ البدء بالأخير ومنذ القديم بما لم يفعل . قائلا : رأيي يقوم وأفعل كل مسرتي . داع من المشرق الكاسر ، من أرض بعيدة رجل مشورتي قد تكلمت فأجريه قضيت فأفعله » (إش ٤٦ : ١٠ و ١١) « إني قد تكلمت . قصدت ، ولا أندم ولا أرجع عنه » (إر ٤ : ٢٨) .

وقد قال بطرس لليهود عن المسيح : « هذا أخذتموه مسلماً بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق ، وبأيدي أثمة صلبتموه وقتلتموه . (أع ٢ : ٢٣) . ثم ورد في صلاة الكنيسة : « ليفعلوا كل ما سبقت فعينت يدك ومشورتك أن يكون » . (أع ٤ : ٢٨) . وهذا قليل جداً من كثير يثبت أن الله قد قضى ..

قضى الله فعلا بكل ما في الكون — بكل ما يحدث .. قضى قضاءً مبرماً ، مشورة محتومة ، قضاء لابد أن يكون .. ونفس الله قصد أن يظهر لنا عدم تغير قضائه فتوسط بقسم (عب ٦ : ١٧) .

وقال هذا الرأي : « بما أن الله قد قضى قضاء محتوماً ، وأنا داخل ضمن هذا القضاء ، فأين حرية إرادتي ؟! الإنسان مسير لا مخير ... » .

فقط أريد أن أسأل : من أين أتوا بهذه النتيجة ؟ يوجد سند كتابي للمقدمة فقط ، وهي أن الله قضى .. ولكن لا يوجد سند إطلاقاً للقول بانعدام حرية الإنسان .. إن سندهم منطقي فقط ، فقد قالوا : « الله قضى فلابد لي من عمل قضاء الله .. » .

هذا الرأي يمجد الله كحاكم ، وكملك للكون — ولكنه يهينه في إظهاره كملك للجماد ، وفي ظلمه الإنسان وسلبه لإرادته ومع هذا يدينه !!

وقبل أن أقول كلمة في هذا الرأي دعنا نرى طرفاً آخر نقيضاً ..

٢ ــ يقول الطرف النقيض : « للإنسان حرية إرادة أن يفعل كما يشاء ، وأن يختار لنفسه ، وأن يقرر مصيره .. وبناء على هذا فإن الله لم يقض بشيء .. » .

وكل الكتاب المقدس يشهد بأن للإنسان حرية إرادة :

الله نفسه يشهد بذلك حين يكلف الإنسان بالطاعة وحين يعد أن يباركه عندما يطيع .. ويوجد فى الكتاب مئات من الآيات تثبت ذلك ، أذكر منها الأصحاح كاملا (لا ٢٦) ولا داعى لذكر بركات الطاعة هنا ، فيكفى أن أذكر بعض العبارات التى تبرهن حرية الإرادة . وأرجو أن يقرأ القارىء كل الأصحاح فى الكتاب المقدس . وهذه هى العبارات : « إن سلكتم فى فرائضى ، وحفظتم وصاياى ، وعملتم بها .. لكن إن لم تسمعوا لى . وإن رفضتم فرائضى وكرهت أنفسكم أحكامى ، فما عملتم كل وصاياى بل نكثتم ميثاقى . وإن كنتم مع ذلك لا تسمعون لى .. وإن سلكتم معى بالخلاف .. لكن إن أقروا بذنوبهم وذنوب آبائهم فى خيانتهم التى خانونى بها .. » ثم خذ قولا آخر : « إن شئتم وسمعتم تأكلون خير الأرض وإن أبيتم وتمردتم تؤكلون بالسيف ، لأن فم الرب تكلم » (إش ١ : ١٩ و ٢٠) . هذه أقوال قاطعة صريحة تؤكد حرية الإرادة ..

ثم ما معنى تقديم الرب للإنسان فرصة الاختيار إلا أن الرب يعنى أن الإنسان حر فيما يختار ؟ أنظر أنا واضع أمامكم اليوم بركة ولعنة : البركة إن سمعتم لوصايا الرب إلهكم التى أنا أوصيكم بها اليوم ، واللعنة إذا لم تسمعوا لوصايا الرب إلهكم وزغتم عن الطريق التى أوصيكم بها اليوم » (تث ١١ : ٢٦ ــ ٢٨) . « قد جعلت اليوم قدامك الحياة والخير ــ والموت والشر .. قد جعلت قدامك الحياة والموت ــ البركة واللعنة .. فاختر الحياة لكى تحيا أنت ونسلك » (تث ٣٠ : ١٥ و ١٩) . ويقول يشوع لكل الشعب فى خطابه الوداعى : « فالآن اخشوا الرب واعبدوه بكمال وأمانة ، وانزعوا الآلهة الذين عبدهم آباؤكم فى عبر النهر وفى مصر ، واعبدوا الرب . وإن ساء فى أعينكم أن تعبدوا الرب فاختاروا لأنفسكم من تعبدون : إن كانت الآلهة الذين عبدهم آباؤكم فى عبر النهر ، وإن كانت آلهة الأموريين الذين أنتم ساكنون فى أرضهم . وأما أنا وبيتى فنعبد الرب » (يش ٢٤ : ١٤ ــ ١٥) .

وأمر آخر يثبت حرية إرادة الإنسان هو تقديم الرب فرصة الإيمان للإنسان : « لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية » (يو ٣ : ١٥) « ونظر (يسوع) حوله إليهم بغضب حزيناً على غلاظة قلوبهم » (مر ٣ : ٥) « ولم يصنع هناك قوات كثيرة لعدم إيمانهم » (مت ١٣ : ٥٨) « وتعجب من عدم إيمانهم » (الناصريين) (مر ٦ : ٦) بل يذكر فى مكان آخر كيف أن الله أراد ، لكن الإنسان لم يرد . وهذا دليل قاطع على حرية إرادة الإنسان « كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا » (مت ٢٣ : ٣٧) .

فقال هذا الرأى : « بما أن الإنسان حر يختار لنفسه أهدافه ، وسلوكه ؛ وبما أنه هو وحده المسئول عن كل أفعاله ، فلا يجوز أن نفتكر أن الله قد قضى على الإطلاق ، أو أنه عين طريق الإنسان ، أو اختارها له وسيره فيه .. » .

ومقدمة هذا الرأى أيضا كتابية صحيحة ، ولكن نتيجته لا تستند على الكتاب فى شىء ! لقد

اعتمد على الحكم المنطقى المبنى على قاعدة هى أن الإنسان حر ، ولا يجوز أن نعتبر أية إرادة أخرى قد دبرت له شيئاً ..

إنني أشبه هذين الرأيين بوجود شخصين فى حجرة واحدة ، وجدا خيطاً ، كان فيما مضى مربوطاً فى حائطين متقابلين من الحجرة ، ثم انقطع هذا الخيط ، أمسك أحدهما طرفاً طليقاً لأحد جزءى الخيط ، وشده وقال : « هذا الخيط مربوط فى هذا الحائط » .. وأمسك الآخر الطرف الطليق للجزء الآخر من الخيط ، وشده وقال : « لا بل هذا الخيط مربوط ولا يزال فى هذا الحائط » .. وكلاهما له وجه الصواب ، ولكنه تجاهل وجه الصواب عند الآخر .

إن كلا من الرأيين اللذين أوردتهما سابقاً له وجه صواب ، وذلك فى المقدمة التى بنيت على الكتاب المقدس وله وجه النقص فى نتيجته الخاصة التى فيها تجاهل قول الكتاب ، وبنى لنفسه بناءً يسميه المنطق . ولكنه ليس منطقا سليما فإن المنطق لا يمكن أن يكون سليما إلا إذا تجمعت للإنسان كل المقدمات اللازمة ليصوغ منها النتيجة المطلوبة .. ونحن نجهل الكثير من هذا الأمر .. نجهله جهلا تاماً .. ومادامت الأمور التى نجهلها منصوص عنها فى الكتاب ، فلماذا العناء فى اتباع « المنطق » الذى يعارض الكتاب ؟ !(١)

قلت إن ما أوجد الخلاف فى الرأى أن الخيط مقطوع فى الوسط .. وجد رأى ثالث حاول أن يربط الخيط المقطوع :

٣ ــ قال هذا الفريق الثالث(٢) : إن الله قد قضى قضاء مبنيا على علمه السابق بكل ما سيحدث : أى أن الله رأى فى علمه السابق أن هذا سيؤمن ، فقرر أنه من ضمن المختارين ؛ ورأى أن هذا سيصلى فى مرضه ، فقرر أنه سيشفى ؛ وأن ذاك سيخالف أبويه فقرر أنه سيموت .. وهكذا ...

وفى زعم أصحاب هذا الرأى أن رأيهم قد حاز هذه الامتيازات :

(أ) الاحتفاظ بكلمة قضاء الله .

(ب) الاحتفاظ بالحرية للإنسان كمسئول .

(ج) رفع تهمة الظلم عن الله ..

وقد بنوا هذا الرأى على آية من الكتاب ــ آية واحدة هى « المختارين بحسب علم الله السابق » (١ بط ١ : ٢) .

فهل هذا الرأى كتابى حقا ؟ وهل أفلح هذا الرأى فى التخلص من هذه المشاكل ؟ ولكى نقرر قراراً فى قبوله أو رفضه أرجو أن نلاحظ هذه الملاحظات .

---

(١) أنظر التذييل بعد هذا الفصل .

(٢) الأرمينيون ــ وينسبون إلى أرميلنوس الإنجليزى الاصل .

١ — إن معنى « علم الله السابق » كما يتضح من الكلمة اليونانية الأصلية (جنوسس) ، ليس العلم الفكرى ، أو النظرى ، بل علم الاختبار والاختيار .. مثل « لأن الله يعلم طريق الأبرار أما طريق الأشرار فتهلك » . (مز ١) فكلمة « يعلم » هنا لا يقصد بها عكس الجهل ، ولم يقل عن الله إنه يجهل طريق الأشرار .. بين الطريق التى تقوم والطريق التى تهلك .. التى تقوم ، تقوم لأن الله يتبناها ، ويعضدها ، وهذا هو معنى يعلم . ثم يعلم من قبيل : « إلهاً سواى لست تعرف » (هو ١٣ : ٤) ففى الحقيقة « يعرف » لا تعنى معرفة العلم الذى هو عكس الجهل .. ولكن معرفة الاختيار ، والتخصيص ، والالتجاء والتعبد لواحد فقط هو الرب ولا يجوز أن تكون لإنسان علاقة باله سواه .. فحين نأخذ الآية التى أمامنا بهذا المعنى تكون دلالتها : « المختارين بحسب مسرة الله السابقة » بحسب « تخصيص الله إياكم لنفسه » .

٢ — توجد آية أخرى تدل على أن القضاء والعلم أزليين — على قدم المساواة فى الترتيب الزمنى « لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه ليكون هو بكراً بين إخوة كثيرين . والذين سبق فعينهم فهؤلاء دعاهم أيضا .. الخ » (رو ٨ : ٢٨ و ٣٠) . ومن الفرق بين استعمال الكلمات « سبق » فعرفهم ، و « سبق » فعينهم ، و « فهؤلاء دعاهم بدون ذكر « سبق » .. نرى أن الدعوى ليست أزلية أما المعرفة والتعيين فأزليان كلاهما يستعمل له كلمة « سبق » بدون تفريق زمنى ..

٣ — بالنسبة للترتيب الزمنى لا أسبقية ولكن بالنسبة للترتيب المنطقى علم الله مبنى على قصده (وليس العكس) . وهذا واضح من القول « لأنى عرفت الأفكار التى أنا مفتكر بها عنكم بقول الرب : أفكار سلام لا شر ، لأعطيكم آخرة ورجاء » (إر ٢٩ : ١١).والتى وليس فكر الأفكار التى عرفها بل عرف الأفكار التى افتكر بها .

قلت إن القضاء أساس العلم السابق منطقيا وهذا ما يشهد له المنطق السليم :

لأنه توجد ثلاثة أنواع من المعرفة :

(١) معرفة وقائع مقضى بها .

(٢) وتوجد معرفة احتمالات غير مقضى بها ..

(٣) ولا توجد معرفة وقائع غير مقضى بها .. لأنه من جعلها منذ الأزل وقائع ؟.. فإن رفضنا هذا النوع أى النوع الثالث من المعرفة فإننا نقبل النوع الأول عن الله ، والنوع الثانى عن الناس ، لأن لله لا يعرف مجرد احتمالات ، بل وقائع فعلا .. فالقضاء بها هو سر معرفتها ، وهو يوافق القول : « عرفت الأفكار التى أنا مفتكر بها عنكم » .

أما أن نعتبر أن الله يعرف وقائع لابد أن تحدث ، وحدوثها خارج عن إرادته .. فإن هذا يجعل الله لا سلطاناً للكون ، بل متفرجا ، وأن الصدفة هى السلطان ، وهى التى جعلت نفسها وقائع يتفرج عليها الله ، ولا يدير حوادثها .. والخطوة الثانية بعد هذه الجهالة أن نرفض كل ما يفيد عناية الله ، وتدبيره للكون .. فقد تركه للصدفة !!

٤ — إن المؤمنين مدعوين « بحسب القصد والنعمة » ، وليس بحسب ما سيحدث ،أو يفعلوا لأنفسهم ، ويقرروا لأنفسهم : أى ليس بحسب « حشرهم » أنفسهم بين المختارين بغض النظر عن قضاء الله .. وعن هذا يرد الكثير فى الكتاب أورد منه الآتى :

« ونحن نعلم أن كل الأشياء تعمل معا للخير ، للذين يحبون الله الذين هم مدعوون بحسب قصده » (رو ٨ : ٢٨) . « لكى يثبت قصد الله حسب الاختيار ليس من الأعمال بل من الذى يدعو » (رو ٩: ١١) . « الذى خلصنا ودعانا لا بمقتضى أعمالنا بل بمقتضي القصد والنعمة » (٢ تى ١ : ٩) . « إذ سبق فعيننا للتبنى بيسوع المسيح لنفسه ، حسب مسرة مشيئته . إذ عرفنا بسر مشيئته ، حسب مسرته التى قصدها فى نفسه لتدبير ملء الأزمنة ، ليجمع كل شيء فى المسيح ما فى السماوات وما على الأرض فى ذاك الذى فيه أيضاً نلنا نصيباً معينين سابقاً حسب قصد الذى يعمل كل شيء حسب رأى مشيئته » (أف ١ : ٥ و ٩ — ١١) . وغير هذا كثير وكثير ..

هذا فضلا عن أن النعمة نعمة من وجهة نظر الذى يعطى ، فهى توهب ولا تؤخذ فهى ليست بحسب اختيار الإنسان لها بل بحسب اختيارها للإنسان ..

إذاً نحن نرفض الرأى الذى يسلب الله إرادته لكى يعطيها للإنسان — نرفض الرأى الذى أوقف الله موقف المتفرج ، ويجعل السلطان فى يد الصدفة — الذى يجعل النعمة ليست من حق المنعم بل من حق من يريد أن يأخذ (وليست العبرة فى إرادة الأخذ ، فإن الله يرحب بمن يقبل ، بل فى سبب الدافع الأصيل لتقديم هبة على الإطلاق) .

هذا الرأى يشبه فى كثير الرأى الثانى القائل « بأن للإنسان حرية إرداة والله لم يقض » . وهذا الرأى الثالث يمتاز فقط بخدعة وجاذبية ، وينقص عنه فى الصراحة ..

والآن نحن أمام رأيين كل منهما له وجه صواب ووجه نقص .. وهما فى هيئتهما هذه يشبهان الخيط المقطوع .. إن أردنا أن نأخذ رأيا سليما .. فلنأخذ كل ما ورد فى الكتاب بغض النظر عن التنافر الذى عبرت عنه بالخيط المقطوع ..

(٤) وعلى هذا يكون لدينا رأى رابع هو الرأى الكتابى : إن الله قضى ، وفى نفس الوقت ، الإنسان حر ومسئول .. وقد وردت الأدلة على قضاء الله فى ما قيل عن الرأى الأول ، والأدلة على حرية ومسئولية الإنسان فيما قيل عن الرأى الثانى .. على هذا الرأى لا يوجد إلا اعتراض واحد هو اعتراض شبه منطقى : كيف يمكن أن نجمع بين قضاء الله ، ومسئولية الإنسان فى نفس الوقت ؟ إن فى هذا تناقض !

قلت : إن الخيط مقطوع .. وهو كذلك فى الكتاب المقدس . فحين يذكر الكتاب عن قضاء الله . لا يلقى الضوء على حرية الإنسان ، .. وحين يتكلم عن حرية الإنسان ومسئوليته لا يسلط ضوءاً على قضاء الله .. لكن الكتاب يقرر هذا وذاك كحقيقتين راسختين .. وإنكار واحدة منهما إساءة للكتاب المقدس ، وإلى الحق الصريح .

وما يتعب عقولنا أننا نريد ربط الخيط المقطوع ؛ وألا نتجاهل بقية الخيط !! نريد أن نسأل

عن وجه الارتباط بين النقيضين (بحسب أفكارنا) : كيف يمكن أن يجتمعا معاً ؟!

ومع أن الكتاب المقدس لم يوفق بين هاتين الحقيقتين ذلك التوفيق المنطقى (*) الذى ننشده فقد جمع ذكر الاثنين فى عبارة واحدة أكثر من مرة .. وإننى أعلق أهمية كبرى على هذا الجمع فى عبارة واحدة أو فى مكان واحد لأن وجود الاثنين جنباً إلى جنب فى الفصل الكتابى نفسه وفى القرينة ذاتها برهان لموافقة الكتاب على صحة كليهما ، مما يقطع على كل معترض حق الاعتراض . وهذه بعض الفصول الكتابية :

١ ــ هذا أخذتموه مسلماً بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق (هنا القضاء) وبأيدى أثمة صلبتموه وقتلتموه (هنا الحرية والمسئولية) (أع ٢ : ٢٣) .

٢ ــ تمموا خلاصكم بخوف ورعدة (الحرية والمسئولية) لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرة . (القضاء) (فى ٢ : ١٢و ١٣) .

٣ ــ تأكد بولس من الرؤيا التى رآها أنه والمسافرين الذين معه سيصلون بسلام إلى رومية دون أى خسارة إلا السفينة ؛ وقد أكد بولس هذا لهم (القضاء) ، ولكنه طلب مع ذلك منهم أن يأكلوا لأن هذا نافع لنجاتهم .. وأن يبقى النوتية معهم وإلا فلن ينجو أحد ! (المسئولية) (أع ٢٧ : ٢٠ ــ ٣٧) .

٤ ــ وعد الله بمد حياة حزقيا الملك ١٥ سنة وهذا يتضمن شفاءه .. ولابد أن يتم (القضاء) ولكن إشعياء رأى لزاما على حزقيا أن يضع قرص تين على الدبل لكى يحصل على الشفاء (المسئولية) (إش ٣٨) .

وغير هذا كثير .. فقد أوردت هذه على سبيل المثال بدون تعليق فهذا سيأتى فى الفصول المقبلة . ومع أن الغموض لا يزول تماما إلا حين نعرف كما عرفنا .. فإنى لا أود أن أترك هذا الموضوع فى تمام غموضه .. فأقول بعض الكلمات التى ترينا معقولية هذا الرأى :

(أ) إن قضاء الله ليس الحظ الأعمى ، الذى يرغمنا إرغاماً على شيء من الأشياء .. فإن الكتاب يعلم صريحاً أننا أحرار .. كما أن تأثير الله علينا ، ليس إلغاء لحريتنا ؛ وقبولنا وتنفيذنا قضاء الله ، ليس معناه الخضوع المسلوب الإرادة .. بالعكس نحن دائما نعمل إرادتنا فإننا نجهل قضاء الله ..

(ب) إن ضمن قضاء الله الطريق الذى يتم به هذا القضاء .. وهذا الطريق بين أيدينا ؛ هو حريتنا لنعمل ، ومسئوليتنا .. إن قضاء الله باعث على حريتنا وهذا ما يوقفنا كمسئولين .. فقد كان ضمن قضاء الله أن نكون أحراراً ..

(ج) حريتنا داخل الحرية الإلهية ، لأن حريتنا داخل قضاء الله .. نحن أحرار ، ولكن ليس بمعنى أن حريتنا قيدت قضاء الله .. بل نحن أحرار لأن قضاء الله جعلنا كذلك .. الحرية بدون

(*) انظر التذييل فى آخر هذ الفصل .

مسئولية هى حرية الله وحده .. نحن أحرار مسئولون ، منتظر منا رد صدى عمل إلهى فينا ، هو قضاء الله ...

(د) لسنا مسيرين بسبب قضاء الله ، بالحرى نحن مخيرون بسببه ، فهو يحتوى على حريتنا التى تجرى بواسطة نفاذ القضاء . وهذا ما يجعلنا مسئولين أن نرد صدى عمل الله فينا كأحرار .

(هـ) نحن نجهل قضاء الله ، ولكننا نعرف مسئوليتنا .. فلنتمم هذه المسئولية بلا عصيان فنجد أنفسنا نجرى قضاء الله الصالح لنفوسنا ..

تذييل

ورد فيما مضى اعتراض البعض بأن الجمع بين قضاء الله ومسئولية الإنسان فيه تناقض . ويحسن بنا أن نلقى نظرة على هذا الأمر من وجهة نظر بشرية منطقية بحتة .

والحديث عن التناقض يسميه المنطق « تقابل » ، ولكى يكون الحديث صحيحا من وجهة نظر المنطق ، لنفهم ما هو التقابل . فهناك نوعان من التقابل هما : تقابل النقيض وتقابل الضد :

١ ــ تقابل النقيض (الإيجاب والسلب معا .. أى اللفظ ونفسه منفيا بأداة نفى) وهذا مستحيل كأن تقول : قضى ولم يقض فى آن واحد أو الإنسان حر وغير حر فى آن واحد . وهذا غير ممكن لكن حين نذكر أن الله قد قضى وفى نفس الوقت الإنسان مسئول ؛ فهذا ليس نقيضاً أبدا .

وحين نقول : يتحدث الكتاب عن أحدهما بدون ذكر للآخر كأنه غير موجود ، فهذا الصمت لا يعنى النفى . لكن الصمت يعنى غرضاً إلهياً هو : حين يتكلم الكتاب عن القضاء الإلهى ، يريد أن يلقى ضوءاً على النعمة الإلهية ؛ مصدر قوتنا ، ورجائنا ، التى بدونها لا يوجد مناص للإنسان ؛ وحين يتكلم عن الإرادة والحرية البشرية ، يقصد : تعميق شعور الإنسان بمسئوليته ؛ لكى لا يهمل واجبه فكلمة (كأن) هنا لا تعنى « لا » لغة أو منطقا .

٢ ــ وهناك تقابل الضد (طرفان متضادان بينهما درجات متفاوتة) مثل الأبيض والأسود لا يمكن أن يتصف بهما شيء واحد ولكن يوجد بينهما الرمادى . وكذلك يوجد الفاتر بين البارد والحار .

كذلك لا تنطبق هذه العلاقة على العلاقة بين قضاء الله ، ومسئولية الإنسان . لأن قضاء الله كامل ، ولأن هذا القضاء حتم مسئولية الإنسان كاملة داخله .

وكما رأينا عدم صحة تطبيق تقابل النقيض ، كذلك أريد أن نثبت عدم صحة تقابل الضد ، لأنه لا توجد درجات من المسئولية على الإنسان ، ولا توجد درجات من الحتمية فى قضاء الله .

٣ ــ كذلك توجد علاقة منطقية أخرى لا تنطبق على قضاء الله ومسئولية الإنسان ، هى علاقة التقاطع ، وهى علاقة بين كليين مشتركين فى بعض الصفات ، ومختلفين فى أخرى مثل العلاقة بين البترول والملابس : فليس كل البترول ملابس (فبعضه فقط ملابس ما يسمى البوليستر) وليس كل الملابس بترول (لأنه توجد ملابس أخرى غير بترولية) . وهكذا اشترك البترول مع الملابس فى بعض الصفات ، ولكن كلا منهما له صفات أخرى لا توجد فى الآخر .

وهذه العلاقة لا تنطبق على قضاء الله ومسئولية الإنسان لأنه وإن كان صحيحاً أن قضاء الله أشمل من دائرة مسئولية الإنسان ولكن لا يمكن أن يكون ضمن تصرفات الإنسان وما يختص به ؛

خارجاً من دائرة قضاء الله .

٤ ــ بقيت العلاقة الأخيرة التى تصدق على قضاء الله ومسئولية الإنسان ، وهى علاقة الاشتمال ، وهى تقوم بين كل ، وآخر أقل منه فى ما يصدق عليه ، لكن الأصغر كل أفراده أو كل ما ينطبق عليه ينطبق على الأكبر ، فنقول : إن الأكبر يشتمل على الأصغر : مثل العلاقة بين المعرفة والجغرافيا ، فالمعرفة تشتمل على الجغرافيا ، ولكن المعرفة تشمل على أكثر منها .

إن قضاء الله أعم من مسئولية الإنسان ، ويحتويها وليس العكس . وكون مسئولية الإنسان فى داخل قضاء الله ، لا يعنى أن الإنسان غير مسئول ، بالعكس فمن ضمن قضاء الله (وليس بالرغم من قضاء الله) حرية الإنسان ومسئوليته لقد خلقه الله كذلك وأراد له أن يعيش هكذا : حراً مسئولا .

وحين نقول (الإنسان حر فى ظل القانون) أو (الإنسان حر فى دائرة القانون) نعنى مبدأ كهذا : مبدأ الاشتمال . ونعنى أننا لم نحد القانون ولم نحد من حرية الإنسان : ورغم أن القانون يضبط تصرفات الناس ، لكنه يكفل حريتهم .

يتصرف الناس بكامل حريتهم ، ويشعرون بذلك ، ويقدمون على الخطأ رغم أننا نؤمن بأن كل هذا مخطط من قضاء الله . ويتفق الناس بعضهم مع بعض ، ولكن هذا لا يعنى أن شخصية أحدهم قد محت الآخرين لمجرد الاتفاق .

لذا فإن قلنا قضى الله ، وفى نفس الوقت ؛ الإنسان مسئول ، نقول الصواب ، لأن قضاء الله ؛ يشتمل على حرية الإنسان ، ولا تناقض بينهما قط .

وحين أقول لم يذكر الكتاب العلاقة بين قضاء الله ومسئولية الإنسان أو بين الحبل المقطوع ، أقصد لا يوجد النص الذى يوضحه ، ولا يوجد النص الذى يفسر هذه العلاقة . فلنقبل قضاء الله باعطائه المجد ، سلطاناً على كل الكون وعلينا ، وفى نفس الوقت ، لنوقن بأن قضائه قد فتح باب الرجاء أمامنا ، فلولا قضاؤه ؛ لكان الإنسان فى حكم الضياع . ولكن القضاء أكد للإنسان أنه فى رعاية إله حكيم عظيم قدير .

ولنقبل فكرة مسئوليتنا لكى لا نتهاون ، أو نتوا كل ، أو نفشل أو نكسل . ولنستمع إلى أمر الله مطيعين . أقول (كأن) الأمر متوقف علينا ، وذلك لأن الله قضى أننا مسئولون .

(أولا)

أمام الواقع

لا يستطيع أحد أن يغفل النظر أمام الواقع .. وما أتعس الواقع فإنه يظهر وجود الشر .. الخطية ، والألم .. متاعب ومتاعب . ما مصدر هذه هل ننسبها إلى الإنسان ، أم إلى الله !؟ هل يجوز أن نقول إن الله قد قضى بوجود المآسى التى نراها بالعيان ، والفساد الذى يبغضه الله نفسه ؟ كيف تدخل كل هذه إلى عالم خلقه الله ، وسر به يوم خلقه ؟ وما مآل الشر والأشرار ؟ وكيف يقف الله من كل هذه الأمور إلها وحاكما ؟!! الجواب على هذه الأسئلة يقع تحت هذه المواضيع :

ـ السماح بالشر .

ـ العناية وأخطاء البشر .

ـ لماذا أدان ؟

فدعنا نتناول كل موضوع على حدة

السماح بالشر

« هل تحدث بلية فى مدينة والرب لم يصنعها ؟ » (عا ٣ : ٦) .

« ويل لأشور قضيب غضبى ! » (إش ١٠ : ٥) .

« أنا الرب قد أضللت ذلك النبى ، وأمد يدى عليه وأبيده من وسط شعبى » . (حز ١٤ : ٩) .

« لأن الله غير مجرب بالشرور وهو لا يجرب أحداً » (يع ١ : ١٣) .

ما مصدر الشر ؟ الشر على كافة أنواعه : الخطية والألم ؟ هذا سؤال من أقدم الأسئلة ومن أعوصها ..

هل هو الله أم غير الله .. وهل الله دخل فى دخول الشر ؟ هل كان هذا فى قضائه ؟

١ ــ ممن عالجوا هذا السؤال الزردشتيون (الفارسيون) وقد قال هؤلاء بإلهين : أهورا (ويدعوه البعض « أرمزد ») ثم أهريمان ــ الأول إله الخير ، والثانى إله الشر ... وسر اتخاذهم هو الفكر بأن أهورا إله الخير الطاهر القدوس لا يمكن أن يكون مبدع الشر ، بل لا علاقة له بالشر أصلا .. وقالوا لابد أن هناك إلها آخر مساو لإله الخير ، طبيعته شريرة ، يقصد الشر لنفس الشر .. وتسجل ديانتهم ذلك الصراع بين إله الخير وإله الشر ويعبدون كليهما[1] ... ويكفينا هنا أن نذكر أن مصدر الشر بالنسبة لزروستية هو إله الشر ...

ولكننا لا نؤمن بثنائية زردشت .. نؤمن بإله واحد ، ورأى الزردشتيين لا يفيدنا قط ...

٢ ــ قال آخرون وهم الغنوسيون[2] : إن المادة أصل الشر والعالم مادة فهو غارق فى الشر . وقالوا بأن خالق المادة هو خالق الشر . لهذا استبعدوا أن يكون الله هو خالق الكون المادى هذا .. وعلموا تعليماً سمى بالنشوء الالهى ؛ قالوا فيه : إن الله قد خلق طغمة من الملائكة ــ فى زعمهم ــ

---

(١) انظر IsbE ص ٢٣٨٣

(٢) نسبة إلى الكلمة اليونانية التى منها اشتق إسمهم جنسكو ومعناها أدرى أو أعرف فسموا الأدريون .. وسمتهم إحدى المجلات المصرية العارفون بالله ومع التخصيص غير الطبيعى الذى حملته المجلة لهذا الاسم فهو يؤدى جزءاً من المعنى .. وهم جماعة من الهراطقة الذين نسبوا أنفسهم إلى المسيحية منذ العصر الرسولى وقاومهم الرسل خاصة بولس الرسول ويوحنا الرسول .

أنهم أقل روحانية من الله ، وأقرب إلى المادية قليلا .. وهذه الطغمة من الملائكة خلقت أخرى أقرب إلى المادية وهذه خلقت ثالثة أقرب ... وهكذا حتى أن الأخيرة خلقت الكلمة (لوجوس) الذى هو المسيح ، وقد تجسد فأخذ جسداً ... هذا هو أقرب الجميع إلى المادية ؛ وهو الذى خلق الكون ... وهو طبعا فى نظرهم أقل قداسة من الله . وهو علة الشر الموجود فى العالم[1] .. !!

وكما رفضنا الرأى الأول لأنه وقع فى الثنائية ، نرفض الثانى لأنه خلط المسيحية بالفلسفة الوثنية السائدة فى عصرهم .. وقد رد على ضلالتهم الرسل : (كو ١ و ٢ ، ١ يو ، ٢ يو) .

٣ ــ وجماعة أخرى هم طائفة يسمون أنفسهم السبتيون المجيئيون ، قالوا : لا دخل لله قط بالشر [٢] .. وأن أصل الشر ومبدىء الشر هو ابليس أو الشيطان ويسمونه لوسيفر[٣] ...

ومع أنه لا بأس من قصدهم أن يبعدوا من الله ابتكار الشر ، .. ولكنهم لم ينصفوا الحق فى جعلهم الشر خارجا عن دائرة سلطان الله وقضائه ، وكأن الله لا دخل له فى عالم قد خلقه .. ورغم أن هؤلاء حاولوا أن يأتوا بحل لما فشلت فيه تنائية زردشت إلا أنهم وقعوا فى تأليه الشيطان .

٤ ــ ويقول جماعة يدعون أنفسهم العصريين : إنه لا يوجد شيء اسمه إبليس ، أو الشيطان على الإطلاق ، .. ثم قالوا إن الإنسان أراد أن يتخلص من مسئولية الشر ؛ فابتكر لنفسه كائنا سماه إبليس ؛ ألقى عليه مسئولية شروره فأصل الشر والمسئول عن الشر هم البشر .. ويطبقون على الإنسان ما يقال عن ابليس ، بلا حاجة إلى مجرب يوصى بالشر إلى الإنسان .. وقالوا : إنه توجد فينا إرادة أن نفعل الحسنى ، ولكننا نرى فى أجسادنا ناموساً آخر يحارب ناموس ذهننا ويسبينا إلى ناموس الخطية والموت وهذا يمكن أن يحدث بلا شيطان .. من الإنسان الحر الإرادة[٤] ..

وفيما عدا إنكارهم لروح ضل وهو مبتكر الخطية ، يسعى لإضلال غيره ، فكل ما يقولونه طيب .

ومع أن المعتدلين منهم يدافعون عن أن الألم لا يمكن أن يحدث بلا سماح من الله ، دون أن نحسب أن الله قد حددته هذه الآلام ــ فإن أناساً منهم قالوا إن الكون آلة لا يحدث منها إلا الضرر ، والضرر آت بالرغم منا ؛ ومن أى شيء آخر . وأنكر هؤلاء وجود الله ؛ بزعم أنه لو وجد لوقف فى طريق الألم[*] !

٥ ــ وغير هؤلاء فرض وجود الله لكنه كإله لا دخل له بالعالم الذى خلقه ، فهو فى نظرهم ليس إله العناية ، ولا دخل له فى إدارة الكون ، ولا دخل له فى ما يحدث فيه . قد خلق عالماً وتركه كما شاءت له الصدفة .

---

(١) انظر رد بولس الرسول على هرطقاتهم فى رسالته إلى أهل كولوسى .

(٢) الدرس الثالث صوت النبوة .

(٣) الدرس السابق وانظر أيضا كتابهم الأساسى « الكتاب يتكلم » ص ٤٤ ــ ٤٦ .

4) Jorgia Harknees , Conflicts in Religious Thoughts Ch 10 .

★ J . Harkness , Conflicts in R . Thoughts . Ch 9 .

٦ ــ أما الطرف النقيض ، فهو جماعة القدريين ، الذين يعلمون أن الله هو السيد المتسلط ، وأن كل ما يحدث فهو من الله : الله نفس الفاعل .. كل ما يأتى على أحد من خسارة ، من ضرر ، كل من يقع فى خطية ، أو يستعبد لعادة ، فهذا من يد الله ، والإنسان مسير بقضاء الله الآمر .. يقولون : إن الشر بكافة أنواعه من عمل الله .. وينصحون بالاعتراف بهذا ، والاستسلام له ، لأنه إن لم ترض « فأمر الله نافذ » !

فيما عدا الأفكار التى قصدنا أن نستثنيها لوثنيتها ، أو لاختلاطها بالوثنية ، نجد أن الأقوال التى سبق ذكرها تتلخص فى أمرين :

١ ــ الأول يقول : إن للإنسان (وأضف إليه الشيطان) حرية إرادة ، منها أتى الشر والألم ، ولا دخل لله بهما ..

٢ ــ والثانى يقول : إن الله مالك كل شيء ، الحاكم المطلق فى الكون ، مسير كل شيء ــ هو القاضى والآمر ، ومسير الشر على كافة أنواعه ...

ماذا يقول الكتاب المقدس ؟ وما يقوله الكتاب المقدس هو ما وصلنا إليه فى الفصل السابق ويمكن وضعه على هذا النحو تحت موضوعنا هذا : إن الله قضى بوجود الشر ، وقضاؤه هذا قضاء السماح للكائنات الأخرى التى تجريه باختيارها وحريتها فهى إذاً مسئولة .

ولنر هذا فيما يختص بناحيتى الشر :

(أ) الألم ..

(ب) الخطية ..

أولاً : لنبدأ بالألم ..

ما مصدر الألم ؟ ترد بالكتاب المقدس آيات شبيهة بهذه « هل تحدث بلية فى مدينة والرب لم يصنعها ؟! » (عا ٣ : ٦) ثم « أنا الرب وليس آخر مصدر النور ، وخالق الظلمة ، صانع السلام ، وخالق الشر أنا الرب صانع كل هذه (إش ٤٥ : ٦ و ٧) ثم « لأن شراً قد نزل من عند الرب على أورشليم » (ى ١ : ١٢) وغير ذلك أيضا كثير ...

هل تعنى هذه الآيات أن الله مصدر آلام الناس كما يقول الجبريون ؟

ويرد فى الكتاب المقدس أيضا « أعاقب ثمر عظمة ملك أشور ، وفخر رفعة عينيه ، لأنه قال : بقدرة يدى صنعت ، وبحكمتى لأنى فهيم ، ونقلت تخوم شعوب ، ونهبت ذخائرهم ، وحططت الملوك كبطل ، فأصابت يدى ثروة الشعوب كعش ، وكما يجمع بيض مهجور جمعت أنا كل الأرض ، ولم يكن مرفرف جناح ، ولا فاتح فم ، ولا مصفصف » . (إش ١٠ : ١٢ ــ ١٤) فملك أشور يرى أنه هو سبب البلوى على هذه الشعوب : ثم يذكر الكتاب أن آلام أيوب ــ فى ممتلكاته ، وفى أولاده ، وفى جسده ــ بأى طريق حدثت ؟ ــ كلها كانت بيد الشيطان (أى ١ و ٢) وكذا يذكر أن أنواعاً كثيرة من الآلام التى حلت بالمرضى فى العهد الجديد قد سببتها

الأرواح الشريرة : أذكر منها على سبيل المثل : الأصم الأعقد الذى إذ أخرج المسيح الروح منه ؛ تكلم وسمع (مر ٧ : ٢١ — ٣٥) والمرأة المنحنية التى بها روح ضعف فشفاها يسوع فى يوم سبت ، قال عنها ، إن الشيطان ربطها ١٨ سنة (لو ١٣ : ١١ — ١٦) .

ويقول بولس الرسول للتسالونيكيين « أردنا أن نأتى إليكم — أنا بولس — مرة ومرتين ، وإنما عاقنا الشيطان » (تس ٢ : ٨) وتوضح القرينة أنه كان يتكلم عن طرده إلى الأبد من تسالونيكى ، مع أخذ كفالة من ياسون تضمن ذلك (أع ١٧ : ١ — ١٠) والشوكة فى جسد بولس الرسول يسميها : « ملاك الشيطان » (٢ كو ١٢ : ٧) .

فيظهر من هذه أن بعض حوادث الألم ينسبها الكتاب المقدس إلى الناس ، وبعض الحوادث التى عملها الناس ينسبها إلى الشيطان ، وحوادث ينسبها إلى الشيطان رأساً . والوبأ الذى حدث بسبب احصاء الشعب ينسبه دواد إلى نفسه (٢ صم ٢٤ : ١٠ — ١٤) ، وفى مكان آخر ينسب إلى الشيطان كمهيج لداود (٢ ى ٢١ : ١) . وفى مكان آخر ينسب ذلك إلى الله (٢ صم ٢٤ : ١) .

من محرك الألم ؟ الله أم هذه الكائنات ؟ فى بعض الأماكن من الكتاب المقدس ينظر إلى ذلك من الوجهة الأولى ، وينظر إليها فى أماكن أخرى من الوجهة الأخرى .. نجد هذا المفتاح فى الحوادث التى جمعت كلتا النظرتين مثل آلام أيوب ، ومثل الوبأ على إسرائيل .. والأمر الواضح فيها بكل بساطة أن الكائنات تقدمت لإجراء هذه الشرور حرة مختارة . لتعمل ما سمح لها الله أن تعمله .. فقضاء الله فى هذه الأمور قضاء السماح ، وقد نفذ عن طريق الذين أجروه أحراراً مختارين ...

لندقق النظر فى بعض الآيات الكتابية نجد إثباتاً لهذا القول :

قال الرب « ويل لأشور قضيب غضبى » (إش ١٠ : ٥) ، لماذا الويل لهم ؟ هذا موضوع آخر (لماذا أدان) سيأتى عنه حديث فيما بعد .. كيف هم قضيب غضب الله ؟ هذا أيضا موضوع آخر (العناية وأخطاء البشر) . ولكن الملاحظة التى فى مكانها الآن هى : مع أنهم قضيب غضب الرب لكنهم فعلوا كل ما فعلوا بحريتهم باختيارهم وهذا ما يحسون به وما يشهدون به عن أنفسهم . كما يرد فى الكلمات التالية (إش ١٠ : ١٢ — ١٤) التى فيها ينسبون كل ما فعلوا إلى قدرتهم وحكمتهم وإرادتهم ... فقد قضى الله أن يسمح لأشور بأن يجرى هذا البلاء على الأمم ..

هذا عين ما يقصد بكلمة « خالق الشر » (إش ٤٥ : ٦ و ٧) . تأمل فرق المعنى بين كلمتى « مصور » النور ، وكلمتى « خالق » الظلمة .. واضح أن خلق الظلمة ليس العمل الذى يمكن أن يفهم من كلمة مصور .. فالنور يحتاج فعلا إلى « عمل » إلهى لإجرائه ولكن وجود الظلمة ملازم للنور فصنع النور يحمل فى نفسه وجود ظله وعكسه — الظلمة .. فقضاء الله هنا بالظلمة من قبيل السماح .. ونفس الفرق بين كلمتى « مصور » و « خالق » يستفاد من الكلمتين « صانع » السلام ، و « خالق » الشر فإن السلام قد أجراه الرب فعلا ؛ كما يقول : صانع ، أما الشر ، والألم فهو الظل القاتم الذى انعكس من وجود السلام .. أتى بفعل الكائنات الحرة والرب سمح به .

وبنفس المعنى نفهم القول ، هل تحدث بلية فى مدينة والرب يصنعها ؟! » (عا ٣ : ٦) . إن الكتاب المقدس يسوى فى القيمة : أفعال السماح الإلهى ؛ بأفعال الإرادة الإلهية ؛ من حيث تأكيد حدوثها .. وهذه الآية تعنى هذا المعنى ، والمعنى المقصود المستفاد من القرينة فى كل الفصل (عا ٣ : ٣ ــ ٨) الذى فى وسطه هذه الآية ، هو تأكيد حدوث قضاء الله وليس التنبير على المسرة بها .. فهو يذكر مجموعة من الحوادث مختلفة الأنواع ، تحوى جميعها نتيجة محتومة لسبب مكين : فسير اثنين ، لابد أن يكون نتيجة وعد واتفاق .. زمجرة الأسد نتيجة أكيدة لوجود فريسة .. زئير شبل الأسد من خدره ، معناه قد خطف .. سقوط عصفور فى فخ ، لابد يعنى أن أحداً نصب له هذا الشرك .. ارتفاع فخ عن الأرض معناه أنه قد أمسك صيداً .. ضرب بوق فى مدينة لابد أن يحدث رعدة فى الشعب .. ومعنى هذه : إن قضى الرب ، إن سمح بحدوث بلية فى مدينة فلا بد أن تحدث .. إلى أن يصل إلى النتيجة التى يرمى إليها النبى .. (ومع أنها خارجة عن موضوعنا فلا بأس من ذكرها لأنها توضح القرينة أكثر ..) « إن السيد الرب لا يصنع أمراً ، إلا وهو يعلن لعبيده الأنبياء . الأسد قد زمجر فمن لا يخاف .. السيد الرب قد تكلم فمن لا يتنبأ ؟ » فهو يقول للذين رفضوا نبوته كمأجور .. أنا لست مأجورا للنبوة .. إننى أتكلم لأن الرب قد تكلم ، هذه نتيجة حتمية لتلك ..

كان سماح الله بحدوث البلية منذ الأزل .. فأصبح ذلك الحدوث أمراً أكيداً . لكن هل بيد الله ؟ هل بسرور الله ؟ كلا .. بيد الذين سمح لهم ، وإرادة الذين سمح لهم .. ضمن قضاء الله أن يكونوا أحراراً لأنه قضاء السماح .. ولأن الله قصد أن تكون هذه الكائنات حرة .. قد ترك لها الله الحبل على الغارب ــ كما يقولون ــ منذ الأزل لكى تعمل ما سمح الله به . فالألم ينسب إلى الله كمن سمح به ، وسماحه جعله أكيداً .. وينسب إلى المخلوقات الحرة التى نفذته بمحض اختيارها وحريتها ..

خذ لذلك بعض الأمثلة :

الظلم الواقع من فرد على فرد ، أو من فرد على جماعة ، أو من جماعة على فرد ــ أو الاحتلال الواقع من جماعة على جماعة .. هذه جميعها من يد البشر وإرادة البشر وهم مسئولون عنها .. سمح الله منذ الأزل لهم أن يجروا هذه الأفعال وسماحه هذا قضاء أكيد بحدوثها .

الحرب التى تنشأ من أمة على أمة ... تدمر بلاداً ، وتزهق أرواحاً .. هذه من عمل الإنسان الحر وباختياره نتيجة للبغضة ، والطمع ، نتيجة للكبرياء ، والاعتداد بالذات .. نتيجة لأمور فى نفس ذلك الإنسان الذى شنها وهو حر مختار .. لكن هذا لم يحدث والله غافل عنه .. ولم تكن بعيدة عن أحكامه ، ولم يتجاهلها الله ، أو كأنها كانت صدفة خارجة عن سلطان الله .. بل سمح الله بها ، فشنها الذين سمح لهم بها وهم أحرار ..

المرض الذى يصيب المرء ، آتٍ من جراثيم ــ نشرها المرضى وقد لا يعلمون بذلك .. ولكن أعمالهم كانت أعمال الحر المختار ، وعرض آخرون أنفسهم لها ــ وقد لا يدرون بذلك ــ ولكن تعريضهم أنفسهم لها تحت مسئوليتهم هم لأنهم أحرار فى ذلك .. وفى بلدة شاهدت بنفسى أربطة

كانت على الجروح والدمامل ، فأمر الطبيب بإلقائها فى القناة التى يشرب منها معظم أهل تلك البلدة وترش منها كل الشوارع .. وكان قصد ذلك الطبيب عدوى الناس ليربح مالا وفيراً !! فانتشار المرض تحت مسئولية هذا الطبيب عديم الضمير ؟ وبعض الأمراض تنشرها الحرب فهذه تحت مسئولية المحاربين .. ولكن كل هذه قضى الله بها منذ الأزل بسماحه لها بالحدوث ..

النقص الذى يولد به إنسان ما ، يدخل تحت مسئولية والديه . إن سؤال التلاميذ للمسيح « من أخطأ هذا أم أبواه حتى ولد أعمى ؟ » فيه شيء كثير من الحق بالنسبة لغير هذه الحادثة المستثناه ، التى قصد منها أن تظهر أعمال الله فيه (يو ٩ : ١ — ٣) . لقد شاهد كل مشاهد أن من يولدون بنقص فى الغالب يكون هذا نتيجة خطية من الأبوين ، حتى جرى القول الذى قاله التلاميذ قبل ذلك مجرى المثل — والمثل الذى انتشر فى وقت حزقيال النبى « الآباء أكلوا الحصرم وأسنان الأبناء ضرست » (حز ١٨ : ٢) فيه بعض الحق .. الخطأ الذى ارتكبه إسرائيل أنهم نسبوا إلى الله الظلم فى إحلال العقاب الذى يستحقه الآباء على الأبناء ، وقد قاوم الله هذه الفكرة فى كل ذلك الأصحاح . ولكن الحق فى ذلك المثل أمر يتعلق بالوراثة ... اذهب إلى المتحف الصحى ؛ تجد ما يكسر قلبك : الآباء أخطأوا فأصيبوا بأمراض خبيثة ، أنتجت أولاداً مشوهين !! لكن مع كون هذا تحت إرادة ومسئولية الإنسان ، فهو قد حدث عن سماح من الله .

والعاهات التى تحدث بأجسام أناس مسئولة عمن أحدثها ، سواء أحدثها المرء بنفسه أو أحدثها به آخرون .. وهذا مع دخوله تحت مسئولية من عمله ، فهو من الوجهة الأخرى بسماح من الله .

حتى الحوادث غير المقصودة ، تجد من تكون تحت مسئوليته : أب يعاقب ابنه بعصا ، انحنى الولد ، فأصابت العصا إحدى عينيه — وانكسر قلب الأب — هذا لم يكن فى حسبانه ، أو فى نيته . ولكن هذا لا يخليه من المسئولية .. أم تركت ابنها على الشباك مدة لحظات ؛ لترد على التليفون الذى يدق جرسه ، فرجعت ووجدت فلذة كبدها جثة هامدة فى الشارع ! لا توجد أم تريد نهاية كهذه لابنها ! ولكن هذا لا يعفيها من المسئولية ، لأنها كان يمكن أن تعمل شيئا آخر .. مسافر على جواده وسط غابة أطلق عليه شخص صديق له رصاصة أردته قتيلا ، ولما ذهب إليه تحسر . إنه لا يقصده هو ، بل يقصد آخر . ولكن هذا لا يمكن أن تبرئه أنت أيها القارىء فى نور الحق المسيحى على أى حال ... إن أمر سماح الله واضح جداً هنا فاتركه الآن لكى أنبر على مسئولية الإنسان بعض الشيء .. فلو أنه لم تكن الإرادة البشرية أن يحدث ما حدث لكن كان فى وسع الإنسان أن يعمل شيئا آخر يتفادى به ما حدث .. سمح الله بهذا لأن الإنسان أراد أن يعمل أمراً بلا ترو .

وأحيانا نرى الألم يحل بمن لا يستحقه ويتطرق إلى بالنا أن نسأل : أليس (فلان) أحق أن يتألم هذا الألم ؟ فلماذا أعطى لغيره الذى لا ذنب له ، الذى لا يستحق ؟! أما لماذا يتألم هذا دون ذاك — أو هذا بدل ذاك — أو هذا مع ذاك — فهذا يرجع إلى حكمة إلهية لا نعرفها ، ما لم يعلنها الله لنا . وقد يعلنها وقد يسر أن لا يعلنها .. هو الذى سمح بأن يحدث هذا الأمر . وهو الذى يستطيع أن يفهمنا هذه الألغاز .. وما أكثر العجائب التى لا ندركها . آه لو فهمنا رأى حكمة

الله . ولكن قصد الله لحكمة منه أن تكون أشياء كثيرة بعيدة عن مداركنا .

إن أن هذا هو الأمر الثابت فى كل حالة : إن الألم الذى قضى الله بالسماح به ، يحدث بأيدى كائنات حرة الإرادة مسئولة ..

ثانيا : والآن لنأت إلى الناحية الأخرى من هذا الموضوع وهى :

ما مصدر الخطية ؟!

وهنا أيضا أريد أن نرجع إلى ما جاء فى الكتاب :

« فقال الرب : من يغوى آخاب فيصعد ويسقط فى راموت جلعاد ؟! فقال هذا هكذا ، وقال ذاك هكذا ، ثم خرج الروح ووقف أمام الرب وقال : أنا أغويه . وقال له الرب بماذا ؟ فقال أخرج وأكون روح كذب فى أفواه جميع أنبيائه . فقال إنك تغويه وتقتدر . فاخرج وافعل هكذا . والآن هوذا قد جعل الرب روح كذب فى أفواه جميع أنبيائك هؤلاء . والرب تكلم عليك بشر » (١ مل ٢٢ : ٢٠ ــ ٢٣) . الروح المذكور هنا يشوبه الغموض ــ من هو ؟ وقد اختلف فيه المفسرون ... وهو لا يمس جوهر بحثنا الآن كثيراً ، لذا دعنا من التفكير فيه . أما ما يجب وضعه أمامنا للدرس الآن هو : أن الرب يبحث عن غواية لآخاب . ويقول ميخا : إن « الرب » هو الجاعل روح الكذب فى أفواه الأنبياء .

ثم تأمل فصلا آخر شبيها بهذا : « فاذا ضل النبى وتكلم كلاماً ، فأنا الرب قد أضللت ذلك النبى . وسأمد يدى عليه وأبيده من وسط شعبى ! » (حز ١٤ : ٩) .

ثم أيضا « لأن الله وضع فى قلوبهم أن يصنعوا رأيه ، وأن يصنعوا رأياً واحداً ، ويعطوا الوحش ملكهم . حتى تكمل أقوال الله » (رؤ ١٧ : ١٧) . وواضح أن تمليك الوحش خطية . فهل هى من عند الرب .. هذا ما تقوله الكلمات على بساطتها .

والآن يأتى هذا السؤال : هل الله صانع الخطية ؟ الآمر بها ؟ هل ــ كما يقول الجبريون ــ إن الله يغوى من انغوى ؟!

توجد فى الكتاب المقدس نغمة أخرى « لا يقل أحد ، إذا جرب ، إنى أجرب من قبل الله : لأن الله غير مجرب بالشرور ، وهو لا يجرب أحداً . ولكن كل واحد يجرب إذا انجذب وانخدع من شهوته ، ثم الشهوة إذا حبلت تلد خطية ، والخطية إذا كملت تنتج موتاً » (يع ١ : ١٣ ــ ١٥) . وأيضا « ليخبروا أن الرب مستقيم . صخرتى . لا ظلم فيه » (مز ٩٢ : ١٥) . ثم « انظر هذا وجدت فقط : أن الله صنع الإنسان مستقيماً ، أما هم فطلبوا اختراعات كثيرة » (جا ٧ : ٢٩) . ثم « الله نور وليس فيه ظلمة البتة » (١ يو ١ : ٥) . « إن علمتم أنه بار هو ؛ فاعلموا أن كل من يصنع البر مولود منه » (١ يو ٢ : ٢٩) .

كل هذه وغيرها وغيرها تنفى أن الخطية عند الله فضلا عن العقيدة الراسخة الكتابية بأن الله قدوس : ليس فيه خطية قط ، لا يطلب الخطية ، أعطى ناموساً ينهى عن الخطية ــ ناموسه : ناموس

القداسة ، ويتطلب منا أن نكون قديسين ، كما هو قدوس .. بل بلغ من بغضه للخطية ؛ أن رتبت نعمته أن ينزع الخطية منا — إذ بذل ابنه الوحيد على الصليب .. ما أعظم آلام الله من الخطية ..

هل هذا تناقض فى طبيعة الله ؟ أم هذا تناقض فى الكتاب ؟ هل يجوز أن نلوى جزءاً من الكتاب لكى يوافق الآخر ؟ الجواب لا يجوز هذا ولا ذاك ... إذاً ما معنى أنه فى مكان يظهر كأن الله مبدع الخطية ، وفى آخر كأنه لا شأن له بها ؟ إننا نحتاج إلى مفتاح من الكتاب المقدس . وقد ورد هذا المفتاح فى آيات تظهر أن الله قضى بدخول الخطية قضاء السماح .. وقد نفذها أجنادها المسموح لهم ، بحريتهم واختيارهم .

يقول الكتاب : « لأنهم لم يقبلوا محبة الحق حتى يخلصوا . ولأجل هذا ، سيرسل إليهم الله عمل الضلال حتى يصدقوا الكذب لكى يدان جميع الذين لم يصدقوا الحق ، بل سروا بالاثم » (٢ تس ٢ : ١٠ و ١١) ثم « لأنهم لما عرفوا الله ، لم يمجدوه أو يشكروه كإله ، بل حمقوا فى أفكارهم ، وأظلم قلبهم الغبى .. لذلك أسلمهم الله أيضا فى شهوات قلوبهم إلى النجاسة ؛ لإهانة أجسادهم بين ذواتهم .. وكما لم يستحسنوا أن يبقوا الله فى قلوبهم ، أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض ، ليفعلوا ما لا يليق .. الذين إذا عرفوا حكم الله أن الذين يعملون مثل هذه يستوجبون الموت ، لا يفعلوها فقط ، بل أيضاً يسرون بالذين يعملون » (رو ١ : ٢١ و ٢٤ و ٢٨ و ٣٢) .

معنى كل ما سبق : أن الناس قد رفضوا تأثيرات نعمة الله عليهم لأجل خيرهم الروحى . فقال الله : آمين ... سأتركهم لأنفسهم ، لشرورهم ، لبطلهم ، لهوانهم ، لجهلهم .. وترك الرب لهم هكذا ، هو تسليم لهم لهذه الشرور ، ولهذه القساوة ، وهو ما عبر عنه الرسول بالقول « سيرسل إليهم .. » ، « أسلمهم » . ولو راجعت هذه الفصول مرة ثانية ، لوجدت أن ما يسلمهم الله إليه هو ذات الطريق الذى اختاروه ، وعكس ما أراد الله لهم : رفضوا « محبة الحق » سيرسل إليهم « عمل الضلال » — يصدقوا « الكذب » ولم يصدقوا « الحق » بل سروا « بالاثم » — لم يمجدوا الله بل حمقوا فى أفكارهم ، أسلمهم لشهوات قلوبهم إلى النجاسة ، لإهانة أجسادهم — (ولو عرفت شيئا عن النجاسة التى اقترنت بعبادة الأوثان فى فلسطين وسوريا وبابل وبلاد اليونان وروما يومئذ ؛ لعرفت قوة هذه الكلمات التى تعنى أنهم تركوا الرب وعبدوا الأوثان بكل ما فى عبادتها من نجاسة .. فسلمهم لهذه النجاسة !!) — لم يستحسنوا « أن يبقوا الله فى معرفتهم » أسلمهم إلى « ذهن مرفوض » ليفعلوا ما لا يليق .

إذا كنت تراقب سابحاً فى الماء وإذا به قد حدث له شيء جعله يبدأ يغرق وتركته إلى أن يغرق .. فأنت أسلمته إلى الغرق لأنك لم تخرجه منه ، ومع هذا فلست أنت الذى أغرقته . عملك هذا : أنك سمحت له أن يغرق .. هذا تشبيه بسيط يرينا موقف الله مع الفارق طبعاً ...

بهذا المعنى نفهم القول « جعل الرب روح كذب فى أفواه جميع أنبيائك » الأنبياء يصرون على أن يكلموا آخاب بخير ، لأن آخاب يصر على أن يسمع كلمة الخير دون سواها : لذا أسلمه الرب إلى إصراره فى أن سمع كلمة الخير !! وأسلم الأنبياء إلى إصرارهم فى أن تعطى لهم كلمة الخير !! تسليم آخاب فى هذه الحالة هو الغواية : وتسليم الأنبياء هو إعطاؤهم روح الكذب .. أما الدليل على

إصرار آخاب على سماع صوت كلمة الخير فقط هو أنه ذهب ليحارب حتى بعد أن سمع كلمات ميخا . وأما الدليل على إصرار الأنبياء أن يتكلموا بالكلمات التى يطلبها آخاب فقط ، فهو أنهم اجتهدوا أن يغروا ميخا ذاته أن يتكلم كواحد منهم (١ مل ٢٢ : ١٣) . وحنق صدقيا على ميخا لأنه لم يقل مثل ما قال هو ومع ذلك « ادعى » إنه يتكلم بروح يهوه !! (ع ٢٤) . لقد كان آخاب مقضياً عليه بالموت وبأن تلحس الكلاب دماءه كما قال إيليا النبى . وهذا لا يحدث إلا فى الحرب ... كان آخاب نفسه يتلمس طريق الحرب طالباً من يريح فؤاده بأن النتيجة سلام .. فكانت النبوة التى تقول له بذلك عبارة عن غواية .. وما هى فى الحقيقة إلا تسليم آخاب لطلبة قلبه ، وبالتالى إتمام القضاء عليه .. وهكذا نصل بكل بساطة إلى معنى السماح لروح الكذب المرسل إلى الأنبياء ليكون غواية لآخاب ...

ثم فكرة قضاء السماح هى المفتاح لفهم العبارة « أنا الرب قد أضللت ذلك النبى » (حز ١٤ : ٩) . إنه يقول « فاذا ضل النبى وتكلم كلاماً ، فأنا الرب قد أضللت .. » أراد النبى أن يتكلم بالزيغ والضلال ، ولأجل قصد عند الرب ، سمح له بأن يتكلم كما يريد .. ليس حسب مسرة الرب بل حسب زيغ النبى ، بسماح من الرب ... وسماح الرب للنبى فى حكم فعل الرب لإضلاله ، لأنه تأكيد حدوث ما سمح به .. إنه تركه فى ضلاله أو تسليمه للضلال .. ولولا هذا ، لما قال الرب « وسأمد يدى عليه وأبيده من وسط شعبى » .

توجد آية صريحة تبين أن موقف الرب موقف السماح « إذا رأيت سارقا وافقته ، ومع الزناة نصيبك ، أطلقت فمك بالشر ، ولسانك يخترع غشا . تجلس تتكلم على أخيك ، لابن أمك تضع معثرة — هذه صنعت ، وسكت . ظننت أنى نظيرك . أوبخك وأصف خطاياك أمام عينيك » (مز ٥٠ : ١٨ — ٢١) . موقف الإنسان « هذه صنعت » فعل الحر ... موقف الرب « سكت » : تركتك تعمل .. لم أجازك فى وقتها .. وقد رأى الإنسان أن سلوك السماح الإلهى بهذا الشر كما لو كان الله قد عادل شر الإنسان !! « ظننت أنى نظيرك ! » أى فاعل شر .. فقد وضع الإنسان الله السامح للشر فى حكم فاعله ...

هل قضى الله بالشر — الخطية ؟ نعم ، ولكنه قضاء السماح ..

إنه قضاء لأنه لم يكن خارج قصد الله وإدارته للكون ، .. ولأنه حتما سينفذ .

وهو قضاء السماح ، لأن الشرير يجرى ذلك الشر المقضى به وهو حر مختار ..

قضى الله أن يخلق الإنسان حرا مختاراً : قابلا للخطية وقابلا للبر . وقضى بأن يتركه يختار لنفسه أى سلوك يختار : الخطية أو البر .. ففعل الإنسان (وغير الإنسان) الخطية وهو مختار . فنفذ قضاء الله : السماح بالشر ، وهو مختار ..

ولم يمنع الله مخلوقاته من الخطية لأنه قضى أن تكون حرة ولأنه قضى أن يسمح لحريتها بالتعدى .. فنفذت المخلوقات ما تريد بسماح من الرب .

وتأتى بعض الأسئلة : لماذا خلق الله القابلين للخطأ ؟! لماذا خلقهم أحرارا فى أن يخطئوا ؟! لماذا

لم يقف فى وجه خطاياهم ؟ ومع أنه لا يجوز لنا أن نسأل الله ، فإن لهذه حسب أفكارنا أجوبة .

أما لماذا خلق القابلين للخطأ ، فهذه هى الطريقة الوحيدة التى بها يخلق القابلين للطاعة .. لأن كلمة القابلين تعنى حدوث الفعل أو عدم حدوثه ، كما تعنى هذا الأمر وضده .. « قابل » معناها يمكن أن يفعل ما فى قابليته ، وأن لا يفعله .. وممكن أن يحدث عنه هذا ، أو غيره ..

أما لماذا خلقهم أحراراً أن يخطئوا ، أو أن يفعلوا البر ؟ . لماذا خلقهم أحراراً على الاطلاق ؟ . فذلك لأنهم بهذه الصورة فقط يمكنهم أن ينفذوا الأمور التى هم قابلون لها .. ثم هذه هى الصورة الوحيدة التى بها يحكم على أفعالهم كأنهم : ذوى فضل .. أو فاعلى جريمة .. إن من لا يستحقون غضب الله على فعل الشر ليسوا أهلا لمسرة الرب بفعلهم للخير ..

وأما لماذا لم يقف الله فى وجه خطايا خلائقه ؟ فهذا لأنه قضى أن يكونوا أحراراً وهذا يشتمل على قضائه بالسماح بالشر .. ولا يمكن أن يناقض الرب قضاءه بنفسه ، فضلا عن أن الرب يعرف كيف يحول كل ما يحدث لأجل مجده ..

إن وجهة النظر التى تقول : قضاء الله بالشر قضاء السماح ، لا تجعل الله صانعاً للشر ، ولكن فى الوقت نفسه لا تجعل الله غافلا عنه .. وتعلمنا أن الله إله العناية .. الذى دبر أن يسمح للشر .. فسمح له ، وليس بالرغم عنه ولكن فى نفس الوقت ليس بسروره ... وبعد كل هذا يجب أن نذكر أنه وإن كان قد سمح له لكن العناية لها طريق آخر (وهذا سندرسه فى : العناية وأخطاء البشر) .

كان يمكن أن ننتهى عند هذا الحد ، ولكن لا أريد أنْ أترك القارىء فى حيرة من أمرين :

١ ـــ إلى أى مدى يترك قضاء الله بالسماح للشر من فرصه لحرية إرادة الإنسان ؟ هل كون الله قضى بأن يسمح لى بالشر يعتبر إجباراً لى على فعله ؟ منذ الأزل قصد الله أن يسمح لى بأن أجرى الشر ، فصار أمراً أكيد الحدوث أننى سأعمل هذا الشر . هل كان من الممكن إزاء قضاء الله أن أتجنب فعل الشر ؟ إن نعم ؟ فما معنى حتمية القضاء ؟ وإن لا ، فما معنى حريتى ؟!

مع أننى أصر على تكرار ما قلته فى البداءة من أننا لا نستطيع أن نربط الخيط المقطوع ، لكننا نستطيع أن نجمع كلا الأمرين معاً ـــ تأكيد حدوث الفعل وحتمية القضاء ، ومع هذا فحريتى محفوظة .. ليس بالرغم من القضاء ، بل داخل محتويات القضاء ، وقد رأينا أن سماحه معناه حريتى .. ولسنا فى حاجة إلى تكرار مثل الغريق . ويكفى أن نقول إنه مع كون غرقه أمر محتوم لتركه لنفسه ، فلا يعنىٌ هذا إرغاماً له على أن يغرق أو تسببا فى غرقه ..

لاشك أن فى هذا بعض الغموض ، لن نفهمه إلا حينما نعرف كما عرفنا .. ولكنه صحيح لأن الكتاب والاختبار الشخصى يشهد لكلا طرفيه .

٢ ـــ الأمر الثانى الذى يحتاج إلى بعض الإيضاح هو : هل يعقل أن إلهاً غير محدود ، يسمح للشر بأن يدخل ؟ ألا يستطيع أن يمنعه ؟ وهل يعقل أن إلهاً طيباً يسمح للشر بأن يدخل دون أن يمنعه ؟

أما أن الإله غير محدود فهذا حق ، وهو يقدر أن يمنع الشر . بل كان يمكنه أن يخلق من لا يقبلون عمل الشر ! لكن منع الله للشر يناقض فكرة السماح ويتعدى على ذات القضاء الذى حوى الحرية للبشر ..

إن الله يقدر لكنه .. هل يريد ؟ الجواب لا ..

فكيف لا يريد إله طيب أن يقف فى وجه الشر ؟! لا أريد الخوض فى الجواب عن هذا السؤال فهو ما سنتناوله فى الدرس الآتى .. ولكن أقدم ملاحظتين :

(١) لا يضير الله أنه قد سمح للشر فهذا لا يعنى أنه صانعه .. ولا يضير الإنسان لأنه حر ومسئول عما يفعل .. ثم :

(ب) عناية الله قصدت ما وراء الشر ، ومع ذلك فالإنسان مسئول عن الشر الذى أتاه .

دعنا من البحث الطويل فى سماح الله ، وفى ما سمح به الله .. ولا داعى أن نخشى على طيبة الله وصلاحه وقدرته من السماح بالشر .. إن ما يجب علينا أن نفتكر فيه ليس هو ما قضى به الرب فهذا غير معروف لنا . بل هو أن نتجنب الشر وكفانا أن نريح أذهاننا من خوفنا من مسئولية عمل أيدينا للشر ...

العناية واخطاء البشر
أنتم قصدتم لى شراً ...

« وأما الله فقصد به خيراً ... » (تك ٥٠ : ٢٠)

لماذا يسمح الله الطيب للشر بالدخول ؟ هل يرضى إله طيب أن يدخل الشر إلى عالم طيب خلقه الله ويديره الله ؟ وقد ذكرت فى الصفحات السابقة أن عناية الله قد قصدت ما وراء الشر . وأريد الآن أن نتأمل هذا بالتفصيل ...

ولكى لا تكون بعض التعبيرات مبهمة أريد أن أقدم تعريفاً « للعناية » قبل الاستطراد فى الحديث عنها .

ما هى العناية الإلهية ؟ حسب تعريف اللاهوتيين هى ، « ما يبديه الله نحو كل ما خلقه من صيانة لها ، وحرص عليها ، وإدارة لها ، حتى تتم الأهداف التى من أجلها قد خلقها[1] . فيها الفكر الإلهى السابق ، أمامها نتيجة مقصودة ، والواسطة التى ستتمم بها هذه النتيجة ، سواء فى ذلك « الخليقة الطبيعية أو الأدبية »[2] .

ويهمنا هنا علاقة العناية بالخليقة الأدبية ــ وأخص البشر منها بالذكر ..

فيكون المعنى الخاص المحدود هنا أنها : « ما يبديه الله نحو البشر من صيانة ، وحرص ، وإدارة حتى يتمموا الأهداف التى وضعها الله أمامهم .. ومع ذلك « فإن الله ليس فاعل الخطية ، بل السامح بها »[3] (كما رأينا المرة الماضية) إنما دور الله هنا ؛ هو كيف يدير أفعال البشر حتى خطاياهم لتأتى بنتائج قصدها الله لأجل مجده .. وللخير .

وفى قول يوسف لأخوته « أنتم قصدتم لى شراً ، وأما الله فقصد به خيراً » يتضح هذا المعنى .. فعل أخوة يوسف به أفعالا قصدوا منها شراً . وأما الله فى عنايته وتدبيره ، فقد سمح أن يعملوا تلك الأعمال ذاتها ليس لأجل قصد الشر الذى قصده أخوة يوسف ، بل لأجل قصد آخر ، قصد الخير الذى أخرجه الله من ذات الأعمال ..

وهذا يظهر فى كل حادث كبير أم صغير فى حياتنا .. بغض النظر عن إدراكنا لقصد الله ، وبغض النظر إن كنا نعرف النتائج أم لا .. يعمل الإنسان الشر .. ويقصد به أن ينتج الشر ، ولكن الله

---

(١) اكثر التعاريف جمعا منعا ، وهو لولبرف تيليت Wilber Tillett من مقال له فى Isbe صفحة ٢٤٧٦ ويوجد شبه له بقلم « ل بركوف L . Berkhof » فى كتابه Systematic Theology صفحة ١٦٦

(١ و ٢) Strony . Systematic Theology ص٤١٩ .

يدير عمل الإنسان الشرير إلى شيء طيب قصده الله . إن الله يحوّل دائماً نتيجة الشر إلى خير بغض النظر عن قصد القاصد .

ولولا هذا لما سمح الله للشر بالدخول ..فلقد سمح له ، لكنه قضى أن لا يفلت زمام الشر من يده .

وموقف الإنسان فى هذه الحالة لاشك موقف المسئول عن قصده الشرير . (ولا أريد أن أتكلم عن هذه المسئولية فهذا هو الموضوع المقبل) . والآن لنر الأمر من وجهة العناية الإلهية بالإجابة على هذا السؤال : لماذا سمح الله للشر . وقد قلت الجواب إجمالا وأريد الآن أن أقوله بالتفصيل :

(١)

فلنر أولا .. أن الله يحول قصد الإنسان الشر ، إلى قصد مجده .. وتعجب من عناية الرب التى تخرج من الآكل أكلا !! كيف أن الإله القدوس الذى يبغض الشر أيا كان .. يستطيع أن يتمجد حتى فى الشر ، إذ يحول بعنايته أخطاء البشر إلى ما فيه مجده ..

لعل هذا ما يخطر لنا على بال قبل كل شيء أو ما يجب أن يخطر لنا .. فإن هذا أقرب جواب على « كيف يسمح الإله القدوس الطيب للشر بالدخول إلى عالمه ـــ الذى خلقه صالحا ؟ » . إن من يسأل هذا السؤال يخشى على سمعة ومجد الإله القدوس ! رأينا فيما مضى أن قضاء السماح لا يجعل الله صانعاً للشر .. ولكن حتى قضاء السماح هذا يجد فيه الله مجده إيجابياً فى أنه بعد أن يدخل الشر إلى العالم يحوله الله إلى مجده .. هذا قضى به الله منذ الأزل ..

نستطيع أن نرى هذا فى قصة خروج بنى يعقوب من مصر .. من الأمور البارزة فيها قساوة فرعون الوثنى ورفضه طاعة أمر الرب ليعبدوا إلههم .. فلماذا سمح الرب لقلب فرعون بالقساوة ؟ ولماذا سمح بيد فرعون الشديدة على شعبه ؟ ألم يكن قادراً أن يخرج شعبه من أول يوم دعا فيه موسى وأرسله لإخراجهم ؟

نعم قد كان هذا ممكناً ، لولا أن الرب قضى أن يكون فرعون حراً من جهة ، وقضى أيضا أن يتمجد .. وهذه كلمات الرب نفسه « فأتمجد بفرعون وكل جيشه بمركباته وفرسانه . فيعرف المصريون أنى أنا الرب » (خر ١٤ : ١٧ و ١٨) وحين يذكر بولس الرسول هذه الحادثة يقول : « لأنه يقول الكتاب لفرعون إنى لهذا بعينه أقمتك لكى أظهر فيك قوتى ولكى ينادى باسمى فى كل الأرض » (رو ٩ : ١٧) وكلمة « أقمتك » تبينها القرينة بالمعنى « أقمتك قاسيا .. » (ع ١٨) . نعم ليست مسرة الرب بقساوة فرعون ، ولا بيده الثقيلة على الشعب ، لكنه يعرف كيف يحول ما لا يسره فى البشر إلى مجده ...

إسمع ما شهد به التاريخ عن تمجيد الرب فى هذا الأمر بالذات : « وقالت (راحاب) للرجلين (الجاسوسين) علمت أن الرب قد أعطاكم الأرض ، وأن رعبكم قد وقع علينا وأن جميع سكان الأرض ذابوا من أجلكم ، لأننا سمعنا كيف يبّس الرب مياه بحر سوف قدامكم عند خروجكم

من مصر ، وما عملتموه بملكى الأموريين » (يش ٢ : ٩ و ١٠) .

ووصل خبر مجد الرب وقوته إلى أهل جبعون فخدعوا الرؤساء لكى يسلموا من خطر حربهم ومن خطر يد الرب المجيد الذى معهم . فلما عاتبهم يشوع قالوا « أخبر عبيدك إخباراً بما أمر به الرب إلهك موسى عبده أن يعطيكم كل الأرض ، ويبيد كل سكان الأرض من أمامكم ، فخفنا جداً على أنفسنا من قبلكم ... » لكن ما الذى أوصلهم إلى هذا الاقتناع من أنهم هالكون ؟ الجواب فى قولهم للذين قطعوا معهم العهد (جاء عبيدك على اسم الرب إلهك . لأننا سمعنا خبره ، وكل ما عمل بمصر وكل ما عمل بملكى الأموريين ... » (إقرأ يش ٩) .

وحدثت حرب بين إسرائيل الفلسطينيين فى وقت عالى الكاهن ، فانهزم إسرائيل وأُخذ تابوت عهد الرب (١ صم ٤) ووضع الفلسطينيون التابوت بقرب داجون صنم الفلسطينيين فقست حينئذ يد الرب على داجون وعلى الفلسطينيين .. فنقلوا التابوت إلى مكان آخر ، فآخر . وفى كل مكان نقل إليه التابوت وقع الضرر على ذلك المكان (١ صم ٥) فقرروا أن يعيدوا التابوت إلى إسرائيل ومن أقوالهم : « ولماذا تغلظون قلوبكم كما أغلظ المصريون وفرعون قلوبهم ؟ أليس على ما فعل بهم أطلقوهم فذهبوا ؟ (١صم ٦ : ٦) .

لقد كانت هذه القساوة التى سمح بها الله لفرعون .. فتمجد عن طريقها عبرة لكل الأجيال !!

وحتى إسرائيل فى وقت الضنك كان يذكرها فيمجد الله ..ففى زمن القضاة ، حدث أن حاد اسرائيل وارتد عن الرب فسلمهم للمديانيين . وظهر ملاك الرب لجدعون ، ومن ضمن ما قاله جدعون للملاك ــ فى وقت سادت فيه الوثنية شعب اسرائيل ــ « إذا كان الرب معنا ، فلماذا أصابتنا كل هذه ؟ وأين كل عجائبه التى أخبرنا بها آباؤنا قائلين : ألم يصعدنا من أرض مصر ؟ ؟ » (قض ٦ : ١٣) .

وقد وضع الرب حادثة الخروج المجيد من أرض مصر أمام الشعب ليذكرها ، ويعلم بها أولاده حتى لا يضلوا عنه .. ذاكرين مجد الرب ، ممجدين إياه فى عبادته ، وعدم الارتداد عنه . وفعلا حين كان الشعب ينسى هذا كان يحيد . (أنظر خر ١٣ : ٨ و ١٤ ، تث ٥ : ٦ ، مز ١٠٥ : ٤٣ ، ١٣٦ : ١١ ، أع ٧ : ٣٦ ، ١٢ : ١٧ ، ١٣ : ١٧) لقد سمح لفرعون بقساوته لتكون يد الرب الرفيعة عظة للشعب فلا يحيد ، وبهذا يتمجد الرب .

قد قصد فرعون أن يتقسى .. سمح الرب بذلك .. والسبب لكى يتمجد الرب ..

خذ مثلا آخر فى سبى يهوذا .. ومعلم أن سبى شعب الرب ألم وشر . يهوذا التى اختارها الرب من الاثنى عشر سبطا لكى تمثل ملكوت الله على الأرض : كيف يسمح الله للسابى أن يسبى ميراثه ؟! أيهان اسم الرب ؟

إقرأ نبوة حزقيال فى الفصول التى تنبأ فيها عن سبى أورشليم قبل أن يحدث هذا تجد هذه العبارة سائدة فيه « فتعلمون أنى أنا الرب » « فيعلمون أنى أنا الرب » وأمثالها ويقصد بذلك حينما يسبى الشعب سيعلم أن ربه هو الرب ...

فقد كان إسرائيل فى كل عصوره تقريباً ميالا للضلال ، وما أكثر ما حاد عن الرب إلهه الذى قطع معه عهداً أن يعبده بنفس راغبة .. لكن لم يطهر اسرائيل من هذه الوثنية إلا السبى !! عرفوا أنه الرب منذ ذلك الوقت ! ومن وقت السبى حتى الآن نسمع عن مفاسد وخطايا وشرور بين اليهود ، ولكن لم نسمع قط عن وثنية بينهم !! لقد علمهم السبى أن الرب هو الله ..

إن هذا يمجد الرب بكل تأكيد . لقد سمح لنبوخذ نصر أن يسبى الشعب .. سمح له بهذه الخطية فحول الرب قصد نبوخذ نصر الشرير إلى قصده الصالح : أن يطهر الشعب من الوثنية ، فيكون الشعب النقى المحافظ على كلمة الرب .. الثابت على عهده حتى يأتى المسيح .. رتبت عناية الله هذا الطريق الشاق لفصل هذا الشعي عن نجاسة الوثنية ..

وانظر كيف يتمجد الله بنتائج تصل إليها عناية الرب من الشر البشرى .. يقول بولس الرسول : فإنه إن كان صدق الله قد ازداد بكذبى لمجده ، فلماذا أدان أنا بعد كخاطىء ؟ » (رو ٣ : ٧) ليس الآن موضوع البحث فى الجزء الأخير من هذه الآية ــ سيأتى هذا فى الموضوع القادم ــ ويكفينا أن ننظر فى الجزء الأول . (وحيث أنه هو المقدمة التى عليها تبنى النتيجة ... بل حيث أنه هو الأمر الذى يعتبره بولس الرسول ثابتا ويبنى عليه أمراً آخر ، فليس من خطر ولا نكون قد خرجنا على قاعدة تفسيرية حين نترك الجزء الثانى لنبحث فى الأول فقط) . وهو : « صدق الله قد ازداد بكذبى لمجده » .

يقولون : بضدها تعرف الأشياء ، وهذه الآية تعنى من هذه الناحية ما تعنيه آية سبقتها : إن عدم أمانة الإنسان لا تبطل أمانة الله (ع ٤) فقد تمجد الله الصادق وهو يعامل البشر الكذبة .

ومن جهة أخرى إن شرورنا هى التى كانت السبب فى وجود الصليب على الإطلاق وقد أظهر الصليب لنا محبة الله لأجلنا ، وأظهر حكمة الله الذى دبر خلاصا بهذه الطريقة لقوم أثمة يقعون تحت دينونة من إله قدوس محب ــ عادل رحيم ... الحكمة التى أظهرت صفات الله .. وأظهر الصليب قوة الله التى سحقت الخطية ، ونقضت أعمال إبليس .. وحيث كانت خطايانا هى الداعى لوجود الصليب ، ومجد الله بالصليب فقد آلت خطايانا إلى تمجيد الله بفعل العناية ...

أجل إن صدق الله قد ازداد بكذبى « لمجده » ...

لأولئك الذين يقولون كيف نتصور أن إلهاً قدوسا يسمح بالخطية ، وكيف أن إلهاً طيباً يسمح بالألم ــ لأولئك الذين يخشون أن يهان مجد الله ــ أقول : لا تجزعوا !! إن الله يعرف كيف يتمجد ! لا تغاروا أنتم على مجد الله فى هذا الأمر : الله يغار على مجده بنفسه ، لا يدع اسمه يهان ، مجده لا يعطيه لآخر .. بالعكس إن فكرة سماح الرب بالشر تقودنا إلى فكرة أن الله يتمجد حتى فى ما يغيظه منا ...

(٢)

ثم تحول عناية الله الشر إلى أمر ثان ــ هو حدوث خير أعظم مما لو لم يسمح الله للشر

بالدخول .. نعم إن منع الشر طيب ولكن أطيب منه ما تعمله عناية الله من نتائج الشر !

أحيانا يسأل هذا السؤال : « ولكن ما ذنب الذين يحل بهم الشر الذى به يتمجد الله ؟ هل يريد الله أن يعبث بالخليقة لكى يتمجد ؟ » ، إننى أقول هذه الكلمات نقلا عن غيرى وجسمى يرتعد لأننى أردد كلمات خرجت عن حدود اللياقة فى الحديث عن الله !

الجواب الأكيد كلا . فإن ما سمح به الله هو أيضا فى صالح البشر .. من ناحية سماح الله ، لم يؤذ البشر حتى فى الشر الذى يقصدونه .. هم الذين يؤذون أنفسهم ومع كل هذا فإن الله سمح لكى يأتى بخير أعظم لهؤلاء البشر وغيرهم ..

عندما تقرأ قصة يوسف فى الكتاب المقدس ستتفق معى فى هذا الأمر .. فإنه لولا أن الرب يقصد خيراً بيوسف لما سمح لإخوته أن يخلعوا عنه قميصه ، وأن يلقوه فى البئر ، وأن يبيعوه إلى مصر عبداً ، ولما سمح بأن يجرب ، وأن يتهم تهمة زور شائنة ، وأن يسجن ، أو ينساه ساق فرعون . إن الخير الأعظم ليوسف ليس أن تمنع كل هذه الشرور ، فانه فى هذه الحالة كان سيصبح راعياً للغنم مثل إخوته ومثل أبيه . وكان سيموت فى المجاعة .. إن الخير الأعظم له هو أنه صار ثانياً فى مصر ، المتسلط فى مصر ، أعظم رأس فى مصر بعد فرعون . أجل ، قصد الرب خيراً بيوسف هو ما عبر عنه يوسف نفسه قائلا : « ليس أنتم أرسلتمونى إلى هنا بل الله وقد جعلنى أباً لفرعون ، وسيداً لكل بيته ، ومتسلطاً على كل أرض مصر » وقد قصد خيراً آخر يتم عن طريقه لآخرين : « فقد أرسلنى الله قدامكم ليجعل لكم بقية فى الأرض ، وليستبقى لكم نجاة عظيمة » . وليس فقط لإخوته بل خيراً لكل الشعوب كما قال يوسف « لكى يفعل كما اليوم ليحيى شعباً كثيراً » (تك ٤٥ : ٨ و ٧ ، ٥٠ : ٢٠) .

وعندما تقرأ قصة بلعام بن بصور سترى أن الله فعلا قصد بشعبه خيراً أعظم حين أذن لبلعام أن يذهب إلى بالاق .. حسن أن لا يذهب بلعام بالمرة ، ولكن فى هذه الحالة لا يلعن ولا يبارك أليس أحسن أن يبارك . قد أذن الله لبلعام أن يذهب لأنه حريص أن يحول اللعنة إلى بركة . بل هذا الذى ذهب لكى يلعن أذهلت بركته مستأجره حتى « اشتعل غضب بالاق على بلعام وصفق بيديه وقال بالاق لبلعام : لتشتم أعدائى دعوتك وهوذا أنت قد باركتهم الآن ثلث دفعات . فالآن اهرب إلى مكانك ! » (عدد ٢٤ : ١٠ و ١١) . لو لم يذهب بلعام لما كانت بركة للشعب لكان كما قال بالاق « لا تلعنه لعنة ، ولا تباركه بركة » . (عدد ٢٣ : ٢٥) . ولكن الله لا يكتفى بهذا الموقف . الله يصر على أن يبارك شعبه !

أو تأمل أعمال العناية العجيبة بالنسبة لخطايا شمشون : أن يتزوج شمشون من الفلسطينيات فهذه خطية (أنظر تث ٧ : ٣ و ٤) لدرجة أن أباه وأمه قالا له « أليس فى بنات أخوتك وفى كل شعبى امرأة حتى أنك ذاهب لتأخذ امرأة من الفلسطينيات الغلف ؟ » (قض ١٤ : ٣) . ولكن شمشون أصر ، والرب سمح له ، ويعبر عن سبب ذلك السماح بالقول : « ولم يعلم أبوه وأمه أن ذلك من الرب لأنه كان يطلب علة على الفلسطينيين » (قض ١٤ : ٤) .

وقد كان دخول شمشون إلى امرأة غزة خطية .. لا شك ، ولكن لم يقف الرب فى وجه شهوانية شمشون ، لكى يتمجد الرب صاحب القوة التى أعطيت لشمشون بقلع مصراعى باب المدينة والقائمتين مع العارضة وحملهما والصعود بهما إلى رأس الجبل (قض ١٦ : ١ ـــ ٣) . لا شك أم مثل هذا العمل أضعف روح الفلسطينيين المعنوية ...

وقد كان حب شمشون لدليلة ، وخضوعه لتجاربها خطية .. وهذه أيضا سمح الله بها لخير أعظم .. وقد كانت النتائج المرة التى قاساها شمشون : بقلع عينيه ، وجعله كثور فى الطاحون ، شروراً وآلاماً ، سمح الله بها للفسلطينيين أن يجروها بشمشون لخير أعظم ، وذلك بأن يبيد أقطاب الفلسطينيين دفعة واحدة ، وهذا هو هدف شمشون !

وقد ظهر هذا فى حياة بولس الرسول أيضا .. « ثم أريد أن تعلموا أيها الإخوة أن أمورى قد آلت إلى تقدم الإنجيل » (فى ١ : ١٢) ما هى أمور بولس الرسول ؟ وثقه ، سلسلته ، أسره من أجل كلمة الرب ، من أجل الحق .. هذا ألم ، وشر .. لماذا يسمح بهما الله إلا لكى يحصل على خير أعظم مما لو لم يكن بولس قد تألم ؟ قد آلت « أكثر » ـــ نعم أكثر ـــ إلى تقدم الإنجيل ! لو لم يكن قد حدث له هذه . لكان واحد هو بولس بكامل حريته يكرز بالإنجيل ، ولكن الآن كثيرون منهم من يكرز عن محبة وسلام .. ومنهم من عن حسد وخصام ـــ يكرزون بالكلمة .. لقد انتجت آلامه جماعة من المبشرين لا بدله ، بل معه ، فإن كلمة الرب لم تقيد فيه ..

يقول الرسول « ولكن كل تأديب ، فى الحاضر ، لا يرى أنه للفرح بل للحزن ، (ذلك لأننا لا نستطيع فى الحاضر أن نرى ما بعد التأديب : النتيجة التى يخرجها الله بعناية منه) وأما أخيراً فيعطى الذين يتدربون به ثمر بر للسلام » (عب ١٢ : ١١) . فلا تجزع حين ترى الآلام والضيقات والمشاكل على من لا يستحقها . لا تفتكر أن هذا الكون يسير على غير هدى .. انتظر حتى ترى النهاية .. ففى النهاية سترى أن الرب قصد من وراء السماح للشر خيراً أعظم سيحول أخطاء البشر إلى خير أعظم . وستلوم نفسك لأنك حكمت على قضاء الله قبل الوقت .. لا تجزع إن الله يعرف أن يحول المر إلى حلو ..

(٣)

وأمر ثالث تجريه عناية الله بأخطاء البشر هو : أن الله يحول قصد الشر لإجراء مقاصده . أو كما ورد فى (أمثال ١٦ : ٤) « الرب صنع الكل لغرضه ، والشرير أيضا ليوم الشر » .

لا يمكن أن يستخدم الله باراً ليوم الشر وذلك لأن من يجرى الشر لابد أن يهلك ، ولا يهون على الله أن يهلك البار . الشرير ساع للشر ، فيحول الرب مسعاه لغرضه إنه بحرية إرادته يفعل الشر .. ويسمح الله له ، لأن الله أيضا قصد أن ما يجريه يكون لغرض غير غرض الشرير ..

ولتوضيح هذا الحق الكتابى يحسن بنا أن نتأمله فى هدفيه : فإن شر الشرير قد يصيب شريراً آخر أو وقد يصيب صالحاً .

أولا : يحول الله شر الشرير لعقاب شرير آخر ... شر الشرير آت من حرية واختيار صاحبه .. وعقاب الشرير أمر فى قصد الرب . فقد قضى الرب منذ الأزل أن يسمح لهذا الشرير أن يجرى شره الذى يريده كعقاب بالشرير الآخر .

أما أن الصالح لا يستخدمه الله لمعاقبة الشرير ؛ فهذا واضح من موقف داود من شاول .. رآه مرتين نائما ، وكل من حوله كأموات .. وكان فى إمكان داود أن يقتله ويستريح ، بل جُرّب داود بذلك مرتين . فوبخ داود رفقاءه الذين أوعزوا إليه بذلك ، ولم يدعهم يقومون على شاول .. ومما قاله « يقضى الرب بينى وبينك ، وينتقم لى الرب منك ، ولكن يدى لا تكون عليك ، كما يقول مثل القدماء من الأشرار يخرج شر . ولكن يدى لا تكون عليك » (١ صم ٢٤ : ١٢ و ١٣) فمن هم الأشرار الذين منهم يخرج الشر ؟ أو كيف يموت شاول . قال داود « إن الرب سوف يضربه (كما ضرب نابال ص ٢٥) ، أو يأتى يومه ويموت (موتاً طبيعياً) ، أو ينزل إلى الحرب ويهلك ، حاشا لى من قبل الرب أن أمد يدى إلى مسيح الرب » (١ صم ٢٦ : ١٠ و ١١) . وقد مات شاول فعلا فى الحرب ، دون أن يمد داود يده على شاول .. بل أكثر من هذا : أنقذ الرب داود فلم يشأ أن يذهب إلى تلك الحرب بالذات وتلك التى مات فيها شاول ، لأن الرب لا يريد داود قاتلا لشاول . يده لم تكن عليه ... داود يرفض أن يمد يده ، لذا فالرب يدبر أنه لا يكون داود هو الذى يمد يده .

وسقط أمنون فى الخطية ، وعقابها الرجم — الموت . ولكن داود لم يجر ذلك العقاب ، بل كان ذلك بواسطة أبشالوم ابن الهلاك .. (٢ صم ١٣) .

ثم قام أبشالوم على داود ولكن لم يقتله داود بنفسه ، بل بالحرى أوصى أن يترفقوا به . ولكن أبشالوم مات بيد آخر — يوآب .. ابن الهلاك . (٢ صم ١ : ١٤ و ١٥) .

وكل شرير يعاقب شريرا ، يقصف بيد شرير آخر وهكذا ..

وكم من أمثلة فى الكتاب المقدس على هذا ولكن بعضها نجد فيه تدبير العناية العقاب على يد شرير واضح كل الوضوح . ويكفى أن نتأمل فى ثلاثة من هذه :

كان الله قد أنبأ بذلك نسل عالى وطردهم والقضاء عليهم (١ صم ٢ : ٣١ و ٣٣ ، ٣ : ١٣ و ١٤) ومنه موت أولاد عالى شبانا يشتمل القتل أحيانا . ولكن من هو الذى يقوم بهذه المأمورية الخطيرة : عقاب كهنة مقضى عليهم ؟ أمر شاول السعاة الواقفين لديه أن « دوروا واقتلوا كهنة الرب لأن يدهم أيضا مع داود ولأنهم علموا أنه هارب ولم يخبرونى » . ويذكر الكتاب أن السعاة امتنعوا عن هذا العمل .. فقال الملك لدواغ « در أنت وقع بالكهنة » . فدار دواغ الأدومى ، ووقع هو بالكهنة ، وقتل فى ذلك اليوم خمسة وثمانين رجلا لابسى أفود كتان . وضرب نوب مدينة الكهنة بحد السيف الرجال والنساء والأطفال والرضعان ، والثيران والحمير والغنم بحد السيف . فنجا واحد لأخيمالك بن أخيطوب اسمه أبياثار وهرب إلى داود (١ صم ٢٢ : ١٧ — ٢٠) .

ولعل سائلا يسأل من أدرانا أن هؤلاء كانوا نسل عالى ؟ أو منهم من كان نسل عالى ؟ والجواب

يرد فى (١ مل ٢ : ٢٧) أن سليمان طرد أبياثار عن أن يكون كاهناً ، « لاتمام كلام الرب الذى تكلم به على بيت عالى فى شيلوه » وأبياثار هذا هو نفسه ملازم داود الذى مال مع أدونيا ضد سليمان .. ولقد كان ضمن المعرضين للقتل زمن شاول ، ولكنه نجا بالهروب وحده دون كل ه .. لأن كل كهنة مدينة نوب كانوا من نسل أخيطوب (١ صم ٢٢ : ١٢) .

وما يهمنا هنا هو أن السعاة لم يرضوا أن يوقعوا بكهنة الرب .. لكن الذى وقع بهم هو دواغ : الغريب الأدومى .. وتأمل وصف داود له فى المزمور الذى قيل فى هذه المناسبة ذاتها « لماذا تفتخر بالشر أيها الجبار ، رحمة الله هى كل يوم ، لسانك يخترع مفاسد ، كوسى مسنونة يعمل بالغش . أحببت الشر أكثر من الخير . الكذب أكثر من التكلم بالصدق » (مز ٥٢ : ١ — ٣) أحب دواغ اختراع مفاسد اللسان : الوشاية الباطلة ، والكذب بالتهمة التى لصقها بالكاهن (١ صم ٢٢ : ٩ و ١٠) ثم أحب شرور سفك الدم أكثر من الرحمة إذ وقع بكهنة الرب .. وما أحبه دواغ وسعى إليه سمح الله به لكى يتم قصد الرب الذى كان قد سبق فأنبأ به أن يذل نسل عالى .. عن طريق دواغ ، لأن دواغ نفسه سيقصف ، وبتحريض من شاول ، لأن شاول نفسه سيقصف . إن الشر لا يخرج من الصالح بل من الشرير ...

خذ مثلا آخر : قال الرب على لسان إشعياء النبى « ويل لأشور قضيب غضبى » (إش ١٠ : ٥) (وقد تأملنا فى المرة الماضية فى هذه الآية من جهة سماح الرب له) . ولكن أريد أن نتأمل فيه أيضا من وجهة أخرى هى غاية هذا السماح الذى تدل عليه الكلمتان « قضيب غضبى » والسؤال المهم هنا هو : لماذا يستعمل الرب أشور ؟ إن الرب إن لم يستعمل أشور ، فإنه لن يستعمل عوضا عنه إلا شريراً آخر ، وهذا ما فعله الرب فى أحيان أخرى .. لكن الآن لا يصلح لهذه المهمة إلا أشور الشرير ذلك لأنه ساع فى طريق الشر ، يريد بمحض اختياره أن يسبى شعوباً ويذلها .. فسمح الله له بهذا .. سمح له الله بأن يجرى آثامه ، وذلك لحكمة عند الله ، رتبت أن يكون مصير أشور وأمثاله هى عقاب الرب : فقد أدار الرب قصد أشور بالشر لهذه الأمم حتى يصير « قضيب غضب » فى يد الرب وبعد أن تتم آثامه يقصف ..

ومثل هذا ما ورد فى حبقوق : شكا حبقوق من رؤية الشرير يحيط بالصديق ، هل توجد نهاية لهذا الشر ؟ لماذا يرى الرب هذا ويسكت ؟ قال الرب إنه مهيج عليهم الكلدانيين عقابا للظلم والفساد والشر .. فرأى حبقوق — طبعا فى حكمته البشرية — إن هذا ليس هو الحل يارب ، لأنك سلطت الأشر على الشرير ..فقال الرب إن ذلك أيضا سيقصف ...

على البار أن يحيا بالإيمان فيرى الخلاص آتيا ولو كان خلف الغيمة ، ولو كانت كل الظروف خطر وحرب ، فالله قضى بكل شىء .. فإن هذا الفناء هو القضاء على الشرير بيد من هو أشر منه ، وذلك يقضى عليه أشر ...

إن قصد الرب هو : عقاب الشر . لذا فعناية الله ترتب له شريراً آخر ساع للشر فيسمح له أن يجرى شروره على هذا الشرير الذى يراد عقابه .. وذلك الشرير الذى عاقبه سيعاقب ...

ثانياً : إن الرب يجرى مقاصده عن طريق شر الشرير لأن عناية الرب رتبت أن تحول شر الشرير إلى امتحان للأمناء :

وأبدأ بذات الفصل الكتابى السابق الذى ورد فى حبقوق (١ : ١ — ٤) كان السؤال الذى يحير حبقوق لماذا يسكت الله ويوجد ظلم ، ويوجد خصام ، وحكم معوج ؟! لماذا يسمح للذين فعلوا هذه بأن يفعلوها !؟ إن هذا السكوت أبلغ من الكلام .. لأن سكوت الرب هو قضاؤه الأزلى بأن يسمح لهؤلاء أن يتسلطوا على الصديق لتمحيصه .. إن الشرير قد قصد الشر الذى يجريه لمجرد الشر .. ولكن الرب قصد بالشر الذى أجراه الشرير خيراً .. أن يخرج الصالح أكثر صلاحاً ، وأن يخرج الطيب أكثر طيبة :. للشرير قصد ، وللرب قصد . فإذا بالعناية تحول قصد الشرير إلى قصد الرب الصالح .. لامتحان الأمين وتطهيره بنيران الشرير ..

كل حوادث الاضطهاد ، وحوادث الاستشهاد من هذا القبيل ، ولو لم يقصد بها نفع مباشر للذين وقعت عليهم ، فنفع غير مباشر فى نجاح رسالتهم ، أو نفع وتقوية وتنقية غيرهم ...

كل حوادث الظلم من هذا القبيل ..

كل حوادث التعسف والقسوة من هذا القبيل ..

وعلى ذلك فكل ما يأتى من شرير على مؤمن : قصد الشرير هو الشر والأذى والخسارة ، وسمح الله له بأن يجرى شروره ، ولكن لقصد آخر غير قصده الشرير ، بل لحكمة عند الرب . إن عناية الرب تجعل آتون النار لا ضرراً بل امتحاناً ..

ولا حاجة لى أن أكرر أن الله لا يسمح ، ولا يريد ، ولا يستخدم صديقاً لامتحان صديق ... فإن هذا مثل ما قيل تماماً عن عقاب الأشرار : عقاب الشرير عن يد من هو أشر منه .. وكذلك امتحان الصديق عن يد شرير .. فإن أداة الشر هى شرير ، سمح له الله بالشر لأنه سيقصف .. وحوّل الشر إلى امتحان للأمناء ..

اقتنع حبقوق بهذا الحل الإلهى .. وأود أن نقتنع نحن أيضا به ، فلا نفتكر أن وجود الشر معناه أن الله غافل عنه ، بالحرى هو الذى قضى بأن يسمح به ، وذلك لأنه قضى بنتيجة طيبة له هى : عقاب الشرير أو امتحان الأمين .. فلنتطلع مع حبقوق إلى خلاص الرب ولننشد نشيد المؤمن « فمع أنه لا يزهر التين ، ولا يكون حمل فى الكروم .. يكذب عمل الزيتونة ، والحقول لا تصنع طعاما .. ينقطع الغنم من الحظيرة ولا بقر فى المذاود فإنى أبتهج بالرب وأفرح بإله خلاصى ... » (حب ٣ : ١٧ و ١٨) .

(٤)

لكن أعجب ما تعمله عناية الله : أنها تحول أخطاء البشر إلى وسائط للنعمة !! لولا أن الله يريد أن يخرج من الآكل أكلا لما كان يسمح للخطية أن تنبع منا !!

١ — ضمن أخطاء البشر ما يحوله الله إلى وسائط للنعمة لنفس الخاطىء ! هذا النوع كثير جداً لدرجة أنه يستغنى عن ضرب أمثال له . ولكن لأجل الإيضاح أذكر بعض الآيات .

« كما قدمتم أجسادكم عبيدا للنجاسة والإثم هكذا الآن قدموا ٦ : ١٩) . إن هذا يدركه من وقع فى الخطية ثم أفاق منها — أى ندركه جميعاً إن كنا نذكر هذا الاختبار . من ينظر إلى الصليب الذى به رفعت خطايانا ، ثم بعد ذلك يطيق النظر إلى الخطية ؟! حين يذكر خطاياه الماضية ألا يعافها فيتركها ليتمسك بالصليب ؟ إن من هرب من الخطية لا يريد أن يرجع إلى عبوديتها بعد ذلك بل إنه يرذلها .. وذكرى الخطية يحولها الله إلى واسطة للنعمة تجعل الخاطىء لا يرجع إلى الخطية ثانية وتجعله يقدم الشكر لله .. بل تجعله يعتبر نفسه قد رحم باكورة لآخرين أى أنه مطلوب منه أن يقود آخرين للرحمة ... (١ تى ١٣ و ١٦) .

وقد أنبأ الله أن يكون لشعب يهوذا اختبار مثل هذا ، ومثله يمكن أن يكون اختبار كل خاطىء تائب : « لكن تتذكرى فتخزى ولا تفتحى فاك بعد بسبب خزيك حين أغفر لك كل ما فعلت يقول السيد الرب » (حز ١٦ : ٦٣) وأبقى بقية إذ يكون لكم ناجون من السيف بين الأمم الذين يسبون إليهم ، إذ كسرت قلبهم الزانى الذى حاد عنى ، وعيونهم الزانية وراء أصنامهم ، ومقتوا أنفسهم لأجل الشرور التى فعلوها فى كل رجاساتهم . ويعلمون أنى أنا الرب لم أقل باطلا إنى أفعل بهم هذا الشر » . (حز ٦ : ٨ — ١٠) [1] ونفهم من هذه الآيات أن يهوذا حين تذكر خطاياها تخجل لدرجة كراهية النفس ! هل بعد هذا يمكن أن ترجع إلى الخطية ؟ إن يوما فى الخطية سمح به للخاطىء لكى يصونه منها طول عمره .

٢ — ومن أخطاء البشر ما يحوله الله إلى وسائط للنعمة لآخرين .

خذ مثلا موسى ما كان يمكن أن يكون موسى لو لم يضطهد فرعون الأطفال ، بقصد إذلال الشعب الساكن فى أرضه .. فقد كان اضطهاده للأطفال سبب تخبئة موسى مدة ثلاثة أشهر ، بعدها سلمته أمه للعناية الإلهية فوق مياه النيل .. لولا ذلك الاضطهاد لما ربى موسى فى قصر فرعون ، أو تهذب بكل حكمة المصريين ... لولا ذلك الاضطهاد لكان موسى كأى طفل آخر ينشأ بين والديه ثم يسخر كأى رجل عبرانى ! لكن الله سمح لفرعون بهذا الاضطهاد ، بهذا الخطأ — لكى يقدم أفضل الفرص لموسى ويخرج منه القائد الذى يريده هو .

أو اخذ مثلا آخر تزمر إسرائيل فى البرية — خطية طبعا .. جعلت الرب يفنيهم .. وتجربتهم للرب ، وعدم إيمانهم ، جعلا الرب يقسم فى غضبه أن لا يدخلوا راحته .. وكم نالوا بسبب قساوتهم وتمردهم من هوان وألم وغضب ... ولكن الله حوّل كل هذا إلى وسائط للنعمة لمن أتى بعدهم .. كانت موضوعا للوعظ فى فم موسى فى كل سفر التثنية (إقرأ على سبيل المثال (تث ١ : ٢٦ — ٤٦ ، ٦ : ١٦ ، ٩ : ٧ — ١٥ و ٢٢ — ٢٤ و ٣٢) — إقرأ كل السفر تجد عظة على حياة

---

(١) كسر قلب يهوذا بالسبى إلى بابل سنة ٦٠٦ — ٥٨٨ ق . م . ورجعت البقية بعد ٧٠ سنة من ذلك التاريخ أى سنة ٥٣٦ ق . م .

إسرائيل فى البرية !!! ثم فى فم المرنم كانت هذه الخطايا مادة غنية للوعظ (حز ٩٥ : ٧ ــ ٤١) وكذا فى فم بولس الرسول (١ كو ١٠ : ١ ــ ١١) وإلى العبرانيين (٣ : ٧ ــ ٤ : ١١) وكانت ولا زالت عظات بليغة مؤثرة .. استعملها الله لإرجاع المرتدين ، والمتمردين ، والخائنين .. والمتزمرين .. الخ .

وما رأيك فى خطية يهوذا الاسخريوطى ؟ ! لا خيانة أبشع من خيانته ! ولا أشنع من خطيته ! قد صار يهوذا الآن مضرب الأمثال !! ولكن هل تعرف أين كنا نذهب أنا وانت لو لم يخطىء يهوذا خطيئته الشنعاء هذه !؟ ما كان لنا مصير إلا قرار الجحيم !! قصد يهوذا أن يسلم سيده ، وفعلا فعل هذا حراً مختارا ذاهباً بنفسه إلى الذين يتصيدون سيده .. وهذا هو كل شىء يدريه يهوذا ، كل ما يعلمه أن سيده قد ضاع .. لكن شيئا أكثر من هذا حدث : أن خطية يهوذا قد حولها الله واسطة للنعمة : قدمت ذبيحة المسيح الكاملة عنى وعنك وصارت لى ولك الحياة الأبدية .. لقد حولت عناية الله أبشع خطية إلى خير واسطة للنعمة [1] !!

أو تأمل ارتداد اليهود ورفضهم المسيح ... إن هذا خطية طبعا وخطية شنيعة .. يقول عنهم بطرس الرسول « وبأيدى آثمة صلبتموه[2] . (أع ٢ : ٢٣) . ويخاطبهم بولس وبرنابا « كان يجب أن تكلموا أنتم أولا بكلمة الله ، ولكن إذ دفعتموها عنكم وحكمتم أنكم غير مستحقين للحياة الأبدية ، هوذا نتوجه إلى الأمم » (أع ١٣ : ٤٦) .. اليهود الذين سمعوا الخطاب الأول من بطرس نخسوا فى قلوبهم وخلصوا إذا أطاعوا صوت الروح .. وبالرغم من صلبهم للمسيح خلصوا .. ولكن اليهود الذين سمعوا خطاب بولس رفضوا الإيمان ، ورفضوا المخلص .. وبالرغم من أن هذه خطية .. لكن لولاها لما توجه الرسل والكارزون إلى الأمم .. ولولا رفض اليهود أن يكونوا شعب العهد الجديد لما طلب الله شعباً آخر من كل أمة تحت السماء .. أو تأمل كلمات بولس الرسول فى مكان آخر : « بزلتهم صار الخلاص للأمم لإغارتهم ! » (رو ١١ : ١١) . ثم يضيف الرسول بانياً نتيجة أكيدة على هذه المقدمة الأكيدة وهى أن « زلتهم غنى للعالم ، ونقصانهم غنى للأمم » . (رو ١١ :

---

(١) وجد رأى يقول بأن يهوذا مخلص فى تسليم المسيح لا يقصد دينونة المسيح بل يقصد أن يرغم المسيح على اظهار قوته ، ويوطد ملكه ، وبذا يكون يهوذا صاحب المكانة الأولى .. ويدللون على ذلك بأن : (١) يهوذا فعل هذا فكرا منه أن المسيح يوافق على هذا العمل حين قال له « إعمله بأكثر سرعة » (يو ١٣ : ٢٧) (٢) المسيح راض عنه بدليل القول « ياصاحب » (متى ٢٦ : ٥) (٣) يهوذا لم يكن قصده صلب المسيح بدليل ندامته حين رأى أنه دين .. ثم رد الفضة .. وفى الحقيقة لا نقدر أن نتهم المسيح بموافقته على قصد يهوذا استنادا على أمر التعجيل ، وكلمة « ياصاحب » استعملت لأناس مغضوب عليهم (متى ٢٠ : ١٣ ، ٢٢ : ١٢) وندامة يهوذا هي صوت الضمير المهلك وليس من شعر أنه أخطأ الوسيلة . بالحرى نأخذ قول المسيح حجة أنه « شيطان » (يو ٦ : ٧٠ ، لو ٢٢ : ٣) وأنه ابن الهلاك (يو ١٧ : ١٢) وقول الرسول إنه سارق ولص (يو ١٢ : ٦) ونبوة المزمور بالخيانة (مز ٩ : ١ : ٩ ــ ١٨) انظر اقتباس بطرس الرسول لاتمامها (أع ١ : ١٥ ــ ٢٠)

(٢) إن أعجب القول قول من حاولوا تبرئة اليهود من دم المسيح والكتاب يشهد فى هذه الآية وغيرها بأنهم بأيدى أثمة صلبوه . إن ما يحوله الله من خير نتيجة لشرهم لا يعفيهم من مسئولية قصدهم الشرير .

١٢) . ويورد على لسان أممى يفتخر بما حدث « قطعت الأغصان لأطعم أنا » (رو ١١ : ١٩) . إن خطية اليهود الشنيعة كانت فى يد الله أساس عمل طيب ، بواسطة النعمة لى ولك نحن الأمم ، .. فقد توجه الرسل إلى الأمم فسمعنا البشرى الأبدية : أن يسوع يخلصنا من كل خطايانا ، وننلنا نصيباً مع المقدسين .

٣ ـــ ومن أخطاء البشر ما يحوله الله إلى وسائط للنعمة للذين أخطأوا وغيرهم معهم . وأحيانا للخاطىء أولا ثم عن طريقه للآخرين ..

قال بولس الرسول « أنا الذى كنت قبلا مجدفاً ومضطهداً ومفترياً ولكنى رحمت .. لكنى لهذا رحمت ليظهر يسوع المسيح فى أنا أولا مثالا للعتيدين أن يؤمنوا به للحياة الأبدية » (١ تى ١ : ١٣ و ١٦) . سمح الله لبولس أن يفعل هذه الخطايا الفظيعة : تجديف ، اضطهاد ، افتراء ، لقصد عنده وهو أن يحولها إلى وسائط للنعمة لبولس نفسه . رحمة ، إظهار أناة الله ، تجديد .. ولكن ليس هذا فقط . لقد كان بولس دائما حين يذكر أنه رحم ، يذكر ذلك بروح الشكر المستعد للخدمة ، ومن ثم يصير هو نفسه واسطة نعمة للآخرين : « لهذا رحمت ليظهر يسوع المسيح فى أنا أولا مثالا للعتيدين أن يؤمنوا ... » . ذات الطريق إلى دمشق طريق الخطية ، كانت الطريق إلى الخلاص لنفسه ، والطريق إلى الخدمة لخلاص غيره !!

وهذا فعله الله أيضا مع بطرس الرسول . خطية بطرس الرسول لا تقل عن خطية يهوذا ! إنها انكار مخز مثلث ، وحلف ولعن وأنكر أنه يعرف المسيح !! ولكن المسيح طلب لأجله أن لا يفنى إيمانه ، فحول له هذه الخطية إلى وسائط للنعمة ـــ علمته التواضع الحقيقى ، بعد الاعتداد بالذات ، بعد الاندفاع .. الخ ، ولكن ليس هذا فقط فقد كان سقوط بطرس الرسول فى هذه الخطية أساس التوصية المثلثة من المسيح له « إرع غنمى .. إرع خرافى .. إرع غنمى » . قال له أتحبنى « ثلاث مرات » وكلفه بالرعاية « ثلاث مرات » مقابل الإنكار « ثلاث مرات » فمن الخطية نقله للخدمة .. ثم أنبأه بأى « ميتة كان مزمعاً أن يمجد الله بها » : بحسب إرادة غيرك لا نفسك ... وهكذا عن طريق هذه الخطية صار بطرس واسطة للنعمة لآخرين فى خدمته كراع ، وفى تضحيته كشهيد ...

إن كنت ساقطا فى خطية الآن لا تدع الفرصة تفوتك قبل أن تستفيد من عناية الرب . أنظر كيف يحول لك ولغيرك خطيتك للبركة كوسيلة للنعمة ؟ . طبعاً لست أدعو للسقوط فى الخطية . حاشا لى .. أنا أكلم الذين فعلا سقطوا .. بدل أن تصرفهم الخسارة عن أن ينالوا شيئاً من الربح ، ليس عن عمل خطيتهم هم ، بل من عمل عناية الرب بهم .

لماذا سمح الله بالشر ؟ لماذا ؟! لأسباب ما أجلها ! وما أعظم حكمة الله فى إحداثها ! إن عنايته تحول شرورنا إلى خير يمجده ، ويفيدنا ، ويفيد غيرنا .. وقد تكون النتائج فى ظاهرها خراب ، ولكنه أيضاً لخيرنا ، لأنه فى يد الرب .. وقد لا نعرف ما هو الخير ، ولكنه خير على أى حال ..

لنسلم بهذا ، ولنجد إليه ، طالبين من الله رحمة ، وطالبين منه أن يتسلم مالا، قبل لنا بإصلاحه ، فتحوله عنايته للخير ...

لماذا أُدان ؟

« فإنه إن كان صدق الله قد ازداد بكذبى لمجده ، فلماذا أدان أنا بعد كخاطىء ؟ » (رو ٣ : ٧) .

قلت إن دخول الشر كان له طرفان : طرف هو قضاء الله (وقضاؤه هو قضاء السماح) ، وآخر هو مسئولية الإنسان ؛ وذلك لأنه فعل بحريته واختياره .. وقد نشأ من فكرة قضاء الله هذا السؤال : لماذا يسمح الله للشر بالدخول ؟ وهذا ما أجبت عليه فى الموضوع الماضى تحت العنوان : « العناية وأخطاء البشر » . ويترتب على مسئولية الإنسان أن الخاطىء سيدان على ما فعل وهذا ما نراه الآن ، تحت سؤال المعترض الذى يخاله بولس الرسول : « فإنه إن كان صدق الله قد ازداد بكذبى لمجده ، فلماذا أدان أنا بعد كخاطىء ؟ » .

أما أن صدق الله قد يزداد بكذب الإنسان لمجده ، فهذا ما رأيناه بالتوسع فيما مضى ؛ وهو بمعنى آخر : أن شرورى قد حولها الله للخير ، وللبركة فقد تمجد فيها .. لقد صارت خطاياه سلما ارتقت به عناية الله لعمل الخير .. أو قنطرة عبرت عليها لعمل الخير .. فان كان هذا هو ما حدث ، وإن كان سماح الله لشرورى ذا استخدام جيد لها ، وإن كان الله قد أدارها للخير لمجده ، ولبركتى وبركة غيرى ، « فلماذا أدان أنا بعد كخاطىء ؟ » هل من عدل الله أن يستفيد من خطاياى ، ثم يديننى عليها ، كما لو كانت أنتجت شراً على طول الخط ؟!

ويحمل المعنى الخاص للقرينة هنا على اليهود : أن عدم أمانتهم لا تبطل أمانة الله ، بل بالعكس يبينها ويظهرها ، فلسان حال اليهودى — بغض النظر إذا كان آمن أم لا — لماذا أدان عن عدم أمانتى هذه مع أنها أظهرت أمانة الله ؟

ومع ذلك فإن معناها كبداءة أوسع من هذا .. فإن هذا لسان حال كل معترض حال كونه عمل شرا فحوله الله إلى خير ، فيقول : إن كان لابد أن أجرى شرى هذا لكى يتم الخير . فلماذا أدان بعد كخاطىء ؟

والآن بعد أن فهمنا معنى السؤال ، أرجو أن ينير الله أبصارنا لمعرفة الجواب فى مسئولية الإنسان .

(١)

أولا : وقبل كل شيء — أن الله قضى ، ولكن نحن لم نسلك سلوكنا الخاص فى فعل خطايانا بمجرد أن الله قضى .. لقد كنا أحراراً وبيننا وبين أنفسنا ندعم حريتنا ، ونثبت مسئوليتنا ، ونبين قصدنا .. لقد جعل قضاؤه ما سمح به محتوما منذ الأزل ، ولكنه قضاء السماح ؛ إنه إرادتنا ، تحت حيز مسئوليتنا ، ومادمنا عملنا باختيارنا ننال جزاء أعمالنا .. وعامل الشر ينال عقاب الشر ، مهما

كانت النتيجة التى ترتبت على شره .

إننا نرى هذا فى كل الأمثلة التى ذكرتها فى الموضوع الماضى — التى تبين أن الله قد أخرج من الشر خيراً .. فإن جميع هذه الأمثلة تعلن أن فاعليها أحرار يقرون بحريتهم ، ويعلنون أنهم قصدوا الشر .

وأوضح هذه الأمثلة إعتراف أخوة يوسف . قال لهم يوسف : « إن كنتم أمناء فليجلس أخ واحد منكم فى بيت سجنكم ، وانطلقوا أنتم وخذوا قمحاً لمجاعة بيوتكم ، وأحضروا أخاكم الصغير إلى فيتحقق كلامكم ولا تموتوا . ففعلوا هكذا وقالوا بعضهم لبعض : حقا إننا مذنبون إلى أخينا ، الذى رأينا ضيقة نفسه لما استرحمنا ولم نسمع ؛ لذلك جاءت علينا هذه الضيقة . فأجابهم رأوبين قائلا : ألم أكلمكم قائلا لا تأثموا بالولد وأنتم لم تسمعوا . فهوذا دمه يطلب ! » (تك ٤٢ : ١٩ — ٢٢) هذا حديث قوم يشهدون أنهم :

١ — مذنبون إلى أخيهم .

٢ — وقعوا فى ضيقة استحقاق فعلهم بأخيهم .

٣ — أنهم أثموا بالولد .

٤ — أنهم لم يسمعوا لنصح أخيهم الأكبر .. هذه هى شهادتهم الخاصة عن أعمالهم الشخصية !

ولم يكن هذا المشهد المؤثر هو المشهد الوحيد الذى يبرهن على شعور إخوة يوسف بمسئوليتهم عن عملهم بأخيهم . فقد حدث بعد موت أبيهم أن قامت مخاوفهم من انتظار الدينونة المستحقة ! وقالوا لعل يوسف يضطهدنا أو يرد علينا جميع الشر الذى صنعنا به ! فأوصوا إلى يوسف قائلين : أوصى أبوك قبل موته قائلا هكذا تقولون ليوسف : آه . اصفح عن ذنب اخوتك وخطيئتهم ، فإن صنعوا بك شرا ، فالآن اصفح عن ذنب عبيد إله أبيك » . (تك ٥٠ : ١٥ — ١٧) . تأمل كيف تكررت فى فصل قصير كهذا كلمات المذنوبية عدة مرات (الشر — ذنب — وخطيئتهم — شراً — ذنب) وتأمل جدية أخوة يوسف فى اعتبار هذا عملا منهم هم ، يحتاج إلى الصفح ، والطلب الملح فيه .. هذا شعور شخصى يدل على حرية إرادة . ويدل على استحقاق الدينونة ..

نعم الله أرسل يوسف . ولكن كيف ؟ عن طريق أناس أحرار هم أرادوا أن يرسلوا يوسف .. سمح الله أن يعملوا كل ما فى إرادتهم .. وكل ما فى إرادتهم هو إثمهم ، وهم يشهدون أنهم مسئولون عنه .. ولو أن الله سمح بذلك ليحيى شعباً كثيراً ... فكلمات يوسف التى قالها « ولكن الله فقصد به خيراً » ، قال قبلها بكل صراحة « أنتم قصدتم لى شراً .. » .

لاداعى لتكرار ما ذكر فيما مضى .. يمكنك أن ترجع إلى كل قصة لتجد فيها ما وجدناه فى قصة بيع يوسف ..

لكن أريد أن أذكر شيئا عن الحال التى سيكون عليها الناس يوم الدينونة . أو كيف يقف الأشرار

فى خزى وعار ، أمام الله ، شاعرين بمسئوليتهم واستحقاق الدينونة ..

أوضح المسيح هذا فى مثل « لباس العرس » وقال فيه : « ياصاحب كيف دخلت إلى هنا وليس عليك لباس العرس ؟ » الجواب « فسكت » (مت ٢٢ : ١٢) لا جواب ! لا يوجد عنده رد ! ذنبه ألجم لسانه ! من يستطيع أن يقول للديان لم أصنع شراً ؟! ومن يستطيع أن يقول « أنت قد قضيت يارب ؟ ! لا رد .. وهذا ليس لأنه يهاب الموقف بل لأنه لا يستطيع أن ينكر مسئوليته !!

أو خذ تعبيرا آخر لنفس الحال .. « وملوك الأرض والعظماء والأغنياء والأمراء والأقوياء وكل عبد وكل حر أخفوا أنفسهم فى المقابر ، وفى صخور الجبال وهم يقولون للجبال أسقطى علينا وأخفينا عن وجه الجالس على العرش ومن غضب الخروف . لأنه قد جاء يوم غضبه ومن يستطيع الوقوف ؟ » (رؤ ٦ : ١٥ ــ ١٧) . أما الدخول فى المقابر والصخور فواضح أنه هروب من أمام هيبة الرب ، من بهاء عظمته ، عند قيامه ليرعب الأرض !! » (إش ٢ : ١٩) . والالتجاء إلى الجبال واضح أنه التجاء من دينونة مرعبة لشر ذميم ، دينونة تأكل كل العود الرطب واليابس أكلا .. (لو ٢٣ : ٣٠ ، ٣١) . إن هذا يعنى أن الناس سيطلبون الموت « ولا يجدونه ــ ويرغبون أن يموتوا فيهرب الموت منهم » (رؤ ٩ : ٦) . لماذا ؟ من وجه الغضب ، وهم يعرفون أن خطاياهم تستحق الغضب !!

هذا هو سبب هروب الشرير ولا طارد ! (أم ٢٨ : ١) . فى الحقيقة يوجد طارد ، لكنه فى داخله .. إنه يحكم على نفسه .. إنه يطارد نفسه .. وهذا أصدق حكم لأنه يعرف نفسه وشهادته على نفسه أنه مجرم يستحق الدينونة ..

لماذا يسرق اللص فى الظلام ، أو فى الخفية ؟ إنه يريد أن لا يُرى . وهذا حكم منه على أن ما يفعله غير جائز . هو يدرك ذلك ويدرك أنه يفعل ذلك اختياراً بحيث لو ضبط يستحق حكم العدل . وكم من خطايا لا يفعلها فاعلها إلا فى الظلام !

لماذا يسلم المجرم نفسه أحيانا وقد لا تكون أى شبهة تحوم حوله !! ما هذا إلا صوت الضمير الذى يصرخ فى الإنسان صراخا أقسى من عدالة الأرض فيريد عدالة الأرض عساها تخفف من صراخ الضمير .. إن هذا يدل على شعور بالمسئولية ..

لماذا ينكر المجرم جريمته ، ولكن على حين غرة تنهار أعصابه ، فيدلى باعتراف كامل ؟ ما هذا إلا شهادة من ذلك بأنه يعلم علم اليقين أنه مسئول يريد أن يتهرب من المسئولية فقط ..

كل سلوك .. وأى سلوك .. يثبت من هذا الطريق أو ذاك أن الإنسان موقن أنه حر ، مسئول ، يستحق عقاب خطاياه .

إن ما جاء عن يهوذا الاسخريوطى من هذا القبيل قال « أخطأت » ولم يقل ظلمنى القضاء « أخطأت إذ سلمت دما بريئاً !! » وقد كان رد رؤساء الكهنة والشيوخ رد الفاهمين بأن يهوذا يعنى أنه يشعر بمسئوليته . وقد قالوا « ماذا علينا ؟ أنت أبصر » (مت ٢٧ : ٣ و ٤) . ولما لم يفلح فى إنقاذ « الدم البرىء » الذى يعتبر نفسه المتسبب فى إهراقه ، لما لم يفلح فى إصلاح ما أفسده ،

وأدرك أنه أفسده « مضى وخنق نفسه ! » (ع ٥) .

كل ما قلته حتى الآن هو حكم المرء على نفسه . لا شك أنه حكم حق تابع عن إدراك حق لسلوك الإنسان ، ومسئولية الإنسان .. وحتى الذى يكذب أمام الناس ليبرىء نفسه ، بينه وبين نفسه لا يبرؤها !! وقد يأتى الوقت الذى فيه يدينها !! ومن قبيل هذا محاولة التنصل من المسئولية المستقاة من القول « لماذا أدان أنا بعد كخاطىء ؟ » ففى الحقيقية يحاول الإنسان أن يخدر أو يخدع ضميره ليهدأ عنه ولو لأجل مسمى !!

فإذا اعتبرنا هذا الحكم عادلا من الإنسان على نفسه أنعتبره جائراً من ديان الأحياء والأموات ؟ « إن لامتنا قلوبنا فالله أعظم من قلوبنا ويعلم كل شىء » (١ يو ٣ : ٢٠) . حين ندين أنفسنا بأننا خطاة لأننا خطاة ، وجب أن نقبل دينونة الله العادلة لأعمالنا الشريرة مهما كانت نتائجها ..

(٢)

ولنلاحظ أمراً ثانياً يدخلنا تحت المسئولية من أعمالنا ، ومن ثم أستحقاق الدينونة وهو : أننا قصدنا سوءا ولو أن الرب فى عنايته يحول — لأجل مجده — شرورنا إلى خير .. نحن لم نقصد الخير الذى أتى به الرب من شرنا بل قصدنا شرنا ذاته ! لذا فنحن ندان عن شرنا لا على النتيجة التى أتت منه لو لم تكن قد أتت !!

لو أنك عملت حسناً وأتت النتيجة رديئة (علما بأن الله لا ينتج الردىء من الحسن ، فعامل آخر جعلها رديئة وسمح له الله) لبدأت تبرر نفسك : أنا لم أقصد كذا ، كنت أقصد كذا . إننى عملت كذا ، إن هدفى كذا لا كذا .. وما إلى ذلك .. وما هذا إلا اعتراف منا بأننا مسئولون عن نياتنا .. فلماذا نعترف بهذا حين نقصد الخير ويأتى الشر ، ولا نعترف به حين نقصد الشر ويحول الرب شرورنا إلى خير ؟!!

مهما يكن الأمر سواء اعترفنا أم لا ، فإننا نحاسب عن العمل الذى عملناه وقصدناه ، بغض النظر عن النتيجة التى يحولها الله للخير من أعمالنا الشريرة .

هذا هو شأن بلعام بن بعور : قصد بلعام أن يلعن .. وسأل الرب أيذهب ! فأجاب الرب لا ! وأتى الرسل ثانية وسأل بلعام الرب ثانية لعل الرب هذه المرة يسمح له أن يذهب ليلعن ذلك الشعب ويأخذ الأجرة ، وكان يجب أن يفتكر بلعام بأن الرب غير متقلقل فى قصده .. فحين رأى الرب بلعام مصراً على الذهاب ، مشتاقا إليه سمح له أن يذهب على شرط أن يقول ما يقوله الرب ، .. وذهب بلعام على انتظار أن يضع الرب فى فمه لعنة ، ولكن الرب وضع بركة ! وحاول أن يغير الموقف ، أو يرى نصف أو جزءاً من الشعب لعل الرب يلعن ، ولكنه بارك ثلاث مرات !!

ومع كل هذا بلعام مصر أن يلعن ؛ فلعن بطريق آخر غير الكلمات ، بوضع العثرة : عرض بنات موآب لذلك الشعب ، فزنى مع بنات موآب ، « فدعون الشعب إلى ذبائح آلهتهن فأكل الشعب وسجدوا لآلهتهن . وتعلق إسرائيل ببعل فغور » . (عد ٢٥ : ١ — ٣) . وينص الكتاب صريحا

بأن هذا « حسب كلام بلعام » (عد ٣١ : ١٦) . وأخذ بلعام أجرة الإثم (٢ بط ٢ : ١٥) . ويعتبر يهوذا فى رسالته أن هذه ضلالة (يه ١١) .

فإذا كان فى قلب بلعام ، بعد كل هذه المحاولات ، أن يلعن :

١ ـــ بعد رد الرب لا تذهب .

٢ ـــ تعمل الأمر الذى أكلمك به فقط .

٣ ـــ وقوف الملاك فى طريقه وهو نفسه أدرك أن هذا قبيح فى عينى الرب الذى خرج للمقاومة (عدد ٢٢ : ٣٢ و ٣٤) .

٤ ـــ وبعد توبيخ الأوثان له .

٥ ـــ وبعد كلمة الرب فى فمه ثلاث مرات للبركة ، ثم نبوته ..

٦ ـــ وبعد أمنيته أن يموت موت الأبرار وأن تكون آخرته كآخرتهم ! بعد كل هذا كانت نفس بلعام مصممة على أن تلعن !!! أفلا يدان بلعام كخاطىء ولو حول الرب اللعنة إلى بركة !!

يقول الكتاب ، ويحرص أن يقول : « وبلعام بن بعور قتلوه بالسيف » (عد ٣١ : ٨) .

وقس على ذلك .. فإن كل الذين ذكر عنهم أنهم دينوا ، قد دينوا عن مقاصدهم الشريرة ـــ عن أفعالهم ، ونواياهم فى حد ذاتها ، بغض النظر أية نتيجة وصلت إليها أعمالهم .. وبغض النظر عما ترتب عنها من خير نتيجة عمل الرب لا نتيجة شرورهم هم ..

حتى الذين يريدون أن يبرروا أنفسهم بالمبدأ الزائف « الغاية تبرر الواسطة ! » أو فى لغة الكتاب على لسان قوم يقولون « لنفعل السيئات لكى تأتى الخيرات » (رو ٣ : ٨) [1] فمنطقهم لا ينطبق هنا : إن الغاية التى قصدوها هى الشر .. و لم يقصدوا أن يكون الشر واسطة إلى غاية هى الخير !! هم قصدوا الشر .. الله هو الذى قصد الخير[2] ولا يجوز أن ينسبوا قصد الله إليهم .. إنهم يدانون على قصدهم الشرير وعملهم الشرير فهم مسئولون عنه ..

لا علاقة لقصد الشرير بأعمال العناية إطلاقاً . فإن الشر فى هذا الأمر فى واد ، والعناية فى واد آخر .. ويدان الشرير عن شره ، كما لو لم يتحول الشر إلى خير ..

يدان بلعام عن قصد اللعنة كما لو لم تتحول إلى بركة ...

يدان يهوذا عن تسليم الرب كما لو لم يتحول إلى واسطة خلاص لكل العالم ..

يدان أشور وبابل عن سبى شعب الرب كما لو لم يكن قد تحول هذا إلى قصاص مستحق إلى

---

(١) المعنى الأصلى فى القرينة أن هذه هى التهمة التى أتهم بها الرسول بولس كمعلم للتبرير بالإيمان .. ولكنها تؤخذ على مدى أوسع .. الرسول برىء منها ولكن غيره لا ..

(٢) طبعا لا يفهم من هذا أننى أوافق على مبدأ الغاية يبرر الواسطة ولو لم أناقشه لأن ذلك ليس مكانه هنا .

ذلك الشعب المتمرد ..

إن كل هذه النتائج لا تدخل فى حساب الدينونة قط .. فما يدخل هو قصد الإنسان وفعل الإنسان ..

(٣)

ولنلاحظ أمراً ثالثاً يوقفنا أمام الله فى مسئولية عن أعمالنا ويوجب الدينونة على الخاطىء وهو : كوننا خطاة ندان كخطاة ..

إن نص الاعتراض ضد المعترض ! إن كان صدق الله قد ازداد « بكذبى » لمجده فلماذا أدان أنا بعد « كخاطىء » ؟ إنه يشهد عن نفسه بأنه « كاذب ، خاطىء » وكان يرجو أن تمجيد الله نفسه بنتائج عمل عناية الله بخطاياه يوقفه موقف المبرر ! وقد رأينا أن خط الرجعة قد قطع عليه ! إذ لاحظنا أنه لا شأن له بعناية الله .. إن هذا لا يغير من شره قط .. والآن أريد أن نرى أنه خاطىء فيجب أن يدان كخاطىء ...

ليست العبرة فى مجرد العمل فإن الله لا ينظر إلى مجرد أفعال الخطايا فرادى فى السلوك الشخصى ، وإلا لاختلف فى معاملة خطاة وخطاة .. ولما قال الكتاب بأن « من حفظ كل الناموس ، وإنما عثر فى واحدة فقد صار مجرماً فى الكل » (يع ٢ : ١٠) .. فإنه فى الحقيقة من الناحية السلوكية خطايا هذا أعظم وأكثر من خطايا ذاك .. فكيف يعتبر كلاهما مجرماً فى الكل ، ويذهب كلاهما إلى جهنم ، ويعذب كلاهما خالدين !!؟ الأمر هو نظرة أدبية من جانب الله ، فإنه ينقم على الخطية أينما وجدت .. إن الله لا ترضيه (ليس فقط أعمال وسلوك البشر . بل أكثر من هذا لا ترضيه طبيعة الخطية الموجودة فى البشر . وليس الاعتبار لمجرد الخطايا فرادى أو كمجموع ، كثيرة أو قليلة ، ثقيلة أو خفيفة .. بل الإعتبار فى نظر الله لهذا كخاطىء ، وهو ينال أجرة الخطية — ذات طبيعة الخطية يجب أن تهلك إن لم يكن فى هذه الحياة عن طريق الخلاص ففى الأبدية عن طريق العذاب !! الله يريد أن يزيل أساس الفساد ...

بهذه النظرة يمكننا أن نرى الله حانقاً على الخاطىء ، بغض النظر عن النتيجة التى إليها قد آلت خطاياه ... إن الخاطىء خاطىء ، ومعنى ذلك أنه مدان ...

يهم الله أن تأتى الخيرات .. إن لم تأت عن طريقى ، أتت عن طريق غيرى ، وإن كنا نعاند ونعمل الشر بدل الخير ، يحول الرب الشر إلى خير ... ولكن فاعلى السيئات أشرار ، وكون سيئاتهم أعقبها الله بالخيرات ، لا يغير اعتبار الله لهم .. وماداموا أشراراً فهو يدانون ..

وهذا المعترض القائل : « إن كنتت خاطئا ولكن الله تمجد بخطيتى فلماذا أدان كخاطىء ؟ » هذا معترض بلا حق .. إن الله يدين الخاطىء لمجرد أنه خاطىء ...

لا نستطيع أن نتصور إلها قدوساً يتساهل مع الخطية لأجل نتائجها ! هذا محال ! إن إلهنا الذى غضب على الملائكة الساقطين (يه ٦) لا يمكن أن يتساهل ، كذلك مع أية خطية فى بشر .. ما أقبح الشر لديه .. « ما أقبح أعمال الاثم لديه !! (أنظر تك ٣ : ١٤ ، لا ١٠ : ١٥ ، تث

٧ : ٢٥ و ٢٦).« عيناه أطهر من أن تنظرا الشر ولا يستطيع النظر إلى الجور » (حب ١ : ١٣).تأمل نقمة الله على الخطية (زك ٨ : ١٥) لدرجة أن يبغض أعياداً واعتكافات ، لا يرتضى بمحرقات وتقدمات ، ولا يلتفت إلى ذبائح السلامة من المسمنات (عا ٥ : ٢١ و ٢٢) وذلك لأن الاعتكافات مخلوطات بالاثم (إش ١ : ١٤) إنه لا يطيق الإثم والإعتكاف !! إن الرب يعتبر الخطية رجساً ، من أجل ذلك يبغضها ... (إر ٤٤ : ٤) ومن قداسة الله أنه لا يساكنه الشرير ، لا يقف قدام عينيه المفتخرون . أبغض الاثم من جميع الناس ، فليس من واحد دون آخر (مز ٥ : ٤ و ٥) لكن أعظم وأعجب ما يقال عن غضب الله ضد الخطية ، يظهر فى صليب المسيح ! لا يشفق على ابنه الذى حمل خطايانا ، وذلك لأنه لا يشفق على هذه الخطايا التى حملها .. حتى يسوع حين حمل خطيتى يدان عنها ، لأنه بدلى ومكانى يعتبر خاطئا ، والخاطىء لا ينجو من الدينونة .. . .

فهل يعقل أن إلهاً مثل هذا : قدوس ، يحب القداسة ، يبغض كل خطية من أى شخص ومن كل شخص ، إلى الأبد .. حتى لو حملها يسوع .. هل إله مثل هذا يتساهل مع الخطية فى إنسان سواء أتت نتائج خطاياه طيبة أم لا !! فى الحقيقة سمح الله للخطية ، لأنه دائما يعرف كيف يتمجد فى نتائجها .. ولكن هذا لا يغير من بغض الله للخطية ... وغضب الله على الخاطىء !! لابد أن تدان الخطية .. ومن أجل هذا قيل عن إلهنا إنه « نار آكلة » (عب ١٢ : ٢٩) .

« لماذا أدان أنا بعد كخاطىء » لماذا تدان أنت بعد كخاطىء ؟ لماذا تدانين أنت بعد كخاطئة ؟ ذلك لأننا نحن فعلا خطاة .. قد أغظنا الإله القدوس بخطايانا ، وهو فى قداسته ، متمسك بموقفه من الخطية ، موقف البغض الذى لا يتغير . ولا يوجد ما يغير مكاننا أمامه (طبعا من أنفسنا — أنظر نمرة (٤) .

لماذا ندان ؟ ندان لأننا فعلنا رجساً قبيحاً أمام الله وقصدنا شراً وفساداً ، سرنا فى طريق الإثم وأحببنا أعمال الإثم .. وسماح الرب لنا بعمل آثامنا ليس إرغاما لنا على ذلك . وقد سمح لنا لغرض يتبع عنايته ، ولكن هذا لا يمنع مسئوليتنا .. نحن ندان لأننا مسئولون . ونظل مسئولين أمام الإله القدوس عن كل مقاصدنا وأفعالنا عن كل ما فى طبيعتنا الفاسدة ، وشر قلوبنا ، وندان ..

(٤)

كان يمكن أن أنتهى إلى هنا ولكن لا أريد أن أترككم فى الظلام .. أريد أن أقول ملاحظة أخرى هى ، أن الله نقل دينونتنا على المسيح .. فقد أخذ موقفنا كخطاة ، وحمل آثامنا فعوقب عنها على الصليب . لكن لا يفيد من موته إلا من يقبل عمل المسيح الكفارى لأجله مؤمنا به ، متكلا على عمله الخلاصى .. كل من يؤمنْ به لا يدان : « لأن الله لم يرسل ابنه .. ليدين العالم بل ليخلص به العالم . الذى يؤمن به لا يدان . والذى لا يؤمن به قد دين لأنه لم يؤمن باسم الله الوحيد ... » (يو ٣ : ١٧ و ١٨) .

لاحظوا معنى الفرق بين صيغتى الفعلين « لايدان » و « قد دين » الحق أن كلا الشخصين

خاطىء ، وخاطىء معناه لابد أن يدان .. هذا ما لاحظناه فى الفقرة الماضية .. لكن أحدهما ــ وهو الذى آمن ــ قد رفعت الدينونة عنه ، من أجل هذا « لا يدان » كل المستقبل أمامه خال من الدينونة !! أما ذاك الذى رفض الإيمان بالابن « فقد دين » إنه خاطىء أصلا ولم ترفع عنه هذه الخطية أو الدينونة ــ مستمر على حاله ــ لذا قد دين من الأصل .. فبرفض الإيمان منع عن نفسه الخلاص وكأنه حكم على نفسه بالدينونة ؛ إذ أكد الحكم الأصيل .. من أجل هذا يضيف البشير إلى الآيات السابقة أيضا : « وهذه هى الدينونة أن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة ــ أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة » (ع ١٩) .

لماذا أدان ؟ لأنى خاطىء مغضوب علىّ من إله قدوس ، ولم أرض بأن أنجو من هذه الدينونة بالطريق الذى جهزه لى هذا الديان يسوع المسيح المخلص .

إننا خطاة يا إخوتى : وتبرير أنفسنا لا يأتى من كون شرورنا أنتجت خيراً ، بل من كون يسوع المسيح قد حمل الدينونة التى نستحقها .. إن آمنا بهذا أفدنا من موت المسيح لأجلنا وخصص الروح القدس لنا فوائد الفداء . وإن لم نؤمن فلن توجد أى محاولة أخرى لخلاصنا .. الدينونة التى كانت علينا تثبت علينا ، ودمنا على رؤوسنا !!

لقد وجد حل وعلاج لهذه المشكلة ، وهو الحل الأخير ، به يمكن أن ننجو من الدينونة . ليس لأننا لا نعتبر خطاة .. ولكننا نعتبر خطاة مفديين .. لا تضيع الفرصة الآن !!! تب الآن !!! آمن الآن !!! تعال ، أقبل واخلص الآن !!!

ثم إياك أن تفتكر أن لخطاياك نتائج طيبة تحرضك على التمادى فيها ... نعم لها النتائج الطيبة بفعل العناية . ولكن هذا ليس ذريعة للتمادى فى الخطية .. لا يجوز أن نقول « لنعمل السيئات لكى تأتى الخيرات » .. إن خطاياك جعلت الآب لم يشفق على المسيح ، بل صلبته ، ولن تشفق عليك ... إرجع عن الخطية .. أترك أمر إصلاح خطاياك وعناية الله التى تحول أخطاء البشر لمجد الله .. أنظر إلى مسئوليتك وارجع عن الخطية ...

(ثانيا)

بالنسبة للخلاص

نأتى الآن إلى أمر من أعوص عوائص المسيحية هو عن الخلاص .. ما مكانه بين قضاء الله ومسئوليتى . ومرة تكلمت فى هذا الموضوع لشباب الكنيسة الإنجيلية بالأقصر فانهالت علىَّ سيول الأسئلة ، وقاطعنى الشباب وأنا أتكلم .. وبعد نهاية الحديث ساروا معى يسألوننى ، وجلسوا معى يسألوننى ، واعتقد أننى إذا تكلمت كذلك فى أى مكان آخر سيحدث نفس الأمر ..

وقد يخطر لك وأنت تقرأ أن تسأل سؤالا .. وفى الغالب سيأتى عنه الجواب لو تتمهل قليلا حتى تقرأ بعض السطور إلى الأمام أو بعض الصفحات أو سيأتى الجواب فى موضوع آت .. تمهل لا تسبق الترتيب المنطقى للحديث ...

وإذا كنت معى ومقتنعاً بالفكرة فى الموضوعات السابقة فسر على رجاء أن يفتح إلهى بصيرتى وبصيرتك إلى الحق الكتابى ... وإلا فأرجىء قراءة هذه الفصول حتى النهاية ثم اقرأ هذه بعد ذلك .. أو اقرأها الآن ثم بعد نهاية الكتاب إقرأ هذه الفصول تحت العنوان « بالنسبة للخلاص » .

- الاختيار والإقبال .
- الإله الطيب .
- « إجعلوا دعوتكم واختياركم ثابتين » .
- مصدر القداسة البشرية .
- « ليأت ملكوتك » .

الاختيار والإقبال

« كل من يعطينى الآب فإلىَّ يقبل ومن يقبل
إلىَّ لا أخرجه خارجاً » (يو ٦ : ٣٧) .

سبق أن نظرنا فى الكلمة الأولى رأى قوم يقولون بأن الله اختار أناساً بمقتضى علمه السابق ، بما سيكون من أمر هؤلاء .. أى أن الله رأى فى سابق علمه أن هؤلاء سيؤمنون بالمخلص فعينهم للحياة الأبدية ، وأن أولئك سيتقسون فعينهم للهلاك .. أى أن الإنسان الحر هو الذى يقرر مصيره ...

وانتهينا إلى أن هؤلاء القوم لم يفهموا معنى « علم الله السابق » بأنه علم الاختبار مبنى على الاختيار ، ولاحظنا أن هذا الرأى ينكر مكان النعمة ، والقصد ، وأنه يجعل الله متفرجاً ، وأن السيادة للإنسان على نفسه ... ثم رفضنا هذا الرأى .. واتفقنا على أن الله اختار الإنسان بمقتضى القصد والنعمة ، ومع هذا فإن الإنسان حر الإرادة ، مسئول ...

ومن الإنصاف أن نرى اعتراضات هؤلاء القوم أيضا ...

ماذنب الآخرين الذين لم يخترهم الله ؟! كيف أخلص وكيف يطلب منى أن أتوب وأرجع إن كنت لست من المختارين ؟! سأخلص سواء رجعت أم لا إن كنت مختاراً !! لماذا تتعب نفسك وتبشر ، وتعظ ، ولماذا يتعب كل الناس نفوسهم إن كان شىء يقال له اختيار ؟ وبهذا المعنى !؟ هل إله العدل والمحبة ، إله الفداء يختار أناساً دون آخرين لمجرد قصده بهذا دون ذاك ؟!

أما الاعتراضات التى تختص بالله ، وعمله وطبيعته ، فموضوعها سيأتى فيما بعد ، وهنا مكان باقى الاعتراضات تحت هذا العنوان : « الاختيار والإقبال » ولكى نستطيع أن نجيب عن هذه الأسئلة يجب أن نتأمل فى بعض الأمور :

(١)

أولا : هل من لزوم لاختيار على الإطلاق ؟! الرد موجود فى هذه الآية التى تصدرت هذا الموضوع « كل من يعطينى الآب فإلىَّ يقبل » (يو ٦ : ٣٧) وفى كلمة واحدة أقول يلزم الاختيار لكى نقبل إلى المسيح للخلاص .. وللتوضيح أقول :

١ — الاختيار يعطى الميت رغبة فى أن يقبل إلى المخلص .. هذا إنسان ميت بالذنوب والخطايا ، كيف يطلب من نفسه أن يحيا ؟ من أين له الرغبة فى أن يأتى إلى المسيح المخلص ؟ هذا غريق فى بحر الخطية ، كيف يمكن له أن يطلب نجدة ؟! كيف يشعر بثقل بحار الخطية عليه ؟! هذا قلبه قاس لا يلينه أى شىء — فشلت فيه التخويفات ، فشلت فيه التوددات ، فشلت فيه المواعيد ، فشلت فيه المرغبات ، فشلت فيه العقوبات ، كيف من نفسه ومن قلبه القاسى يأتى إلى المخلص ؟؟

تأمل قول الرسول « عسى أن يعطيهم الله توبة لمعرفة الحق فيستفيقوا من فخ إبليس إذ كان قد اقتنصهم لإرادته ! » (٢ تى ٢ : ٢٦) .

مخدرون ، لا يحسون ، يحتاجون إلى مفوِّق لكى « يستفيقوا » . يحتاجون إلى ما يعمل فيهم لكى « يرجعوا إلى نفوسهم » (لو ١٥ : ١٧) . يحتاجون إلى المنبه الذى يجعلهم يحسون بالحالة التى هم فيها ، وبالحالة التى يجب أن يكونوا عليها .. وهذا جميعه ليس فى يدى الناس .. لا من أنفسهم ولا من آخرين .. بل الله هو معطى التوبة ، الله هو معرف الحق ، وعندئذ يستفيقون . هذا هو عمل النعمة ، تبكيت روح الله للناس شاهداً لهم بالمسيح المخلص ، مؤتى البر لأنه قام من الأموات ، وصعد إلى السماء ، ديان رئيس هذا العالم — فمن يقبل شهادة الروح عن المسيح ، وتبكيت الروح له بذلك ، فهذا هو الذى استفاق ، ويخلص ...

وإعطاء التوبة نعمة ، تقدم للمختارين ، وبناء عليها يُقبلون : « كل من يعطينى الآب فإلىَّ يقبل » . وقد قال المسيح لليهود « لستم تؤمنون لأنكم لستم من خرافى » (يو ١٠ : ٢٦) . فعطية الإيمان مقصورة على خراف المسيح .. ومن هذا القبيل يقول الكتاب : « وآمن جميع الذين كانوا معينين للحياة الأبدية » (أع ١٣ : ٤٨) .

لا يستطيع الإنسان من نفسه أن يقوم من موت الخطية ، إنه يقام .. يحتاج إلى حياة ، إلى مفوق من فخ إبليس ، إلى نعمة تقيمه من وسط الحمأة ، إلى تليين القلب وتهيئة الذهن ... إعطاء هذه النعمة معناه الاختيار ..

الشيء الذى اعتبره حقى ليس نعمة ؛ فإنه حقى ! الشيء الذى أجهزه بنفسى لنفسى ليس نعمة ؛ هذا فى طاقة يدى ، ولا حاجة لى أن ينعم به علىّ ! النعمة شيء لا أستحقه يعطى لى مجاناً ، شى لا أستطيع الحصول عليه بنفسى ، يجهزه لى غيرى فيعطى لى كاملاً معداً ...

من أجل هذا اختار الله أناساً لكى يهبهم هذه النعمة — لكى يعمل فيهم أن يأتوا ومن الوجهة الأخرى يأتون ..

إلى هنا رأينا لزوم القضاء من هذه الوجهة . فهل هذا معناه أن لا حرية إرادة للإنسان ؟! يقول الكتاب هنا « ومن يقبل إلىّ لا أخرجه خارجاً » . ولو ننظر إلى هذا الجزء من الآية لنرى كما لو لم يكن الله قد قضى والإنسان آت بنفسه ! بل هكذا يفسرها أناس فعلا .. ومع عدم وصولها إلى نفس النتيجة التى يصلون إليها فى تفهم القضاء عن الله ، فإننا نوافقهم فى نسبة الحرية للإنسان ، ووقوع المسئولية عليه ..

إن الله يعمل فينا لنأتى ، فلنأت !! فإن عمل الله فينا لإيقاظنا من غفلتنا يستلزم أن نستجيب له ، ويستلزم أن نستفيق وأن نقبل — إن الله يعمل فينا فلنحقق عمله فينا ...

٢ — والاختيار يعطى الخاطيء الشجاعة لكى يقبل فينال الخلاص ..

منذ سقط الإنسان وهو فى عداوة مع الله : إنه يخاف الله : ولا يستطيع أن يقترب منه : الله قدوس كيف يجرؤ أن يتقابل معه وهو يحمل جرم خطيئته ؟! والأفضل أن ترى القصة من الأول :

ـــ آدم أين أنت ؟

ـــ سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فاختبأت .

لا يستطيع آدم أن يتقابل مع إلهه : إنه يخشى الدينونة ! إنه يرى نفسه حاملا عاراً وخزياً ! ولو ترك آدم على هذه الحال لظل إلى الأبد مختبئاً من وجه الله !! محروماً من الله !!

إسمع اختبار شخص آخر : « فى سنة وفاة عزيا الملك رأيت السيد جالساً على كرسى عال ومرتفع وأذياله تملأ الهيكل : السرافيم واقفون فوقه ، لكل واحد ستة أجنحة . بإثنين يغطى وجهه وبإثنين يغطى رجليه وباثنين يطير . وهذا نادى ذاك وقال : قدوس قدوس قدوس رب الجنود ، مجده ملء كل الأرض ! فاهتزت أساسات العتب من صوت الصارخ وامتلأ البيت دخاناً .. فقلت : ويل لى ! إنى هلكت ! لأنى إنسان نجس الشفتين وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين ، لأن عينى قد رأتا الملك رب الجنود ! » (إش ٦ : ١ ـــ ٥) .

مهما كانت مكانة أى إنسان ، فهو لا يجرؤ أن يدنو من الله !! وما يجعلنا نهرب من هذه الرؤيا هى خطيتنا ليس إلا !! فكيف لأجل خطيتنا هذه نأتى إلى الله ؟! إن إلهنا رب قدوس لا يتساهل مع الخطية ، مهما كان الأمر . إنه ديان للخطية ، وهذا ما يرعبنا .. بأى حق نأتى إليه .. لا عذر لنا .. كل عذر أقبح من الذنب !! ليس فى يدنا ما نستطيع أن نكفر به .. الله لا يطلب أقل من هلاك الخاطىء !! وعدم أحقيتنا فى أن نقول كلمة تورثنا الرعب ، وتجعلنا نهاب الاقتراب من الله ...

بيننا وبين الله هوة عميقة حفرتها خطايانا . ونحن لا نستطيع عبورها ، لكى ندنو من الله ، ولكن فى الوقت الذى فيه يعسر علينا أن نقترب نحن من الله اقترب هو الينا .. وهذا هو الاختيار ...

لم يكن آدم هو الذى طلب مقابلة الله ، بل الله هو الذى طلب مقابلة آدم .. وتم فى هذه المقابلة عمل العدل ، وعمل الرحمة ، وذبحت ذبائح ، وكسى عرى آدم وحواء ، ووعد بالخلاص عن طريق نسل المرأة ..

لم يكن إشعياء هو الذى عبر الهوة ، بل الله .. لقد طهر شفتيه ، وكفر عن إثمه ودعاه للخدمة ..

لم تكن السامرية هى التى طلبت أن تخلص ، بل المسيح هو الذى طلب أن يخلصها ، وأن يخلص مدينة كاملة عن طريقها ..

لم يكن شاول هو الذى طلب أن يؤمن ، وأن يكون قديساً ورسولاً ، المسيح هو الذى طلب هذا إذ لاقاه ، وكلمه ، ورسم أمامه الطريق ...

ولا واحد من هؤلاء أو من غيرهم من كل العالم يجد فى نفسه الشجاعة لكى يدنو إلى الله ، وبالتالى لكى يدنو إليه ويقول خلصنى !!

وقد قال المسيح صريحاً . ليس أنتم أخترتمونى بل أنا أخترتكم (يو ١٥ : ١٦) . قال هذا عن تلاميذه ، ويقول ذات القول عن الجميع « لا يقدر أحد أن يقبل إلَّى إن لم يجتذبه الآب الذى أرسلنى .. » (يو ٦ : ٤٤) وإلا فلا يقدر .. ولن !! لا يأنس الخاطىء فى نفسه الإقدام لكى يأتى إلى الله ...

لكن قوماً أعطاهم الله لابنه ، هؤلاء يجتذبهم إليه ، وهذا هو الاختيار ... إنه فتح الباب المقفل أمامهم .

كون الله يختار أناساً معناه أنه له رغبة فى خلاص على الإطلاق .. إنه يريد أن يخلص .. وعلى رجاء أن لله رغبة فى أن يكون مخلصاً قبل أن يكون ديانا ، أن يكون حناناً قبل أن يكون ناراً آكلة ، آتى أنا وتأتى أنت ، ونعجب إذ نجد أنفسنا خلصنا ! وسنجد انفسنا من ضمن المختارين ...

من ذا الذى وضع فينا هذه الشجاعة لكى نأتى .. الله الذى اجتذبنا ، وإلا فلن نأتى ... ولن !!

إننا بحرية اختيارنا نستجيب لجذب الله لنا حين نعلم أن له غاية فى خلاص قوم ، على رجاء أنه يريد أن يخلص نأتى لكى نخلص ..

حينما يقول المرنم « لأن عندك المغفرة لكى يخاف منك » (مز ١٣٠ : ٤) يقصد هذا الأمر . فلو أن لا مغفرة ، لكان الناس ييأسون قائلين : ما الفائدة من تقوى الله ؟ إننا هالكون هالكون !! إن اتقينا أو لا ، هالكون .. فلا نتق .. ولكن حيث توجد المغفرة عند الرب يستجيب الناس لهذه الرغبة عند الله برغبة عندهم هى طلب المغفرة ، هى التقوى ، هى الخوف من الله ...

إذا كان هذا هو ما يقوله النور الذى فى العهد القديم فى زمن الخلاص بالناموس الذى لم يستطعه أحد ، فكم بالحرى فى عهد الإيمان ، عهد النعمة الذى معناه أن لا نخلص من أنفسنا ، وبأنفسنا ، بل عن طريق الله ، بعمل منه هو عمله لنا على الصليب .

إن الاختيار أساس راسخ ، ودليل قاطع على هذه الرغبة عند الله فى خلاص أناس ، من أجل هذا يحثنا هذا الدليل القاطع على الإقدام ، نلبى هذه الدعوة من الله ، آتين متكلين على أن الله يقصد خلاصنا .. يقول الرسول بولس « حسب قصد الدهور الذى صنعه فى المسيح يسوع ربنا الذى به لنا جراءة وقدوم بإيمانه عن ثقة .. » (أف ٣ : ١١ و ١٢) . إن جراءتنا وقدومنا مبنيان على عمل المسيح لأجلنا « حسب قصد الدهور » قصد خلاصنا ..

والفرق هنا بين المختار وغير المختار من وجهة نظر الإنسان هو الفرق بين من له رجاء يبعث على القدوم والإقبال ، ومن لا رجاء له .. الذى يتعلل بأى علة لكى لا يأتى !!

ونستطيع أن نلاحظ هذا كثيراً عند فراش محتضر على حافة الموت ... بعض يقبل نعمة الله ، متكلا على رجاء وعد الله وعمل المسيح ، ويخلصون .. ولكن بعضاً آخر يقول : « أأضحك على نفسى أم على الله ! أبعد أن فنيت ، أبعد أن عرفت أنى مائت ، آتى إلى الله !؟ أيقبلنى الله ؟ هذا محال ! » ويذهب فى عدم رجائه إلى مكانه !!

إن من آمن من هذين ، آمن متكلا على رجاء قبول الله له ؛ ومن لم يؤمن ، تقسى لأنه اعتبر أن الباب موصد أمامه .. والاختيار هو أن يقول الله لنا فتحت الباب أمامكم إننى عينت بعضاً للحياة الأبدية ، لكى نكون واثقين من أن من يجتذبه الآب لكى يقبل إلى المسيح له رجاء ...ويأتى من يأتى ، على رجاء أن الباب مفتوح أمامه . ويجده مفتوحا فعلا ...

قال المسيح « كل من يعطينى الآب فإلىَّ يقبل ومن يقبل إلىَّ لا أخرجه خارجاً » .

٣ ـــ ثم الاختيار يعطى العاجز قدرة ليتوب ويتجدد ...

واضح جداً أنه لا يستطيع أى شخص بنفسه أن يترك خطيئته !! يستطيع ذلك بفضل معونة إلهية خارجة عنه ، وهذه هى معونة النعمة .. ونعمة معناها أنها تستلزم الاختيار لأنها من حق من ينعم وليس من ينعم عليه .. وهذا الخلاص بالنعمة ملأ الكتاب المقدس : « بالنعمة أنتم مخلصون بالإيمان . وذلك ليس منكم هو عطية الله ـــ ليس من أعمال كيلا يفتخر أحد . لأننا نحن عمله مخلوقين فى المسيح يسوع لأعمال صالحة قد سبق الله فأعدها لنا لكى نسلك فيها . » (أف ٢ : ٨ ـــ ١٠) . « لست أبطل نعمة الله ، لأنه إن كان بالناموس بر فالمسيح إذاً مات بلا سبب » . (غل ٢ : ٢١) . « وبهذا يتبرر كل من يؤمن من كل ما لم تقدروا أن تتبرروا منه بناموس موسى » . (أع ١٣ : ٣٩) . « لأنه ما كان الناموس عاجزاً عنه ، فى ما كان ضعيفاً بالجسد ، فالله إذ أرسل ابنه فى شبه جسد الخطية ، ولأجل الخطية ، دان الخطية فى الجسد » (رو ٨ : ٣) .

من هذه الآيات ، وغيرها كثير ، نستطيع أن نستخلص هذا الأمر : أننا إذا تركنا لأنفسنا (عن طريق الناموس ، وهذا هو طريقه دائما) لكى نتوب بأنفسنا ونبطل خطايانا بأنفسنا .. فإننا لاشك فاشلون ، والناموس الذى لا يعطينى أى قوة لكى أتمم مطالبه ، ضعيف عن أن يخلصنى ، وأن يهبنى نصرة على الخطية .. هذا هو الداعى وهذا هو السبب الذى لأجله مات المسيح ، لكى يعطينا هذه النصرة على الخطية ، لكى ينزع سلطانها منا ، لكى يعيننا أن نتوب ، لكى يقدم لنا حياة جديدة ... كل هذا لا نقدر أن نجهزه لأنفسنا ... لقد ثبت أننا فشلنا فى هذا الأمر ... كل هذا يجهزه لنا المسيح على الصليب ، ويحققه فينا الروح القدس .. وهذه العملية عملية خلق جديدة « مخلوقين فى المسيح يسوع لأعمال حسنة » . وهذه الأعمال الحسنة التى يعدنا الروح القدس لها فى المسيح يسوع ، هى أيضاً « قد سبق فأعدها لنا لكى نسلك فيها ... » .

دعنا نرى هذا الأمر فى اختبار الرسول نفسه ! ويصف لنا هذا فى (رو ٧) كم جاهد ضد الخطية ، ولكن النتيجة التى وصل إليها هى : « لست أفعل ما أريده ، بل ما أبغضه فإياه أفعل .. لأن الإرادة حاضرة عندى ، وأما أنْ أفعل الحسنى فلست أجد ، لأنى لست أفعل الصالح الذى أريده ، بل الشر الذى لست أريده فإياه أفعل .. أجد ـــ حينما أريد أن أفعل الحسنى ـــ أن الشر حاضر عندى . فأنى أسر بناموس الله بحسب الإنسان الباطن ، ولكنى أرى ناموساً آخر يحارب ناموس ذهنى ويسبينى إلى ناموس الخطية الكائن فى أعضائى » (ع ١٥ : ١٨ و ١٩ و ٢١ ـــ ٢٣) . وإذ وصل إلى حالة اليأس صرخ الصرخة المرة : « ويحى أنا الإنسان الشقى ! من ينقذنى

من جسد هذا الموت ؟ » (ع ٢٤)(١) .

لم يأنس فى نفسه القدرة على كسر نير الخطية عن نفسه ، لم يجد فى نفسه القوة على حسم الصراع .. ويطلب مخلصاً .. مخلصاً من سلطان الخطية ..

وقد وجد هذا المخلص « بالمسيح يسوع ربنا » (ع ٢٥) ويفسر هذا القول بما جاء فى (رو ٨ : ١ — ٤) ومنه لأن « ناموس روح الحياة فى المسيح يسوع ربنا قد أعتقنى من ناموس الخطية والموت .. » (ع ٢) .

واختبارى واختبارك واختبار الجميع يؤكد أنه لا يوجد الإنسان الذى يستطيع بنفسه أن يكون قديساً ، الذى بنفسه يستطيع أن ينتصر ، أن يتغير إلى حال القداسة التى بدونها لن يرى أحد الرب ... اختبارنا يقول : لم نستطع ، ولن نستطيع بأنفسنا . ودائماً نصرخ : أعنى ! إنى أهلك ! إنقذنى من جسد هذا الموت !

وقد عرفنا فيما مضى أن المحرك لنا ، والمشجع لنا ، لكى نعرف حالنا ونطلب النجدة الإلهية : هو الله ، عن طريق الاختيار ... ولكن ليس هذا فقط ، فإن ، الله هو الذى يعمل فينا فعلاً لكى نكون صالحين .. وهذا أيضاً عن طريق الاختيار . وهذا الأخير هو ما نريد أن نراه الآن ..

إن النعمة التى تعمل لكسر سلطان الخطية عن الإنسان تعمل فى المختارين ... إن ناموس روح الحياة فى المسيح يسوع الذى يعتق من ناموس الخطية والموت ، يعمل فى المختارين .. قال بولس وبرنابا فى لسترة عن اختيار الله « الذى فى الأجيال الماضية ترك جميع الأمم يسلكون فى طرقهم .. مع أنه لم يترك نفسه بلا شاهد » (أعمال ١٤ : ١٦ و ١٧) . ولكن الله فى تلك الأجيال ذاتها لم يترك اسرائيل يسلك فى طريقه .. بل رسم بنفسه لهم طريقاً ، أعطاهم شريعة على يد موسى ، وعمل فيهم ولأجلهم لأنه اختارهم .. أما باقى الأمم فمع أنه شهد لهم عن نفسه ، لكنه لم يقدم لهم معونة لكى يتوبوا ويرجعوا عن الضلال ... ولكن لولا أن الرب عمل فى اسرائيل ، واحتمل عصيان ذلك الشعب وتمرده عليه لما كان على تلك الحال قط .. وحين أخلى يده عنهم فسدوا وضلوا ، وسبوا وتمزقوا .. بل أكملوا مكيالهم برفض المسيح !!

قال المسيح لبطرس « هوذا الشيطان قد طلبكم لكى يغربلكم كالحنطة ، ولكن طلبت من أجلك لكى لا يفنى إيمانك » (لو ٢٢ : ٣٢) . لكنه لم يطلب من أجل يهوذا .. ولولا طلبه من أجل بطرس لكان نصيبه كيهوذا ...

إنها نعمة تعطى بحسب استحسان الله وقصده لمن عينهم واختارهم ...ولولا إعطائه هذه النعمة ولولا ذلك الاختيار الذى بناء عليه أعطاها لما خلص أحد ... يعمل فينا الله لنأتى ، ويعمل فينا

(١) يرى البعض ان الرسول يتكلم هنا عن موقف الخاطىء ، وآخرون عن موقف المؤمن المغلوب ، والبعض انه يتكلم عن اختباره الخاص كخاطىء وآخرون كمؤمن مغلوب ... ومع أننى أميل الى الرأى الأخير فأرى أن هنا ليس مكان بحث هذا الأمر .. إذ لا داع .. جميعها تؤدى إلى الأمر الذى نحتاج إليه هنا وهو ان الإنسان يحتاج إلى نعمة .. إلى قوة خارجة عن النفس بسبب العجز الشخصى ..

لنتغير .. فلنأت ولنتغير ...

ولعل أحداً يريد أن يقول « ولم لا يعطى الله النعمة للجميع ، لم لا يعمل الله فى كل الناس ، لم لا تقدم الظروف للكل ؟! إن الأمر الذى نحتاج إليه هو أن تعمل النعمة فينا ، فنستفيق ، ونرغب فى أن نخلص ؛ أن تعمل فينا النعمة لكى نتشجع ونقبل فنخلص ؛ أن تعمل فينا النعمة لكى نقدر أن نقلع عن شرورنا ونخلص .. لم لا تعمل النعمة فى الجميع ؟! » .

أولا : إننا لسنا نحن الذين نتحكم فى المنعم الله صاحب النعمة . فضلاً عن أنه لا يسأل عن أعماله[1] .

ثم ـــ النعمة تتطلب اختيار الله .. ولا يكون الاختيار اختياراً إلا إذا كان للبعض ..

ومع أننا رأينا ما يكفى لإثبات لزوم الاختيار ، إلا أننى أجد نفسى أريد أن أضيف بعض كلمات عن الثلاثة دواعى للاختيار معاً ...

إن وجود اختيار أساس ثابت ، وغيره لا يمكن أن يكون أساساً لقيامتنا من الموت ، أو تشجيعنا لطلب الخلاص ، أو قدرة لنا على التوبة . كل هذه يجب أن تبنى على قصد الله وعلى عمل الله فينا ، على أمور نسلم بأنها محتومة ، والا فلا نجد لأنفسنا « الرجاء الذى هو كمرساة للنفس مؤتمنة وثابتة » (عب ٦ : ١٨ و ١٩) . ورجاؤنا مدعم على الوعد والقسم : وكلاهما اختيار الله (عب ٦ : ١٣ : ٤٠) .

هذا ما رآه الله ـــ فى حكمته ـــ لازماً حين قطع عهداً مع ابراهيم . قال الله لابراهيم : « خذ لى عجلة ثلثية وعنزة ثلثية وكبشاً ثلثياً ويمامة وحمامة . فأخذ ابراهيم هذه كلها ، وشقها من الوسط وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه ، وأما الطير فلم يشقه . فنزلت الجوارح على الجثث وكان ابرام يزجرها » (تك ١٥ : ٩ ـــ ١١) « ثم غابت الشمس فصارت العتمة وإذا تنور دخان ومصباح نار يجوز بين تلك القطع » (ع ١٧ : ١٨) . لم يجز أبرام بين القطع مع الرب مثل ما كان دائماً يراعى بين الطرفين المتعاهدين بل جاز الرب وحده .. ومن أجل ذلك ثبت هذا العهد .. كان الرب ضامنه الوحيد ، بخلاف أى عهد آخر كان للإنسان طرف فيه فسقط .. « وقد صار يسوع ضامناً لعهد أفضل » من عهد لاوى الذى دخل فيه الطرف الإنسانى ... (عب ٧ : ٢٢) .

ضمن الله عهد الذين اختارهم ، من أجل ذلك لا يمكن أن ينقض ذلك العهد !! لا يمكن أن اختيار الله يسقط أو يخيب . وهذا هو ما يجعلنا نتكل على وعد الله بالخلاص لمن يقبلون إليه ـــ الذين يجذبهم ليقبلوا ...

---

(١) وسنأتى فى الفصل الآتى الى مناقشة الأسئلة المختصة بنعمة الله .

ما لم يكن اختيار كان عهدنا مع الله فيه الطرف الإنسانى ، ولاشك نكون بلا أمل .. ولتزعزع يقيننا فى إمكان وجود خلاص .. لأنه ما لم يكن اختيار لا قصد فى خلاص أحد !!

ما ألزم الاختيار لنا لأن عدم وجوده معناه هلاكنا !!

(٢)

والآن نأتى إلى الوجهة الأخرى من تأملاتنا وهى حقيقة الاختيار :

بناء على ما تقدم نرى أنه :

أولاً : ليس الاختيار معطلا للخلاص بل ممهداً له ، فقد رأينا أنه فتح الباب الموصد لكى نقبل بدافع من الرب ، بقوة من الرب تقدر أن تخلصنا ...

هذا هو ردى على من يقول : « لا أستطيع أن أقبل لعلى لست من المختارين !! إن الاختيار يحدد حرية إقبالى ، كيف أقبل وربما الباب موصد أمامى إن كنت غير مختار ! » .

عكس هذا هو الأمر الصحيح والحق — كيف تقبل إن كان الرب لم يختر ولم يعرض أن يخلص أحداً على الإطلاق — وهذا حين لا يكون اختيار ... ولولا وجود الاختيار لكان الباب فعلا موصداً أمامك .. فإن لا اختيار معناه لا خلاص .. أما الآن فكون الله يسر أن يخلص أناساً يجعلك تأتى لكى تنال الخلاص بدلا من أن تتراجع ..

وإن كنت تفرض « لعلى » لست من المختارين ، فلماذا لا تفرض العكس ؟! « لعلى » من المختارين ...

ثانياً : ليس الاختيار باعثاً على الإهمال بل حاثاً ومحرضاً على استجابتنا لنوال بركات الله .. من جهة لنوال الخلاص ، ومن جهة أخرى للتبشير وتقديم فرص الخلاص للآخرين ..

(١) هذا هو ردى على الذين يقولون « إن كنت مختاراً فسأخلص سواء أقبلت أم لا !! » .

ما هذا الهراء ؟ إن قضاء الله يحتم مسئولية الإنسان .. لقد قضى الله أن نكون أحراراً . وقضى أن المختارين يقبلون بحريتهم إذ يحركهم ويعمل فيهم لذلك ، « كل من يعطينى الآب فإلىّ يقبل » إن كنت ترى أنك مختار ضمن الذين شملتهم النعمة فهذا ليس دافعاً للتقاعد ! إذ كان الله يعمل فيك لتقبل فليس هذا معناه أن لا تطيع عمل الله فيك !! لأنك لا تخلص ما لم تقبل !!

بالحرى عمل الله فينا يحتم علينا أن نقبل ! يجعله مسئولية علينا أن نقبل ذلك لأن الرب قد نزع كل العوائق ، ومسرة الرب أن نأتى إليه ؛ لذلك القول إن الاختيار سيخلص المختارين سواء أقبلوا أم لا ، قول مُغلوط ، لأنه يفترض أن قضاء الله واختياره قد أعدما الإنسان حرية إرادته !! ونزعا منه مسئولته !! الكتاب يقول غير هذا . يقول : مع أن الله قد اختار أناساً للحياة الأبدية ، وبناء على هذا القضاء المحتوم لابد أن يخلصوا . فعلا ، ولكن هؤلاء يخلصون عن طريق إقبالهم بحرية إرادتهم . إن إقبالهم مع أنه أمر محتوم لكنه أمر مطلوب فى الوقت نفسه ، وهو مطلوب لأنه محتوم .

إنه الاستجابة لعمل الله فينا .. وقد قلت لا نستطيع أن نصل الخيط المقطوع فنقول كيف يكون محتوماً ومطلوباً فى الوقت نفسه .. إن هذا أبعد من أفكارنا لكن الكتاب ينبر على هذا الأمر ويثبته بكل تأكيد .. كون الله قد قضى بأن تأتى لا يعنى أنك تنتظر أن يأتى الله بك قسرا ، بل ، إنه يعمل فيك لكى تأتى بحريتك واختيارك ...

قم أيها المتهاون ، أيها المتساهل ، أيها المتعثر من فكرة الاختيار !! إن اختيار الله لك قد فتح الباب أمامك لكى تقوم !! إن الله يعمل فيك لكى تعمل ، يجتذبك لكى تقبل ، فلو لم يخترك الله ، لعسير عليك أن تقبل .. ولكن كون الله اختارك ليس معناه أنه يخلصك بدون إقبالك بل عن طريق إقبالك ... لو انتظرت أن يترك لك الزمام بلا قضاء لكان انغماسك فى الشر أعظم وموتك فى الخطية دائم ، ولكن من حنان الله عليك أنه أراد أن يقيمك ، فقم ، ليس قضاء الله إلزام لك ، ولن تخلص إلا بالاستجابة لقضاء الله الذى تركك حراً تقوم وتقبل بحريتك « كل من يعطينى الآب (يقول المسيح) فإلىَّ يقبل . ومن يقبل إلىَّ لا أخرجه خارجاً » .

أيها المتهاون ! إن الله قد ترك قضاءه محجوبا عنا لكى نتصرف بناء على حريتنا كما لو لم يقض الله ، وكما لو لم يختر ... كفانا أن اختياره باعث وميسر خلاصنا ! وحجب هذا الاختيار عنا معناه أن نقبل ، نحن مسئولون عن هذا لأنه مطلوب منا حيث أن الله يحركه فينا .. ومن يقبل فقد برهن على أنه مختار . إن الله لا يرغمنا أن نخلص ولو أنه يعمل فينا لذلك .. فإن كنت تستكين قائلا إن المختار لابد أن يخلص سواء أتى أم لا ، فإن عدم إقبالك أول وآخر دليل على أنك غير مختار !!! أقبل وإلا يتم فيك القول « انظروا أيها المتهاونون وتعجبوا واهلكوا لأنى عملا أعمل فى أيامكم ــ عملا لا تصدقون إن أخبركم به أحد » (أع ١٣ : ١) .

لا تفكر طويلا فى قضاء الله واختياره لك ــ يكفى أن تعلم أنه بهذا قد فتح لك باب الرجاء .. فكر بعد هذا فى مسئوليتك إزاء دعوة المسيح لك لأن « الذين سبق فعينهم فهؤلاء دعاهم أيضا » (رو٨ : ٣٠) . فهل لبيت هذه الدعوة وأقبلت ؟ اجتذبك الآب فهل أتيت ؟ أعطاك الآب لابنه ضمن شعبه الغفير فهل أقبلت إليه ؟!

إن تفكيرك فى قضاء الله لا يجوز أن يعوزه تفكيرك فى مسئوليتك ، بل بالحرى فكرة الاختيار تعمق فينا هذا الشعور بالمسئولية ، وتدفعنا أكثر إلى الإقبال لنوال الخلاص .

(ب) وهذا رد على الذين يقولون « لماذا يبشر المبشرون ، ولماذا يعظ الوعاظ ، إذا كان الله سيخلص من يسر به بحسب قصده هو ؟! ما معنى ضياع المجهود فى أناس غير مختارين ؟! وفى نفس الوقت الله سيخلص مختاريه سواء بشروا أم لا » .

وأقصد أن أقول هذه الكلمة للوعاظ أنفسهم قبل أى شخص آخر ...

كتب بولس الرسول « احتمل المشقات حتى القيود كمذنب ، ولكن كلمة الله لا تقيد ، لأجل ذلك أنا أصبر على كل شىء لأجل المختارين ، لكى يحصلوا هم أيضا على الخلاص الذى فى المسيح يسوع مع مجد أبدى » . (٢ تى ٢ : ٩ و ١٠) .

لو لم يكن الله قد اختار أناساً لكان يحق لنا فعلا أن ندخل فى أجحارنا !! فإننا فى هذه الحالة لن نفلح قط !! كل مجهوداتنا تذهب أدراج الرياح . فإننا فى الحقيقة سنكلم أمواتاً ... ونريد منهم أن يحيوا من تلقاء أنفسهم ، وأنى لهم أن يحيوا !! نطلب إليهم أن يقبلوا ولا يمكن أن يقبلوا — لا رغبة لهم — لا شجاعة لهم ، لا قوة لهم تعمل فيهم لخلاصهم ويضحى كلا منا ! وكلام كل داع لهم لخلاص نفوسهم محض الخيال !!

ولكن شكراً لله الذى اختار أناساً ففتح أمامهم أمل خلاصهم ... وحيث أن مناداتنا تجد جواباً لها فى نفوس المختارين فيجب علينا أن نذهب إليهم . وأن ندعوهم .. أن نكرز لهم ببشارة ملكوت الله .. إن وجود الأمل أمام هؤلاء وإمكانية خلاصهم ، معناها مسئوليتنا نحن لكى نقدم لهم الدعوة ليخلصوا ...

وإذا كان يجب على المختار أن يقبل ليخلص (وهذا ما ثبت لنا) فيجب أن ندعوه نحن ليقبل . وإذا كان « كل من يدعو باسم الرب يخلص » ، وجب أن نكرز له ليدعو لأنه : « كيف يدعون بمن لم يؤمنوا به ؟! وكيف يؤمنون بمن لم يسمعوا به ؟! وكيف يسمعون بلا كارز ؟! (رو ١٠ : ١٤) . فوجود الكارز مهم كأداة توصيل الكلمة أساس الإيمان لكى يدعو الخاطىء باسم الرب ويخلص — لكى يقبل ويخلص . ويجب أن نقدم له هذه الكلمة ...

وكما رتب الله لخلاص المختارين كفارة وصليب المسيح ، وكان داع لذلك بالصليب ، ولم يقل مخلصنا إذا كان المختارون سيخلصون على أى حال لماذا أصلب ، دعا الله أناساً لكى يقدموا البشرى للخطاة عن ذلك المخلص ، ولا يجوز أن نقول إذا كان المختارون سيخلصون على أى حال فلماذا نبشر ونعظ ؟! لقد رتب الله طريق إقبال الخاطىء ليخلص وذلك عن طريق الكارز ..

لا تقل لمن ومن أكرز .. إن « من » محجوب عنا .. من هو المختار — هذا لا ندريه ... من أجل هذا وجب أن نكلم الجميع .. لا داعى أن نعلم من هم المختارون ، فقد دعينا لكى نكلم الجميع ، وسيقبل المختار حين يعمل فيه الرب عن طريق كلماتنا .. يقول الجامعة « فى الصباح إزرع زرعك ، وفى المساء لا ترخ يدك لأنك لا تعلم أيهما ينمو هذا أم ذاك ، أو يكون كلاهما جيدين سواء » . (جا ١١ : ٦) . بنفس هذا المبدأ يجب أن يسير الواعظ أن ، يقدم الكلمة للجميع لأنه لا يعلم من من السامعين سيقبل .. بحيث أن أى تقصير سيطلب من يدنا !! سيخلص المختار من الله عن طريق غيرنا فى هذه الحالة .. أو ربما حتى عن طريقنا نحن فقط بصورة غير مباشرة ، ولكن نحن مسئولون عن كل تقصير ...

فلنترك اختيار الله لله . ولنقم بمسئوليتنا خير قيام كمجرد إتمام مهمة ، بل بكل غيرة ، بكل محبة للنفوس الضالة ، إن اختيار الله يثقل علينا المسئولية كما يقول بولس الرسول « لكى يحصل المختارون على الخلاص » .

٣ — ليس الاختيار مجرداً إيانا من الحرية والمسئولية بل مشددا عليهما .. هذا ما رأيناه فيما سبق ولكن لأجل قطع سبل كل اعتراض أريد أن نتأمل فى المواضع التى سببت عند البعض أشد الشكوك

أو جعلتهم يسلكون الطريق المغلوط :

خذ مثلا قول الكتاب « ليس لمن يشاء ولا لمن يسعى بل لله الذى يرحم » . (رو ٩ : ١٦) قال البعض إن هذا القول يعنى أن قضاء الله لم يسمح بأى فرصة لحرية الإنسان ، وأثار الشكوك عند آخرين .. والحق أن الرسول لم يتعرض هنا لحرية الإرادة قط .. إنها خارجة عن قصد حديثه هنا .. إنه يتكلم عن اختيار النعمة إنه ليس بمجهود الإنسان ، وليس لأجل استحقاق الإنسان ، بل بناء على عمل من الله المنعم .. أو كما قال الرسول فى عدد سابق لهذه الكلمات « ليس من الأعمال بل من الذى يدعو » . (ع ١١) أما حين يتعرض للحرية ففى نفس الفصل بعد قليل قال « إن الأمم الذين لم يسعوا فى أثر البر أدركوا البر » . (ع ٣٠) وذلك أنهم طعموا بالإيمان فى الزيتونة الطبيعية ... » (رو ١١ : ٢١) . ليس بالسعى : بالناموس ، بالأعمال ، بالمجهود .. إنه نعمة ، ولكن النعمة لا عمل لها فينا إلا اذا أخذناها وحصلنا عليها بالإيمان .. إن من لم يؤمن حرم منها (رو ٩ : ٣١) يجب أن ندرك البر لأنه يوجد مبرر ، يجب أن نقبل لنرحم لأنه يوجد من يرحم .

لا تقل « لماذا صنعتنى هكذا ؟ » (رو ٩ : ٢٠) . ومن قال لك انه صنعك إناء للهوان ؟! لماذا لا تفرض أنه صنعك للمجد حيث أنك تجهل هذا الأمر !؟ .. الرب يدعوك : لب النداء ، وأقبل على رجاء أنك للمجد ، وستجد أن الرب لا يطرحك خارجاً أى أنك مختار أما إذا ظللت تقول « لماذا صنعتنى هكذا » بفكرة أنك للهوان ولم تقبل ستكون كذلك فعلا !

لا تقل قد فشلنى هذا الأمر عن أن أكرز ! أبداً .. بالحرى هذا يشجعك لأنه مادام لله مختارون فلا يمكن أن يضيع عملك .. وإلا فمن أدراك أن كل سامعيك هالكون ؟!!

قال المسيح « كل من يعطينى الآب فإلىّ يقبل ومن يقبل إلىّ لا أخرجه خارجاً » . بناء على هذا يجب أن يقبل إليه كل الذين عمل الآب فى قلوبهم أن يقبلوا ، وأن يعمل كل الذين سر الرب أن يستخدمهم الله كواسطة دعوته الفعالة لخلاص الخطاة ...

الإله الطيب

« التصق الرب بكم واختاركم .. من محبة الرب إياكم » (تث ٧ : ٧ و ٨) .

سبق الحديث فى أن عقيدة الاختيار تلاقى أسئلة وأسئلة .. وقد سبق أن رددت على بعضها .. وها أنا الآن أرد على ما وعدت بالرد عليه وهو ما يتصل بالله ـــ الإله الطيب ..

يقول المتسائل : إن الله عادل فهل يعقل أن يعين الله العادل أناساً دون آخرين للحياة الأبدية ؟ وما ذنب الذين رفضهم ؟ هل هذا هو العدل ؟

وسؤال آخر : لا أستطيع أن أتصور الإله المحب لا يبالى بأناس فيعينهم للهلاك ! أين المحبة ؟!

ثم هل يجوز أن نعتبر إلهاً حكيماً كإلهنا ، دبر واسطة الخلاص العجيبة فى كفارة المسيح ـــ هل يجوز أن نعتبره عاجزاً عن خلاص الجميع ، أو يجوز أن نعتبره يخصص الكفارة الكاملة للبعض ؟

وقبل أن أرد على هذه الأسئلة أريد أن أذكر بعض الأمور التى يجب أن تكون فى أذهاننا :

قد لا ندرك بعض الأمور ، فهذا لا يرجع إلى عدم معقوليتها بل إلى ضعف إدراكنا .. وما أكثر هذه الأمور التى لا نقدر أن ندركها أو « نتصورها » ـــ كما يقول القائل ـــ ومن بين هذه الأمور قضاء الله المحجوب عنا ...

ثم يجب أن يكون فى أذهاننا أن الله لا يسأل عن أعماله .. نحن مسئولون أمام الله ولكن ليس العكس ، يقول لنا الرب لماذا فعلت ولكن لا يجوز أن نقولها نحن لله .. إذا كنت تريد حرية لنفسك فبالحرى يجب أن تقر حرية الله !! حينما أقول هذا أعتبر أننى وصلت إلى أقصى درجات التجاوز .. ففى الحقيقة غريب جداً أن تقول لله لماذا فعلت !!!

ثم إننا نحكم ونفهم بحسب مقاييسنا البشرية ، وهذه لا يحكم بها على الله .. بالحرى نحن نقاس بالمقياس الإلهى وليس العكس : لا يقاس الله بالمقياس الإنسانى ...

إن هذا معناه أن نصمت وأن نقفل أفواهنا .. وكان يمكن أن نكتفى بحكم الصمت كرد كاف يزيل كل أسئلتنا واعتراضاتنا . إلا أن الكتاب المقدس يظهر نحونا حنان الله فلا يتركنا بغير نور فى بعض هذه الأمور وأرجو أن نرى رد الكتاب :

(١)

أولا ـــ إن عقيدة الاختيار لا تشككنا فى عدل الله بل بالحرى تحققه لنا ..

تعرض بولس الرسول مرتين للسؤال فى عدل الله ، وفى كليهما لم يرض أن يقدم أى جواب ، فقد اعتبر السؤال يرد على نفسه .. قال « ألعل الله الذى يجلب الغضب ظالم ؟ أتكلم بحسب الإنسان ، حاشا ، فكيف يدين العالم إذ ذاك » (رو ٣ : ٥ و ٦) . فأعتبر أن هذا السؤال لا يحتاج إلى جواب ، بعد اعتبار الله دياناً .. فإن كون الله هو ديان العالم ، فهذه شهادة بأنه عادل ، ولا يمكن أن نتصور قط فيه ظلماً .. وهذا ما يأخذه عنه إبراهيم كقضية مسلمة حين يقول « حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر — أن تميت البار مع الأثيم ، فيكون البار كالأثيم ؟ حاشا لك ! أديان كل الأرض لا يصنع عدلا !! » (تك ١٨ : ٢٥) . إن من صفات الله اللازمة : العدل كديان ، ولا يمكن أن يظلم سواء فهمت ما يعمله أم لا !!

والمرة الثانية التى فيها يسأل بولس الرسول حين قال : « فماذا نقول ألعل عند الله ظلماً ؟؟ حاشا لأنه يقول لموسى إنى أرحم من أرحم ، وأتراءف على من أتراءف . فإذاً ليس لمن يشاء ولا لمن يسعى بل الله الذى يرحم ... فستقول لى لماذا يلوم بعد لأن من يقاوم مشيئته ؟! بل من أنت أيها الإنسان الذى تجاوب الله ؟! ألعل الجبلة تقول لجابلها لماذا صنعتنى هكذا ؟! أم ليس للخراف سلطان على الطين أن يصنع من كتلة واحدة إناء للكرامة وآخر للهوان !! » (رو ٩ : ١٤ — ١٦ و ١٩ — ٢١) . وفى هذه المرة أيضاً لا يرد على السؤال الذى يثيره أو يفترضه فى قارئه بل يرى رداً فى أن الله لا يسأل .. إنه الحر المتسلط .. إنه صاحب السلطان أن يفعل ما يشاء ... نحن نعتمد على عمل الله فينا فلا نسأل ماذا تعمل ... إننا نتمم مسئوليتنا وهذا هو كل شيء ...

وهذا الإله — صاحب السلطان المطلق — هو إله العدل الذى فى كل ما يعمل لا يمكن أن ينسب إليه الظلم ... إنه عادل حالة كونه متسلطاً أيضا سواء استطعنا أن ندرك أم لا ...

ولكن من قال لك إن الشرير يهلك لمجرد أن الله رفضه ؟ أولا الله لم يرفض ولكنه يترك .. أذكرك الآن بما قلته فى قضاء السماح إن الله إن لم يتداخل لكى يعين الهالك هلك .. وقضى أن يسمح للهالك بأن يهلك ، قضى بأن يتركه يهلك لكن الله لم يهلكه ... إنه هالك طبعاً لأنه شرير ..

لكن أكثر من هذا .. أنت تسأل العدل .. أتدرى أن العدل يحكم على الجميع ، وقد حكم ؟!! « ليس بار ، ولا واحد ؛ ليس من يفهم . ليس من يطلب الله ؛ الجميع زاغوا وفسدوا معاً ؛ ليس من يعمل صلاحاً ، ليس ولا واحد ! ... لكى يستد كل فم ويصير كل العالم تحت قصاص من الله .. » (رو ٣ : ١٠ — ١٢ و ١٩) . هذا هو حكم العدل حكم القصاص على كل العالم !!! الأمر هنا فى الحقيقة خرج عن كونه شأن عدل ، فإنه شأن الرحمة .. والرحمة يقدمها الله لمن يشاء أن يقدمها له كما يقول الكتاب « إنى أرحم من أرحم وأتراءف على من أتراءف » . (رو ٩ : ١٥) والذين خلصوا لم يخلصوا لأنهم اعتبروا غير مذنبين بل لأن رأفة الله رفعت مذنوبيتهم .

فهل لأنه تراءف على البعض يحسب غير عادل ؟! إن العدل كما يفهمه البشر هو « المساواة فى الظلم عدل !!! » أى أنه لو ترك الله كل الناس يهلكون لكان فى نظر المتسائل أكثر عدلا !!! تعجب أيها القارىء من نفسك حين تسأل هذا السؤال ، وعن عدل الله !!

اسمع هذا المثل من الرب يسوع إن كان لك أذنان للسمع : أجراء اشتغلوا طول اليوم بأجر

متفق عليه : دينار ... وقد أعطاهم صاحب الكرم أجرهم الذى اتفق معهم عليه ، وجماعة أخرى اشتغلت تسع ساعات على وعد أن يأخذوا « ما يحق لهم » وآخرون ست ساعات ، وغيرهم ساعة واحدة .. وجميع هؤلاء ذهبوا ليأخذ كل منهم « ما يحق له » وأعطى الفريق الأول ما يحق لهم ، دينار ، ولكن الباقين كل واحد أخذ أكثر مما يحق له أخذوا ديناراً ، ديناراً .. فلماذا يتذمر الأولون ؟! ما الظلم الذى لحق بهم ؟! رد عليهم صاحب الكرم « ياصاحب ما ظلمتك » لقد نبرٌ على هذه الكلمات كثيراً مؤكداً العدل .. ما ظلمتك : « أما اتفقت معى على دينار ؟! فخذ الذى لك واذهب ، فإنى أريد أن أعطى هذا الأخير مثلك ! أو ما يحل لى أن أفعل ما أريد بمالى ؟! أم عينك شريرة لأنى أنا صالح ؟! » . ويعقب المسيح على هذا المثل بالقول « هكذا يكون الآخرون أولين ، والأولون آخرين ، لأن كثيرين يدعون ، وقليلين ينتخبون » (مت ٢٠ : ٢ — ١٦) .

« أم عينك شريرة لأنى أنا صالح ؟! » « أو ما يحل لى أن أفعل بمالى ؟! » ألا يحل للرب أن « يتراءف على من يتراءف » مادام الأمر يخرج عن كون العدل ؟! هل كان يجب أن يترك الجميع لكى يهلكوا !؟ حتى يكون الله عادلا بالمعنى الذى يتصوره عقل البشر ! من عرفنا العدل ؟! وكيف نقدر أن نميز عدلا وظلماً ، لكى نحكم فى قضية لا نفهمها !!! أمر لا نسأل عنه لأنه من شأن نعمة الله .

« ياصاحب ما ظلمتك » يقول الرب . فإن كل ما يحدث للشرير يستحقه ، وأكثر ... بحسب العدل الإلهى : الله القدوس لا يمكن أن يتساهل مع الخطية ... وأولئك الذين خلصهم لم يتساهل مع خطاياهم بل حملها الرب يسوع ، آخذاً كل قصاص يتطلبه العدل عنها .. إن خص الله الرحمة أناساً دون آخرين لا لأى اعتبار إلا لأن الله قصد هذا ، فلا يضير هذا عدل الله قط ، لأن من أنعم عليهم بالخلاص قد قدم ذلك لهم من فيض غنى ورحمة ونعم الله دون استحقاق لا فى هذا أو ذاك ...

ولا يشترط قط أن من أحسن إلى واحد . أن يحسن إلى الكل ؟! إن الله غير مطالب بهذا .. لله كل الحرية فى أن يوزع نعمته كما يريد ..

عادل ؟! أجل بل كامل العدل ! عجيب العدل وقد قدم أكثر من العدل : الرحمة والرأفة !!!

إننى أتصور الله ينظر إلى البشر الظالمين متألماً شديد الألم من قساوة قلوبهم ، بدلا من أن يشكروه لأنه أنعم على البعض ، ورحم البعض ، مدبراً خلاصهم يفترضون أنه كان يجب أن يرحم أيضاً — حسب استحسانهم — آخرين ، أو أن يرفض الكل !!!

فهلا نقوم نسبح الإله العادل ، القدوس ، الحق — الذى رضى بعد العدل أن يقدم لنا خلاصاً ورحمة !!! ؟ أيها المؤمن هل شكرت ؟! أيها الخاطىء هل نلت خلاص الله ؟! لماذا تتعب ذهنك وتثقله بهذه الأسئلة التى لا تدرى كنهها بالحرى ... إقبل ، نل الخلاص .. ثم اشكر الله العادل الرحيم ...

(٢)

ثانياً — إن عقيدة الاختيار لا تتعارض مع فكرة إله المحبة بل بالحرى تدعمها ..

يقول المتسائل « هل يعقل أن إلهاً محباً لا يبالى بالناس فيعينهم للهلاك ؟ هل يسر الله بموت الخاطىء ؟ ألا يعتبر الإله الذى يختار قوماً للحياة الأبدية ، ويرفض قوماً فيهلكون — ألا يعتبر قاسياً قساوة لا تليق بإله المحبة ؟ !» .

ولازال السؤال يلح على أن أكرر ما سبق فقلته ، إن الله اختار لكنه لم يرفض !! المرفوض مرفوض بخطيته ، وقد تركه الرب فى حال هلاكه .. أما ذاك فقد اختاره ليخلص ، ولولا اختياره ما خلص !!

لا يوجد فى كل الكتاب ما يثبت أن الله اختار أناساً للهلاك ، أو عين أناساً للهلاك ، أو أعد أناساً للهلاك !!! يذكر الكتاب أن الله أعد « ما لم ترعين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على بال إنسان .. للذين يحبونه » (١ كو ٢ : ٩) وأنه « أعد لهم مدينة » (عب ١١ : ١٦) . إن المسيح يعد مكاناً لتلاميذه (يو ١٤ : ١ — ٣) وأنه خلقنا فى المسيح يسوع لأعمال صالحة أعدها لنا لكى نسلك فيها (أف ٢ : ١٠) وأنه أعد آنية الرحمة للمجد (رو ٩ : ٢٣) . ولم يذكر مرة واحدة أنه أعد شخصاً للهلاك ، أو هيأه للهلاك . قد يذكر « إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته » . (مت ٢٥ : ٤١) فهذه هيأها لهم ، ولكنه لم يهيئهم لها . والفرق فى هذا عظيم ، فرق بين قضاء عادل على الخاطىء لأنه خاطىء ، وبين إعداد الخاطىء لذلك القضاء !!

لكن فى آية من هذه الآيات السابقة ذكر « فماذا إن كان الله وهو يريد أن يظهر غضبه ويبين قوته احتمل بأناة كثيرة آنية غضب **مهيأة** للهلاك ، ولكى يبين غنى مجده على آنية **رحمة قد سبق** فأعدها للمجد » (رو ٩ : ٢٢ و ٢٣) . تأمل هنا الفرق بين التعبيرين « مهيأة للهلاك » ثم « **قد سبق فأعدها للمجد** » الله لم يهيىء أحداً للهلاك .. جميع الناس مهيأون بخطاياهم .. وبعض من هؤلاء المهيئين للهلاك سبق فأعدهم للمجد .. وترك الباقين كما هم بل لاحظ الفرق فى موقف الله من هؤلاء وأولئك . إن إعداد قوم هالكين ونقلهم من حالة الهلاك إلى المجد أمر يبين غنى مجد الله لأنه عمل مباشر ، عمل نعمة غير مستحقة لولاه لما تحول هؤلاء قط .. أما بالنسبة للآخرين فإن احتماله بأناة كثيرة (وفى ذلك كل ما يعنى ضيق نفس الله منهم ومن شرورهم) لآنية الغضب ، عمل العناية التى حولت أخطاء البشر إلى مجد الله فى إظهار غضبه وبيان قوته (كما رأينا فى موضوع سابق) وهذا هو السبب الذى لأجله سمح بشرورهم ، وسمح بأناته عليها واحتماله لها .

إن الله لم يعين الخاطىء للخطية وللهلاك ؟! كلا هو معين بطبيعته وقد تركه الله هكذا وله الحق فى ذلك ، وقد رأينا أنه لم يظلمه !! بل بالحرى كم تألم من خطاياه كما يقول : « أتعبتنى بآثامك » (إش ٤٣ : ٢١) . إن الله لا يسر بموت الشرير » لكن حكم العدل ، لابد أن ينفذ .. قضاؤه بشرور الشرير ، وقضاؤه بعدم اقبال الشرير للخلاص قضاء السماح ، وتحت مسئولية ذاك يقع هلاكه ...

ليس هذا مكان السؤال ألا يبالى الله بهلاك الشرير ؟! فإن العدل عدل ... أما من جهة مبالاة

الله فإنه قد « احتمل بأناة كثيرة » وفى هذه الكلمات كل ما يغنيك عن السؤال « ألا يبالى ؟! » لا توجد قساوة من جانب الله على الشرير ، ولا تعنت ! القساوة من جانب الشرير ، لأنه قاسى طبعاً ما لم يلين قلبه الله !!! مصير القساوة العدل .. أما ذاك الذى أخذ الرحمة فكنعمة من الذى يدعو ...

وكم سئل هذا السؤال : « لكن ألا يحب الله الجميع ؟! لماذا يكون الله كالمحابى يعمل فى أناس لخلاصهم بينما لا يعطى آخرين فرصة مساوية لهم ؟ ثم يطلب منهم نفس الإيمان الذى يطلبه من الذين عمل فيهم ليؤمنوا !!

لئن كان هذا السؤال يسأل عن الناس فلا يجوز أن يسأل عن الله ذلك لأن الله لا يجاوب ، ثم لأننا لا نعلم سر اختياره بل أكثر من هذا ليس اختيار الله مثل تمييز أب لأحد بنيه عن الآخر ولكن كتمييز حاكم لأحد المجرمين عن الآخر ، فإطلاق الحاكم صراح مجرم لا يلزم الحاكم بإعطاء كل المجرمين ذات الحرية وذات العفو !! تذكر القول « أو ما يحل لى أن أفعل ما أريد بمالى !! » (مت ٢٠ : ١٤) .

وقد ينبر البعض على أن محبة الله تبدو بلا معنى عندما يشيرون إلى ما جاء عن يعقوب وعيسو : « لأنه وهما لم يولدا بعد ولا فعلا خيراً أو شراً لكى يثبت قصد الله حسب الاختيار ليس من الأعمال بل من الذى يدعو قيل لها (لرفقة) إن الكبير يستعبد للصغير كما هو مكتوب أحببت يعقوب وأبغضت عيسو ! » (رو ٩ : ١١ — ١٣) ويقول هؤلاء : « هل يبغض الله ؟! بل هل يبغض بلا سبب ؟! » .

ولكى نفهم معنى « أبغضت » يجب أن نرجع إلى الاستعمالات الخاصة بهذه الكلمة فى الكتاب المقدس بكلا عهديه ..

فمثلا ترد هذه الكلمة بالمعنى الصريح معنى الكراهية فى ما يقوله يفتاح : « أما ابغضتمونى أنتم وطردتمونى » (قض ١١ : ٧) . وكذا كان شعار القدماء كما يقول المسيح : « تحب قريبك وتبغض عدوك » (مت ٥ : ٤٣) . هذه البغضة هى العكس الصريح للمحبة ...

ولكن جاء فى أماكن أخرى استعمالات أخرى : مثلا نقرأ عن يعقوب أنه : « أحب راحيل أكثر من ليئة . ورأى الرب أن ليئة مكروهة ففتح رحمها . وأما راحيل فكانت عاقراً ... » (تك ٢٩ : ٣٠ و ٣١) . فهنا يذكر الكتاب عن يعقوب أنه أحب ليئة ولكن ليس بالقدر الذى به أحب راحيل ، وحين يذكر الكتاب عن ليئة أنها مكروهة فليس لأنها مكروهة فعلا بل لأن محبة يعقوب إياها لا تذكر بالنسبة لمحبته لراحيل بل تعد كالبغضة إذا قيست بمحبته لراحيل .

ثم خذ مثلا آخر قال المسيح : « من أحب أباً أو أماً أكثر منى فلا يستحقنى . ومن أحب إبناً أو إبنة أكثر منى فلا يستحقنى » (مت ١٠ : ٣٧) . وذات المعنى عبر عنه بقول آخر : « إن كان أحد يأتى إلى ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وإخوته وأخواته حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون لى تلميذاً » (لو ١٤ : ٢٦) . ومفهوم أن الله لا يأمر قط ببغض الأهل ، أو الزوجة

أو الأولاد أو النفس .. أبداً !! بل يوصى بهذه .. ولكن فى نور الكلمة — الماضية . نفهم أن المسيح يعتبر أننا لو وضعناه فى المرتبة الثانية للمحبة — فنحب أحداً أكثر منه — لاعتبر ذلك كأننا نبغضه بالمعنى الذى يعتبر يعقوب فيه يبغض ليئة .. بل يريد المسيح أن يحتل هو المكان الأول فى المحبة ، قبل الأهل وأقرب الأقربين حتى النفس ، وكون هذه فى المرتبة المتأخرة من المحبة فتعتبر كالبغضة ...

وإلا فكيف تفهم معنى القول « من يمنع عصاه يمقت ابنه ومن أحبه يطلب له التأديب ؟! » (أم ١٣ : ٢٤) . مفهوم أن ذلك الذى يمنع عصاه عن إبنه يمنعها من فرط إشفاقه عليه فهل هذا يمقته بمعنى الكراهية والمقت ؟! إن الحكيم هنا يوازن بين من يحب ابنه حق المحبة ومن يحبه أقل فيعتبر أن الذى يحب أقل « يمقت » .

ثم كيف تفهم القول : « من يحب نفسه يهلكها ، ومن يبغض نفسه فى هذا العالم يحفظها إلى حيوة أبدية ؟!» (يو ١٢ : ٢٥) . ألا تفهم من هذا القول إن المسيح يعنى أن من يضع النفس فى المرتبة الأخيرة — حتى لتبدو محبته لها بغضة — فهذا يحفظ هذه النفس إلى حياة أبدية ؟!

وبنفس المعنى نفهم القول « لا يقدر أحد أن يخدم سيدين لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر ، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر » (مت ٦ : ٢٤ : ، لو ١٦ : ١٣) . فيعتبر الرب أن وضع الواحد فى المرتبة الأولى من المحبة معناه أن الآخر فى المرتبة الأخيرة ويدعوها البغضة ، ووضع الواحد فى المرتبة الأولى من الملازمة ، معناه أن الآخر فى المرتبة الأخيرة ، وهى الاحتقار ...

بهذا الفهم لكلمات الكتاب نفهم قول الرب « أحببت يعقوب وأبغضت عيسو » فإنه متى ذكرت المحبة والبغضة فى مكان فى الكتاب المقدس فى مقام مقارنة كان معنى البغضة المحبة فى المرتبة الأخيرة أو وضع ذلك الشخص فى حالة عدم المبالاة به ...

لاشك أن إسحق كان يحب كليهما ، بالحرى كان يحب عيسو أكثر والبركة التى نطق بها ليعقوب كان يقصد بها عيسو ... ثم أتى عيسو فعلا وعلم اسحق أنه بارك يعقوب ثم « بارك » عيسو بركة أشبه باللعنة مع أنه يحبه ذلك لأن البركة الثانية أشبه باللعنة ، وهو مضطر لذلك لأن الملعون لا يبارك ، وقد لعن فى بركة اسحق ليعقوب ... وهذه البركة التى نطق بها ليعقوب ، تشير إلى لطف الله ونعمته وما حل بعيسو هو الأمر الطبيعى الذى يجب أن يحل على أى مستبيح !!

لم هذا دون ذاك ؟! بناء على أى شيء ؟! هل بلا سبب ؟! بناء على لا شيء : « وهما لم يولدا بعد ولا فعلا خيراً أو شراً لكى يثبت قصد الله حسب الاختيار ليس من الأعمال بل من الذى يدعو . » بناء على لا شيء إلا قصد الله حسب اختياره .. هذا ليس معناه بلا سبب بل بلا استحقاق ، فإن لا سبب فينا معناه أن الله أحبنا فضلاً . هذا ليس معناه محاباة من الله ، بل نعمة من الله على المحبوب الذى عين للحياة الأبدية ...

والأمر العجيب أن نسأل لم أحب الله هذا دون ذاك !! إننا فى الحقيقة لا نسأل البشر : لم تحب هذا دون ذاك ؟! فهل نسألها لله ... قد جرى هذا القول مجرى المثل « الحب أعمى ! » وهذا بالنسبة للناس ، ويقصدون بذلك أنهم لا يحبون لشيء فى المحبوب بل لشيء فى المحبين لمجرد أنهم

أحبوا ... أفنستكثر هذا على الله ذى « الحب البصير » !!؟

إننا فى ظروف مثل هذه لا يمكن أن نحب .. حاولت مرة أن أقنع واحداً أن يغفر خطايا من أساء إليه وأن يحب من يبغضه فقال « هذا مستحيل !! أتطلب منى المستحيل ؟! إننى أنتظر الفرصة لأنتقم !! » أقل ما يمكن أن يقال وأفضل موقف بشرى هو ألا نبغض وكفى !! فما رأيك فى إله وليس إنسان ، قدوس لا خاطىء ، عظيم وليس تراب مثلنا ، وبعد هذا يحب أعداء ويقصد خلاصهم والإحسان إليهم !!

لا تقل « لا أستطيع أن أتصورالآن المحب يختار أناساً دون غيرهم » . من فضلك « تصور » وإذا لم تستطع فلا يهم إن تصورت أم لا !! فإنه فى الحقيقة أبرز ما فى اختيار الله المحبة !!

لولا محبة الله فضلا لترك الهالك يهلك — أى لترك الجميع — ولما اختار قط أن يخلص إنساناً لانتقم لكرامته ومجده كما تنتقم أنت !! ياللمحبة !!

إن محبة الله هى التى اختارت فأخرجت من العدم شيئاً يذكر ، أخرجت من الحجارة أولاداً لإبراهيم ! أخرجت من الصيادين ، والعشارين ، والخطاة والسفاحين والأنانيين ، والغضوبين ، والمهرجين ، والمتشككين — رسلاً !! والقول الذى قاله الرب لهم « ليس أنتم اخترتمونى بل أنا اخترتكم » (يو ١٥ : ١٦) قاله لهم وسط شرحه محبته لهم التى يجب أن يقتدى بها (يو ١٥ : ٩ — ١٧) . المحبة هى التى كانت أساس اختيار بولس الرسول ، فأخرجت من المجدف رسولاً ! من المضطهد — المفترى رسولا !! سر الله الذى أفرزنى من بطن أمى ودعانى بنعمته أن يعلن ابنه فىَّ لأبشر به بين الأمم .. » (غل ١ : ١٥ و ١٦) . « جعلنى للخدمة أنا الذى كنت قبلاً مجدفاً ومضطهداً ومفترياً ، ولكننى رحمت لأنى فعلت بجهل فى عدم إيمان . وتفاضلت نعمة ربنا جداً مع الإيمان والمحبة التى فى المسيح يسوع . صادقة هى الكلمة ومستحقة كل قبول أن المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلص الذين أولهم أنا » (١ تى : ١٢ — ١٥) .

ألا تستطيع أن ترى محبة الله فى أناته على الخاطىء الهالك !! احتمل بطول أناة « آنية غضب مهيأة للهلاك !! » .

أى محبة غير محبتك ياإلهى كلفت المحب صليباً !!؟ أى محبة حملت العار من أجل المختارين المحبوبين !!؟

لا تخف ياعزيزى على محبة الله !! لا تخف أن تتعارض عقيدة الاختيار مع فكرة محبة الله فى عقلك أو عقل غيرك .. سواء فهمتها أم لا !! أقل ما يمكن أن يقال لك قول الرب « لأن أفكارى ليست أفكاركم ولا طرقكم طرقى يقول الرب . لأنه كما علت السموات عن الأرض علت طرقى عن طرقكم وأفكارى عن أفكاركم » (إش ٥٥ : ٨) .

لا تخف على إله المحبة من « تهمة » الاختيار .. إن المحبة ليست مجرد صفة فى الله بل طبيعة . ليس « الله محب » بل « الله محبة » فالله المحبة ، هو الله الديان ، وهو الإله الراحم الرحيم ، وهو الله الغاضب ، وهو الله المتأنى ، كل هذا يعمله فى المحبة .. فحين يختار « الله المحبة » لا تنشغل !! ولا

تتعثر !!

لا تقل لماذا لم يحب الله بعض الناس ، أنت لا تتحكم فى إله المحبة ! لا تشغل نفسك فى : من ومن اختارهم ؟ إن هذا مخبوء عنى وعنك ! لا تقل لماذا لم يحبنى ؟ فمن أدراك أنه لم يحبك ؟! إن ما يجب أن تقوله هو : يجب أن أقوم بشيء ، بأن أصغى لصوت الله الذى أحبنى ، أن أتكل على هذه المحبة لخلاصى .. تعال إلى الأحضان المفتوحة إليك ، تعال إلى القلب الرحيب ، الذى اختار أن يحولك من عدوه إلى حبيبه .. هذا هو ما يجب أن يشغل بالك ..

« لا تعاتب » الله على اختياره ومحبته ! ليس لك هذا ! لا تضيع وقتاً فى أشياء ستعرفها أفضل عن طريق الاختبار ، آمن بالرب يسوع المسيح تنل بر الله ، وستجد أن « محبة » الله قد انسكبت فى قلبك بالروح القدس المعطى لك (رو ٥ : ٥) إن الله المحب الذى رضى أن يختارنى ويختارك للحياة الأبدية لا يستحق أن يلام لأنه اختار قلائل ، بل يستحق أن يشكر لأنه أحب ، واحتمل ، أن يحمد ويمجد لأجل نعمته المتفاضلة !!

أناشدك ياعزيزى أن تستجيب للصوت المحب ، لقلب الرب المتألم من خطاياك ، ومع هذا يرجو خلاصك ونجاتك ؛ أناشدك أن تستجيب للمحبة العجيبة التى تفوق المعرفة (أف ٣ : ١٩) وأن تردد صداها . هل أدركت يوما أن الله أحبك وأحسن إليك مع أنك أبغضته ، وأتعبته بآثامك ، وعاديته فى القول والفكر ؟! وهل كسرت المحبة قلبك ؟ هل عرفت أنك مدين لله بكل شيء ، وأن له كل قلبك ، كل حبك وأنه يجب إزاء محبته أن تكون كل محبة أخرى عندك كالبغضة ؟!! عندئذ تستطيع أن تعرف أن إله الاختيار هو إله المحبة ..

(٣)

ثالثاً ـــ إن عقيدة الاختيار لا تهين كفارة المسيح بل بالحرى ترفعها ..

السؤال الذى يخطر على بال الكثيرين هو : إذا كان الله قصد خلاص الجميع بتقديمه كفارة المسيح الكاملة فكيف يعجز الله ، وكيف تعجز هذه الكفارة عن خلاص الجميع ؟!

إن هذا فى الحقيقة سؤال يحوى عدة أسئلة نفهمها أكثر لو نأخذها واحدةً واحدةً :

أولا : السؤال عن كمال كفارة المسيح هذا لا يختلف فيه اثنان فلنتركه .. إنه عمل الله الكامل .. الذبيحة الكاملة . الذى قدم مرة واحدة . الكاهن الكامل الذى ليس له حاجة إلى تقديم ذبائح عن نفسه . الكاهن الدائم إلى الأبد على رتبة ملكى صادق . إدرس هذه النقط فى (عب ص ١٣ : ١٠ ـــ ٣١)

ثم هل قصد الجميع بكفارة المسيح ؟! لأنه إن كان قد قصد الجميع بكفارة المسيح فلابد أن يتم قصد الله ، ويكون هذا معناه اختيار الجميع ـــ الأمر الذى يشهد كل معترض على عقيدة الاختيار باستحالة حدوثة .. الكل يسلم بأنه يوجد هالكون .. فهل دخل هؤلاء الهالكون ضمن قصد خلاصهم عن طريق الكفارة الكاملة ...

أو فى صورة أخرى هل كفارة المسيح الكاملة محدودة فى قصدها أم عامة مطلقة ؟! قال البعض عامة وقال آخرون إنها محدودة فى قصدها بالمختارين[1] ... ومن الإنصاف أن نلقى نظرة إلى رأى كل ...

١ ــ قال الرأى الأول قد ورد فى العهد الجديد آيات كثيرة تفيد بأن كفارة المسيح عامة وهى :

(أ) ما أتى فيها نص على أن المسيح مات لأجل العالم مثل : « هوذا حمل الله الذى يرفع خطية العالم » (يو ١ : ٢٩) . « لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية » (يو ٣ : ١٦) . لأنه خبز الله هو النازل من السماء الواهب حيوة للعالم ... والخبز الذى أنا أعطى هو جسدى الذى أبذله من أجل حيوة العالم » (يو ٦ : ٣٣ و ٥١) . « فإن كانت زلتهم غنى للعالم ونقصانهم غنى للأمم فكم بالحرى ملؤهم .. لأنه إن كان رفضهم هو مصالحة للعالم فماذا يكون اقبالهم إلا حيوة من الأموات » (رو ١ : ١٢ و ١٥) . « إن الله كان فى المسيح مصالحا العالم لنفسه غير حاسب لهم خطاياهم » (٢ كو ٥ : ١٩) . « وهو كفارة لخطايانا . ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضا » (١ يو ٢ : ٢) .

ولنلق نظرة على هذه الآيات قبل أن نتركها إلى مجموعة أخرى . فإن كلمة العالم وردت فى مواضع مختلفة بمعانى مختلفة مثلا « صدر أمر من أوغسطس قيصر أن يكتتب كل المسكونة » (لو ٢ : ١) هل يعنى كل المسكونة على إطلاقها أم بالمعنى المحدود ؟! وواضح أن يأمر ويحكم فى دائرة امبراطوريته .. ثم « كان فى العالم وكون العالم به ولم يعرفه العالم » . (يو ١ : ١٠) الكلمة الأولى هنا تعنى الكون وليس الناس .. والثانية تعنى الخليقة وليس الناس فقط .. والثالثة تعنى القوم المحدودون الذين عاش بينهم ولم يعرفوه .. ثم « وقام واحد منهم اسمه أغابوس وأشار بالروح أن جوعاً عظيماً كان عتيداً أن يصير على جميع المسكونة . الذى صار أيضا له أيام كلوديوس قيصر » . هل هذا يعنى كل قارات العالم ؟ كلا بدليل ما أتى فى العدد التالى : « فحتم التلاميذ حسبما تيسر لكل منهم أن يرسل كل واحد شيئا خدمة إلى الإخوة الساكنين فى اليهودية » (أع ١١ : ٢٨ و ٢٩) فهؤلاء فقط فى الحقيقة الذين صار عليهم الجوع ... « أرطاميس الإله العظيمة .. التى يعبدها جميع آسيا والمسكونة » (أع ١٩ : ٢٧) . فلا آسيا كلها ، ولا المسكونة كلها كانت تعبد أرطاميس بل بعض من هذه ... « وجدنا هذا الرجل مهيج فتنة بين جميع اليهود الذين فى المسكونة » (أع ٢٤ : ٥) . وواضح أنه يعنى اليهود بين شعوب كثيرة ... « إن أيمانكم ينادى به فى كل العالم » (رو ١ : ٨) . والعالم هنا لا يعدو الذين لهم علاقة بهم ويسمعون عنهم ... « حق الإنجيل الذى حضر إليكم كما فى كل العالم أيضا ... » (كو ١ : ٥ و ٦) . ولا يمكن أن يقصد هنا سوى حضر إلى جميع الأمم المعروفة آنئذ وليس كل أفرادها بل كل الأمم ..

وقد وردت كلمة العالم بمعنى محدود فى أماكن كثيرة : « إن كنت تعمل هذه فأظهر نفسك للعالم » (يو ٧ : ٤) فقال الفريسيون بعضهم لبعض أنظروا أنكم لا تخضعون شيئا هوذا العالم

---

(١) عممها الارمينيون وخصصها الكلفينيون ــ ولو ان بعض الآخرين انشأوا رأيا آخر وسطا سيأتى عنه حديث .

قد ذهب وراءه » (يو ١٢ : ١٩) . « قال له يهوذا ليس الإسخريوطى ماذا حدث حتى أنك مزمع أن تظهر ذاتك لنا وليس للعالم » . (يو ١٤ : ٢٢) « أجابه يسوع قائلا أنا كلمت العالم علانية » (يو ١٨ : ٢٠) تأمل (رو ١١ : ١٢ و ١٥) التى وردت سابقاً لدليل على فم من ينادون بقصد عام تجد أنها لو حتى عنت هذا لعنت كل الشعوب إلا إسرائيل !! وتأمل (يو ٦ : ٢٣ و ٥١) التى وردت أيضا على لسانهم وذكرت سابقا فإنها لو قصد بها كل العالم أفراداً لكان هذا معناه أنه لا يهلك أحد قط !!! الأمر الذى لن يوافق عليه هؤلاء أنفسهم !!! ذلك لأنه فى (ع ٥٤) يقول « إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد » . فلو قصد به حياة العالم — كل أفراده لما كان هناك هالك !!

هذا وقد ورد فى الكتاب ما يفيد أن المقصود بالعالم كل الأمم كأمم أما من حيث الأفراد فبعضاً منهم « ويكرز ببشارة الملكوت هذه فى كل المسكونة شهادة لجميع الأمم » (مت ٢٤ : ١٤) ثم « الذى به لأجل اسمه قبلنا نعمة ورسالة لإطاعة الإيمان فى جميع الأمم » . (رو ١ : ٥) وواضح أن من نال هذه النعمة وأطاع الإيمان قوم محدودون من جميع الأمم . « إلى كل الأرض خرج صوتهم وإلى أقاصى المسكونة أقوالهم » (رو ١٠ : ١٨) أما (١ يو ٢ : ٢) فلا تعمم من المؤمنين إلى غير المؤمنين بل من اليهود إلى الأمم .

(ب) ثم يدلل أصحاب القصد العام عن رأيهم بورود كلمة « الجميع » و « جميع الناس » فى هذه الآيات : « فإذاً كما بخطية صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة هكذا ببر واحد صارت الهبة إلى جميع الناس لتبرير الحياة » . (رو ٥ : ١٨) « لأنه كما فى آدم يموت الجميع هكذا فى المسيح سيحيا الجميع » (١ كو ١٥ : ٢٢) . « إذ نحن نحسب هذا أنه إن كان واحد قد مات لأجل الجميع فالجميع إذاً ماتوا » (٢ كو ٥ : ١٤) . « الذى يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون .. الذى بذل نفسه فدية لأجل الجميع » (١ تى ٢ : ٤ و ٦) « لأنه قد ظهرت نعمة الله المخلصة لجميع الناس » (تى ٢ : ١١) « وهو لا يشاء أن يهلك أناس بل أن يقبل الجميع إلى التوبة » (٢ بط ٣ : ٩) .

أما (١تى ٢ : ٤ و ٦ ، ٢ بط ٣ : ٩) فتفيد أن الله قصد أن لا يكون الخلاص لليهود فقط بل للجميع يهوداً ويونانيين ، أو يهوداً وأمماً وليس لليهود فقط بل « للجميع » . إنه هنا لم يتعرض للأفراد .. أو لجميع الأفراد ... وأما باقى الآيات فمستفاد منها « الذين فى المسيح » « والكنيسة » .

إن جميع هذه الآيات تعنى تقديم الخلاص فعلا وليس إتاحة امكانية حدوثه[1] وبعد ذلك يتوقف الأمر على الإنسان !!! ففى هذه الحالة لو قصد بالجميع أو جميع الناس بإطلاق معنى الكلمة إلى « جميع الناس فرداً فرداً » لعمَّت خلاص الجميع دون هلاك أى شخص الأمر الذى لا يمكن أن

---

(١) نتحقق من هذا عند قراءة وتأمل هذه الآيات (مت ١٨ : ١١ ، رو ٥ : ١٠ ، ٢ كو ٥ : ٢١ ، غل ١ : ٤ ، ٣ : ١٣ و ١٤ ، أف ١ : ٧ ، ٢ تى ١ : ٩).

يقره أحد يستند على الكتاب ..

(ج) آخر سلاح فى يدهم أن هذه الآية التى يزعمون أنها تختص بالأفراد« لكى يذوق بنعمة الله الموت لأجل كل واحد » (عب ٢ : ٩) . فقد رأوا فى الثلاث كلمات الأخيرة تخصيصاً لكل فرد من العالم أجمع ! ولكنه يدهشك أن ترى أن ع ١٠ يخصص ذلك بالآتين إلى المجد كل واحد من المخلصين . إقرأ العددين معاً « لأجل كل واحد ؛ لأنه لاق بذاك الذى من أجله الكل ، وبه الكل ، وهو آت بأبناء كثيرين إلى المجد ؛ أن يكمل رئيس خلاصهم بالآلام . » فمع أنه ذكر عن الكل .. ذكر الذين يأتى بهم إلى المجد أنهم ليسوا الكل بل « كثيرين ... » وهم الذين ينسب المخلص إليهم « رئيس خلاصهم » فلقد ذاق الموت لأجل كل واحد من هؤلاء .

وقد ذكر فى أماكن أخرى كلمة الكل بمعنى محدود : إله وأب واحد للكل الذى على الكل وبالكل وفى كلكم » (أف ٤ : ٦) . ومفهوم أن كثيرين من هؤلاء « الكل » لم يتخذوا الله « إلهاً لهم » ! وكثيرين منهم لم يملكوه « عليهم » ! وكثيرين ليس « بهم » . إنه يتكلم عن المخاطبين المؤمنين ... « حيث ليس يونانى ويهودى ختان وغرلة بربرى سكيثى عبد حر بل المسيح الكل فى الكل » (كو ٣ : ١١) . فهنا لا تعنى الأفراد بل تعنى كل الجماعات التى ذكرت ولا يشترط جميع أفراد كل جماعة ...

الرأى الثانى يقول : مع أن الكفارة كافية فى ذاتها لكل من يأتى ، وأى من يأتى ؛ ومع أن الدعوة مقدمة لكل فرد من أفراد الجنس البشرى — إلا أن قصد الله قصد من الكفارة قصدا محدودا بالمختارين وهم الذين يعمل الله فيهم لكى يأتوا ...

(أ) أستطيع بثقة أن أقول إن الآيات التى أوردها الرأى السابق تثبت العكس ، فحيث نتفق أنها لا يمكن أن تعنى أن جميع الأفراد يحصلون على فوائدها ، وأن قصد الله محتوم ، وأن المقصود منها ليس جعل الخلاص ممكناً بل تقديم الخلاص فعلا ، وحيث أن استعمالات الكلمات « كل » « جميع » « جميع الناس » « العالم » تعنى أن بعضاً مختارين من كل الأمم وليس اليهود فقط ... فإن هذا دليل على تحديد قصدها بالمختارين ، وخذ أدلة أخرى :

(ب) ثم سقط سلاح آخر من يد معممى قصد الكفارة . ذلك أنهم قالوا إن الكفارة عامة للجميع لكن الروح يخصصها بمن يأتى إلى المخلص . وفاتهم أن من يأتى فإنه يأتى بفعل الروح فيه . وليس من حاجة لإعادة ما سبق فاتضح لنا فى الموضوع الماضى (الاختيار والإقبال) . ويكفى أن أذكر هذه الآيات « غير عالم أن لطف الله إنما يقتادك إلى التوبة » (رو ٢ : ٤) من أجل هذا يحرضه الرسول أن يغتنم هذه الفرصة فلا يستهين بعمل الله فيه ، ولا يتقسى .. أى أن يستجيب لعمل الله فيه . ثم « مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذى باركنا بكل بركة روحية فى السماويات فى المسيح ، كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه فى المحبة إذ سبق فعيننا للتبنى . بيسوع المسيح لنفسه حسب مسرة مشيئته لمدح مجد نعمته التى أنعم بها علينا فى المحبوب الذى فيه لنا الفداء بدمه غفران الخطايا حسب غنى نعمته » (أف ١ : ٣ — ٧) . ومن هذه الآيات يتضح لنا أن الله اختارنا منذ الأزل — فقدم لنا فداء حسب غنى نعمته — فباركنا به فى

فى المسيح .. وبدون عمله هذا فينا ، بدون أن يباركنا به لا يمكن أن نتبارك !!! وفى (فى ١ : ٢٩) يقول صراحة إن الإيمان وهب لنا هبة .. الذى يلقىُ ضوءاً على الفصل فى (أف ٢ : ٨) فإن الخلاص بالإيمان عطية الله ، وذات الإيمان عطية الله .. وبكل بساطة وصراحة يذكر الرسول عن نسيات « لا يستطعن أن يقبلن إلى معرفة الحق أبداً » (٢ تى ٣ : ٧) ذلك إذا لم يجتذبن كما يقول المسيح ، ويذكر عن أناس يقاومون الحق مثل ينيس ويمبريس أنهم « من جهة الإيمان مرفوضون » (٢ تى ٣ : ٨) . ذلك لأن الله تخلى عنهم ولم يعطهم ذلك الإيمان .

نعم الكفارة كافية لكل من يأتى ، لأى من يأتى ، **ولكن من يأتى** هو المختار لأن الله هو العامل فيه أن يأتى ...

(ج) خذ دليلا آخر هو ارتباط الكفارة بالاختيار قبل تأسيس العالم . ففضلا عن الآية السابقة فى (أف ١ : ٣ ــ ٧) يقول الرسول فى أماكن أخرى . « الذى خلصنا ودعانا دعوة مقدسة لا بمقتضى أعمالنا ، بل بمقتضى القصد والنعمة التى أعطيت لنا فى المسيح يسوع قبل الأزمنة الأزلية . وإنما أظهرت الآن بظهور مخلصنا يسوع المسيح الذى أبطل الموت وأنار الحياة والخلود بواسطة الإنجيل » (٢ تى ١ : ٩ و ١٠) . إن أمر مصالحتنا مع الله لم يكن فكرة فى أذهاننا يوماً من الأيام ، بل كان من جانب الله كساع لأجل هذا « ولكن الكل من الله الذى صالحنا بيسوع المسيح » (٢كو ٥ : ١٨) . وعمل من جانب الله لا الإنسان يعنى أنه يستند على الاختيار .

إن كانت هذه تعنى شيئاً فهى تعنى أن الله اختار أناساً ليخلصهم فدبر لهم واسطة خلاصهم عن طريق كفارة الرب يسوع المسيح ...

(د) ويعين الكتاب قصد الكفارة بأناس بالذات :

قوم يدعوهم المسيح خرافه يبذل نفسه عنهم (يو ١٠ : ١١ و ١٥) : ويذكر أنه له خراف أخرى سيجمع هذه إلى تلك بوضع نفسه ليأخذها أيضاً ... (يو ١٠ : ١٦ و ١٧) .

قوم يدعوهم الرسول « كنيسة الله التى اقتناها بدمه » (أع ٢٠ : ٢٨) فقد « أحب المسيح .. الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها ، لكى يقدسها مطهراً إياها بغسل الماء بالكلمة . لكى يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة لا دنس فيها ولا غضن أو شىء من مثل ذلك ، بل تكون مقدسة وبلا عيب » . (أف ٥ : ٢٥ ــ ٢٧) الأمر الذى لم يقصده بالجميع ولو قصده لتم .. ولكانوا كنيسته !!

قوم يدعوهم الملاك جبرائيل « شعب المسيح » « لأنه يخلص شعبه من خطاياهم » (مت ١ : ٢١) . ومفهوم أن المسيح قد صار له شعب مختار من « كل الأمم والقبائل والشعوب والألسنة .. قد غسلوا ثيابهم وبيضوا ثيابهم فى دم الحمل » (رؤ ٧ : ٩ و ١٤) .

قوم « سبق فعينهم (منذ الأزل) ليكونوا مشابهين صورة ابنه .. فدعاهم .. فبررهم فمجدهم » (رو ٨ : ٢٩ و ٣٠) هؤلاء يقول عنهم ، لتعزية المكتوب إليهم ، واضعاً نفسه بينهم : « الذى (أى الآب) لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين ، كيف لا يهبنا أيضاً معه كل شىء ؟ من سيشتكى على مختارى الله ؟ الله هو الذى يبرر .. من هو الذى يدين ، المسيح هو الذى مات ،

بل بالحرى قام أيضاً ، الذى هو أيضاً عن يمين الله ، الذى أيضاً يشفع فينا » (رو ٨ : ٣٢ — ٣٤) . كفر عن قوم هم المختارون ...

من أجل هؤلاء خصصت كفارة المسيح ؛ ومن أجلهم خصصت شفاعة المسيح المبنية على هذه الكفارة والمرتبطة بها (١ تى ٢ : ٥ و ٦ ، ١ يو ١ و ٢)[١] إذ نرى هذا التخصص فى صلاة المسيح الشفاعية فى قوله : « من أجلهم أنا أسأل : « لست أسأل من أجل العالم ، بل من أجل الذين أعطيتنى لأنهم لك .. ولست أسأل من أجل هؤلاء فقط (التلاميذ فى وقته) بل أيضاً من أجل الذين يؤمنون بى بكلامهم .. أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتنى يكونون معى حيث أكون أنا لينظروا مجدى الذى أعطيتنى قبل إنشاء العالم » (يو ١٧ : ٩ و ٢٠ و ٢٤) .

٣ — أشرت فيما مضى إلى أن قوماً من الكلفينيين قالوا رأيا آخر — ذلك أنهم قالوا إن الله قضى :

(١) أن تكون الكفارة عامة فى قصدها كما هى عامة فى كفايتها . ولما رأى الله أنه لا يستطيع أحد من نفسه أن يستفيد بها قضى أيضاً ..

(٢) أن يعطى المختارين نعمة خاصة ليقبلوا ويستفيدوا منها ...[٢]

ونلاحظ فى هذا الرأى ما يأتى :

١ — أنه ينسب القلة إلى قضاء الله !

٢ — أن القضاء الثانى مبنى على العلم منطقياً وتاريخياً ، الأمر الذى (سبق فى الموضوع الأول أن عالجناه (قضاء الله ومسئولية الإنسان ورأينا أن قضاء الله مساو تاريخياً للعلم ، وكلاهما منذ الأزل لكن علم الله مبنى منطقياً على قضائه وليس العكس ...) [٣] من أجل هذا سقط هذا الرأى ... كذلك قد رأينا عدم وجود الدليل على رأى عمومية القصد فيبقى أمامنا أن كفارة المسيح وإن تكن كافية فى ذاتها فهى خاصة فى غرضها بالمختارين ...

هذا لا يهين الكفارة بل بالحرى يرفعها .. يهين الكفارة أن تقول قصد بها كل الناس ، ويتضح أنها لم تنجز ما قصد منها !! يهينها أن تكون بلا هدف ولا يستطيع الناس بقوتهم أن يستفيدوا منها فتكون أيضاً بلا فائدة !! يهينها أن تفتكر فيها أنها جهزت إمكانات الخلاص للناس وتركتهم يحصلون على هذه الإمكانات ليستفيدوا بها ويخلصوا أنفسهم !!!

---

(١) قد وضحت سابقا أن هذه الآية لا تعمم من المؤمنين إلى غير المؤمنين بل من اليهود إلى الأمم .. وهنا أذكرها بمناسبة ارتباط الكفارة بالشفاعة .

(٢) L . Berkhof , Systematic Theology , p - 394

(٣) أنظر ص ١٠ — ١٢

أما أن نقول إن الكفارة وسيلة فعالة ناجحة تحقق كل ما قصد بها وهو خلاص المختارين الذين قدمت من أجلهم فهذا يرفع من قدرها .

إن الجواب على السؤال « لماذا يطلب منى أن آتى لأخلص و لم تقدم الكفارة لأجلى ؟ » مثل الجواب على السؤال « لماذا صنعتنى هكذا ؟ »[1] فمن أدراك أنك لم تقصد ضمن قصد الكفارة ؟ ! أنت تجهل عدد وأسماء الذين قصدوا ، عليك أن نسأل : ماذا أفعل ؟! [2] بدل أن تفرض أنه لم يمت لأجلك قل « مات لأجلى » ، وتعالى فحين تأتى هذا دليل على أنك من المختارين ، لأن الكفارة كافية لكلّ من يأتى ، ولأن « لطف [illegible] يقتادك إلى التوبة ... » .

(١) راجع ص ٦٠ و ٦١

(٢) انظر الفصل الأخير ص ٢٠٤ ـــ الخ .

(٤)

ليس من الحكمة أو من اختصاصك أن تسأل عن عمل الله ، وأن تسأل عما فى سلطان الله . عدل الله شأن الله ، محبة الله شأن الله ، تخصيص الله الكفارة ببعض هذا شأن الله ، وهو أمر محجوب عنك وعنى ... وسيظل محجوباً إلى أن آتى وتأتى إلى المسيح المخلص فتنال الحياة الأبدية ، هذا هو الأمر الوحيد الذى يكشف لنا النور .. أى لا يجوز أن نسأل عن قضاء الله ولا أن نتعب أنفسنا ، علينا أن نقوم بمسئوليتنا وإذ نأتى إلى المخلص سيتحقق لنا قضاء الله لخلاصنا ..

أما إن كنت تبقى حيث أنت ، وتتقسى ، ويظل قلبك غير تائب « تذخر لنفسك غضباً يوم الغضب واستعلان دينونة الله العادلة » كأنك بهذا تثبت أنك لم تختر ..

إن روح الله يعمل فيك الآن لكى تقبل . تعال تنل الخلاص ..

إن الإله طيب حقا بل أطيب مما كنت تفتكر . لقد جهز خلاصاً أكيداً يعتمد على طيبته هو ، وليس على فشلنا نحن ــ الاختيار أثبت هذا .. فتعال استجب لعمل الله فيك عمل الإله الطيب والمخلص ..

اجعلوا دعوتكم واختياركم ثابتين

« اجتهدوا أيها الأخوة أن تجعلوا دعوتكم واختياركم ثابتين . لأنكم إن فعلتم ذلك لن تزلوا أبداً » (٢ بط ١ : ١٠) .

« لأن هبات الله ودعوته هى بلا ندامة » (رو ١١ : ٢٩) .

ما معنى أن نجتهد أن نجعل دعوتنا واختيارنا ثابتين ؟! هل هذا يعنى أن لنا يداً فى اختيار أنفسنا أو فى تثبيت هذا الاختيار ؟! هل نحن معرضون للزلل ، هل قصد الله متغير ؟!! هل هذا يعنى أن أحد المختارين قد يرتد ؟!

وتوجد آيات كثيرة مثل هذين المثالين جعلت البعض يعلمون « بنعم » ، وجعلت البعض يعلمون « بلا » ، ولو وضعناها كلها جنباً إلى جنب مثل هاتين الآيتين ، لامتلأت أفكارنا بأسئلة كثيرة ...

(١)

هل يمكن أن يزل مختارو الله ؟

لكى نجيب على هذا السؤال أرجو أن ندرس النصوص الكتابية التى تتحدث عن هذا الأمر :

فمن ناحية يذكر الكتاب أن الله ضامن خلاصنا بحيث لا نزل : وأريد أن أبدأ بالآية التى صدرت هذه الكلمة « لأن هبات الله ودعوته هى بلا ندامة » (رو ١١ : ٢٩) . ولا يمكن أن نتصور إلهاً يقرر خلاصى وخلاصك باختيارنا للنعمة ، ثم يتخلى عنا . من أجل هذا قال المسيح « خرافى .. أعطيها حياة أبدية ولن تهلك إلى الأبد . ولا يخطفها أحد من يدى . أبى الذى أعطانى إياها هو أعظم من الكل ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبى » . (يو ١٠ : ٢٨ و ٢٩) . فهذه الخراف لا تهلك إلى الأبد لأنها فى الحفظ الإلهى إلى الأبد ؛ فى اليد التى لا يخطف منها ... « أمين هو الله الذى سيثبتكم ويحفظكم من الشرير . (٢ تس ٣ : ٣) « نعلم أن كل من ولد من الله (المختار) لا يخطىء بل المولود من الله (المسيح) يحفظ نفسه والشرير لا يمسه » (١ يو ٥ : ١٨) .

إتكالاً على هذا الرجاء يقول بولس الرسول : « لأننى عالم بمن آمنت وموقن أنه قادر أن يحفظ وديعتى إلى ذلك اليوم ... ، وسينقذنى الرب من كل عمل ردىء ويخلصنى لملكوته السماوى » (٢ تى ١ : ١٢ ، ٤ : ١٨) . وذات بطرس الرسول الذى أوصى بالاجتهاد لجعل الدعوة والاختيار ثابتين ، قال : « أنتم الذين بقوة الله محروسون بإيمان لخلاص مستعد أن يعلن فى الزمان الأخير » . (١ بط ١ : ٥) .

إن الكتاب يعلم بأن المؤمن فى يدى الله الأمين الذى يجعل بولس الرسول فى أمان ليس فقط لأجل نفسه ، بل لأجل خدمته ولأجل الذين آمنوا على يديه « واثقاً بهذا عينه أن الذى ابتدأ فيكم عملا صالحاً يكمل إلى يوم المسيح » (فى ١ : ٦) .

من هذه الآيات نرى أن خلاص المؤمن مضمون أكيد ، وأن هذا الضمان وهذا التأكيد يعتمد على الله الأمين حافظ الوديعة ، الله القوى الذى لا يخطف من يده . وأن المؤمن محروس من هذا الإله إلى أن يتم خلاصه فى يوم المسيح ...

إذاً فماذا تعنى الفصول الكتابية التى تحرض على الثبات وتحذر من الارتداد ؟! والأفضل أن ندرسها واحداً واحداً ...

لعل ما ورد من هذا القبيل فى الرسالة إلى العبرانيين أكثر الفصول ميلا بحسب رأى البعض إلى التعليم بعدم تأكيد ثبات المؤمنين الأمر الذى يتركهم لأنفسهم .. ولكن ماذا تقول هذه الآيات ؟ « لأن الذين استنيروا مرة وذاقوا الموهبة السماوية وصاروا شركاء الروح القدس وذاقوا كلمة الله الصالحة وقوات الدهر الآتى وسقطوا — لا يمكن تجديدهم أيضاً للتوبة إن هم يصلبون لأنفسهم ابن الله ثانية ويشهرونه » (عب ٦ : ٤ — ٦) . وقبل أن أقول أية كلمة أرجو أن نقرأ ما ورد عن القراء الذين وجهت إليهم هذه الآيات عينها (فى العدد التاسع من ذات الأصحاح) « ولكننا قد تيقنا من جهتكم أيها الأحباء أموراً أفضل ومختصة بالخلاص وإن كنا نتكلم هكذا » من هذه الكلمات نستنتج أن (أعداد ٤ — ٦) كلمات فرضية ، من قبيل « إن كنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة ولكن ليس لى محبة .. وإن كانت لى نبوة وأعلم جميع الأسرار وكل علم وإن كان لى كل الإيمان حتى أنقل الجبال ولكن ليس لى محبة .. » وإن أطعمت كل أموالى ، وان سلمت جسدى حتى أحترق ولكن ليس لى محبة .. » (١ كو ١٣ : ١ — ٣) فانه واضح أنه لن تكون هذه بلا محبة ، ولكن الرسول يقصد أن يبين أن المحبة هى التى تعطيها قيمتها . كذلك واضح أن الرسول قد تيقن خلاص (ومن ثم ثبات) هؤلاء العبرانيين وإن كان يحذرهم هذه التحذيرات . وقد وردت كلمات فرضية كثيرة من هذا القبيل عنها (غل ١ : ٨) التى لا يمكن بأى حال أن نستنتج منها أن بولس الرسول أو ملاكا من السماء يبشر الغلاطيين بغير ما بشرهم به بولس الرسول !!

فلماذا إذاً يفرض الرسول ما لا يمكن أن يحدث ؟ هذا لأجل التحذير الذى يوجب على الإنسان القيام بمسئوليته ، من قبيل ما قاله بولس الرسول حين كان فى السفينة إلى رومية ، فقد قال قولا مؤكداً « والآن أنذركم أن تسروا لأنه لا تكون خسارة نفس واحدة منكم إلا السفينة . لأنه وقف بى هذه الليلة ملاك الإله الذى أنا له والذى أعبده قائلا : لا تخف يابولس ينبغى لك أن تقف أمام قيصر . وهوذا قد وهبك الله جميع المسافرين معك . لذلك سروا أيها الرجال لأنى أؤمن بالله أنه يكون هكذا كما قيل لى » (أع ٢٧ : ٢٢ — ٢٥) . ولكن فى نفس الرحلة ونفس الأصحاح أتى قول بولس الرسول : « إن لم يبق هؤلاء (النوتية) فى السفينة فأنتم لا تقدرون أن تنجوا »

يكون هكذا كما قيل لى » (أع ٢٧ : ٢٢ — ٢٥) . ولكن فى نفس الرحلة ونفس الأصحاح أتى قول بولس الرسول : « إن لم يبق هؤلاء (النوتية) فى السفينة فأنتم لا تقدرون أن تنجوا ثم قوله « لذلك ألتمس منكم أن تناولوا طعاماً لأن هذا يكون مفيداً لنجاتكم لأنه لا تسقط شعرة من رأس واحد منكم ! » (ع ٣١ و ٣٤) . ما الداعى لهذه الفروض التى نفس بولس الرسول تيقن أنها لا تحدث ؟ إنها الوسيلة التى بها يتم وعد الرب .. وبنفس الطريقة تلك التحذيرات التى وردت فى الرسالة إلى العبرانيين قصد بها أن تكون الفعل الإنسانى الإرادى الذى به يتمم الله قضاءه بثباتهم . ومثل الفصل السابق تماماً : (عب ٣ : ١٢ و ١٣ ، ١٠ : ٢٦ — ٢٩) انظر (١٠ : ٣٢ و ٣٩) .

وبعد ما ذكره بولس الرسول عن نفسه وعن إيمانه الكامل فى ثباته وفى عمل الرب لحفظه إلى ذلك اليوم (٢ تى ١ : ١٢ ، ٤ : ١٨) لا يمكن أن نتصوره يشك فى ذلك الثبات .. ومع هذا يأتى قوله « أقمع جسدى وأستعبده حتى بعد ما كرزت للآخرين لا أصير أنا نفسى مرفوضاً ! » (١ كو ٩ : ٢٧) هذا فعلا فرض لا يمكن أن يحدث ، فما الداعى إليه ؟! إنه الوسيلة التى بها يتمم الله ثبات الرسول .. فباتباع الرسول ذلك يعلن أن الله يعمل فيه لكى يكون بلا لوم ، ويدوم بلا لوم إلى يوم المسيح ...

وذات القول الذى قاله بطرس الرسول « اجتهدوا » أن تجعلوا دعوتكم واختياركم ثابتين لأنكم إن فعلتم ذلك لن تزلوا أبداً ، يتبعه الرسول بالقول : « لأنه هكذا يقدم لكم بسعة دخول إلى ملكوت ربنا يسوع المسيح » . (٢ بط ١ : ١٠ و ١١) . « اجتهدوا .. لأنه هكذا .. » إن الله يقدم لنا الثبات إلى أن نخلص نهائياً عن طريق هذا الاجتهاد ..

ويختم ذات الرسالة بقول فيه ذات النعمة : « احترسوا من أن تنقادوا بضلال الأردياء فتسقطوا من ثباتكم » . ونستطيع أن نقول إن هذا تحذير فرضى لأن قبل هذا القول مباشرة ترد الكلمات « إذ سبقتم فعرفتم » (٢ بط ٣ : ١٧) . وواضح انهم عرفوا هذا التحذير وهم فى حال الإيمان والثبات فحرصاً على هذا الإيمان والثبات ليحترسوا بل أكثر من هذا يتبع ذلك القول بالنصيحة ولكن « أنموا فى النعمة وفى معرفة ربنا ومخلصنا يسوع المسيح » (ع ١٨) . وهكذا يكمل الله العمل الصالح الذى إبتدأه فيهم عن طريق إجتهادهم هم ..

وقد قال بطرس الرسول نفسه فى عين الرسالة : « لأنه إن كانوا بعدما هربوا من نجاسات العالم بمعرفة الرب والمخلص يسوع المسيح يرتبكون أيضا فيها فينغلبون فقد صارت لهم الأواخر أشر من الأوائل لأنه كان خيراً لهم لو لم يعرفوا طريق البر من أنهم بعد ما عرفوا يرتدون عن الوصية المقدسة المسلمة لهم . قد أصابهم ما فى المثل القائل كلب عاد إلى قيئه وخنزيرة مغتسلة إلى مراغة الحمأة » . (٢ بط ٢ : ٢٠ الخ) . إن هذا القول يفيد أنه لو فرض (كما تعنى كلمة إن كانوا) أنهم سقطوا لسقطوا بلا قيام ! أو كما قال الرسول إلى العبرانيين « لا يمكن تجديدهم أيضا للتوبة » « كيف ننجو نحن إن أهملنا خلاصاً هذا مقداره » . « لا تبقى بعد ذبيحة عن الخطايا بل قبول دينونة مخيف ، وغيرة نار عتيدة أن تأكل المضادين .. الخ » (عب ٦ : ٦ ، ٢ : ٣ ، ١٠ : ٢٦ — ٣١) أو

كما قال الرب يسوع « إن كان أحد لا يثبت فيَّ يطرح خارجاً كالغصن فيجف ويجمعونه ويطرحونه في النار فيحترق » (يو ١٥ : ٦) « إن كان » إن المؤمن لا يزل ولا يسقط ولا يطرح .. لكن لزم التحذير الذى باتباعه الإنسانى الإرادى الذى دافعه ومصدره وقوته إلهية يعمل الإنسان فيه عن طريق هذا الاجتهاد ...

بل وجب أيضا عدم الإعثار لئلا « يهلك بسبب علمك الأخ الضعيف الذى مات المسيح لأجله » (١ كو ٨ : ١١) . أو كما قال بولس الرسول كذلك فى نفس المناسبة : « فإنه كان أخوك بسبب طعامك يحزن فلست تسلك حسب المحبة . لا تهلك بطعامك ذلك الذى مات المسيح لأجله » . (رو ١٤ : ١٥) . ولكن هل يهلك ؟؟ فى نفس (رو ١٤) يقول الرسول « هو لمولاه يثبت أو يسقط . ولكنه سيثبت لأن الله قادر أن يثبته » . (ع ٤) إن سقوطه فرض لن يحدث للمختار ، ولكن بقدر عدم حدوث ذلك الفرض ، وبقدر عناية الله لتثبيته تثقل المسئولية ويلزم التحذير للقوى لكى لا يعثره ... إن كانت عثرته معناها هلاك فوجب أن يكون حرص القوى إلى درجة حرمان النفس (١ كو ٨ : ١٣) .

وقل ذات القول على كل موضع ذكرت فيه كلمة عثرة ...

(٢)

أيمكن أن يزل مختارو الله ؟ كلا ، بحكم الاختيار ، بحكم القضاء المحتوم الذى لا يمكن أن يتغير .. لا يوجد ارتداد بالنسبة لأى شخص اختاره الآب وأعطاه للمسيح ودعى دعوة فعالة ، وحصل على تجديد الروح ... كلا وألف كلا .. الله ضامن ثبات مختاريه .

ولكن هذا لا يجوز أن يعطينا فرصة للإهمال والتراخى اتكالا على أن المختارين ثابتون .. بل بالعكس هذا يوجب التحذير ، لأننا مسئولون ، ولأن الله يجرى قضاءه عن طريق أفعالنا الحرة المختارة ...

ليس معنى هذا أن على الله أموراً ، ونحن علينا أخرى أو أن الله يعمل شيئاً ونحن نكمل . بل على الله الكل وعلينا نحن أيضا الكل !! ما يعمله الله فينا يجب أن نعمله وأن نحققه . يجب أن نعمل لأن الله يعمل فينا ، وليس أن نتكل ونتراخى لأن الله يعمل فينا . يجب أن نجتهد أكثر لأنه يوجد رجاء فى اجتهادنا ولأنه مضمون ، ولا يجوز أن يتسرب اليأس إلينا فإن خلاصنا مضمون ، لكن فى نفس الوقت لا يجوز أن تهمل لأن خلاصنا مضمون !!!

(٣)

ربما خطر ببالك أن تسأل : ولكن الكتاب يذكر عن قوم ارتدوا وينبىء عن ارتداد قرب مجىء المسيح الثانى ; فكيف لا ارتداد ؟!

ولنأخذ بعضاً من هؤلاء على سبيل المثال . وقد قصدت أن أختار أوضحهم فى فكر كل من

يعترض على عقيدة ثبات المؤمنين بحيث أن ما يصدق على أقسى الحالات يثدق بالأولى على الحالات الأخرى التى لا يفهم منها ارتداد بالمرة :

ولنبدأ بشاول الملك الأول : يرد عنه قول الرب « ندمت على أنى قد جعلت شاول ملكاً ، لأنه رجع من ورائى ولم يقم كلامى » . (١ صم ١٥ : ١١) فقد رأى البعض فى كلمة « رجع من ورائى » ارتداداً .. وقالوا إنه سبق أن تجدد بدليل القول « إن الله أعطاه قلباً آخر » . (١ صم ١٠ : ٩) .

لكن هل هذا يعنى التجديد من قبيل ما قال داود « قلباً نقياً أخلق فىّ يا الله وروحا مستقيما جدد فى داخلى » ؟

من يدرس الأصل العبرى يجد أن الكلمة « أعطاه » تعنى المنح والعطية ، ولكن ترجمت فى (مز ٦٦ : ٦) « حول » ؛ فيقول « حول البحر إلى يبس » فهنا يكون المعنى « حول له قلباً آخر » .

ثم لاحظ أن هذا وصف للعلامة الثالثة ، التى ذكرها بالتفصيل فترك العلامة الأولى التى تقول بمقابلة رجلا يخبره عن أن أباه قد وجد الأتن وأنه يبحث عنه ، ويترك ذكر عامل الطعام وإعطائه منه .. ويذكر كيف أن شخصاً مثل شاول غير دين من بداءته لم يحدث قط أن تنبأ ، لقد أعطى جراءة كافية وعلماً كافياً حتى يصير كأحد الأنبياء .. لكن ليس هذا فقط فإن القلب استعمل فى الكتاب عن ثلاث معان : الإدراك ، والوجدان ، والإرادة . وعن الإخيرة استعمل اللفظ قلب هنا مثل ما قيل عن داود « حسب قلبى الذى سيصنع كل مشيئتى » (أع ١٣ : ٢٢) . أى بكل بساطة حول الرب شاول ليعمل غرضه .. (غرض الرب)

وتحويل هذا القلب بهذا المعنى قال عنه الكتاب « قلب الملك فى يد الرب كجداول مياه حيثما شاء يميله » (أم ٢١ : ١) . ولا يشترط أن يكون قديساً ذلك الملك الذى يتم عن يده قضاء الله ومشيئته الله . فقد رأينا كيف تدبر عناية الله أخطاء البشر لتأتى بمقاصد الله ..

فى الحقيقة توجد الأدلة على أن شاول نفسه لم يتغير قط !! إنه لا يستطيع أن يحتمل مدح شخص آخر أكثر منه (١ صم ١٨ : ٧ و ٨) إعطاؤه أذنا صاغية للواشين بداود (٢٤ : ٩) مثل توبته التى يلوح لك أنها منقطعة النظير فى عمقها ، وفى نفس الوقت قصيرة العمر لحد يثير العجب — لا يمكن أن تكون توبة شخص مخلص (٢٤ : ١٦ ، ٢٦ : ٢١) مندفع بصورة لم تمكنه من ضبط النفس (١٤ : ٢٤ ، ١٥ : ٩) بلغ من تطرفه أن كراهيته لداود ساوت محبته الأولى له (١٨ : ٢) وقد بلغ من رعونته أن اقترف جرائم هو نفسه يحرم ارتكابها (٢٢ : ١٧) ثم حدث عن شكه فى كل شخص (٢٢ : ٧ و ٨) وقد استمر سهل الانقياد لناحية الشر (٢٢ : ٩ و ١٨ و ٢٢) . هل تفتكر أن شخصاً مثل هذا تغير ؟!

تستطيع أن تعتبره نال « قلباً نقياً » ثم « ارتد » إذا استطعت أن تأخذ كلمة الرب « ندمت » حرفياً !! ومفهوم أن الرب « لا يندم » (١٥ : ٢٩) إن الله من البدء لم يختر شاول ملكاً نعم عينه ولكن ليس حسب مسرته !! يقول الرب على لسان هوشع النبى « فأين هو ملكك حتى

يخلصك فى جميع مدنك وقضاتك ، حيث قلت أعطى ملكاً ورؤساء ؟! أنا **أعطيتك** ملكاً بغضبى وأخذته بسخطى » (ص ١٣ : ١١) . ومع أن البعض يرى فى هذا القول أنه يفيد الأسرات التى حكمت المملكة الشمالية بعد سليمان التى كانت تفتن وتقتل الواحدة الأخرى .. فحتى لو عنيت هذا لتضمنت شاول أيضاً (هذا إن لم يقصد شاول فقط) لأنه هنا يشير إلى طلب الشعب ملكاً (١ صم ٨ : ٥) فأعطاهم شاول (١٠ : ١٧ ـــ الخ) ولكن ليس بالرضى بل بالغضب (١٢ : ١٧ و ١٨) . وأدرك الشعب عدم رضى الرب (ع ١٨ و ١٩) . ثم أخذه بالسخط إذ نزع رحمته منه وأزاله من أمام داود (٢ صم ٧ : ١٥) .

كلا لم يكن شاول بن قيس مختاراً ، لم يتجدد .. وبالتالى لم يرتد بل ذهب إلى مكانه ؟ وإذا انتحر دان نفسه بنفسه ...

ثم جماعة قيل عنهم إنهم إرتدوا هم الذين يقول عنهم بولس الرسول « لأن كثيرين يسيرون ممن كنت أذكرهم لكم مراراً والآن أذكرهم أيضاً باكياً ، وهم أعداء صليب المسيح الذين نهايتهم الهلاك ، الذين إلههم بطنهم ومجدهم فى خزيهم . الذين يفتكرون فى الأرضيات » (فى ٣ : ١٨ و ١٩) .

وليس لدينا أى سجل فى الكتاب المقدس عن هؤلاء غير هذا المكان .. ولكن بتحليل هذه الكلمات نستطيع أن نعرف عن شخصيتهم شيئاً .

إن بولس الرسول يحذر الفيلبين من الاقتداء بهم كما هو واضح من الكلمات السابقة والكلمات اللاحقة لهذه الآيات .. ومن هذا نفهم أنهم أولا داخل المسيحية (بالحق أم بالاسم هذا سيأتى عنه حديث) . ثم أنهم قريبين أو على الأقل لهم احتكاك بالفيلبيين ...

من الأوصاف « إلههم بطنهم ومجدهم فى خزيهم الذين يفتكرون فى الأرضيات » تنفى أنهم من المتهودين الذين وإن يكونوا خائفين أن « يضطهدوا لأجل صليب المسيح » (غل ٣ : ١٢) لكنهم لم يتصفوا بهذه الصفات لأن نزعتهم فريسية ـــ بالحرى هؤلاء من الذين آمنوا من الأبيقوريين وتنعكس عليهم تعاليم وسلوك الأبيقوريين والتى استمروا متمسكين بها !! وفى الغالب يشير بولس الرسول الواسع الاضطلاع على فلسفتهم إلى قول ورد فى أحد مؤلفاتهم على لسان جبار خرافى بعين واحدة فى جبهته [١] : « لا أذبح من مواشى إلا لنفسى ، وليس للآلهة بل لبطنى هذه أعظم الآلهة ـــ لأن إله الحكماء هو الأكل والشرب كل يوم دون إزعاج النفس بالمتاعب[٢] » .

ومن فلسفة هؤلاء القوم أنهم لا يقرون التضحية قط ، يهمهم بطنهم ولذتهم ولا يهتمون بالمثل العليا التى تدعو للتضحية والإيثار ، ومن أجل هذا صار صليب المسيح عندهم بلا معنى ، وصاروا هم « أعداء صليب المسيح !! » بسبب فلسفتهم التى تدور حول « عبادة اللذة الذاتية »[٣] .

---

(1) Cyclops in Euripedes .

(2) Quoted in K . W . Wnest Phil , in the gr N . T .

(3) Egocetic Hedoniem See ISBE P - 964

وطبيعى أن من لا يقدر تضحية المسيح وصليبه لا يحب المصلوب ؛ وطبيعى أيضاً أن من لا يريد أن ينكر نفسه ويحمل صليبه لا يستطيع أن يكون تلميذاً للمسيح . إن إحدى علامات التجديد أن نقول « كى يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم بل للذى مات لأجلهم وقام » (٢ كو ٥ : ١٥) . وهذا لم يكن عندهم ..

تأمل قول الرسول « ممن كنت أذكرهم لكم مراراً والآن أذكرهم أيضاً باكياً » (ع ١٨) . فكلمة « أيضاً » هنا ترينا أن نوع الذكر واحد فى الماضى والحاضر ، فقط يزيد فى الحاضر البكاء .. فقد كانوا أعداء صليب المسيح من البدء بغض النظر حتى لو سماهم الناس مسيحيين أو سموا أنفسهم كذلك ، والآن زادوا فى عداوتهم لدرجة تثير دموع الرسول الرقيق القلب ...

إن قوماً مثل هؤلاء دخلوا المسيحية بفلسفتهم الخاصة كما هى على وثنيتها ، ولم يتأثروا أو تتغير طباعهم بصليب المسيح ، لم يتغيروا ، لذا فسيرهم فى طريقهم ليس ارتداد ، وهلاكهم ليس هلاك مختارين بل هلاك أولاد الهلاك !

ثم آخرين يذكر الرسول أسماءهم : « هيمنايس » ويذكر معه « الاسكندر » فى (١ تى ١ : ١٩ و ٢٠) ثم يذكر معه آخر هو « فيليتس » فى (٢ تى ٢ : ١٦ — ١٨) . يرى البعض فى رفض الضمير الصالح ومن ثم إنكسرت بهم السفينة من جهة الإيمان أيضاً حتى وصل الأمر إلى تسليمها للشيطان ، إرتداداً .. ثم يرون فى الزيغان عن الحق والانحدار إلى أكثر فجور والتأثير السىء ، إرتداداً أيضاً .. فهل هذا كذلك ؟

من ذكر « التجديف » (١ تى ١ : ٢٠) وذكر « فيقلبان إيمان قوم » (٢ تى ٢ : ١٥) نعرف أن هؤلاء هراطقة . وقد ذكرت هرطقتهم بالذات وهى المعبر عنها بالزيغ عن الإيمان « قائلين إن القيامة قد صارت » (٢ تى ٢ : ١٥) . وأضف إلى ذلك حياة الفساد التى يحيونها التى تظهر من الكلمات يتقدمون إلى أكثر فجور ، مع ضمها إلى انعدام الضمير الصالح (٢ تى ٢ : ١٦ مع ١ تى ١ : ١٩) .

من هم هؤلاء ؟ من الذين يتصفون بهذه الصفات فى أفسس التى كان فيها تيموثاوس حين كتبت إليه الرسالتان ؟ إن على هذه الكلمات تنعكس آراء وحياة الغنوسيين ..

كانت فلسفة الغنوسيين السائدة فى جميع أفكارهم : أن المادة أصل الشر ، فبنوا على هذا أن لا علاقة بين الروح وبين الشر ، وأنهم يمكنهم أن يكونوا قديسين بالروح وأشراراً بالجسد فى نفس الوقت ، فنشأت الإباحية بحجة أن هذا من الجسد والجسد عارض على الإنسان ، سيخلص منه ، إذ ينتهى ذلك الجسد.. [1] فحين يعلم بولس الرسول بقيامة الأموات تأتى هذه عثرة لهؤلاء !! إنهم لا يريدون أن الجسد يقوم ثانية لقد تخلصوا منه إلى الأبد !! قالوا توجد قيامة ولكنها ليست قيامة الأجساد ، وليست فى المستقبل عند سماع البوق الأخير ، بل حدثت : هى قيامة النفس من

---

(١) انتشر الغنوسيون أكثر فى زمن يوحنا الرسول حين كان فى أفسس فقاوم إباحيتهم انظر (١ يو ٢ : ٢٩ ، ٣ : ٧ — ١٢) .

الخطية !!!

فترى الآن أن منشأ الإباحية هى فكرة خطية المادة ، ومنشأ الشك فى القيامة العتيدة واعتبار القيامة الروحية فى الاختبار السابق للمؤمنين ، هى أيضاً فكرة الخطية فى المادة !

ولكنها فكرة خطيرة تقلب الإيمان !! تحدر الإنسان إلى الشر !! وتزعزع الإيمان فى قيامة المسيح ، ومن ثم فى المخلص !! (١ كو ١٥ : ١٣ — ١٨) وقد كان لهم نشاط كبير مستفاد من التقدم فى الشر (٢ تى ٢ : ١٦) وفظاعة تأثير هرطقتهم ! (٢ تى ٢ : ١٧) وإن كان الاسكندر المذكور فى ٢ تى ٤ : ١٤ و ١٥ هو ذاته المذكور فى ١ تى ١ : ١٩ و ٢٠ ورفيق هيمنايس نستفيد أيضاً أنهم كانوا يقاومون أقوال الرسول جداً ..

دخل قوم من الغنوسيين المسيحية ولكن معهم فلسفتهم ولا يعقل أنهم بهذه الحال يكونون قد أخذوا يسوع كمخلص لهم بل قاوموا فكرة الكفارة !![1] ففى الحقيقة قوله« رفضوا الضمير الصالح » « إنكسرت بهم السفينة من جهة الإيمان » « وزاغا عن الحق » لا يعنى أنهم كانوا فى هذه وتركوها بل لم يعتنقوها قط .. ومن ثم لم يكونوا مؤمنين فارتدوا ، بل فاسدين وخطاة ومضلين استمروا فى فسادهم وخطيتهم وضلالهم !!

وأعتقد أنه لا يحتاج أحد إلى من يقنعه بأن يهوذا الأسخريوطى وكذلك أيضاً حنانيا وسفيرة لم يكونوا مؤمنين وارتدوا فإن الرب علم يهوذا من البدء وقد كان حنانيا وسفيرة من ضمن الذين دخلوا خلسة .. حين يهلك هؤلاء فما هلكوا إلا لأنهم لم يخلصوا قط .. ربما بدا عليهم بعض التغيير الظاهرى ولكن ليس الخلاص وتجديد القلب والحياة ...

حبذا لو نضع فى فكرنا بعض الفصول فإن هذه تثبتنا عن صحة كل ما سبق : « ولكن ليس هكذا حتى أن كلمة الله قد سقطت لأن ليس جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيليون ، ولا لأنهم من نسل إبراهيم هم جميعا ورثة .. أى ليس أولاد الجسد هم أولاد الله بل أولاد الموعد يحسبون نسلا » (رو ٩ : ٦ — ٨) . فهنا يذكر أن قضاء الله لم يسقط برفض هؤلاء الإسرائيليين فإنه لا يعتبرهم إسرائيليين قط ..

ويذكر الكتاب عن قوم يدعون الإيمان ولكنهم غير مؤمنين : « من قال إنه فى النور وهو يبغض أخاه ، فهو إلى الآن فى الظلمة . وفى الظلمة يسلك ، ولا يعلم أين يمضى لأن الظلمة أعمت عينيه ! » (١ يو ٢ : ٩ و ١١) . ونظرة إلى رسالة الرب إلى كنيسة ساردس ترينا هذا الأمر بتسميتها « لك اسم أنك حى وأنت ميت » (رؤ ٣ : ١) . أو بصورة أخرى مدعى المسيحية ، مدعى الإيمان .. ولكن قوما بها بقوا يحتاجون إلى تشديد لئلا يموتوا (ع ٢) . إنه يذكر هذا التحذير لوجوبه ، حيث أن هؤلاء فيهم أمل ويهتم الرب بشباتهم الذى ضمنه . بدليل ما قاله « عندك أسماء قليلة فى ساردس لم ينجسوا ثيابهم فسيمشون معى فى ثياب بيض لأنهم مستحقون ! »

---

(١) أيضا قاوم يوحنا انكارهم لزوم الكفارة انظر (١ يو ٥ : ٦ — ١٢)

(ع ٤) .

وبكل بساطة يقول يوحنا الرسول « سمعتم أن ضد المسيح يأتى قد صار الآن اضداد للمسيح كثيرون . من هنا نعلم أنها الساعة الأخيرة ، منا خرجوا (هذا هو الارتداد) لكنهم لم يكونوا منا . لأنهم لو كانوا منا لبقوا معنا . لكن ليظهروا أنهم جميعهم منا » (١ يو ٢ : ١٨ و ١٩) .

وبذات هذا المعنى نفهم الارتداد قرب مجىء المسيح « إنهم ليسوا من المخلصين حقاً ، إنهم من مدعى الإيمان ... ليسوا من الذين تغيرت حياتهم بل مظهرهم أما المؤمن المخلص المختار فلا يرتد ..

(٤)

وحينما يتعرض الكتاب لارتداد المؤمنين يفيد بأن ذلك مؤقت . « وتقول لهم هكذا قال الرب : هل يسقطون ولا يقومون ؟ أو يرتد أحد ولا يرجع فلماذا ارتد هذا الشعب فى أورشليم ارتداداً دائماً ؟! » (إر ٨ : ٤) . فمن هنا تجد أن الرب يستغرب عدم رجوعهم عن المكر وعدم توبتهم عن شرهم (ع ٦) . ويشبه المؤمن بأن المفروض فيه أنه إذا زل يكون مثل اللقلق الذى يعرف ميعاده ، ومثل اليمامة والسنونة المزقزقة اللتين حفظتا وقت مجيئهما » (ع ٧) .

ويذكر أيضاً أن الرب هو الذى يعمل فى المؤمن لكى يرجع إليه « أنا أشفى ارتدادهم أحبهم فضلا لأن غضبى قد ارتد عنه ! » (هو ١٤ : ٤) . ذلك لأن الإنسان جانح بطبعه إلى الارتداد . فإن لم يرفعه أحد فلا يمكن أن يقوم (هو ١١ : ٧) . ولكن الله لا يهون عليه المؤمن الذى افتداه فيقول « قد انقلب على قلبى . اضطرمت مراحمى جميعاً . لا أجرى حمو غضبى ... لأنى الله لا إنسان ، القدوس فى وسطك فلا آتى « بسخط » » (هو ١١ : ٨ و ٩) . من أجل هذا لا يمكن أن يهلك المؤمن لأن الرب له حارس بالمرصاد !!...

هذا هو ما يظهر من ارتداد داود المؤقت حين أخطأ ، وأخطأ ، وأخطأ .. ثم نام فى خطيته ولم يدر بما هو عليه ، حتى تحنن عليه الله وأيقظه عن يد ناثان النبى وأرجعه إليه ... (٢ صم ص ١١ و ١٢) .

هذا هو ما يظهر من ارتداد بطرس المؤقت الذى أنبأ عنه المسيح « هوذا الشيطان قد طلبكم لكى يغربلكم كالحنطة » وغربلهم ، وجميعهم شكوا فى الرب ، وبطرس نفسه تبعه من بعيد ، ثم أنكره الإنكار الثلاثى المريع !!! ولكن يقول الرب « ولكنى طلبت من أجلك لكى لا يفنى إيمانك » . واستخدمه الرب أيضاً لإرجاع باقى التلاميذ (أنظر مر ١٤ : ٢٧ — ٣١ ، مت ٢٦ : ٥٨ و ٦٩ — الخ ، لو ٢٢ : ٣١ و ٣٢) .

وحيث أن الرب يعمل فى مختاريه الذين زلوا لكى يرجعوا يطلب منهم أن يرجعوا بطلب منهم استجابتهم لعمل الرب فيهم .

وتوجد آيات كثيرة تظهر دعوة الرب لهؤلاء أن يرجعوا أذكر منها : « هكذا قال الرب : قفوا

على الطريق وانظروا واسألوا عن السبل القديمة ، أين هو الطريق الصالح وسيروا فيه فتجدوا راحة لنفوسكم » (ار ٦ : ١٦) . « ارجعوا إلى أرجع إليكم قال رب الجنود » (مل ٣ : ٧) . « فاذكر : من أين سقطت وتب ، واعمل الأعمال الأولى » . (رؤ ٢ : ٥) « إنى كل من أحبه أوبخه وأؤدبه . فكن غيورا وتب ، (رؤ ٣ : ١٩) .

إن الله يدعو كل من فتر .. وكل من تراخى .. إنه يعمل فيهم ليرجعوا فعليهم أن يسمعوا دعوته ويرجعوا .. ذلك لأن رجوعهم ممكن ، فهم مضمونون فى يد المسيح لا يختطفون منها !!

(٥)

«اجتهدوا أن تجعلوا دعوتكم واختياركم ثابتين . لأنكم إن فعلتم ذلك لن تزلوا أبدا » . ليس هذا لأن قصد الرب قد تغير ، أو قضاءه غير أكيد أو اختياره لنا غير ثابت كلا ، بل لأن الله أوجب الواسطة التى بها يتم قضاؤه غير المتغير .. قضى بثباتنا وقضى أيضا بواسطة ذلك الثبات ، وتلك الواسطة هى عملنا نحن الذى بين أيدينا المفروضة على من لهم حرية إرادة .

إن الله هو ضامن ثباتنا ، فلو لم يفعل ذلك ما كان ممكنا أن نثبت ، ولكنه ضامن ذلك الثبات عن طريق استجابتنا بحريتنا لعمله فينا .. ونحن مسئولون عن هذه الاستجابة .. إنه ضامن رجوعنا إليه من الزلل ، ولكننا مسئولون عن ذلك الرجوع .

نحن لا نعرف كيف يعمل فينا الله لتثبيتنا ، أو لإرجاعنا .. ولكن نعرف كيف أن نطيع قوله « اجتهدوا أن تجعلوا دعوتكم واختياركم ثابتين » . نعرف كيف نطيع قوله « ارجعوا إلىَّ » فإن طاعتنا ، إتمامنا لمسئوليتنا ، سيظهران عمل الرب فينا للثبات والرجوع ...

لا يجوز أن نتهاون إننا مسئولون .. لو تهاونا لكان هذا دليل عدم اختيارنا .. لو فشلنا عند السقوط لدل هذا على عدم اختيارنا !! لو سقطنا من الإيمان فهذا معناه عدم إمكان إرجاعنا للتوبة ، لو فقدنا ثقتنا ورجاءنا لفقدنا كل شيء .. ولكن هذا لن يحدث فعلينا أن نعمل ونجتهد أن لا يحدث !!

إن حياة القداسة هى تثبيت الاختيار من وجهة نظرنا نحن ، وبحسب مسئوليتنا نحن . فعلينا أن نجتهد أن نكون وأن نعيش قديسين ، وفقاً للدعوة والاختيار : « لهذا عينه وأنتم باذلون كل اجتهاد قدموا فى إيمانكم فضيلة ، وفى الفضيلة معرفة ، وفى المعرفة تعففاً ، وفى التعفف صبراً ، وفى الصبر تقوى ، وفى التقوى مودة أخوية ، وفى المودة الأخوية محبة . لأن هذه إذا كانت فيكم وكثرت تصيركم لا متكاسلين ، ولا غير مثمرين لمعرفة ربنا يسوع المسيح » (٢ بط ١ : ٥ — ٨) .

علينا أن نجتهد : أن نقمع الجسد ونستعبده : أن نحمل هذا محمل الجد حتى نهايته : أن نسهر مصلين حتى لا ندخل فى تجربة : أن نقاوم بالمكتوب : أن نكون دائماً يقظين حتى إذا جاءت الخطية نقول لها « لا » !! علينا أن نحارب ، وأن نقاوم حتى الدم مجاهدين ضد الخطية ... إننا مسئولون عن ثباتنا .

إطمئن أيها المؤمن إلى أنك لن تهلك ، ولكن فى نفس الوقت ، ليس إطمئنان المستكين ، بل إطمئنان من فتح أمامه الأمل والرجاء ، لكل اجتهاد صالح حتى ذلك اليوم الذى فيه ينتهى الجهاد ضد الخطية ، ونكون هناك فى ديار الراحة والمجد والنشيد ..

مصدر القداسة البشرية

« تمموا خلاصكم بخوف ورعدة — لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرة » (فى ٢ : ١٢ و ١٣)

رأينا فى الكلمة الماضية أن القداسة تثبيت الاختيار بالنسبة لمسئوليتنا نحن ولكن لا نستطيع أن نقف إلى هذا الحد . إن هذا البحث لم يتم بعد ، نحتاج أن نكتشف مصدر القداسة المطلوبة منا ... هل نحن الخطاة نستطيع أن نكون قديسين ؟ هل هذه القداسة المطلوبة فينا ، أم هل يمكن أن نكتسبها ؟!

ونستطيع أن نرى نوراً بنور الرب فى هذه الكلمات « تمموا خلاصكم بخوف ورعدة .. لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرة » (فى ٢ : ١٢ و ١٣) .

(١)

ولكن هذه الآية تحتاج إلى تفسير . كل كلمة فيها تحتاج إلى تفسير ... ما معنى الخلاص هنا ؟ ما هو إتمام الخلاص ؟ هل هذا فى أيدينا نحن ؟ ولم الخوف والرعدة ؟ وكيف يعمل فينا الله أن نريد وأن نعمل ؟ ما هى الإرادة ؟ وما هو العمل ؟ ما هى المسرة ؟ وهل نحن أم الله الذى يعمل ؟!! كل هذه أسئلة تخطر على البال عند قراءة هذه الآية .. ولكن لو وضحت لأعلنت حقاً إلهياً عظيما عن مصدر القداسة البشرية ..

« تمموا خلاصكم » :

ما معنى خلاصكم هنا ؟ وردت كلمة الخلاص فى العهد الجديد بثلاثة معان : الأول معناه التبرير (مثل ٢ تى ١ : ٩) والثانى التقديس (رو ٥ : ١٠) والثالث التمجيد (عب ٩ : ٢٨) . وواضح جداً من الآية ذاتها ومن قرينتها أنه لا يقصد الأخير .. ثم إن عرفنا أن الرسول يخاطب هنا جماعة مؤمنين (١ : ٢ و ٥ و ٦ و ٢٨ — إلخ ٢ : ١٢) لاستثنينا أيضاً المعنى الأول .. فيبقى المعنى الثانى (وتؤيده القرينة كما سنرى ..) فالخلاص هنا يعنى النصرة على الخطية والعيشة كما يحق لإنجيل المسيح (١ : ٢٧) وهنا يواجه الرسول مشكلة خاصة فى فيلبى (٤ : ٢ و ٣) . وهى الشقاق الكائن الذى قصد أن ينتصروا عليه ، وهذا ما يعبر عنه بالخلاص .. ولكن فى الوقت نفسه يمكن تعميم هذا المعنى ليشمل النصرة على كل خطية وعلى أى خطية فى جهادنا الروحى .

والكلمة « تمموا » فى أصلها كانت تستعمل عن الطلبة الذين يحلون تمارين رياضية ، ويقصد بها أن يجاهدوا فى حلها حتى يصلوا إلى نهاية الحل . فلما عم استعمال هذه الكلمة ، صارت تعنى استمرار الجهاد حتى يصل المرء إلى الهدف النهائى من جهاده .

وبالنسبة للخلاص (القداسة) هنا تعنى الجهاد بكل وسيلة ، وبكل قوة إلى أن نصل إلى الخلاص — إلى نهايته — إلى أن نفتكر فكر المسيح الذى أخلى نفسه . ونتواضع تواضع المسيح (ع ٢ — ١١)[١] وإلى أن تكون لنا قداسة المسيح فى كل نواحى الحياة أيضاً ..

« بخوف ورعدة » معنى هاتين الكلمتين كل واحدة على حدة بسيط . ولكن استعمالهما يعطيهما صبغة ومعنى خاصاً . ولكى نستخلص هذا المعنى أرجو أن نستعرض الآيات التى وردت فيها فى الكتاب المقدس .

وردتا فى العهد القديم متلازمتين فى مز ٢ : ١١ عن عبادة الرب والهتاف له .. وذات الكلمتين فى السبعينية اليونانية ، وردتا فى تك ٩ : ٢ عن خشية ورجفة كل حيوانات الأرض للإنسان بحيث لا تقوى على معاداته وفى خر ١٥ : ١٤ — ١٦ عن الرعدة التى تصيب سكان كنعان بسماعهم خبر تجفيف البحر الأحمر بحيث لا يقوون على الحرب ، وفى تث ٢ : ٢٥ ، ١١ : ٢٥ عن جعل خوف شعب الرب على سكان كنعان حتى لا يقوون على الوقوف فى وجوههم ...[٢]

وقد وردتا فى العهد الجديد فى (١ كو ٢ : ٣) تعبر عن حال بولس الرسول حين دخل كورنثوس ، فقد كان حين دخل أثينا يأنس فى نفسه قوة الإقناع والحجة الفلسفية ، ولكنها خابت .. فذهب إلى كورنثوس ليس بسمو الكلام ، ليس بذات الشعور بل كمن ينظر لنفسه فى منتهى الضعف — لا يأنس فى نفسه تلك القوة .. وفى (٢ كو ٧ : ١٥) عن حال الكورنيثسيين بضميرهم المتأنب بكلمة الله على يد تيطس بحيث لا يأنسون القوة لا على رفض بولس ولا تيطس حتى يأخذوا جانب شخص آخر غير بولس .. وفى أف ٦ : ٥ عن موقف العبيد أمام سادتهم فإن سلطان السيد يفقد ذلك العبد أن يأنس فى نفسه القوة على العصيان ..

فمن كلا العهدين نجد أنها تعنى حالة نفسية معها لا يستطيع الإنسان أن يعتمد على قدرته الخاصة لكى يقابل الظروف التى أمامه .. ولأجل المعنى الخاص الذى نحن بصدده نخصص هذه الحالة بأنها الاهتمام الناتج من شعور بنقص الإمكانات الشخصية للبلوغ إلى نهاية القداسة والكمال مما يدفع الإنسان لمضاعفة الجهود مثل ما ولد هذا الشعور الحمية فى الفلسطينيين وغلبوا (١ صم ٤ : ٦ — ١٠) ومثل ما فعل بولس حين رأى نفسه لم يكمل أو ينل الهدف (فى ٣ : ١٢ — ١٤) .

إنها حرص القائم أو من يظن أنه قائم لكى ينظر أن لا يسقط (١ كو ١٥ : ١٢) . إنها حرص الموعود بالراحة لئلا يخيب (عب ٤ : ١) . إنها العكس الصحيح للكبرياء والغرور المبنيين على ثقة زائفة بالنفس تعرض الإنسان للقطع (رو ١١ : ٢٠) .

نشعر بأننا غير كاملين وغير تامين فى القداسة ومطلوب منا بلوغ الكمال فنسعى غاية الجهد فى مقاومته حتى الدم ضد الخطية للبلوغ إلى هذه النتيجة .. ننظر إلى هذا الأمر نظرة الاهتمام ،

---

(١) هنا يعنى الأمر على مثال تواضع المسيح فيكون هدف السعى هذا الوصول لقداسة المسيح .

(٢) استعملت كلمات كثيرة وتتفاوت هذه الكلمات قوة ولكن تقابلها نفس الكلمات اليونانية فى العهد الجديد .

ونفعله فعل المجاهد ، لأننا إن لم نفعل هذا سنجد أنفسنا فى حالة يرثى لها .. ويجب أن يرافقنا هذا الشعور ، كدافع لنا لنجاهد أقصى الجهاد حتى الوصول إلى نهاية القداسة البشرية .. هذا حال بولس الرسول وهو يقول « أقمع جسدى وأستعبده ، حتى بعد ما كرزت للآخرين ، لا أصير أنا نفسى مرفوضاً !! » (١ كو ٩ : ٢٦ و ٢٧) .

« لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرة » .

لكي نحدد معنى « المسرة » هنا يجب أن يكون فى بالنا عدة اعتبارات : من جهة هذه الكلمة معرفة « بال » تفيد مسرة خاصة ولم يتصل بها أى شيء آخر لكى يعرفها فهى معرفة فى ذاتها . فمن هذا نعرف أنها مسرة الرب العامل ..

وقد وردت هذه الكلمة بصورة تختلف عما وردت عليها الكلمة « بالناس المسرة » (لو ٢ : ١٤) التى يظهر من معناها أنها من فعل متعد (بالناس متعلق بمحذوف مفعول به) مثل « ابنى الحبيب الذى به سررت » (مت ٣ : ١٧ ، ١٧ : ٥ وغيرها) « بأكثرهم لم يسر الله » (١ كو ١٠ : ٥) « بذبائح مثل هذه يسر الله » (عب ١٣ : ١٣) . أما كلمة المسرة التى نحن بصددها فليس لها ما يفيد أنها من فعل متعد . إنها مثل قول المسيح « هكذا صارت المسرة أمامك (مت ١١ : ٢٦ ، لو ١٠ : ٢١) . إنها المسرة أساس الاختيار ، ومرادفة للقصد الأزلى الحسن مثل « إذ سبق فعيننا للتبنى بيسوع المسيح لنفسه حسب مسرة مشيئته » (أف ١ : ٥) . إذ عرفنا بسر مشيئته حسب مسرته التى قصدها فى نفسه (أف ١ : ٩) .

وبحسب ما تحدده القرينة هنا من الحديث عن القداسة (خلاصكم) نجد أننا « مسرة الصلاح » (٢ تس ١ : ١١) ، أو ما قاله الرسول بولس لنفس الكنيسة « لأن هذه هى إرادة الله قداستكم .. لأن الله لم يدعنا للنجاسة بل فى القداسة » (١ تس ٤ : ٣ و ٧) .

فالمسرة هنا هى قصد الله الذى دعانا إليه ، وهو خلاصنا وقداستنا .

« من أجل » المسرة معناها « لحساب »[1] هذه المسرة . لقد وضع الرب مسرته أمامه هدفاً يصل بنا إليه . جعل قداستنا نصب عينيه يحملنا إليها حتى نحققها ، ونفى بكل مطاليبها ..

« العامل فيكم » تعنى المؤثر فيكم ، المنتج فيكم ، حاملكم ومقويكم (على الإرادة والعمل) العامل كلمة فى الأصل اليونانى تحمل معنى القوة[2] تشبه الكلمة التى استخدمها المسيح عن الخلق « أبى يعمل حتى الآن وأنا أعمل » (يو ٥ : ١٧) . بل صحبت هذه الكلمة فى عدة مناسبات معنى معجزى[3]

« أن تريدوا » والإرادة هنا تعنى الرغبة والمرام والدافع للعمل .. فى انعدامها تتعطل الأفعال الحرة

---

(١) الكلمة اليونانية المترجمة « من أجل » اذا أتت قبل صيغة الإضافة الملكية كان معناها لحساب هذا بالنسبة للأشخاص .

(٢) أصل الكلمة اليونانية جاءت منها الكلمة الانجليزية energy

(٣) أنظر ٢ كو ١٢ : ٥ و ١١ ، غل ٣ : ٥ ، أف ١ : ١١ و ١٩ و ٢٠ ، ٣ : ٢٠ ، كو ١ : ٢٩ .

الاختيارية ، كما حدث فى حالة الابن الذى قال له أبوه « ياابنى اذهب اليوم اعمل فى كرمى » فإن الابن « ما أريد » ولكنه ندم أخيراً ومضى (مت ٢١ : ٢٨ و ٢٩) . وفى الندم كانت الإرادة .. التى فى انعدامها لم يكن ممكناً إنجاز أى شىء .. فإذا وجدت مضى .. وتشبه ما قاله المسيح عن الشريف الذى سافر لكى يأخذ ملكا ويرجع أرسل شعبه سفارة وراءه إذ أبغضوه قائلين « لا نريد أن يملك هذا علينا » ، ومع أنه ملك ، لكنهم لعصيانهم عليه جعلوا ملكه غير فعال بالنسبة لهم لدرجة أنه قال « أما أعدائى الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فاتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدامى » (لو ١٩ : ١٢ و ١٤ و ٢٧) .

وحين توجد الإرادة يأتى الكفاح من أجل تنفيذها . حين توجد إرادة لاتباع المسيح فلا مانع من حمل الصليب (مت ١٦ : ٢٤) . وحين توجد إرادة للعيشة بالتقوى لا مانع من احتمالات الاضطهاد من أجل المسيح (٢ تى ٣ : ١٢) .

هذه الإرادة الراغبة الدافعة للعمل .. يعمل فينا الرب لوجودها .

ووجود هذه الإرادة عند الله ضمان لإنجاز العمل ، كما قال الأبرص « إن أردت تقدر أن تطهرنى » ، فقال الرب « أريد فاطهر » وللوقت طهر برصه (مت ٢١ : ٢) ، لكن وجودها عند الإنسان ليس كافياً لإنجاز العمل ، إنها رغبة فيه فقط . قال بولس الرسول « لأن الإرادة حاضرة عندى وأما أن أفعل الحسنى فلست أجد .. حينما أريد أن أفعل الحسنى أجد أن الشر حاضر عندى ! » (رو ٧ : ١٨ و ٢١) وزد إلى ذلك أن أحيانا توجد الإرادة العكسية ، وفيها بطرس الرسول يقول « لأن هذا يخفى عليهم بإرادتهم ! » (٢ بط ٣ : ٥) .

لهذا يعمل الله فينا « أن نريد .. من أجل المسرة » فهذا علاج الإرادة العكسية ، ويزيد إلى إرادتنا شيئا آخر يعمله فينا وهو « أن نعمل .. من أجل المسرة » .

« أن تعملوا » فى أصلها اليونانى من ذات الكلمة التى استخدمت من عمل الله فينا . إن الله لا يعمل فينا أن نريد ثم يتركنا لقوتنا المحدودة لكى نتعثر فى اتمام هذه الإرادة ، لكنه يعمل فينا أن نعمل ، يعمل فينا أن تكون لدينا القوة والطاقة لكى ننفذ ما رمناه لأجل مسرة صلاح الله .

وليس فقط يعطينا القوة للتنفيذ ، بل يعطينا العادة للعمل من أجل المسرة ، فإن صيغة المصدر المستعمل للكلمة هو « وأن يعملوا العمل المستمر كعادة » ..

نلاحظ هنا أن الرسول يقول لنا « بأن نجاهد جهاد الخائف المرتعد غير الراضى عن حالته ، الراغب فى الكمال والقداسة ، وفى نفس الوقت يقول بأن الله يعمل فينا عملا فعالا لتكون لنا إرادة مقدسة وتكون لنا القوة المستمرة لننفذها .. » .

ما هذا ؟ أنحن متممو خلاص أنفسنا أم الله ؟! أنحن العاملون أم الله ؟ إن كنا نحن المسئولون عن ذلك لدرجة الخوف والرعدة ، ونحن العاملون ، فما مكان عمل الله ؟ وإن كان العمل عمل الله فما حاجتنا إلى خوف ورعدة ؟! إن الرب يسوع يقول « لا تخف أيها القطيع الصغير لأن أباكم قد سر أن يعطيكم الملكوت » (لو ١٢ : ٣٢) .

(٢)

هنا يتكلم عن قداستنا كما لو كانت عملنا نحن الخالص ، ولا شأن لله فى ذلك ، ومن هنا يأتى الخوف وتأتى الرعدة .. إننا مسئولون عن ذلك .. ويتكلم عن فعل الله فينا كما لو كنا بلا عمل ، الإرادة من أجل المسرة منه ، وتنفيذها هو من عطيته وقوته .. هو العامل فينا ..

ولا يقصد الرسول هنا أن الأمر أمر تعاون بين الله والإنسان ، هو عليه بعض الشيء ونحن علينا البعض الآخر ؛ بل يقصد أن الله يعمل الكل ، ونحن نعمل الكل ، الله « هو » العامل فينا .. ونحن علينا كل العبء فى إتمام خلاصنا مما يوقفنا فى خوف ورعدة !!

أمران يبدو أنهما متناقضان ، لكننا رأينا أن قضاء الله لا يناقض مسئولية الإنسان لأنه يشملها وهنا نفهم أن قداستنا مسئوليتنا ضمن قضاء الله ونقدر أن نرى أشياء كثيرة تشبه هذا ، ونحن نقبلها ولا نفكر حتى فى وجود تناقض فجميعنا لاحظنا الأم تلقن طفلها آراءها ، ويقبلها الطفل ؛ وتوجهه ليعمل ما تقصده ويطيع الطفل ، تطعمه ويأكل الطفل .. إلى غير ذلك من أمور فيها تكون الأم مؤثراً والطفل يستجيب ، ولكن لا يقدر أحد أن يقول إن الطفل لم تكن له إرادته ولم يفعل ذلك إلا بناء على إرادة وضغط الأم ...

وإذا رأيت سابحاً يعوم مبتعداً عن الشاطىء يساعده الجزر أو مقتربا من الشاطىء يساعده المد لا تقدر أن تقول إنه لم يعم فالجزر كان يحمله ، وكذا المد ، أو أن تقول : لم يفعل المد والجزر شيئاً فلقد كان هو يعوم .. ومع أن هذا المثل فيه نقصه (إذ أن الله لا يساعد مجرد مساعدة لكنه يفعل فعل المؤثر والإنسان لا يتعاون مع الله تعاوناً ، لكنه يستجيب صانعاً كل شيء وهو حر مسئول) . لكنه يرينا زوال فكرة التناقض ..

ربما مثل أفضل وهو مثل ذلك الابن الذى قال لأبيه : ياأبى أعطنى زمام هذه الفرس لكى أقود المركبة ، فأجلسه الأب على رجليه وأعطاه الزمام وأمسك هو أيضا بيد الولد يجذب اليد فتحرك الزمام ..

كذلك حين يعلم الأب أو الأم أو المعلم الصغير الكتابة ، يضعون القلم فى يد الولد ويحركون اليد ، والقلم فيها ، فوق الورق .

هكذا طريق النعمة دائما . أن الرب يصيرنا إلى ما نحن عليه ويعطينا القوة والإرادة التى بها نتمم خلاصنا ، ونحن نتمم .. إن الله يؤثر فينا تأثيراً فعالا ونحن نستجيب لمؤثراته .

إننا نعلم أننا مسئولون أن نجرى ذلك ، لأن الإمكانات موجودة لدينا ، هى عمل الله فينا .. إن نقصنا الإنسانى قد زال .. إن استحالة إتمام خلاصنا قد انتهت ، وذلك بقضاء الرب الذى يعمل فينا عمله الفعال ، منتجاً فينا الإرادة وتنفيذها من أجل المسرة .

فى نبوة حزقيال ترد ثلاثة فصول فى أحدها يطلب الرب « اعملوا لأنفسكم قلباً جديداً وروحاً جديدة فلماذا تموتون ؟ » (حز ١٨ : ٣١) . وفى الثانى يعد الرب « وأعطيكم قلباً جديداً وأجعل

روحاً جديدة فى داخلكم.» (حز ٢٦ : ٢٦) . وأما فى الثالث فيرد الاثنان معا « وأعطيهم قلباً واحداً وأجعل فى داخلهم روحاً جديدة .. أما الذين قلبهم ذاهب وراء مكرهاتهم ورجاساتهم فإنى أجلب طريقهم على رؤوسهم يقول السيد الرب » (حز ١١ : ١٩ و ٢١) . أما أن يعطى الرب هذه الهبات فهذا عمل النعمة ، الرب مصدر القداسة وأما أن يطلب الرب من الإنسان أن يعمل لنفسه قلباً جديداً وروحاً جديدة ، بل ويعاقب « القلب الذاهب » وراء « قلب المكرهات » فهذا معناه مسئولية الإنسان للاستجابة لعمل الرب فيه ..

ونظرة إلى ما يقوله بولس الرسول عن اختباره الخاص تحقق لنا هذا الأمر .. يقول بولس الرسول « بنعمة الله أنا ما أنا ، ونعمته المعطاة لى لم تكن باطلة ، بل أنا تعبت أكثر منهم جميعهم ولكن لا أنا بل نعمة الله التى معى » (١ كو ١٥ : ١٠) . هنا نرى النعمة التى صيرته رسولا .. عاملا .. ومن هنا إرادته وعمله الذى عمله وجهاده وتعبه بقوة تلك النعمة ..

وهو يقول « مع المسيح صلبت ، فأحيا .. لا أنا : بل المسيح يحيا فى فما أحياه الآن فى الجسد فإنما أحياه فى الإيمان إيمان ابن الله الذى أحبنى وأسلم نفسه لأجلى » (غل ٢ : ٢٠) فهو يقول « أحيا » ويقر بأنه ، وجدانه ، وعقله ، وفكره وشعوره وكيانه موجود ، ولو أن كل شىء من ذلك هو حياة المسيح فيه ، وأعمال المسيح فيه ، إنه يحيا كمسئول له كامل الحرية ، ولكنه ليس بقوة نفسه بل بحياة المسيح فيه ..

قال أحدهم « إننى إذا معذور لسلوكى فى طريق الخطية ! إن الله لم يعمل فى ! لا إرادة عندى ! والله لم يعمل فىَّ لكى أريد لا قوة عندى والله لم يعمل فىَّ لأعمل ! » .

وفى الحقيقة لولا عمل الله لبقينا على حالنا غارقين فى الخطية ، نازعين إلى الشر . ولو وجدت فينا إرادة صالحة فحالا تتبدد وإن تركنا للتجربة فستأتى التجارب وقوات الشر تحضر عندنا !! وتظهر الأعباء أثقل من أن نحملها ، بحاراً أعمق من أن نخوضها .. نعم إننا نفتقر إلى عمل الله فينا ..

ولكن من قال لهذا الذى يتلمس لنفسه الأعذار أن الله لا يعمل فيه !؟ من قال له إن الله حرمه من إيجاد رغبة فعالة فيه وقوة منفذة لأجل القداسة التى اختارنا الرب فيها ؟!

إن من يفرض أن الله يقف أمامه لكى يقول له قد أعطيتك إرادة ثم يرغمه على العمل ، مخطىء .. لأنه لا يفرض للإنسان حرية أو مسئولية أو استجابة !!! وكذلك من يحاول أن يشق طريقه فى طلب القداسة بلا اتكال على الله ، بلا اعتبار لعمله فيه مخطىء أيضا .. لأنه حتما سيفشل فشلا ذريعا فهو أضعف من هذا .. إنه يريد أن يصير فى قداسة الله بقوة البشر !!

لماذا نحن قديسون ؟ هل مصدر قداستنا الله أم أنفسنا ؟ قد رأينا أن من الله الإرادة والقوة اللتين بلاهما لا قداسة لنا ، ورأينا الاستجابة التى يجب أن تقوم بها لكى يكون عمل الله فينا فعالا كى لا ينطبق علينا ما قاله الرب يسوع « كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا » (مت ٢٣ : ٣٧) .

إن هذا هو أكبر مشجع لنا فى طريق القداسة . إن القداسة ممكنة لنا إذ أن الله يعمل فينا لنصل

إليها .. ففي الوقت الذى نرى أن طريق القداسة أكبر من أن نسير فيه ، وأشق من أن نسلكه .. فها نحن لا نقابله بأنفسنا وإمكانات أنفسنا ، بل بالله وإمكانات الله ..

(٣)

من أجل هذا تأتى الوصية فى صيغة الأمر : « تمموا » فلنتمم خلاصنا لأجل هذين الأمرين :

١ — أولا لأن إرادة مسرة الله ممكنة لنا .. لأن إرادتنا المهزومة التى شكوناها مع بولس الرسول (رو ٧) قد أصلحها عمل الرب فينا لكى نريد لأجل مسرته .. بدلا من الهزيمة يتم : « شعبك منتدب فى يوم قوتك فى زينة مقدسة من رحم الفجر لك ظل حداثتك » (مز ١١٠ : ٣) . فقد تغيرت النغمة القائلة « حينما أريد أن أفعل الحسنى (أجد) أن الشر حاضر عندى » (رو ٧ : ٢١) واستبدلت بالمستعد المجهز فى يوم الرب — فى زينة مقدسة !! أجل عمل الرب هو الذى أصلح فينا هذه الإرادة المهزومة ومن أجل هذا نقول « ليس أننا كفاة من أنفسنا .. بل كفايتنا من الله » (٢ كو ٣ : ٥) .

فبعد هذا ما الذى يمنعنا من أن نسير قدما نحو قداسة كاملة ؟! ما الذى يمنعنا أن نتمم خلاصنا ؟ لقد عمل الله فينا لكى نريد ، فلنرد . إن هذا ممكن لنا . إن دافع الرب يدفعنا نحو مسرة الصلاح والقداسة .

فلننزع منا كل إرادة شريرة .. كل إرادة ليست من مسرة الرب .. وهذا ممكن لنا لأن الرب يعمل فينا لننزعها .. ليقف التفكير بالبطل (مى ٢ : ١) والتفكر بالاثم على المضاجع ، والوقوف فى الطريق غير الصالح .. ليرفض الشر (مز ٣٦ : ٤) لتنتزع الرغبة الشريرة الملحة التى تداوم مراودتها للإنسان حتى آخر نهاره ، فإن لم يعملها تقض مضجعه ! (أم ٤ : ١٦) . فلئن تكن هذه فى أوج قوتها فإن الرب يعمل فى إرادتنا ضدها فلنظهر عمل الرب .. لننفض كل رغبة شريرة ..

أدرك شاول فى طريقه إلى دمشق أنه يتبع إرادة نفسه .. إرادة ليست هى تقديم خدمة لله (يو ١٦ : ٢) . أدرك أنه يسير ضد مسرة الله ، ويضطهد المسيح (أع ٩ : ٤) فقال : « يارب ماذا تريد أن أفعل ؟ » (أع ٩ : ٦) وصام ثلاثة أيام وكان يصلى ماذا ينبغى أن يفعل (ع ٩ و ١١) وانعزل فى البرية التى يسميها العربية ، لكى يعرف التعليم الذى يريده الرب (غل ١ : ١١ و ١٧) وحالما عرف أنه على خطأ نزع إرادته التى لا تتفق ومسرة الرب ..

عندما صاح الديك ، وعندما نظر الرب إلى بطرس تذكر بطرس كلام الرب فخرج إلى خارج وبكى بكاءً مراً (لو ٢٢ : ٦٠ و ٦١) .

لنسأل أنفسنا هل الرب راض عن ما أريده ؟ إن لا فلننزعه ..

ولنغرس فى أنفسنا كل إرادة مقدسة مسرة ... إن الله يعمل فينا لغرس هذه الإرادة الصالحة ، لذا فليس من المستحيل علينا أن نريد حسناً .. مادام القلب لا يذهب وراء العينين (أى ٣١ : ٧) ومادام قد انتهى عناد القلب الردىء (إر ٨ : ١٢) . ولا يوجد القلب الشرير المرتد عن الله

الحى (عب ٣ : ١٢) .

لقد انجلى الطريق أمام الإرادة الطيبة الصالحة ، وهذه من فعل الرب فينا .. الرب الذى يحببنا فى مشيئته ومسرته وكل شىء تنطوى عليه ..

ويعمل فينا الله لكى نسأل دائماً هذا السؤال : ماذا يريد الله أن نعمل ؟ وسنختار إرادته لكى تكون إرادتنا .

إننا لا نعلم كيف يعمل الله فينا لكى يحول إرادتنا إلى مسرته . إن أعمال الله فينا سر لا نستطيع أن ندركه ، ولا يعنينا أن ندركه ، لا يهمنا فى أن نعرف كيف يعمل فينا الله لكى نريد ! لكن يعيننا أن نعرف أن الله يعمل فينا فعلاً .. وهو يقدم لنا العتق من الإرادة المقاومة ، إذ يعطينا أن نستفيق من فخ إبليس الذى اقتنصنا لإرادته ، وبدلا من ذلك يكون الله قد ربحنا لإرادته .. وكوننا نعرف أننا قد تحولنا بقوة إلهية إلى إرادة المسرة ، فقد قطعنا معظم الطريق إلى خلاصنا .

نعم ممكن لنا أن نريد من أجل المسرة . فلنرد وبالتالى فلنتمم خلاصنا ..

٢ ـــ والأمر الثانى الذى يحتم علينا أن نتمم خلاصنا فيه هو أن عمل مسرة الله ممكن لنا .. إن السلوك فى طريق مسرة الله ممكن لنا وذلك أيضاً بعمل الله ..

لقد ابتدأ الله عملا صالحاً فينا ـــ وبداءته هى غرس الإرادة الصالحة .. ولابد أن يكمل .. إن الله لا يترك عمله ناقصاً قط ولقد استجبنا لله بأن نلنا منه الإرادة الصالحة . فيجب أن نتمم خلاصنا وذلك بالعمل .. ولا يجوز أن نترك الطريق أو ننسحب من الميدان ..

إن الله يعمل « فينا » ما يرضى (عب ١٣ : ٢١) . وهذا يعنى أنه يعمل فينا أن نعمل .. هذا هو الاختبار الذى اختبره بولس الرسول ذاته إذ يقول : « الأمر الذى لأجله أتعب أيضاً مجاهداً بحسب عمله الذى يعمل فىَّ بقوة » (كو ١ : ٢٩) فالله هو الذى يعمل فيه بقوة .. وبحسب هذا العمل يتعب مجاهداً .. أما تلك القوة الإلهية فلا حدود لها .. ذلك لأن الله هو القادر أن يفعل .. أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر بحسب القوة التى تعمل فينا » (أف ٣ : ٢٠) . وإذا تعمل هذه القوة فينا أكثر مما نطلب أو نفتكر تساعدنا أن نفعل أكثر مما نطلب أو نفتكر ..إن عمل الرب فينا هو أمل النجاح ، وأمل النجاح يحتم علينا العمل ، جاعلاً إيانا مسئولين أن نحقق ما يسر الرب ..

لقد صار ممكناً أن ننتصر على الخطية الساكنة فينا .. على الإنسان العتيق ، إذ لسنا متروكين لقوتنا الشخصية نقول « ويحى أنا الإنسان الشقى من ينقذنى من جسد هذا الموت ؟ » (رؤ ٧ : ٢٤) . لقد وجد المنقذ . فإن ناموس روح الحياة فى المسيح يسوع قد اعتقنا من ناموس الخطية والموت (٨ : ٢) والروح فينا ضد شهوات الجسد (غل ٥ : ١٧) وكل ما علينا هو أن ننقاد بالروح أن نسلك بالروح فلا نكمل شهوة الجسد (غل ٥ : ١٦ و ١٨) . لقد جهز لنا الله

عتقاً من الخطية الساكنة فينا ، وجهز لنا أيضاً نصرة على التجربة إن استفدنا بعمله حاربنا وانتصرنا ..

مطلوب منا أن نجاهد ضد الخطية لكننا نجاهد آملين بقلوب مستبشرة ذلك لأن الله هو ضامن نصرتنا لأنه هو العامل فينا أن نعمل لأجل المسرة ..

لقد صار ممكناً لنا أن ننكر النفس ، وأن نترك الإثرة .. إن ترك الإثرة نصرة على الخطية من جميع وجوهها .. إذا ترك السارق الإثرة وقف عن أن يسرق لنفسه ما ليس لنفسه ، وإذا ترك الزانى الإثرة سكت عن أن يأخذ لنفسه امرأة غيره ، أو المرأة رجل غيرها .. وهكذا إلى جميع الخطايا . لكن ترك الإثرة معناه ترك طاعة النفس ، أو إنكار النفس .. وإنكار النفس صلب لها .. وليس من السهل أن يصلب المرء نفسه . على أن هذا يأتى بعمل الله فينا كما يقول الكتاب « وهو مات عن الجميع كى يعيش الأحياء لا لأنفسهم بل للذى مات لأجلهم وقام » (٢ كو ٥ : ١٥) . فى صليب المسيح صار ممكناً أن نصلب أنفسنا ، وأن ننكر أنفسنا ، لذلك ينبغى أن نفعل ..

وحين ننكر النفس ، وحين نحمل الصليب نستطيع أن نكون تلاميذ المسيح ، الذى يتطلب التواضع والمحبة والخدمة . إن المعطل قد إنتهى إذ وجد إنكار النفس . لأن من ينكر النفس يستطيع أن يتواضع ويستطيع أن يحب وإذا اجتمع هذان يستطيع أن يخدم . وهكذا يعيش الأحياء لا لأنفسهم وخطاياهم وشهواتهم وأنانيتهم بل للذى مات لأجلهم وقام . حياة المحبة الباذلة المضحية الخادمة .. هذا كله فى الإمكان عندما نسلم أنفسنا لروح الله لكى يصلبنا على صليب المسيح ، لذا ينبغى أن نتممه ..

لسنا هنا فى موضوع قطع عهد النعمة مع الله ـــ الخلاص بمعنى التبرير والتجديد . بل التقديس .. هنا موضوع جماعة لهم طبيعة جديدة خلصوا بقبولهم دم المسيح الفادى .. ولكنه يوجد أيضا ناموس آخر فى أعضائهم يحارب ذلك الغرس الجديد الذى غرس فيهم .. هذا أيضا جهز له الرب خلاصاً مستمراً نحصل عليه بتسليم أنفسنا لعمل الروح كل لحظة والانقياد لروح الله كل لحظة ، فنحصل على قداسة الحياة وأكثر من ذلك نحصل على القوة المدعمة للخدمة .

ولعلك لاحظت ذلك كثيراً فى حياتك . أحيانا تحاربك الخطية محاربة جبارة قاسية وتنصب لك فخاً لا يفلت منه من هو فى قوتك ومكانك ، ولكنك تنتصر ذلك لأنك التجأت إلى قوة العامل فيك أن تريد وأن تعمل لأجل المسرة . وكانت النصرة مذهلة حقاً الفخ انكسر وأنت انفلت ، وأحيانا تحاربك الخطية محاربة هينة جداً لدرجة أنك تستهتر بها ، ولكنك سرعان ما تسقط فيها ، ذلك لأن الخطية مهما كانت بسيطة بل أبسط خطية أقوى منا .. ولذا أتى القول المحذر « من يظن أنه قائم فلينظر أن لا يسقط » وهذا هو الداعى « للخوف والرعدة » كما سبق أن ذكرنا ..

ومن الوجهة الأخرى مادمنا فى كامل التواضع والتقدير لمسئوليتنا نسلم قيادتنا للرب ، نتكل على قوة الرب ، ننقاد بروح الرب ، نحصل على قوة الرب العامل فينا أن نعمل من أجل المسرة ، فإننا نسير بقوة معجزية ، فى طريق مضمون .. لذا ينبغى أن نفعل هذا ..

ينبغى أن ننتصر ، وينبغى أن نخدم ، ينبغى أن نتمم مسرة الرب فينا . إن الرب يعمل فينا لنعمل ،

ولذا يحتم علينا أن نعمل ..

(٤)

ما مصدر القداسة البشرية : الله أم نحن ؟ قضاء الله أم مسئوليتنا ؟ الجواب الذى نستخلصه من كل ما سبق أنه الله ، ولذا يتحتم علينا قضاء الله الذى يجعلنا مسئولين .. عمل الله الذى يوجب علينا أن نعمل ..

نحن لا ندرى كيف يعمل الله فينا ، وليس لنا أن نسأل هذا . وليس لنا أن نقول أيعمل الله فىّ أم تركنى لضعفى وسقوطى ؟

كذا نحن لا نعلم كيف أن هذا هو عمل الله وفى نفس الوقت عملنا ذلك لأننا لا نستطيع أن نضع خطاً فاصلا بين الاثنين . بل إن عملنا مبنى على عمل الله ، على قوة الله ، وهو إظهار لعمل قوة الله .. نحن نريد لأنه عمل فينا أن نريد ، نحن نعمل . لأنه عمل . فينا أن نعمل . نحن نتجه إلى مسرة الرب لأن الله وجهنا لذلك ، نحن نتمم خلاصنا لأن الله بتممه فينا ..

لذا ليس محلا لسؤال يقول : مادام الله يعمل فى لا لزوم أن أعمل ولا مادمت أنا أتمم خلاصى وبخوف ورعدة فإن الله لا مكان له .. بل بالعكس الله هو العامل فينا لكى يصيرنا عاملين .. وهذا يفتح أمامنا الطريق المسدود بأمل الوصول إلى مطاليب الرب منا .. وهذا هو السر فى أننا مسئولون .. إن الله لا يحتم علينا أمراً مستحيلا مطلقاً والذى يريد أن يقول إننا مسئولون عن قداستنا وإن الله ليس له دخل بنا ، يريدون أن يحتم على البشر أمراً مستحيلا ..

على أن بعض الناس لا يستجيبون لعمل الرب فذلك برهان هلاكهم ..

إن الله يحتملهم بأنات كثيرة وهم يسعون إلى أكثر فجور ..

قضى الله بقداستنا . ونحن مسئولون عنها بذلك القضاء .. وشأن كل قضاء إلهى مجهول لنا ، لذا فلا نسأل عن قضاء الله لنهتم بأن نتمم مسئوليتنا . اترك قضاء الله لله ، كل ما يعنينا منه أن نتمتع ببركاته ، وذلك بأن نتمم مسئوليتنا . ففى القيام بمسئوليتنا نأخذ بركة قضاء الله ، فى الإرادة من أجل المسرة نظهر أننا قد نلنا بركات الله العامل فينا أن نريد ، وفى العمل من أجل المسرة نظهر أننا قد نلنا بركات قضاء الله العامل فينا أن نعمل ..

لذا لا يجوز أن نتكاسل فى الحرب

ولا يجوز أن نطمر الوزنات

ولا يجوز أن نتقاعد عن الخدمة

الله يعمل فينا لكى نريد ، ولكى نعمل ، فلا نعطل الإرادة أو العمل ، لنكن ساهرين لهذا فى خوف ورعدة لنقم ونقعد لهذا الأمر ..

« ليأت ملكوتك »

« ليتقدس إسمك ! ليأت ملكوتك ؛ لتكن مشيئتك : كما فى السماء كذلك على الأرض »
(مت ٦ : ٩ و ١٠) .

ربما تتوقع أننى أحدثك الآن بشأن ماهية الملكوت وهل هو روحى أم صوفى ؛ وربما تتوقع أن أشير إلى زمان الملكوت أهو قبل مجىء المسيح الثانى أم بعده ؛ وربما تتوقع أن أعرف ما هى الألف السنة .. الخ .. كل هذه خارجة عن موضوع هذا البحث .. أريد أن تتجه أفكارنا نحو الطلبة ذاتها « ليأت ملكوتك » من وجهة نظر قضاء الله ومسئولية الإنسان ..

يعلمنا المسيح أن نطلب « ليأت ملكوتك » وقد سبق أن بشر يوحنا المعمدان « توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات » (مت ٣ : ٢) . وسبق أن بشر المسيح نفسه « قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالانجيل » (مر ١ : ١٥) . وأمر المسيح تلاميذه أن يكرزوا قائلين « إنه قد اقترب ملكوت السموات » (مت ١٠ : ٧) . ولما سأل الفريسيون يسوع « متى يأتى ملكوت الله » أجابهم وقال « لا يأتى ملكوت الله بمراقبة ولا يقولون هوذا ههنا أو هوذا هناك لأن ها ملكوت الله داخلكم » (لو ١٧ : ٢٠ و ٢١) . فكيف نوفق بين هذه الأقوال وبين أمر المسيح لنا أن نصلى « ليأت ملكوتك » ؟ اقترب — داخلكم — وبعد ذلك نقول ليأتى !!!

شبه المسيح ملكوت الله بحبة خردل « أخذها إنسان وزرعها فى حقله ، وهى أصغر جميع البذور . ولكن متى نمت فهى أكبر البقول ، وتصير شجرة حتى أن طيور السماء تأتى وتتآوى فى أغصانها » . وكذا شبهه بخميرة (صغيرة) « أخذتها امرأة وخبأتها فى ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع » (مت ١٣ : ٣٠ — ٣٣) . ومن هذا المثل نستطيع أن ندرك أن ملكوت الله ملكوت تام ينضم أناس من الخارج إليه (مثل حبة الخردل) . وبإصلاح الذين فى داخله (مثل الخميرة) . أى أن ملكوت الله الذى أتى — اقترب — فى داخلهم — آت أيضاً ، ومن أجل هذا نصلى ليأت .

لكن ما علاقة هذا النمو بصلاتنا لأجل إتيان ملكوت الله ؟ — ماذا تفعل صلاتنا ؟ الله ملك ماذا لنا فى إتيان ملكوته ؟

إن هذا الملكوت هو ملكوت الله ؟ ولكنه أيضاً ملكوتنا . بحسب قضاء الله الملكوت آت كما لو لم يكن لنا يد فى ذلك ، وبحسب مسئوليتنا كما لو كان كل شىء علينا ...

(١)

فلنر الآن شركة هذا الملكوت .

المسيح هو ملك ، ورئيس هذا الملكوت الذى جاء لكى يؤسسه . لقد أعطاه الآب منذ الأزل الأمم ميراثاً له ، وأقاصى الأرض ملكاً له (مز ٢ : ٧ و ٨) . وأعلن المسيح ذلك صريحاً فى قوله قبيل الصعود « دفع إلىّ كل سلطان فى السماء وعلى الأرض » (مت ٢٨ : ١٨) . وقد أجلس الآب المسيح عن يمينه فى السماويات « فوق كل رياسة وسلطان وقوة وسيادة وكل اسم يسمى ليس فى هذا الدهر فقط بل فى المستقبل أيضاً . وأخضع كل شىء تحت قدميه وإياه جعل رأساً فوق كل شىء للكنيسة » (أف ١ : ٢٠ — ٢٢) .

نعم يقول الكتاب بأن المسيح ملك هذا الملكوت بحسب ما قضى به الآب منذ الأزل — منذ أن قال « أنا اليوم ولدتك .. إسألنى فأعطيك .. » (مز ٢ : ٧) .

ويقول الكتاب أيضاً إننا نحن أيضاً قد « جعلنا ملوكاً وكهنة » (رؤ ١ : ٦) . يقول يوحنا الرسول (١ يو ١ : ٦) عمن يسلك فى النور إن له شركة « معه » — مع الله ويرد فى (عب ٦ : ٤) عن المؤمنين أنهم « صاروا شركاء الروح القدس » ثم تأمل ما يقوله عن هذه الشركة :

(١) إننا شركاء المسيح فى ملكه « إن كنا نتألم معه لكى نتمجد أيضاً معه » (رو ٨ : ١٧) « إن كنا نصبر فسنملك أيضاً معه » (٢ تى ٢ : ١٢) . ولقد أعلن الرائى هذا مرة بالقول « ملكوا مع المسيح ألف سنة » (رؤ ٢٠ : ٤) « وسيملكون معه ألف سنة » (رؤ ٢٠ : ٦) وأخرى بالقول « وهم سيملكون إلى أبد الآبدين » (رؤ ٢٢ : ٥)[١]

هذا يفتح الباب لسيل من الأسئلة : ما معنى هذه الشركة فى ملك المسيح ؟ على من يملك المسيح ، وبأى معنى يملك شركاؤه عليهم ؟[٢] .

(٢) إننا شركاء الطبيعة الإلهية — (٢ بط ١ : ٤) منذ لبسنا « الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله فى البر وقداسة الحق » (أف ٤ : ٢٤) . ومنذ ذلك الوقت فإن عناية الله قد رتبت لنا وسائط النعمة التى بها « ننمو فى كل شىء إلى ذاك الذى هو الرأس المسيح » (أف ٤ : ١٥) ، بل رتبت لنا حتى التأديب لكى نشترك فى قداسة الله (عب ١٢ : ١٠) ، وهكذا إذ ننظر مجد الرب بوجه مكشوف ... نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح » (٢ كو ٣ : ١٨) . وهكذا إلى ذلك اليوم الذى فيه إذا أظهر (ماذا سنكون) نكون مثله لأننا سنراه كما هو (١ يو ٣ : ٢) إنه سيغير (ليس مجرد طبيعتنا الروحية الفاسدة إلى البر بل أيضاً) شكل جسد

---

(١) وقد وعدت أن لا أتعرض للبحث فى الألف سنة ، من أجل هذا أترك هذا الشاهد بدون تعليق — اترك للقارىء أن يقارن « رؤ ٢٠ : ٤ و ٦ » مع « رؤ ٢٢ : ٥ » وأن يلاحظ الزمان المستقبل فى « سيكونون كهنة لله والمسيح » مع الزمان المستقبل فى « وسيملكون معه الف سنة » وأسأل القارىء متى سيكون كاهنا ؟!

(٢) ستأتى الاجابة على هذه الاسئلة بعد قليل وذلك لمنع التكرار ولسهولة البحث .

تواضعنا ليكون علي صورة جسد مجده (فى ٣ : ٢١) . إننا شركاء تلك الطبيعة الإلهية التى نأخذها بالميلاد الثانى لأجل الدخول فى الملكوت (يو ٣ : ٣ و ٦) . وفعل المسيح فينا مبنى على استخدام سلطانه الملوكى علينا ، كما يقول عن تغييرنا ليكون شكل جسد تواضعنا على صورة جسد مجده « بحسب عمل استطاعته أن يخضع لنفسه كل شىء » (فى ٣ : ٢١) . بل فى الحقيقة إننا لم نصر ملوكا وكهنة إلا على أساس أننا ولدنا فى الملكوت ولم نشارك المسيح ملكه إلا لأننا نشاركه طبيعته الإلهية .

(٣) إننا شركاء الله فى العمل ... قال المسيح للذين بدأ بهم ملكوته « من ليس معى فهو على ، ومن لا يجمع معى فهو يفرق ! » (مت ١٢ : ٣٠) أى أن الكسول لا يعتبر كسولا وكفى ، يسوع لا يعترف بشىء على الحياد إنه يعتبره سلبياً .. فى حالة إن عمل ١ + ١ + ١ = ٣ وفى حالة إن سكت بقى الواحد كما هو . بل أكثر من هذا تفرق الثلاثة الذين كان مفروضاً فيه أن يجمعهم ...

وما المقصود بالجمع هنا « يجمع معى » ؟ يرد على هذا بولس الرسول : « ولكن الكل من الله الذى صالحنا لنفسه بيسوع المسيح وأعطانا خدمة المصالحة » (فقد أخذ المسيح خدمة المصالحة وصالحنا مع الآب ، وهكذا أعطانا أن نخدم خدمة مثل خدمة المسيح) بأن وضع « فينا كلمة المصالحة . إذاً نسعى كسفراء عن المسيح كأن الله يعظ بنا نطلب عن المسيح : تصالحوا مع الله » (٢ كو ٥ : ١٨ — ٢٠) . إن شركتنا معه هى أن نغرس ونسقى وهو الذى ينمى (١ كو ٣ : ٦) .

هذا ما حدث إذ تبع تلميذا يوحنا المعمدان يسوع ، فإن الكتاب يذكر لنا أحدهما .. إندراوس دعا بطرس إلى المسيح .. ويرجح أن الثانى الذى يخفى نفسه هو يوحنا فإن صح هذا فهو قد دعا يعقوب .. دعا الرب فيلبس فدعا نثنائيل .. (أنظر يو ١ : ٣٥ إلخ) . دعا المسيح متى العشار .. فصنع له ضيافة ودعا إليه جمعاً كثيرا من عشارين وآخرين (لو ٥ : ٢٧ — ٢٩) وربما كان زكا أحدهم ، فعرف المسيح لأول مرة ، وأراد أن يتبعه ، ودعا المسيح زكا ، ودعا نفسه « ليبيت » عنده ، ولا يبعد قط أن زكا عمل مثل متى (لو ١٩ : ١ — ١٠) . إن كل من عرف المسيح دعا إليه (أو بحسب قول الكتاب) « جمع معه » إلى الملكوت آخرين ...

(٤) إننا شركاء المسيح فى أمجاده .. يستطيع كل شاهد للمسيح أن يقول مثل بطرس الرسول (١ بط ٥ : ١) « ... أنا ... الشاهد لآلام المسيح ، وشريك المجد العتيد أن يعلن . » لأنه حتماً إن كنا نتألم معه فسنتمجد أيضاً معه (رو ٨ : ١٧) . وقد قال المسيح نفسه « أنتم الذين ثبتوا معى فى تجاربى . وأنا أجعل لكم كما جعل لى أبى ملكوتاً » . (لو ٢٢ : ٢٨ و ٢٩) . وأضاف فى مكان آخر « وأنا قد أعطيتهم المجد الذى أعطيتنى » (يو ١٧ : ٢٢) . إننا شركاء مجده ، بناء لشركة الملكوت الذى فيه نلنا طبيعته ، وسعينا لإنالتها للآخرين ...

المسيح ملك بصفة كونه « ابن على بيته » (عب ٣ : ٦) ونحن إذ آمنا به أعطانا سلطاناً أن نكون « أولاد » الله (يو ١ : ١٢) فجعلنا « بنى الملكوت » بدل (اليهود) بنى الملكوت الذين

طرحوا خارجاً » (مت ٨ : ١١ و ١٢) نعم هكذا « نقلنا إلى ملكوت ابن محبته » إذ « انقذنا من سلطان الظلمة » (كو ١ : ١٣) أو بكلمة أخرى إذ خلصنا فجعلنا أبناء .

المسيح ملك بصفة كونه يأسر قلوب الناس بالمحبة ، ويملك فيهم بالمحبة ، فقد ارتفع عن الأرض ليجذب إليه الجميع (يو ١٢ : ٣٢) لقد ظهرت فى صليب المسيح محبة تلفت إليه الأنظار مسلمة الأنفس لسلطانه ولسان كل « نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولا » (١ يو ٤ : ١١) ويجعلنا نحن أيضاً نجذب الناس بالمحبة نملك على قلوبهم إذ نأتى إلى الرب يسوع يملك عليهم ..

وكل من يولد فى الملكوت شريك فى عضويته ، وهو مدعو ومجند للخدمة ، لذا فهو شريك فى جذب النفوس إليه ، شريك فى أمجاده مع المسيح ، ومع الذين ملكوا عليهم إذا أقبلوا بهم إلى المسيح الملك ...

المسيح ملك ورئيس كهنة هذا الملكوت ، ونحن ملوك وكهنة معه .. قضى الآب منذ الأزل « أنت ابنى أنا اليوم ولدتك . اسالنى فأعطيك الأمم ميراثا لك وأقاصى الأرض ملكا لك » (مز ٢ : ٧ و ٨) وقد تمم المسيح قضاء الآب .. وقضى أيضا بأن « أقسم الرب ولن يندم أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكى صادق » (١ مز ١١٠ : ٤) وقد تمم المسيح قضاء الآب وهو الآن يشفع فينا . وقضى أيضا بأننا نحن ملوك وكهنة معه ويجب أن نتمم القضاء ..

(٢)

إن شركة الملكوت تجعلنا شركاء المشيئة التى بها يأتى الملكوت ــــ شركاء المشيئة التى تتمم فى هذا الملكوت .. وهذا الملكوت الذى فيه تتم مشيئة الله كما فى السماء كذلك على الأرض ، فما تتم هذه المشيئة إلا بواسطة مشيئة الإنسان . وأسمى إتيان لهذا الملكوت أن تطابق مشيئة الإنسان مشيئة الله .. أى « كما فى السماء كذلك على الأرض » .

وقبل أن نسير فى تفصيل شركة المشيئة هذه أرى لزوم توضيح بعض الأفكار عن هذه الطلبة فى الصلاة الربانية .

ففى الحقيقة تتصل العبارة « كما فى السماء كذلك على الأرض » بالثلاث طلبات التى سبقتها وليس بالأخيرة فقط (لتكن مشيئتك) كأن نصلى :

ليتقدس اسمك
ليأت ملكوتك } كما فى السماء كذلك على الأرض
لتكن مشيئتك

والطلبة الوسطى هى المركزية ما سبقتها هدفها ، وما لحقتها وسيلتها فلو كانت مشيئة الله تجرى على الأرض كما هى فى السماء لأتى ملكوت الله على الأرض كما فى السماء ، ولتقدس اسم الله على الأرض كما فى السماء ... فلو تمت الوسيلة « لتكن مشيئتك » تمت نتائجها . وهذا يجعلنا نلقى

بعض التركيز على هذه الوسيلة فنتأمل فى شركتنا بهذه المشيئة التى بها يأتى الملكوت ...

وملاحظة صيغة الأفعال فى الطلبات الثلاثة كذلك تلقى ضوءاً عليها .. فصيغة الفعلين « ليتقدس » و « لتكن » فى المبنى للمجهول فى اللغة الأصلية ، وصيغة الفعل «ليأت » فى صيغة تفردت بها اللغة اليونانية ، لا هى مبنى للمعلوم ولا للمجهول ، يسمونها الوسط ، ومدلولها انعكاسى (أى أن الفاعل هو نفسه الذى وقع عليه الفعل ، فعله بنفسه) وعلى هذا تكون هذه الطلبات « ليُقَدس اسمك » « ليقبل ملكوتك بنفسه » « لتعمل مشيئتك » .

فمن الذى يقدس اسم الله ؟ قال المسيح « أيها الآب مجد اسمك فجاء صوت .. مجدت وأمجد أيضا . » (يو ١٢ : ٢٨)[1] وقال أيضا « أنا مجدتك على الأرض .. أنا أظهرت اسمك للناس .. » (يو ١٧ : ٤ و ٦) وقد وردت عشرات من الآيات التى تفيد أن الناس ـــ شعب الرب ـــ يقدسون اسمه ، أذكر واحدة فقط ، وقد اخترتها لأنها إحدى الآيات التى تنبر على المسئولية : « فقال الرب لموسى وهرون من أجل أنكما لم تؤمنا بى حتى تقدسانى أمام أعين بنى إسرائيل لذلك لا تدخلان هذه الجماعة » (عد ٢٠ : ١٢) من يقدس اسم الله ؟ الآب يقدس اسمه ، والمسيح يقدس[2] اسمه ، ونحن نقدس اسمه ..

ومن الذى يعمل مشيئته ؟ يقول الله « رأيى يقوم ، وأفعل كل مسرتى » (إش ٤٦ : ١٠) وقال المسيح « طعامى أن أعمل مشيئة الذى أرسلنى وأتمم عمله (يو ٤ : ٣٤) . وقال أيضا « ليس كل من يقول لى يارب يارب يدخل ملكوت السموات بل الذى يفعل إرادة أبى الذى فى السموات » (مت ٧ : ٢١) ثم لأن من يصنع مشيئة أبى الذى أرسلنى هو أخى وأختى وأمى » (مت ١٢ : ٥٠) .

الآب يقدس نفسه يصنع مسرته التى قضى بها ، وكذا يقدسه المسيح ، ونحن أيضا ينبغى أن نقدسه بصنع هذه المشيئة ، فبهذه الطريقة يأتى ملكوت الله ....

ونحن لنا مشيئتنا .. وما لم تتفق مشيئتنا مع مشيئة الله لن يأتى ملكوت الله .. حين سقط آدم ، فعل مشيئة أخرى غير مشيئة الله ، سقط من ملكوت الله وجميع الجنس البشرى معه .. واتيان ملكوت الله يتطلب الرجوع إلى أن تطابق مشيئتنا مشيئة الله .

ولست فى حاجة لأن أكرر ما قيل سابقاً بأن الوفاق بين مشيئة الله ومشيئة الإنسان ليس معناه انعدام مشيئة الإنسان ، فلم لا يكون الإنسان حراً إلا فى طريق الزلل ؟ لم لا يكون حراً ينفذ مشيئته الخاصة إذ تكون مطابقة لمشيئة الله حين يقصد إتيان ملكوته ؟!!

وحين تكون لنا الإرادة لإتمام إرادة الله .. وحين نضعها موضع التنفيذ ـــ حين نجند كل أفكارنا وأقوالنا وأعمالنا ـــ حين نوحد أهدافنا ومهنتنا ومواهبنا وكل ما لنا لصنع إرادة الله .. حينئذ يأتى ملكوت الله بنفسه ومن تلقاء ذاته .

---

(١) أنظر أيضا (حز ٣٦ : ٢٣) « فأقدس اسمى العظيم »

(٢) يقدس ويمجد استعملا لاجلال اسم الله .

ولنر الآن بعض الأمور الجوهرية فى ملكوت الله التى تتم إذ تتم مشيئة الله بواسطة مشيئة الإنسان .. ماذا يجب أن يتم لكى تتحول الأرض إلى سماء ؟! .. ما هى مشيئة الله التى تتم فى السماء ، والتى يراد إتمامها على الأرض فيكون ملكوت الله على الأرض كما هو فى السماء ، ويتقدس اسم الله على الأرض كما هو فى السماء ؟! ماذا يفعل من فى الأرض لكى يكونوا كمن فى السماء ؟

(١) أول خطوة فى إتيان ملكوت الله « كما فى السماء كذلك على الأرض » هى الميلاد من فوق ـــ من السماء ـــ للذين على الأرض . من أهم القوانين فى الأقطار الجمهورية أن ينتخب رئيسها من الذين يحملون جنسيتها بالميلاد . وبالنسبة لملكوت السماوات يطبق هذا بصورة أشد ، وهو أن عضوية هذا الملكوت لمن يولدون فيه .. « الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من فوق لن يقدر أن يرى ملكوت الله » (يو ٣ : ٣) . والسبب فى هذا فى غاية الوضوح . وهو إن من فى الأرض ليسوا كمن فى السماء ، ويجب أن يكونوا مثلهم ، فيجب أن يتغيروا ليكونوا مثلهم . وهذا ما نسميه ، بالميلاد الثانى ، التغيير ، التجديد ، الخلاص فى أول مراحله ...

سن الرب هذا القانون ، ومهد لتنفيذه ، فقد اختار أناساً للحياة الأبدية ، ودعاهم دعوة فعالة ، عاملا فيهم بروحه ، معطياً إياهم توبة ليستفيقوا من فخ إبليس إذ كان قد اقتنصهم لإرادته » (٢ تى ٢ : ٢٦) . وأعد لهم الخلاص نفسه ، إذ أنه لما جاء ملء الزمان أرسل الله إبنه مولوداً من امرأة ، مولوداً تحت الناموس ليفتدى الذين تحت الناموس لننال التبنى » (غل ٤ : ٤ و ٥) . ونفذ الرب كل شيء من جانبه هو لأجل خلاص مختاريه ... أتى الرب يسوع متجسداً .. وعاش حياة القداسة الكاملة ، المثال الأعلى لسيرة وحياة كل البشر .. وقدم نفسه فى النهاية على الصليب لأجل خلاص الذين حكم عليهم بالهلاك ، ولأجل تجديد الذين لوثتهم واستعبدتهم الخطية ، وصعد إلى السماء يشفع فى المذنبين ، وأرسل روحه يبكت العالم لقبول خلاصه . وكلف شهوده بأن يوصلوا بشرى الخلاص هذه لكل خاطىء ...

بهذا تمم الله الآب مشيئته ، وتمم الله الابن مشيئة الآب الذى أرسله .. وبقى أن يتممها الإنسان ، ولأجل خلاص نفس ذلك الإنسان عليه أن يستجيب لدعوة الرب له ، وأن يأتى نادماً معترفاً بخطاياه تائباً عنها ، أن يأتى شاعراً بعجزه عن أن يخلص نفسه ، وبحاجته إلى مخلص ، أن يؤمن بالرب الفادى متخذاً إياه مخلصاً شخصياً له ... « وكل الذين قبلوه (أى المؤمنون باسمه) فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله » (يو ١ : ١٢) ، إذ أن روح الله فى هذه الحالة يخصص عمل المسيح بذلك المؤمن ...

إن ملكوت الله هو ملكوت خلاص الخطاة ، يملك فيه الرب على المولودين ثانية ، ويملك معهم على الذين عن طريقهم يأتون إلى الرب ليولدوا أيضاً ...

إذ كنا قد ولدنا ثانية فقد ولدنا فى ملكوت الله ، وفى نفس الوقت نحن رعية ملكوت الله ، وعندما نعمل لخلاص الناس نحن نملك المسيح عليهم وفى نفس الوقت نصيرهم ملوكاً ...

(٢) وشيء آخر يأتي بملكوت الله هو المحبة . إن ذات الملكوت اسمه : « ملكوت ابن محبته » (كو ١ : ١٣) . اختيار الله لنا ، هو إظهار محبته لنا لندخل هذا الملكوت . وحين ندخل الملكوت ، ينبغي أن نظهر نحن أيضاً محبة الله . فيقول : « متمثلين بالله كأولاد أحباء » (أف ٥ : ١) ، ذلك لأن « الله محبة » (١ يو ٤ : ٨) ولأن « المحبة هي من الله » (ع ٧) ، لذلك « كل من يحب فقد ولد من الله ويعرف الله » . أي في الملكوت « ومن لا يحب لم يعرف الله » . وكما أن الله أحبنا ونحن أعداء « يطلب منا كذلك أن نحب أعداءنا لنكون أولاد أبينا الذي في السماوات » (رو ٥ : ٨ و ١٠ ، مت ٥ : ٤٤ و ٤٥) . إن أعظم خواص بني الملكوت هي المحبة ، كما قال الرب يسوع « بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إن كان لكم حب بعضاً لبعض » (يو ١٣ : ٣٥) . وهذا ما شهد به بليني الصغير في كتابته للامبراطور تراجان . بل تعتبر المحبة ليست فقط أعظم الخواص للذين في هذا الملكوت ، بل المستوى الذي يجب أن يصلوا إليه « ذوي محبة أخوية » (١ بط ٣ : ٨) لدرجة أن يعتبر المعثر قد أخل بقانون الملكوت لأنه لا يسلك بعد « حسب المحبة » (رو ١٤ : ١٥) . ويعتبر بولس الرسول كل شيء وأي شيء يصير الإنسان إليه أو يمتلكه أو يفعله بلا محبة لا شيء (١ كو ١٣ : ١ — ٣) . ومن جهة أخرى من ينمو في المحبة يعتبر سائراً في طريق مرضي (٢ تس ١ : ٣) .

كما أن الله محبة ، يجب أن بني الله يكونون بني المحبة . لكن كيف هذا ؟ المحبة المسيحية مستحيلة على الإنسان إذا ترك لقوة نفسه لأنها إنكار للذات لأنها دافع للخدمة . بل المحبة للعدو ضرب من ضروب المستحيل الخيالي الذي لا يمكن أن أحداً يفكر فيه بنفسه ، لذا كان لابد أن نكتسب محبة الله ؛ بنعمة من الله ، وبقوة منه ... وهذا هو ما يعلمنا الكتاب عنه « لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا » (رو ٥ : ٥) . وهذا يأتي بحسب الوصف الذي يردده الرسول إلى أهل أفسس « لكي يعطيكم بحسب غنى مجده أن تتأيدوا بالقوة بروحه في الإنسان الباطن ، ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم ، وأنتم متأصلون ومتأسسون في المحبة حتى تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين ما هو العرض ، والطول ، والعمق ، والعلو ، وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله » . (أف ٣ : ١٦ — ١٩)،الروح مؤيداً بالقوة يؤهلنا ، ويؤسسنا في المحبة ، فيسكن المسيح في قلوبنا ليجري محبته عن طريق أعضائنا وخدمتنا

إن مشيئة الله أن تكون المحبة سائدة ، ولكن المحبة شيء إلهي لا يقدر أن يجريه إلا الله ، وهذا ما سيفعله الله فعلا فينا بروحه القدوس حين نخضع لروح الله ، ونستجيب له ، فتظهر محبة المسيح ...

المحبة معجزة الكمال على الأرض . والمعجزة عملي إلهي ، والكمال خاصة إلهية ، وكلاهما نصل إليهما عندما نمتلئ بروح الله فنعلن محبة الله الحية الفعالة ... والتأييد بالقوة عمل الروح لضمان إمكانية المحبة . على أن هذا لا يأتي إلا حين نخضع لروح الله الذي يحركنا ، فنظهر محبة الله . لذا نحن مسئولون عن إظهار هذه المحبة التي تظهر فينا بعمل روح الله . وبذا نعمل على إتيان ملكوت الله .

بسلوك المحبة ترسم المجتمع الذى هو ملكوت الله ــ الكمال .

بسلوك المحبة القدوة الرابحة للبعيدين ليقبلوا إلى ملكوت الله ...

بسلوك المحبة تأسر القلوب الحجرية إلى فكر المسيح .

بسلوك المحبة تتمم الخدمات والتضحيات فى سبيل مجد المسيح .

وهكذا يأتى ملكوت الله ... هكذا أتى ، وهكذا هو آت وهكذا نصلى أن يأتى ... ولقد عمل الله لغرس هذه المحبة فينا ، وعلينا أن نظهر عمله ...

٣ ــ وأمر ثالث ضمن مشيئة الله فى السماء يريد أن يتحقق على الأرض فيمجده ، هو وصف الرسول للملكوت الله بأنه « بر وسلام وفرح فى الروح القدس » (رو ١٤ : ١٧) . والبر هو المسيرة اللائقة الصحيحة ، الحياة بلا دنس أو تشويه ... والسلام هو الوئام والوفاق بين طرفين ، العلاقة الصحيحة بينهما وهو عكس النفور والشقاق والعداوة . والفرح هو الابتهاج وانبساط النفس وانطلاقها من الكمد والغم ...

نسب البر إلى الله كما ينسب إليه الملكوت تماما فى (مت ٦ : ٣٣) لكن « اطلبوا أولا ملكوت الله وبره ... » الملكوت ملكوت الله ، والبر « بر الله » وطلبة الملكوت هى نصيبنا فى شركة الملكوت (الأمر الذى سبق الحديث عنه) ، وطلبة البر على نفس القياس : الله هو البار (رو ٣ : ٢٦) وهو يعمل فينا لنكون أبراراً ، لذا يجب أن نطلب بره ، ويجب أن نستجيب لعمله فينا فنحقق كوننا أبراراً ... وحين نعلم أن ملكوت الله هو ملكوت البر فمعنى هذا أن الملكوت لا يأتى بالنسبة لنا إلا حين نطلب البر ، حين نكون أبراراً . وحين ننضم إلى أسرة المبررين ، ندخل ملكوت الله : نأتى إلى ملكوت الله : يأتى إلينا ملكوت الله .

والسلام أصلا هو « سلام الله » (فى ٤ : ٧ ، كو ٣ : ١٥) . وقد دعى الرب يسوع « سلامنا » (أف ٢ : ١٤) وهو معطى السلام ، والسلام الذى يعطيه يدعوه « سلامى » (يو ١٤ : ٢٧) وأى سلام لنا هو فى المسيح (يو ١٦ : ٢٣) ناشئاً عن التبرير بالإيمان به (رو ٥ : ١) فإذ يعمل الله فينا ننال سلامه ، ونوال السلام من خواص الملكوت . على أننا لن ننال السلام إلا بالإيمان الذى به نأتى للمسيح لنتبرر ويعمل الله فينا لنؤمن ، فعلينا أن نؤمن فنتبرر فيصير لنا السلام ... وحين نكون فى سلام مع الله نكون فى سلام أيضا مع القريب (رو ١٤ : ١٩) ، يربطنا بعضنا ببعض رباط السلام (أف ٤ : ٣) الذى إليه دعينا فى جسد واحد (كو ٣ : ١٥) . على أننا لا نستطيع أن نعمل سلاماً بيننا وبين أحد ، أو بين الناس بعضهم وبعض إلا باعتبار أننا أبناء الله فنكون صانعى السلام (مت ٥ : ٩) والبنوية لله سلطان من الله ، عطية من الله ، عمل من الله فينا لنعمل على صنع السلام ... ومن أجل ذلك يجب أن نستجيب له ونظهره ...

والفرح أيضا « فرح فى الروح القدس » (رو ١٤ : ١٧) بل هو « فرح الروح القدس » (١ تس ١ : ٦) ودعى أيضا « فرح الرب » (نح ٨ : ١٠) و « فرح سيدك » (مت ٥ : ٢١) ولن يفرح أحد فرحاً حقيقياً إلا « فى الرب » (فى ٣ : ١) وفيه نفرح فى أحلك الظروف

(حب ٣ : ١٦ — ١٨) . إن الرب هو منشىء الفرح ، معطى الفرح لنا — العامل فينا لنفرح ... لكنه أيضا « يأمرنا » أن نفرح « إفرحوا » (فى ٣ : ١) . وهو من مستلزمات العبادة : « اعبدوا الرب بفرح . ادخلوا إلى حضرته بترنم » (مز ١٠٠ : ٢) ولقد سن الرب فى الشريعة الموسوية العبادة بالفرح (تث ١٢ : ١١ و ١٢) وتواعد بالعقاب لمن لا يفعل ذلك (تث ٢٨ : ٤٧) . وهنا نقف أمام شىء من عمل الرب الصرف ، لكنه أيضاً من مسئولية الإنسان الصرفة ، كيف هذا ؟ إن الله يعمل فينا لنفرح ، ولذا يجب أن نفرح .. أن نستجيب له فنظهر هذا الفرح ... وبهذا نكون فى ملكوت الله .. ملكوت الفرح ...

« بر وسلام وفرح فى الروح القدس » هذا هو ملكوت الله ذلك لأن هذا هو ما يتصف به الله ، وما يعمله الله ، وما يتطلبه الله منا إذ أنه بعمله فينا أن كل قوانا يجب أن تتجند لإحلال البر بدل الشر ، ولنشر السلام بدل الشقاق والحروب ، وتوطيد الفرح بدل الحزن ، فينا وفى الآخرين ...

لكن إذ كان الله يهتم بهذا وإن كان هذا عمله هو ألا نترك له عمله ؟ كلا إن الله يعمل فينا لنعمل . فلنعمل ... وعمل الله وطبيعة الله ومشيئة الله تجعلنا مسئولين أن نتمم ما نقوله « ليأت ملكوتك ... » .

(٤)

إن طلبتنا من الرب « ليأت ملكوتك » تعنى عمل الرب فينا وبنا لنعمل . وعمل الرب فينا سر خفى ، لكن نتائجه ظاهرة . وعمل الرب بنا معناه أن الله هو المحرك ، والقوة ، والمؤثر ، ولكنه خلف الستار ، والأعضاء الظاهرة هى نحن ...

يبدو هذا ظاهراً فى طلبتنا « استخدمنى » وفى قولنا بل « المسيح يحيا فىَّ » . عمل الرب فينا أن يصيرنا حسب مشيئته ، لائقين لملكوته . وخدمته ... ونحن علينا الاستجابة التى بها يستعلن عمل الرب فى حياته فينا ... وعمل الرب بنا أن يقدم لنا القوة ، والإحساس بالمسئولية ، وإنكار الذات ، لأجل الخدمة التى نخدمها لكى يأتى ملكوته ... وفى هذا نرى الله عاملا كل شىء . فالخدمة منه ، والقوة منه ، ورغبة التضحية منه ... وفى نفس الوقت نحن نعمل كل شىء باعتبار رغبتنا فى الاستجابة لعمل الرب ، وخصوصا (لعمل الرب) . وقبول نفقات تلك الخدمة ..

عند سور أورشليم يوجد البناؤون ، ويوجد أيضا الأعداء — توجد ثغرات يجب أن تسد ، ويوجد معطلون للعمل .. لكى ينجز العمل لزمت الصلاة ولزم العمل « فصلينا إلى إلهنا وأقمنا حراساً ضدهم نهاراً وليلاً بسببهم » (نح ٤ : ٩) . إتمام الصلاة هنا يأتى عن طريق المصلين أنفسهم ، وعن طريقهم الاستجابة . فلو صلوا فقط باعتبار أن العمل عمل الرب دون القيام بمسئوليتهم ، لما تم شىء بالصورة التى تمت — لكان الله رفضهم وأقام من يصلى ويعمل ..

أستير تريد أن تصل إلى الملك لكى تطلب منه خلاص شعبها . لكن خطراً يتهددها ، هو ذات مقابلة الملك . لقد كان قد أوصى أن أى إنسان لا يدعوه الملك ؛ لا يجوز أن يقابله أو يطلب

مقابلته فإذا كان ظرف ما يستوجب مقابلة الملك إن سمح له الملك بذلك تمت المقابلة . وسماح الملك هو مد قضيب الذهب لطالب المقابلة . وإذا لم يسمح الملك قطع رأس طالب المقابلة .. وأستير لم تدع وليس لها أمل أن تدعى قريباً .. فهى تريد مقابلة خاصة وأرادت أن تعد لذلك بالصلاة والصوم ثم تدخل . إن نجاة شعبها تتطلب هذين الأمرين : الصلاة والصوم ، ثم الدخول إلى الملك (إش ٤ : ١٦) .

نرى هذا بنفس الصورة فى (إش ٦٢ : ٦ و ٧) « على أسوارك ياأورشليم أقمت حراساً لا يسكتون كل النهار وكل الليل على الدوام . ياذاكرى الرب لا تسكتوا ولا تدعوه يسكت ؛ حتى يثبت ويجعل أورشليم تسبحة فى الأرض » . لاحظ معى أن هؤلاء « الحراس » « لا يسكتون » ثم يدعوهم « ذاكرى الرب » ، ويطلب منهم أن « لا يسكتوا » عن ذكره وتذكيره « ولا يدعوه يسكت » وواضح أن الله يحرس حراسته عن طريق هؤلاء الحراس ، لذا لا يجوز أن يسكتوا عن العمل ، وهم يجب أن يدوموا « ذاكرى الرب » لكى يحرس بهم حراسته ... حتى تتم النتيجة المجيدة فى كنيسته بلا عيب ولا دنس وعلى كل فصل لأجل نهضة كنيسته ، أن ينتظر أن الله عن طريقه يأتى بهذه النهضة ، وأن يعمل هو بكل همة ونشاط لأجل ذلك ... وعلى كل مصلى لأجل قيام مشروع ، أن يسلم نفسه فى كمال الخضوع للرب لكى يعمل فيه وبه لأجل قيام هذا المشروع ...

إن ملكوت الله يأتى بقوة روح الله المبكت على خطية ، وعلى بر ، وعلى دينونة ؛ روح الله معطى القوة ، روح الله معطى الإرشاد ، روح الله مقدم ومفسر التعليم . لكنه روح الله فى الكارزين ، وبلا الكارزين لا تقدم كرازة — العمل عمل الرب . لكنه عمل الرب عن طريق جنوده الذين هم نحن ... من أجل ذلك قال يسوع « اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس وعلموهم أن يحفظوا جميع ماأوصيتكم به .. وقال أيضاً « وها أنا معكم كل الأيام إلى إنقضاء الدهر » . فى الجزء الأول يذكر المسئولية البشرية ، وفى الثانى يذكر القضاء الإلهى وعمل النعمة .. (أنظر مت ٢٨ : ١٩ و ٢٠) . وحضور المسيح هو فى شخص الروح القدس . وبنفس المعنى نفهم (لو ٢٤ : ٤٧ — ٤٩) « أن يكرز باسمه (اسم يسوع) بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم مبتدأ من أورشليم . وأنتم (الرسل والتلاميذ) شهود لذلك » هذه هى المسئولية البشرية التى بها يأتى ملكوت الله . « وها أنا أرسل إليكم موعد أبى فأقيموا فى أورشليم إلى أن تلبسوا قوة من الأعالى » . وهذه هى أعمال النعمة وقضاء الله الآتى بملكوته .. وذات المعنى يتكرر فى وصية الرب الأخيرة المدونة فى أعمال ١ : ٨ « لكنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم ، وتكونون لى شهوداً فى أورشليم ، وفى كل اليهودية ، والسامرة ، وإلى أقصى الأرض » . وعد القوة : قضاء الله — والشهادة هى مسئولية الإنسان .. وإذا قضى الله بتقديم القوة ، قضى بوجوب الشهادة ...

إن صلاتنا « ليأت ملكوتك » تعنى الكثير ، تعنى تجاوبنا مع عمل الله ، تعنى تكريسنا لروح الله لكى يعمل بنا ... إن روح الله يحتاج إلى القناة التى يجرى فيها إلى الآخرين ، فيجهزنا ليصيرنا هذه القناة ، وليستخدمنا للوصول إلى الآخرين . وفى كلتا الحالتين يمكن أن نستجيب ، ويمكن أن نعطل ..

حدث أن عطل الشاب الغنى يسوع من أن يصيره تلميذاً ، وذلك بأنه لم يكن عنده الإنكار الكافى للنفس الذى يجعله يضحى بغناه (مت ١٩ : ٢٢) ذلك لأن الرب يسوع يدعو للخدمة فى ملكوته من يرضى أن ينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعه (مت ١٦ : ٢٤) ولهذا السبب كان دائماً يمحص تلاميذه بذات الامتحان إذ يصلح له من يرضى أن يترك دفن أبيه . أو يترك توديع الذين فى بيته ... وأوضح أن إتباعه يعنى التعرض للحرمان المادى حتى يختار الإنسان أن يقبل أو يرفض الخدمة فى هذا الملكوت (لو ٩ : ٥٧ — الخ)

فإذا قبلت المرأة أن تترك جرتها (يو ٤ : ٢٨) وعملها لكى تأتى وتسمع الرب (لو ١٠ : ٣٨ — الخ) وإذا قبل العشار أن يترك كل شىء ويتبعه (لو ٥ : ٢٧ و ٢٨) والصياد أباه والأجرى العمل ليتبعه (مر ١٦ : ٢٠ ، مت ١٩ : ٢٧) ؛ فحينئذ يأتى الملكوت .

ويحدث أن يكون تابعا للمسيح ولكن فى نفس الوقت غير صالح للعمل فى ملكوت الله إن كان يسلك بحسب سلطان إيمانه القوى دون مراعاة لأخيه الضعيف المتعثر . فبدلا من أن يقدم له بشرى الحياة يهلكه بعثرته (رو ١٤ : ٣ و ١٥ و ٢١ ، ١ كو ٨ : ٩ — الخ) ويحدث أن يهرب الخائف من الضيقات فيرجع من خدمة المسيح (أع ١٣ : ١٣) وقد يجرب خادمو الرب بالارتداد عنها بمحبة العالم الحاضر أو يترك خدمة التضحية طالباً الخدمة الأسهل (٢ تى ٤ : ٩) . وقد يحدث أن تعطل المنازعات بين خدام الرب وخدمتهم (أع ١٥ : ٣٧ — ٣٩) .

وعندما يرفض المؤمنون ويتركوا هذه .. وعندما يقول كل من يتجند للرب ولخدمته (سواء فى الشهادة العادية اليومية أو فى التفرغ لخدمة الرب) « ينبغى أن ذلك يزيد ، وأنى أنا أنقص » (يو ٣ : ٣٠) وعندما يرون أولوية طاعة الله أكثر من الناس ، ولو أدى ذلك إلى بغضة العالم وكراهيته واضطهاده لهم (أع ٥ : ٢٨ — ٣٣) عندما يصير كل ربح خسارة هينة (فى ٣ : ٧ و ٨) عندما لا يحتسب خادم المسيح لشىء ، ولا تصير نفسه ثمينة عنده حتى يتمم بفرح سعيه والخدمة التى أخذها من الرب يسوع ليشهد ببشارة نعمته (أع ٢٠ : ٢٤) . عندما يكون مستعداً لأن يربط ويموت لأجل اسم الرب يسوع (أع ٢١ : ١٣) قائلا « يتعظم المسيح فى جسدى سواء كان بحياة أم بموت » (فى ١ : ٢٠) عندئذ يكون أداة صالحة ، بها يعمل الروح عمله العجيب ، ويمتد ملكوت الله .

إن الروح يعمل لتكون هذه فينا ، على أنه يقدم الإرادة لنا لنستجيب لعمل روحه ، وهذه الاستجابة تجعل الطلبة « ليأت ملكوتك » واقعة علينا بالمسئولية التى تجعلنا نهتم : « نطلب ملكوت الله وبره » .

ونحن لا نعرف كيف يعمل روح الله فينا وبنا ، لكننا نعلم أنه مطلوب منا أن نعمل لإتيان ملكوت الله .. فلنعمل بكل قوتنا . ولنجاهد فى ذلك قانونياً عاملين من أجل إتيان ملكوت الله كما فى السماء كذلك على الأرض .

ثالثا

العناية وترتيب الأحداث

إننا نؤمن بإله خالق ونؤمن أيضاً بأنه معتنى ، على عكس ما يقوله أصحاب مذهب الدييزم Deism بإله قد خلق خليقته كاملة ، وخلق لها ناموسها الذى تسير عليه ثم ترك العالم يسير هكذا .. والله عندهم لا يتدخل فى أى شيء يحدث فى العالم ، يترك العالم يسير بنفسه ... وينكر هذا المذهب المعجزات ، والصلاة ، والوحى ... وينبر على وقار الله ، الذى يجعله منزوى بعيداً عن العالم ، وعلى ثبات الناموس الطبيعى بحيث أن الله لا يحاول أن يتدخل فيه ...

قلت إننا نقول بعكس ذلك ، فنحن نؤمن بإله العناية — الإله الضابط الأشياء بكلمة قدرته — الإله الذى يجرى لأجل مجده كل ما يحدث ويسير كل شيء وفق نظام وترتيب وقصد يريده هو من خليقته .. إن كل صغيرة وكبيرة من خلائق الله تسير وفق سياسة الله لها ، وكل ما يحدث لها وفق ما يقصده الله .

على أننا نؤمن أيضا بإنسان حر . فما مكان حرية الإنسان فى عناية الله ؟ وما هى مسئوليته فى عالم مرتب الحوادث بعناية فى غاية الحكمة ، والقداسة ، والإتقان ؟

تعال معى لنر : العناية وترتيب الأحداث

لا مكان للصدفة
تحديد عمر الإنسان
هبة رزق الإنسان
جدوى الصلاة .

العناية وترتيب الأحداث

« كل الأشياء تعمل معا للخير للذين يحبون الله . الذين هم مدعوون حسب قصده » (رو ٨ : ٢٨) .

إننا غالبا ننظر إلى الأحداث فرادى ، وبهذا ننسب إلى كل فاعل فعلته ــ وحين نربط أى عمل بأى شخص ، نربط حادثاً وشغلا وتأثيراً بعلته المباشرة . إن هذه النظرة هى النظرة إلى مسئولية الإنسان ونحن نؤكدها بلاشك . كل قضاء فى العالم يؤكدها وينظر هذه النظرة ، كل أمن ، كل إرادة لعمل ، كل تخطيط لمشروع ، كل قائد لجماعة ... كل هؤلاء وغير هؤلاء ينظرون إلى الإنسان ككائن حر يتصرف بحسب حريته ، تنتج عن إرادته أفعال وهو مسئول عنها .

وإذا نظرنا إلى الأحداث فرادى هكذا ، لم يكن أمامنا محل لإرادة الله ، وقضاء الله قط . إذا كان الإنسان هو علة تلك النتيجة ، فلم نلقيها على الله ؟

على أن هذه النظرة للأحداث فرادى ليست كل شىء ، بل فى الحقيقة توجد نظرة أولى منها هى نظرة « للأشياء معا » فنرى الأشياء « تعمل معاً » و « تتجه معاً » إلى وجهتها المرسومة لها ... وبالنسبة للذين يحبون الله « للخير » . هذه هى عناية الله ، الذى رسم لها طريقها ، ووجهها نحوه : هذا الحادث من هنا وذلك من هناك ؛ هذا الآن ؛ وذلك بعد وقت ؛ هذا الأمر نتيجة لذاك ؛ وينضم إليهما ثالث ... وهذه « معاً » تعمل للخير للذين يحبون الله .

وهنا أيضا نرى نتيجة أخرى : أن النظرة إلى الأحداث متجمعة ، نظرة إلى قضاء الله . وإذا كان الله هو الذى رسم لهذه الأحداث مجراها ، فما هو مكان الإنسان ، وما هى مسئولية الإنسان ؟

والكتاب أيضاً ... حين يتكلم عن عناية الله يقول بترتيبها للأحداث كأن الإنسان لا حرية ولا يد له فى ما يحدث . وحين يتكلم عن مسئولية الإنسان يتكلم كأن الله لم يرتب شيئا . على أن قضاء الله فى عناية حقيقية لاريب فيها ، ومسئولية الإنسان بالنسبة لكل ما يحدث عنه حقيقة أيضا لاريب فيها ... أى أننا يجب أن ننظر النظرتين كليهما إلى كل شىء . نظرة إلى الأحداث فرادى ، وأخرى إلى الأحداث متجمعة ــ فى نفس الوقت .

(١)

دعنا ننظر هكذا إلى حياة يوسف الصديق .

ولنسأل مثلا ما الذى مكن الكراهية فى قلب إخوته بالنسبة له ؟ الجواب تفضيل أبيه له وصنعه له قميصاً ملوناً من جهة ، والأحلام التى عرضها يوسف على إخوته بصورة مثيرة من جهة أخرى ... والأب مسئول عما جناه على ابنه بتفضيله إياه . الأب مسئول عن زرع الكراهية فى

قلب الأخوة الغيورين . ويوسف نفسه مسئول عن زرع العداوة بإثارة أخوته بالأحلام .

ثم مشهد آخر ذلك الذى تم فى الحقل — شاب صغير يطلب سلامة إخوته ، ويتكلف لذلك المشقات الكثيرة ، أجزاؤه المؤامره ؟ أجزاؤه الطرح فى بئر ؟ أجزاؤه البيع ؟ حين نسأل هذه الأسئلة ، لا نجد رداً لها إلا اتهام أخوة يوسف بالدناءة ، والحطة ، والاستخفاف بكل المبادىء . ومكافأة الخير بالشر .. أخوة يوسف مسئولون عن مؤامرة القتل : « احتالوا له ليميتوه » وقال بعضهم لبعض : « هلم نقتله » (تك ٣٧ : ١٨ — ٢٠) ، مسئولون عن طرحه فى البئر، بدليل أن رأوبين المشير بهذا ؛ مزق ثيابه حين رآه قد بيع (تك ٣٧ : ٢٩) مسئولون عن بيعه للذل ، والعبودية ، والتشريد لمجرد الرغبة فى التخلص منه (ع ٢٧) ، مسئولون عن خداع أبيهم بدم التيس (ع ٣١) وهم أنفسم يقرون بأنهم مسئولون عن كل ذلك أمام يوسف حاكم مصر . إذا قالوا بعضهم لبعض « حقاً إننا مذنبون إلى أخينا الذى رأينا ضيقة نفسه لما استرحمنا ولم نسمع . لذلك جاءت علينا هذه الضيقة . فأجابهم رأوبين قائلا ألم أكلمكم قائلا لا تأثموا بالولد ، وأنتم لم تسمعوا ، فهوذا دمه يطلب » (تك ٤٢ : ٢١ و ٢٢) ، وليس أدل على مسئوليتهم من هذا الاعتراف بها .

ثم لننتقل مع يوسف إلى مصر .. إلى بيت فوطيفار ، هناك يوسف الشاب الجميل ، الناجح ، المرفوع الوجه أمام سيده ، الذى تقريباً صار سيد البيت ، تحاك ضده تجربة قاسية للتنجس بخطية خيانة سيده مع زوجته ، فيخطىء إلى الله ... المسئول عن التجربة بلاشك تلك الزوجة ، ولقد بلغ إصرارها على اقتراف الخطية ، وتشديدها التجربة أقصاه ؛ لدرجة أنها انتقمت لعدم نوالها ما تريد ، بتهمة يوسف بذات الخطية .. وهنا أيضا نراها مسئولة عن الدسيسة التى تذهب بيوسف إلى السجن ...

ولنتبع يوسف فى السجن نراه السجين العالى الأخلاق ، الكريم النفس ، المحب العطوف ، الذى استحق أن يرأس كل المسجونين ، ونراه أيضاً النبى الملهم لتفسير الأحلام ، فيفسر حلمى رئيس السقاة ورئيس الخبازين المسجونين معه — وتم ما قاله لكليهما ، على أن رئيس السقاة الذى أعيد إلى مكانه نسى أن يذكر يوسف أمام فرعون كما طلب منه يوسف ... وطبعاً رئيس السقاة مسئول عن ذلك النسيان ، باعتراف ذلك الرجل ذاته أمام فرعون : « أنا أتذكر اليوم خطاياى » (يقصد خطاياه ضد الملك) تك ٤١ : ٩ ولكننى أنبر هنا على كلمة أتذكرها ففيها أعترف بأنه نسى .. مسئول عن نسيانه .. على أن ذكر رئيس السقاة ليوسف ، ولو متأخراً أوصله ، إلى العرش من السجن الأمر الذى ما حل بدونه قط ... وهكذا ننسب إليه أيضا فضيلة ذكر المعروف الذى نجى يوسف .

إن نظرة إلى هذه الأحداث فرادى تشير بالأصبع المضيئة إلى مسئولية الإنسان ويؤكد الكتاب ذلك فى كل مرة .

ولكن دعنا ننظر إلى ذات الأحداث متجمعة لنرى صورة أخرى من الحق .. قال يوسف لأخوته : « لا تتأسفوا ولا تغتاظوا لأنكم بعتمونى إلى هنا ، لأنه لاستبقاء حياة أرسلنى الله قدامكم ... فقد أرسلنى الله قدامكم ليجعل لكم بقية فى الأرض ، وليستبقى لكم نجاة عظيمة ،

فالآن ليس أنتم ارسلتمونى إلى هنا بل الله ، وهو قد جعلنى أباً لفرعون ، وسيدا لكل بيته ، ومتسلطاً على كل أرض مصر . » (تك ٤٥ : ٤ ــ ٨) ؛ الله مد خيوط القصة لترتبط بعضها ببعض ، وسيرها حتى تتلاقى جميعاً عند هذه النتيجة الأخيرة ... استخدم كراهية أخوة يوسف وأسبابها ، واستخدم المؤامرة التى انتهت ببيعه ليرسله إلى مصر ، بما فى ذلك كل متسبب فى كل صغيرة وكبيرة ... واستخدم شر امرأة فوطيفار ودسيستها ، وأذن زوجها الصاغية ، لكذبها ووصول يوسف إلى السجن لكى يقابل رجل فرعون (الساقى) ، واستخدم الله تسويف الساقى حتى يأتى بالوعد المناسب الذى عينه هو ، الذى فيه يقيم يوسف ثانياً على عرش مصر ... لقد جمع الله كل هذه الأحداث التى كان يمكن أن لا تمت بأى صلة بعضها ببعض لتكون قصة واحدة ، لها مغزى ، ولها نتيجة ، ولها تأثيرها وهدفها ، هذه هى عناية الرب التى رتبت الأحداث ليوسف ...

ولو أن عناية الله التى هدفت إلى هذا الأمر لا تمنع كون المسئول مسئولا[1] .. .

(٢)

ثم لنلق هاتين النظرتين على أحداث حياة شاول الملك . ولنبدأ من الأول :

صموئيل شيخ لا يقدر أن يقضى لشعبه ، وابناه لا يصلحان للقضاء إذ لم يسيرا فى طريق أبيهم ، « بل مالا وراء المكسب ، وأخذا رشوة وعوجا القضاء » وطلب الشعب ملكا « كسائر الشعوب » واعتبر هذا خطية برفضهم الرب ، وملكه عليهم . ويبين لهم الرب خطأهم فى هذا ، ومع ذلك فقد سمح أن يجيب طلبتهم (١ صم ٨) . حين ننظر إلى هذه الحادثة ، نرى قصة شعب مسئول عن رفضه الرب ، وإله طويل الأناة ، وصموئيل الشيخ حائر فى الوسط يريد أن يوقف خطية الشعب ، ولكن نتيجة لسماح الرب ، صرف صموئيل الشعب كل واحد إلى مدينته فى انتظار إعلان إلهى آخر . هذا ما نراه حين ننظر هذه الحادثة مستقلة ...

ثم تأتى قصة الأتن الضالة ويبدو أنها عدد كبير من الأتن ــ خسارة لا يجوز أن يسلم بها . يجب أن يبحث عنها فيرسل قيس ، صاحب هذه الأتن ابنه شاول مع خادمه ، ليبحثا عنها . ويفتش شاول كثيرا ، ولا يجد الأتن . وكمحاولة أخيرة يسترشدان برأى الرائى صموئيل ويعلمان أن الأتن قد وجدت ، وأن البحث الآن جار على شاول ذاته ! وهكذا هنا أيضا قصة لو نظرنا إليها مستقلة لرأينا فيها بكل بساطة قصة تحدث تقريباً فى كل بيت ، وفى كل مدينة : بحث طويل لا يكلل بنجاح ، ويصل الأمر أن يضل الباحث ذاته . وبهذه النظرة نجد التركيز كله على البشر ...

ومقابلة شاول لصموئيل تكشف عن قصة أخرى . فى اليوم السابق لتلك المقابلة كان الرب قد « كشف أذن صموئيل .. قائلا : غداً مثل الآن أرسل إليك رجلا من أرض بنيامين فامسحه رئيساً لشعبى » (صم ٩ : ١٥ و ١٦) . وأتى شاول فى هذا الميعاد فاستضافه صموئيل فى رأس

---

[1] (١) راجعَ فصل « لماذا ادان »

المدعوين ، وأعطاه النصيب المحفوظ له من الأمس من وقت كشف الله عن أذن صموئيل ووقت دعوة الشعب . وانتهت المقابلة بإعلان لشاول أنه هو الملك وأنباء بأقرب الأحداث الآتية عليه ؛ علامة من الله لذلك ... وهذه أيضا قصة أخرى ، وإن تكن تصف تداخل الرب ، على أننا إن نظرنا إليها مستقلة نراها تلقى تركيزاً على مسئولية الإنسان . وإذا أتت هذه الآيات عليك فافعل ما وجدته يدك لأن الله معك » (١٠ : ٧) .

ولإعلان كون شاول هو الملك علناً أمام الشعب أيضا قصة . استدعى صموئيل الشعب أمام الرب . وأقامهم أمامه . واختار الرب سبط بنيامين ، ومنه اختار عشيرة مطرى ، ومنها اختار شاول . وفتشوا عليه فوجدوه بين الأمتعة . وبالرغم من هذا الاختيار الإلهى ، نرى شاول يختبىء ، والشعب بأغلبيته الساحقة يوافق على ملكه ، ويهتف ليحى الملك ، والأقلية يحتقرونه ولا يقدمون له هدية . وكذلك هذه قصة مستقلة تنبر على مسئولية الإنسان بين هاتف بحياة الملك ، ومحتقر له ...

ومسلك شاول كملك قصة : بدأ شاول الملك ناجحاً جداً إذ كان يسير فى المسار الذى يرسمه له الرب ، ويتمم مشيئته : أى يمثل الله ملكا . حدث هذا فى كل ما عمله شاول فى البداية : نصرته على ناحاش العمونى ، (١ صم ١١) وعلى الفلسطينية فى حربه الأولى (ص ١٣ و ١٤) . على أنه فى هذه الحرب وما بعدها بدأ شاول يرجع عن الرب ، وبدأ يسير وفق هواه . وقد عبر الله عن ذلك بعدم الاستماع لصوت الرب ، والتمرد والعناد . وكان نتيجة لذلك رفض الله له . وواضح جلى ما فى هذه القصة — مستقلة من مسئولية بشرية : رافض كلام الرب ، مرفوض من الملك .

ولشاول مع داود قصة : بدأت بنصرة داود على جليات ونتجت عنها عدة نتائج : فأصبح داود صهر شاول ، وصديق يوناثان ، أحد رجال الحرب عند شاول ، وعازف العود له — على أن كل ذلك مشوب بالمرارة من جهة شاول ، والغيرة وكسر العهود ، والغدر بداود ؛ ومن جهة داود بالأمانة وحفظ الود ، وعدم التعدى على « مسيح الرب » ولسان حال داود : أن شاول سيسقط يوماً ما ، ولكن ليس بيد داود : « من الأشرار يخرج شر ، ولكن يدى لا تكون عليه ... وكل ما فى هذه القصة — مستقلة — ينطق بالمسئولية البشرية ، وتبرز خصال كل منهما ...

ولشاول مع العرافات : لقد أباد كل « العارفين بالجان » إلا عرافة عين دور ، ووقع فى ضلاله ،فلجأ إليها حين أغلق عنه الحق الإلهى ، ولقد صار هذا خطية عليه ، زيادة على باقى الخطايا ...

ولموت شاول قصة : أى أن يموت فى الحرب ... وزيادة على ذلك عار الانتحار ...

كل تلك قصص لو نظرنا إليها كأحداث فرادى ، مستقلة ، لرأينا فيها المسئولية البشرية ... لكنها فى الحقيقة تترابط مع بعضها ارتباطاً محكما عجيب الإحكام من صنع العناية الإلهية ، تلخصها كلمات الرب « أنا أعطيتك ملكاً بغضبى ، وأخذته بسخطى » (هو ١٣ : ١١) .

لم تكن الأتن ، مجرد أتن ضالة ، لقد كان هذا لكى يصل البحث عنها بشاول إلى الرائى فى الوقت المحدد من الرب ؛ لكى يقدم الرب ذلك الملك الذى لا علاقة له بالرب للشعب فى غضب

الرب ... ولم تكن نصرة داود على جليات وغناء المغنيات مجرد حادثة ونشيد ، بل بدأ كسلسلة من الأحداث مرتبطة تمام الارتباط بعضها ببعض ، لكى تظهر حياة الملك المرفوض ؛ لأنه لم يمثل الرب الملك وتمت كلمات داود عليه « من الأشرار يخرج شر ولكن يدى لا تكون عليه » فمات بيد الأشرار ، واشترك هو ذاته فى موت نفسه .. حين نرى ارتباط هذه الأحداث المحكم ، نرى عناية الرب الحكيم .

وعناية الرب لا تنفى حقيقة المسئولية البشرية . والمسئولية البشرية لا تنفى عناية الرب وقضاءه .

(٢)

كذلك يمكن أن نرى عناية الله فى ترتيب الأحداث فى حياة داود . فإذا تأملنا الحوادث فرادى ، رأينا مسئولية الإنسان ، وإذا تأملنا فيها معاً فهى عناية الله .

يبدأ داود فى منظر صبى راعى ، وإذا جردناه من كل ما نعلم عنه بعد ذلك لرأيناه لا يختلف عن باقى الصبيان الرعاة ، يحمل كل يوم عصاه ، ومقلاعه ، وكنفه ، وبه الحجارة الصغيرة . ومثل بعض الرعاة له آلة موسيقية . تخيل أى يوم من حياة الراعى الصغير يصلح قصة . إذا قامت بنفسها تدل على مسئولية الإنسان ، ولو قصر الراعى فى عمله ، أو انشغل بغير عمله صاح فيه أخوه الأكبر « لماذا نزلت » ، وعلى من تركت تلك الغنيمات القليلة فى البرية » . (١ صم ١٧ : ٢٨) .

ولقد كان داود شاعراً موهوباً شديد الحساسية لنعمة الرب ، شديد المحبة لعمله كراع ، ثم بعد ذلك كملك ، وقد انعكست كل هذه على شعره . ولم يقل شعراً فقط بل أيضاً لحنه ونغمه على موسيقاه . هذا إذا أخذ مجرداً من كل ما يتصل به ، ورأينا الشاب والرجل الموهوب الذى تزكيه ملكاته الشعرية والموسيقية أن يكون موسيقى الملك ، وهذه نظرة تتجه إلى الإنسان فحسب .

وقصة داود مع جليات مفردة بذاتها ، تظهر داود المكلف من أبيه بالاطمئنان على سلامة أخوته ، المنساق بحب الاستطلاع لرؤية الحرب .. المتحمس لمعرفة ماذا يتم من جزاء لمن يخلص شعبه من ذلك العملاق الذى يعير الرب . نرى فيها الراعى المتمرن على سلاحه الخاص المقلاع ، الشاب المحتقر من غريمه رجل الحرب ، المؤمن بقوة إلهه المعطى النصرة ، الظافر بعدوه وسط غناء المغنيات .. وكل هذا ينظر إلى الإنسان ...

قد أشرت فى الفقرة الماضية إلى قصة داود وشاول ولكن من جهة شاول فقط الآن دعنا ننظر إليها من جانب داود ، وإليها مفردة .. نرى فيها المظلوم الذى جوزى شراً بدل عمله الخير ... نرى المطرود بلا سبب ، الشاب البسيط الذى وظف موسيقاراً لعدوه ، نرى الشريف الواسع القلب الكريم النفس الذى وقع عدوه فى يده مرتين ، ولكنه عفا عنه غير راض أن ينتقم لنفسه . وعندما سقط شاول حزن داود عليه ورثاه وأقام داود عهده مع نسل يوناثان .

فى أثناء مطاردة شاول لداود هرب داود مرتين إلى ملك فلسطين من وجه شاول ، وفى كليهما أحرج ، وتعرض للموت . فى الأولى حدثت ضده المؤامرة على يد عبيد أخيش ملك جت الفلسطينى : « أليس لهذا كن يغنين فى الرقص قائلات ضرب شاول ألوفه وداود ربواته » (١ صم

٢١ : ١١) وعلم داود أن هذا يعنى الموت لهذا اللاجىء الذى تغير الموقف ضده فاعتبر خائناً أجنبياً . واضطر أن يهرب بنفسه لينجو « فغير عقله فى أعينهم وتظاهر بالجنون بين أيديهم ، وأخذ يخربش على مصاريع الباب ، ويسيل ريقه على لحيته » (١ صم ٢١ : ١٣) . أما فى المرة الثانية فوجد نعمة فى عينى الملك كلاجىء وأعطاه ملك جت صقلغ وفى أثناء ذلك تعرض لكثير من الخسارة والإحراج واضطر أن يكذب .. مثلاً خرج داود لغزو الجشوريين والجرزيين والعمالقة ولكن لما سأله ملك جت قال إنه غزا على جنوبى يهوذا وجنوبى اليرحمئيليين وجنوبى القينيين . وفهم أخيش الملك أن داود « قد صار مكروهاً لدى شعبه » (١ صم ٢٧ : ١٢) . ورتب أخيش حرباً على شعب داود وقال لداود « أعلم يقيناً أنك ستخرج معى فى الجيش أنت ورجالك . واضطر داود أن يعطى جواباً مغطى « لذلك ستعلم ما يفعل عبدك » (٢٨ : ٢) وداود له قصد ، وأخيش يفهم معنى آخر . وتخيل معى لو أن داود فعلاً قوبل بالارتياح وخرج معهم أيكون خائناً لشعبه ، أم خائناً لأخيش الملك الذى يأويه ؟! ويرجع داود بأمر أخيش عن مشورة أقطابه ... فوجد أن نساءه ونساء رجاله وكل أملاكهم وأولادهم سبايا ، وكل الشعب الذى معه قالوا أن يرجم داود ! وسأل الرب وقاد حرباً ضد الغزاة واسترد سبيه . كل هذه الحلقات ترينا أخطاء فى سياسة داود وعدم إحكام نظرته وكيف أوقع نفسه فى هذه النتائج لولا عناية الرب ...

وإذا نظرت إلى خطية بل خطايا داود فلاشك لن تلوم غير داود الذى تقاعس عن الخروج مع الشعب ، الذى انشغل التهى بمسراته الخاصة ، الذى نظر واشتهى ، ووقع فى خطية النجاسة ، والقتل ، ثم نام فى هذه الخطية ؛ حتى أنه لم يظهر أى ندامة أو توبة ، وأقعده تبلد الضمير حتى عن الكتابة والصلاة والترنيم .... ترك شعره ومواهبه ومزماره .. إلى أن أتاه ناثان وأنبأه بالعقاب الذى يستحقه ...

وقصة أمنون مع أخته ثامار : إذا أخذت بذاتها تشير بكل وضوح إلى مسئولية أمنون التى استحق بسببها القتل بيد أبشالوم شقيق ثامار (٢ صم ١٣ : ٣٢) .

وخطوة للوراء ترينا خطية قد وقع فيها داود باتخاذه لنفسه زوجة « معكة بنت تلمانى ملك جشور » (٢ صم ٣ : ٤) فقد كان نتاجها فاسداً : ذلك الابن أبشالوم ، وقد حصد داود نتائج الزواج بتلك الأجنبية .

أما تلك المأساة ، مأساة أبشالوم فقد أظهرت من جهة مسئولية داود كأب لم يحسن تربية ابنه حتى فلت الزمام ، وكذا لم يحسن التصرف فى الأمور فيما بعد . تأمل هذه الثغرات : تعدد الزوجات ، عدم وجود الرقابة الأبوية الكافية على تصرفات الأولاد فى الأمور التى قد يشك فيها ، تهيئة الفرصة لأبشالوم للهرب إلى جده ملك جشور كلاجىء ، عدم استدعائه من عند ملك جشور قبل مضى وقت كاف لإفلات زمام أبشالوم ، إشعار أبشالوم بالعداوة من جهة الأب بعد رجوعه ، كل هذا يجعلنى اعتبر داود المسئول الأول فى قتل أبشالوم ... ثم أبشالوم نفسه الذى أظهر أنه غير جدير بداود كأب .. بفتنته على أبيه .

وأولاد أخت داود بنو صروية الذين سيروا داود تقريباً ، وقد كانوا قساة عليه ، بل فرضوا

عليه أحكاماً أحياناً ، ولو أنه لا ينكر إخلاصهم لداود وللمملكة . لكنهم بلاشك مسئولون عن عملهم ؛ لدرجة أن داود أوصى سليمان بقتل يوآب (١ مل ٢ : ٥ و ٦) .

هذه عشر قصص وغيرها كثير فى حياة داود تشير كل واحدة منها منفردة إلى مسئولية البشر ، ولكنها كلها فى الحقيقة تكون قصة واحدة هى قصة داود . لكن عند ربطها بعضها ببعض تجد يد العناية العظيمة الحكيمة التى وحدت كل هذه القصص فى واحدة ، وقد رتبتها لكى تخرج تلك الشخصية الفذة . داود بإنتاجه العظيم ، وتأثيره فى خلق وحدة بلاده ، وخلاصها من الأعداء ، تأثيره الدينى ، والمزامير ، والموسيقى فى العبادة .. الخ

تأمل كيف جعلت العناية تلك القصص المفردة خيوطاً لقصة واحدة تصل إلى غرض الله ومجده :

إذا كنا ننظر لداود كراعى فهو لا يختلف عن بقية الصبيان الرعاة ، لكنه فى الحقيقة يختلف عنهم فى أنه الراعى الموسيقى الموهوب ، الشاعر الحساس ، الراعى الذى قاتل جليات ، وهكذا وصلت العناية داود إلى بيت شاول من جهة كعدو بسبب غيرة شاول منه ، ومن جهة أخرى كمنقذ لشاول من الروح الردىء الذى يبغته ، ومن أخرى كصهره وأحد قواده وصديق يوناثان ...

ورتبت عناية الله أن كل وسيلة اختارها شاول لتكون شركاً لداود كانت وسيلة نجاته : المصاهرة (١٨ : ١٧ ــ الخ أنظر ١٩ : ١١ ــ ١٧) أنبياء نايوت (١٩ : ١٨ ــ الخ) يوناثان (١٩ : ١ ــ ٧) المطاردة (٢٣ ــ ٢٥) « وكان شاول يطلبه كل الأيام ولكن لم يدفعه الله ليده » (٢٣ : ١٤) .

لكن لماذا كل هذا البلاء ؟ ألم يكن داود فى غنى عن هذا ؟ نعم لم يكن ، لقد اختار الله هذا الطريق الشاق لداود لحكمة عنده . لقد برهنت عظمة داود ، واستحقاقه الملك بشهادة شاول نفسه ، وعلم كل الشعب (٢٣ : ١٧ ، ٢٤ : ٢٠) . وبهذا مهد الرب طريقه لدى الشعب . ثم كان لابد من ذلك التدريب العملى الشاق لداود ليعده للنصرات المقبلة وللملك .

ومع أن داود أخطأ فى ذهابه إلى فلسطين أثناء المطاردة ، لكن كان هذا له من جهة مهربا ، وفرصة للغنائم ، ومن جهة أخرى فرصة لمعرفة قوة وطرق أعداء المستقبل ، وكان الرب بعنايته كفيلا بإخراج داود من ورطاته فى المرتين ورد الخسائر عنه ، بل تحويلها إلى غنيمة . وأبقى الرب هناك داود حتى آن الوقت ليرجع ملكا .

وقد سمح الله بخطية داود فى قصة بتشبع ، لكى يقدم لنا داود التائب ، ورجاء للتائبين فى مثال داود ؛ وقد رتب الله مستخدماً كل الأحداث التى تمت بعد تلك الخطية لتكون عقاباً لداود من ناحية ، ولتكون إخلاء الطريق أمام سليمان للملك من ناحية أخرى ، وملء كأس يوآب من ناحية ثالثة . وفى معاتبة الرب لداود إظهار لأنه مع كون الرب قد استخدم كل شىء لمجده ،. لكن الإنسان مسئول ، ومسئوليته عن كل قصد يقصده وتأثيره فيما يصنع من هذه الأحداث فرادى ، ولو أن الله يحبُك منها جميعاً قصة كبرى بعنايته لأجل مجده ، وفى أمور أوسع مدى من حدود القصة الفردية .

(٤)

وإليك شخصية أخرى تظهر قصصها الفرادى مسئولية الإنسان ، وتظهر مجموعها عناية الرب فى ترتيب الأحداث . وتلك هى أستير .

فى بيت الملك أحشويرش ملك مادى وفارس وليمة غاية فى الترف والإسراف لكل رؤساء المملكة وكل جيش مادى وفارس وكل شرفاء البلدان ورؤسائها مدة مائة وثمانين يوما ... فى اليوم السابع من هذه الأيام والملك مملوء بالخمر والسكر وكذا الذين حوله ، طلب أن تأتيه الملكة وشتى بتاج الملك ليرى الشعوب والرؤساء جمالها . ورفضت الملكة الشريفة أن تظهر أمام قوم سكارى . وشعر الملك بأنه قد أهين ، وانتهز رؤساؤه هذه الفرصة ، خاصة الذين لم يستطيعوا أن يسيطروا على بيوتهم ، لكى يجعلوا الملكة كبش الفداء حتى تعتز أيديهم على نسائهم ، فأشاروا أن تعزل الملكة « فتعطى جميع النساء الوقار لأزواجهن من الكبير إلى الصغير » وهكذا فعل الملك وكتب إلى كل بلدان المملكة « ليكون كل رجل متسلطاً فى بيته » . إن نظرة إلى هذه القصة مفردة تظهر شرف الملكة ؛ وبذاءة طلب الملك الأمر الذى ندم عليه أخيراً (٢ : ١) وحقارة من كانوا فى بيته وإرادته أن يصعدوا على أشلاء الملكة — مسئولية بشرية بلاشك .

وقصة أخرى هى قصة اختيار ملكة زوجة لذلك الملك .. لقد جند لذلك وكلاء فى كل بلاد مملكته ليجمعوا له كل الفتيات العذارى الحسنات المنظر ، ويعطين أدهان عطرهن ، لكى يختار الملك ما يحسن فى عينيه منهن ... واختار سبعة من الكثيرات اللاتى جمعن . منهن أستير ، وهى التى اختارها الملك ... وهذه القصة أيضاً تظهر مسئولية الإنسان « فأحب الملك أستير أكثر من جميع العذارى ، فوضع تاج الملك على رأسها » (٢ : ١٧) .

وقصة أخرى قصة خلاص الملك عن يد مردخاى من فتنة بغثان وترش وصلب هذان الفاتنان ، ودوّن هذا الأمر مع الإشادة بما صنع مردخاى ... واضح فيها جلياً مسئولية كل عما قصده . (أس ٢ : ٢١ — ٢٣) .

وأخرى هى قصة هامان الذى رفعه الملك وسجد له الجميع فامتلأ بالغرور ، وقصد أن ينتقم من مردخاى لعدم سجوده له بالصلب ، والقتل لكل شعبه ، وقد أعد لتلك المذبحة كل الاستعدادات بأمر الملك .

أرق الملك ، وقرأ له سفر أخبار الأيام ، وعلم بما فعله مردخاى ، وتألم لعدم مكافأته ، فأمر هامان أن يكافأ مردخاى بما يتمناه هامان .

شعب مردخاى هو شعب أستير . وقعت على أستير مسئولية نجاة الشعب ونجاتها هى نفسها ، فطلبت صوماً وصلاة ، وتجاسرت ودخلت إلى الملك الآمر أن لا يدخل إليه أحد ، وحسنت فى عينيه فأذن لها . طلبت إليه أن يحضر وكذا هامان وليمة فوليمة لتقول له طلبتها ...

إنكشفت للملك عداوة هامان لأستير فى الوليمة ، وكان الملك قد أكرم مردخاى — فأمر أن يصلب هامان على الخشبة التى أعدها لمردخاى .. بعدما ظن الملك فى رغبة هامان خيانة الملك مع

زوجته .

أرسل الملك رسائل عكس الأولى لكى يبطل تدبير هامان ...

هذه كلها قصص ، لو أخذت منفصلة لرأينا فيها مسئولية البشر ... ولكن حين نلاحظ الأحداث المرتبطة بعضها ببعض ، وميعاد كل منها نجد يد العناية التى رتبتها ...

عناية الله هى التى أفرغت المكان لأستير لتدخل إلى بيت الملك حتى تكون واسطة النجاة ، وهى الواسطة الوحيدة ...

وعناية الله هى التى ضمت إلى ذلك العامل الذى يحبب الملك فى مردخاى — وهو اكتشاف الفتنة — وجعل مردخاى لا يكافأ فى ذلك الوقت ، حتى ترجأ المكأفاة لوقت العناية ...

وعناية الله هى التى جعلت هامان يأتى ليطلب صلب مردخاى فى نفس الوقت الذى فيه يريد الملك أن يعظمه فيه .

وعناية الله هى التى دبرت أن يعتبر الملك أن ذلك الخطر ضد الملكة بالذات وضد شعبها أيضاً ...

هذه جميعها تكاتفت لرد الشر ، وتعظيم مردخاى ، وإعطائه مكان هامان ، وجعل ذلك اليوم على كل الشعب يوم فرح وبهجة وعيداً يذكر سنة فسنة .. عند النظر إلى الأحداث مفردة ترى مسئولية البشر والنتيجة المباشرة ، ولكن عند النظر إلى الأحداث معاً نرى مجد الله فى ترتيبات عنايته .

(٥)

ثم تعال معى إلى العهد الجديد لنرى هذه الحقيقة فى مظهريها . ولعل ألمع وأوضح من يمكن درسه فيها هو بولس الرسول ...

قصة نشأة بولس الرسول — منفردة — قصة عادية ، لا تخرج عن كونها نشأة نابغة من النابغين . عند درسها تكشف عن أب له متسع من الفكر هذب ابنه ونشأه على حب المعرفة فصار لشاول من حداثته دافع حب الكتب ؛ فدرس منها الدينى ، والعلمى ، والشعرى ، والفلسفى . هى قصة الأب الفاضل ، وهى أيضاً قصة تلميذ أعظم معلمى الناموس غمالائيل ، معلم شاول بولس ، هى قصة التلميذ الذكى الغيور للمعرفة ، ولسبب هذه الغيرة تقدم على كثيرين من أترابه أو فى كلمة أخرى هى قصة الجهود البشرية ، والمسئولية البشرية ...

وللحالة التى صار إليها بولس ، والمركز الذى وصل له نفس الاعتبار إذ ولد بولس الرسول رومانياً (أع ٢٢ : ٢٨) بحكم كونه من بلدة طرسوس الواقعة فى مقاطعة كيليكية التى منحت الرعوية الرومانية . ولقد كان شديد الغيرة لدينه فاضطهد المسيحية اضطهاداً حامياً واعتبرها شذوذاً على اليهودية وخروجاً عليها . وكان حامى الشهود على قتل الشهيد الأول استفانوس . وأحد الحاكمين بقتله على أنه حكم هذا الحكم بصورة غير رسمية لأن سنه لم تكن قد أهلته لعضوية مجمع السنهدريم . على أنه بعد استفانوس حالا صار أحد أعضائه (أع ٢٦ : ١٠) وربما افتخر

ذلك المجمع بضم شاب نابغة ، شديد الحماس ، واسع الأفق كشاول . له كل الامتيازات الدينية ، والعلمية ، والسياسية ... هذا كله يشير كل الإشارة إلى المسئولية البشرية ، وما يمكن أن يصل إليه الإنسان نتيجة لجهوده .

وبولس الرسول نفسه يعترف بأن استشهاد استفانوس يقع على عاتقه (أع ٢٢ : ٢٠) . وكذا جميع الذين عذبوا واستشهدوا (أع ٢٢ : ١٩ ، ٢٦ : ١٠ و ١١ ، غل ١ : ١٣ ، فى ٣ : ٦) إذ يعتبر نفسه المسئول عن تعذيبهم . كل حادثة من هذه الأحداث قائمة بذاتها تشير إلى مسئولية شاول عنها .

ولتجديد شاول الطرسوسى (بولس الرسول) قصة تبدأ وتنتهى بالمسئولية البشرية . فها هو ذاهب لاضطهاد المسيحيين كيهودى غيور ، فيرى رؤيا المسيح المقام من الأموات ، فيعلم أنه لا يعمل صواباً وأن كل طريقه الذى كان يفتكر أنه يمجد الله به خطأ ، ويطلب الطريق الصحيح ، فيأتيه الأمر بأن يدخل دمشق وهناك يعلمه الله ... ويطيع ، ويصوم ، ويقبل ... ويعمل بمشورة نفسه دون أن يستشير لحماً أو دماً ، ودون أن يقاوم الرؤيا السماوية .. وواضح أن كل هذا يشير إلى جانب المسئولية البشرية .

ثم ظهر نشاطه ولكن نشاط من نوع آخر — لقد انضم إلى الجماعة التى كان يعاديها ، ونادى بالإيمان الذى كان قبلا يتلفه ، وانضم إلى الكنيسة التى كان قبلا يضطهدها .. وخرج على رأس الرحلات التبشيرية ، أولا مع برنابا ومرقس ثم مع سيلا وتيموثاوس ولوقا ... وقد جاهد كثيراً ... وكل حركة من هذه التحركات . وكل خطوة خطاها تدل على الإنسان الخادم المكرس المضحى من أجل فاديه — الإرادة البشرية الحرة المسئولة الخادمة .

وفى أوائل سنة ٦٠ م عزم على السفر إلى أورشليم وأراد أن لا يدخل أفسس لئلا يعاق عن أن يحضر فى أورشليم فى يوم الخمسين فقابل قسوس الكنيسة فى ميليتس (أع ٢٠ : ١٧) وفى ميليتس وفى كوس وفى رودس وفى قبرص وفى بتولياس كانت العنوات بربط وسجن بولس . لكن بولس كان شعاره « لست أحتسب لشىء ولا نفسى ثمينة عندى حتى أتم بفرح سعيى ، والخدمة التى أخذتها من الرب يسوع ... » (أع ٢٠ : ٢٤) . وفعلا تم لبولس كل ما أنبىء عنه ، وهو راض به من أجل المسيح . هذا هو قبول الآلام بالحرية والإرادة من أجل المسيح — حمل الصليب ...

ولقد حدثت بعد ذلك قصص كثيرة كل منها على انفراد تظهر مسئولية البشر . مثلا أشار بعض أصدقاء بولس الرسول عليه أن يقيم شريعة النذير من أجل أربعة أشخاص حتى لا يقال عنه إنه ناقض ناموس موسى . وكان ذلك سبباً فى القبض عليه بتهمة صحيحة وهى أنه نجس الهيكل بإدخال اليونانيين فيه (أع ٢١ : ١٧ — ٣١) .

ثم قصة المؤامرة التى تآمر بها بعض اليهود ضد بولس فحرموا أنفسهم قائلين إنهم لا يأكلون أو يشربون حتى يقتلوا بولس ، وهم أكثر من ٤٠ يهودياً وطلبوا من البعض أن يطلبوا بولس فيقتلوه فى الطريق . وسمع ابن أخت بولس بالكمين فكان سبيل نجاة خاله (٢٢ : ١٢ — ٢٥) . فى

هذه القصة البشر يتآمرون والبشر واسطة النجاة .

ثم قصة المحاجات التى كان بها بولس يدافع عن نفسه ونقضه التهم التى كان اليهود يلفقونها ضده (أع ص ٢٢ ــ ٢٦) .

ثم قصة استئناف بولس الرسول ، وطلبته أن يحاكم لدى قيصر ... هذا طلب أى مواطن رومانى عادى بمحض مشورة نفسه .

ثم تأتى قصة الرحلة إلى رومية ــ الرحلة المهولة بما فيها من أخطار بما فيها من خسائر ، وبما فيها من مؤامرات ؛ بما فيها من قصد طاقم السفينة الهروب ! بما فيها من عدم سماع القائد إلى بولس ، بل إلى قبطان السفينة ــ بما فيها من إكرام البرابرة لهم بسبب بولس ، ومعجزات الشفاء . بما فيها من تهديد الخطر لبولس من الثعبان السام ، ونجاته بيد الرب الشافية ، ثم الوصول السليم .. كل هذا يشير إلى المسئولية البشرية .

وصل بولس أخيراً إلى رومية ، وإلى انتظار المثول أمام قيصر بقى عامين محدد الإقامة فى بيت استأجره لنفسه مع العسكر الذين يحرسونه يكرز بالمسيح للحراس ، وللذين يزورونه ، يكتب رسائل إلى الكنائس وفى نهاية العامين أطلق سراح بولس الرسول بتأثير سينيكا الفيلسوف الرومانى مهذب نيرون ، وثاوفيلس أحد أعضاء مجلس الحكم فى المحكمة الرومانية العليا[1] . وفى كل هذا تظهر المسئولية البشرية والجهود البشرية والإرادة البشرية .

لكن بولس عاد فاعتقل ثانية بعد انتحار سنيكا ، وسجن فى السجن الرومانى العام ، وحكم عليه بالموت بتهمة أنه مسيحى بعد ماكان نيرون قد أحرق روما ، واهتاج ضد المسيحيين ، وفى هذه الفرصة فى السجن الرومانى كان بولس قد كتب رسالته الأخيرة الثانية إلى تيموثاوس يقول فيها « وقت إنحلالى قد حضر » (٢ تى ٤ : ٦) إشارة إلى استشهاده .. كل هذا يدل على المسئولية البشرية التى تقع على عاتق مضطهدى بولس ومذنوبيتهم ، والمسئولية البشرية التى تشهد لبولس بفضيلته فى قبول خدمة المسيح بالأمانة حتى الموت .

على أننا لو نظرنا إلى هذه الأحداث كلها مجتمعة لرأينا شيئاً آخر . لرأينا يداً خفية تعمل لإخراج هدف معين ، هو إخراج بولس الرسول وإعداده للخدمة التى دعى إليها . لقد أفرزه الله من بطن أمه ، ثم دعاه بنعمته لخدمة معينة (غل ١ : ١٥) هى أن يحمل اسمه أمام أمم وملوك وبنى إسرائيل ؛ وصيره إناء مختاراً لهذا (أع ٩ : ١٥) . وعملية فرزه ، واختياره ثم النعمة التى دعته وصيرته ، هذه هى يد العناية الخفية الظاهرة فى كل هذه الأمور لو نظرنا إليها مرتبطة مجتمعة .

يمكن أن ينشأ أى إنسان نشأة بولس الرسول لكن لو كان هذا فقط له فلن يكون بولس الرسول . يمكن أن ينجو إنسان من سم ثعبان لكن إن كان هذا فقط فلن يكون بولس الرسول ،

---

(١) يوجد رأى يقول بأن بولس قد أطلق سراحه بلا محاكمة فى رومية لأن القانون الرومانى يقول : إذا لم يتابع الشاكى القضية . ولم يحضر حتى عامين سقطت التهمة .

يمكن أن يستأنف أى إنسان إلى قيصر لكن إن كان له هذا فقط فلن يكون بولس الرسول . يمكن أن يتثقف إنسان ثقافته وينبغ نبوغه ، ولكن إن كان له هذا فقط لن يكون بولس الرسول . إن اليد الإلهية جمعت فيه كل هذه الأشياء لكى تجعل منه بولس الرسول الذى نعرفه .

إن بولس الرسول هو الشخص الذى كان قبلا يضطهد كنيسة المسيح فصار فيما بعد أول رعاتها ، الشخص الذى كان مجرد مثقف بأعظم ثقافة أضافت النعمة إليها الإعلان السماوى ، وتغير الفكر وأسره إلى المسيح لكى يقوم بإعلان الله ووحيه ، كلمة الله ، الشخص الرومانى الجنسية الذى كان قبلا يستخدم هذا كسلاح ضد المسيحيين ، فتغير إلى محاولة إستخدامه لأجل تقديم كلمة الله للأمم . بولس الرسول هو كل هذا معاً .

إن بولس الرسول هو الشخص الذى جمعت اليد الإلهية قصته من الأحداث الماضية المتفرقة لتحبك منها قصة متقنة هى قصة بولس الرسول . تجمعت فى شخص واحد الناشىء الغيور للمعرفة ، الرومانى الرعوية ، عند رجلى أعظم المعلمين بين أقيم الكتب ، مع أعاظم الناس ، فى أعجب طريقة للتغيير منعزلا فى البرية ، ليخرج بالإعلانات إلى العالم ، بغيرة عظيمة ليربحه للمسيح . وأضافت هذه اليد الإلهية إليه الاضطهادات ، والمضايقات ، من القريب والبعيد ، أكثرت أسفاره ومقابلاته الناس . حمته من الموت مراراً وقيدته لكى يكتب ولكى يتكلم معاً ... كل هذا يكون بولس الرسول . ولا يمكن أن يكون شخص هكذا تجتمع فيه كل هذه المتفرقات بدون اليد الإلهية — يد العناية العجيبة .

(٦)

وهذا أيضاً ما نراه فى التاريخ . إن درسا للتاريخ فى مجرد الأحداث يرينا مسئولية الإنسان ، لكن نظرة متعمقة تربط الأحداث بعضها ببعض ترينا يد العناية التى تقف خلف الأحداث وتكون التاريخ . لو قارنت بين التاريخ فى الكتاب المقدس وبين التاريخ العالمى لوجدت فرقاً كبيراً . والفرق هو أن التاريخ العالمى يتعمد أن يبعد يد الله عن الأحداث بينما فى الكتاب المقدس نجد يد الله فى كل شىء .

وقد تحذف بعض الأمم أعمال الله من تاريخها على الإطلاق ، ولا يذكرون كسرتهم كما يحذف أشور الكسرة الشديدة التى أوقعها الله بافناء الجيش بأسره بالوباء (٢ مل ١٩ : ٣٥) . وقد تعلل السجلات التاريخية الكسرة بعوامل طبيعية أو خطأ فى التكتيك الحربى أى تشير فقط إلى المسئولية البشرية ، على أنه بلاشك خلف هذا يد العناية التى دبرت أن تدير كل مسئوليات وإرادات البشر لأجل مجده .

زالت بعض الشعوب وقامت بعض الشعوب ، نصرات وكسرات ، وغير ذلك فى التاريخ ، حدثت عن طريق أداة بشرية أخطأت أو أصابت ، أحسنت أو أساءت ، لكن كل ذلك بتدبير الإله العظيم فى نفس الوقت ...

إن هذا يعلمنا أن نتكل على الله الذى بيده أمرنا ، مدير ومدبر التاريخ صانع قصتنا ... وفى نفس الوقت يعلمنا أن نبذل كل جهد لأن نجتنب الخطأ لأننا مسئولون ...

لا مكان للصدفة

« .. فإن صعد فى طريق تخمه إلى بيتشمس فإنه هو الذى فعل بنا هذا الشر العظيم . وإلا فنعلم أن يده لم تضربنا . كان ذلك علينا عرضا »

(١ صم ٦ : ٩)

قال أحدهم إذا كان هذا العالم عالم الله . ونحن خليقته ، فأين اختبأ الله بينما نحن تصيبنا هذه ؟ هل فقد الله زمام الأمور ؟ أم أن ما أصابنا حادث عرضى ؟ إنه يبدو كأنه محض صدفة ، وإلا فكيف عرض لنا هذا العارض ؟ هناك تطرف آخر يقول : إننى أستحسن أن أنسب كل شىء للصدفة من أن أتعرض للفكر بأن الله يسمح بالشر بى كأنه إله شرير !!

لكن دعنا أولا نحدد معنى الصدفة . حيث أن نطلق كلمة صدفة على ما لا نستطيع تعليله بسبب جهلنا البشرى ، ويكاد يكون بلا معنى فهذا شىء ... وشىء آخر أن نطلق الكلمة على اعتبار عدم وجود علة أصلا سواء فى عالم المادة أو عالم الروح . المعنى الأول يعنى أنه يوجد علة لما يحدث ، ولكننى لا أعرفها ، وأما الثانى فمعناه أن هذا حدث بلا ترتيب ، ولا قصد هادف ، ولا سبب ولا علة معروفة أم غير معروفة ...

وللأسف المعنى الثانى هو الذى يطلق الآن على الصدفة .. وصاحبنا الذى نقلت كلامه يعنى : هل فقد الله زمام الأمور ؟ هل حدث لنا هذا بدون الله كعلة له :

إن كلمة صدفة بهذا المعنى يقابلها فى اليونانية كلمة لم ترد أصلا فى الكتاب . ولكن هناك كلمة تشبهها وردت فى السبعينية مرتين على لسان غير مؤمنين وليس لتقرير الأمر أو استحسانه أو صحته بل بالعكس لنقضه . وهما : (١) (تك ٣٠ : ١١) حيث « فقالت ليئة بسعد (جاد) فدعت اسمه جاداً » ، وجاد هذا هو إله الحظ عند الساميين . وقد قالت ليئة هذا وقد كانت حتى ذلك الوقت فى حاران قبل أن يرجع يعقوب من عند خاله والدها الوثنى . (٢) « أما أنتم الذين تركوا الرب ، ونسوا جبل قدسى ورتبوا للسعد الأكبر (جاد) مائدة ، وملأوا للسعد الأصغر (منى) خمراً ممزوجة فإنى أعينكم للسيف ، وتجثون كلكم للذبح ، لأنى دعوت فلم تجيبوا ، تكلمت فلم تسمعوا ، بل عملتم الشر فى عينى ، واخترتم ما لم أسر به » . (إش ٦٥ : ١١ و ١٢) ثم توجد بهذا المعنى كلمة أخرى هى التى وردت على لسان الفلسطينيين عند إطلاق تابوت الله قولهم « وإلا فنعلم أن يده لم تضربنا . كان ذلك علينا عرضاً » (١ صم ٦ : ٥) . وواضح أن هؤلاء وثنيون ، وقد بين لهم الله أن هذا لا يحدث لهم عرضاً ، بل بيده أى أن الآية لا تثبت الكلمة .

وفيما عدا ذلك فقد وردت فى الكتاب كلمة « صادف » و « يصادف » بمعنى قابل بدون ترتيب بشرى معروف أو انتظار أو على حين غرة ... وكلمتى « اتفق » « عرض » كلاهما تعنى حدث بدون قصد لمن حدث له .. لكن فى كل هذه[1] تظهر العلة الخفية التى رتبته ، وهى عناية الله . هذه الصدفة بالمعنى الأول وهو معقول تجاوزاً ...

وقد لاحظنا فى القديم وجود آلهة باسم الحظ ومنها : « جاد » السامى ، و « منى » البابلية ، و « استراتا » السريانية ، و « توضى » اليونانية وقد ظهر فى مظهر زيوس وفينس ، وتسمى أيضا فوروتونا الرومانية ، وهى ديانا مع جوبيتر وجميع هذه عبارة عن تشخيص فكرة الحظ والصدفة ، سواء الحظ الحسن ، أو الردىء . وعندما يتحدثون عن هذه الآلهة بهذا الاعتبار يصورونها معصوبة الوجه ، ترش من قرن الحظ ، وليقع على أى شخص كيفما اتفق أن يقع عليه .

وفى العصر الحديث لا توجد مبادىء تشخيص الأفكار على هذا النحو ، لكنهم حافظوا على فكرة الحظ والصدفة بلا تشخيص وقد اعتنق هذا الرأى بصورة خاصة من لا يؤمنون بإله خالق ، أو من لا يؤمنون بإله معتن . فقد نسبوا خلق العالم وأعمال العناية وكل خوارق هذا العالم إلى الصدفة .

وحتى من غير هؤلاء ، الغير مؤمنين بالله ، حيث يوجد من ينساق فى ركابهم فيؤمن بالصدفة على أن الكتاب المقدس بعهديه لا يعلم بوجود صدفة تتحكم فى هذا الكون بل إله معتنٍ .. حتى القرعة التى تلقى فى الحضن ، ويفهم غير المؤمنين أنها تلقى جزافاً ، وتقدم حظاً أعمى ، يقول الكتاب « ومن الرب كل حكمها » (أم ١٦ : ٣٣) .

ويقول البعض قد أتى إلينا صلاحنا بالخير ، أما الشر الذى أتى علينا فهذا صدفة وهذا تعليم غير كتابى .

(١)

دعنا نرى أولا تفنيد فكرة الصدفة دينياً . ولقد أوردت سابقا أن الكتاب يفندها حين يذكر التعبير على لسان غير المؤمنين ، بعدم الاستحسان أو بالنقض ، وسيرد التعليل الحقيقى لكل ما ينسب للصدفة فيما بعد . وليعتبر هذا من ضمن الدليل الدينى الصارخ ضد فكرة الصدفة لكننى هنا أذكر مبدأين ينقضان فكرة الصدفة :

(١) أولا : إن فكرة الصدفة تسىء إلى الله وليست تمجده كما يفتكر المؤمنون المنقادون لفكرة الصدفة ... لقد أرادوا أن يدفعوا عن الله ما يسمونه تهمة قصد الشر ، على حساب الحق الكتابى ، وعلى حساب سلطان الله على كل شىء ، أما سماح الله بالشر فهذا لا يهينه (راجع فصل السماح بالشر) لكن تجريد الله من سلطانه ، وحكمه للكون ، وإدارته كل شىء ، إدارة ملك حكيم طيب عجيب القدرة والإدراك ، فهذا إهانة لله ما بعدها إهانة ، إذ أنه يجعل الله متفرجا على كون وليس

(١) هذه الآيات سترد فيما بعد .

فى يديه قدرة لإدارته ، أو كما قال صاحبنا : فقد الزمام من يديه !!

والغريب هو أن كل تعبير وردت فيه كلمة « صادف » و « يصادف » نلاحظ فيه يد العناية الإلهية . خذ مثلا ما فكر فيه الفلسطينيون أنه عرض حتى تأكد لهم أن العقاب مقصود من الله (١ صم ٦ : ٩) أو قول صموئيل لشاول : « فى ذهابك اليوم من عندى ، **تصادف** رجلين عند قبر راحيل فى تخم بنيامين فى صلصح ، فيقولان لك قد وجدت الأتن التى ذهبت تفتش عليها ، وهوذا أبوك قد ترك أمر الأتن واهتم بكما ، قائلا ماذا أصنع لإبنى ، وتعدو من هناك ذاهباً حتى تأتى إلى بلوطة تابور فيصادفك هناك ثلاثة رجال صاعدون إلى الله إلى بيت إيل ، واحد حامل ثلاثة جداء ، وواحد حامل ثلاثة أرغفة ، وواحد حامل زق خمر ، فيسلمون عليك ، ويعطونك رغيفى خبز فتأخذ من يدهم ، بعد ذلك تأتى إلى جبعة الله حيث أنصاب الفلسطينيين ، ويكون عند مجيئك إلى هناك إلى المدينة أنك **تصادف** زمرة من الأنبياء نازلين من المرتفعة ، وأمامهم رباب ودف وناى وعود ، وهم يتنبأون ، فيحل عليك روح الله فتتنبأ معهم ، وتتحول إلى رجل آخر : وإذا أتت هذه الآيات عليك فافعل ما وجدته يدك لأن الله معك » (١ صم ١٠ : ٢ — ٧) .

كلمة تصادف هنا مفهومها : بدون ترتيبك ، أو فهمك لعلتها ، لكن ما يعد صدفة بالنسبة لجهلنا ، قد أعده الله ورتبه ، الله العظيم الفهم ، الحكيم العناية ، وليست صدفة بالنسبة له قط ... ولقد حدث لشاول ما قاله صموئيل باعلان الله . وكل حدث نسميه صدفة هو بهذه الصورة السابقة وأن الله أعلنه لنا ... أما أن نجرد الله من إعداد ما لا نفهمه فنحن ننطق بجهل من يقول بأن الله فى عالم ، وما يحدث فى عالم آخر ، أو بأن الله فى العالم ولكنه ليس إلهاً له ، وقد حلت الصدفة محله !! حاشا ، إن هذا يسىء إلى الله ...

إن أغرب حادثة من حيث مفاجأتها ، وعدم توقعها ، وعدم معلومية وقتها ، هى مجىء المسيح الثانى بالنسبة للبشر « يصادفهم .. بغتة » (لو ٢١ : ٣٤) : لكن وقته معلوم لله ومرتب ومنبأ به ..

إن إلهنا لا يتفرج على صدف تحدث لنا ، لكنه يعد بعنايته كل ما يحدث من خير ، ويسمح بما يحدث من شر ... وبحكمة وقدرة عظيمتين يحول كل ما يحدث لأجل مجده .

ثانياً — إن فكرة الصدفة تسىء إلى الإنسان ، وتورثه القلق والانزعاج وتبينه كأنه ريشة فى مهب الريح . وهو الأمر غير الصحيح الذى ينقضه الكتاب .. إن إحدى الأشياء التى تركها الملك أرتحشستا الفارسى لظروف عزرا أو لصدفته يدل على إراة مطلقة لعزرا . « وباقى احتياج بيت الهك الذى **يتفق** لك أن تعطيه فاعطه من خزائن بيت الملك ومنى أنا ارتحشتا الملك صدر أمر إلى كل الخزنة الذين فى عبر النهر أن كل ما يطلبه منكم عزرا الكاهن كاتب شريعة اله السماء فليعمل بسرعة » (عز ٧ : ٢٠) . فهو فى حكمه عدم ترتيب عزرا له ولكن عزرا حر فى أن يتصرف مفوض فى هذا .

وقد تثير تساؤلا عندنا تلك الآية الموجودة فى (جا ٩ : ١١ و ١٢) « فعدت ورأيت تحت الشمس أن السعى ليس للخفيف ولا الحرب للأقوياء ، ولا الخبز للحكماء ، ولا الغنى للفهماء

ولا النعمة لذوى المعرفة ، لأن الوقت والعرض يلاقيانهم كافة . لأن الانسان أيضاً لا يعرف وقته ، كالأسماك التى تؤخذ بشبكة مهلكة ، وكالعصافير التى تؤخذ بالشرك . كذلك تقتنص بنو البشر فى وقت شر إذ يقع عليهم بغتة ...» . وكلمة العرض تعنى حادثة مفاجئة ، وهى غير الكلمة المترجمة « حادثة » فى (جا ٣ : ١٩) والأولى تعنى المفاجأة وعدم الترتيب لها ، والثانية تعنى الحدوث الفعلى . وبمقارنة الوقت والعرض يظهر أن الوقت هو ما يمكن للإنسان التحكم فيه ، اما العرض فهو الخارج عن إرادته ، والمفاجىء له بما قد لا يشتهى . وهكذا العدد الذى يلى هذه الكلمة يفسرها بهذا المعنى .

فهل هذه الآية تؤيد وجود صدفة تلعب بالإنسان ؟ إن الجامعة هنا يتكلم من وجهة نظر هذه الحياة فقط ، وفى حديثه عنها يتكلم عن « اختبارات » الإنسان ولا يتعداها ، بالنسبة للانسان ومجرد اختباراته ، أعمال العناية الخفية تشبه الصدف لأنها غير معلومة وغير معد لها .. لكن حين يتكلم عن الأمر من ناحية ترتيبه وعلته يقول الكتاب « كل الأشياء تعمل معا للخير للذين يحبون الله الذين هم مدعوون حسب قصده » (رو ٨ : ٢٨) . فهذا الأمر الذى لا نعرفه ولا نعرف القصد منه ولا نعرف علته ، هو مرتب لكى ينضم إلى سلسلة من أعمال العناية التى تنتج الخير ..

ولو ألقينا نظرة على حياة بولس لرأينا هذا الأمر . يقول بولس الرسول « والآن ها أنا أذهب إلى أورشليم مقيداً بالروح لا أعلم ماذا يصادفنى » هذا من جهة نظرته البشرية ، لكن بالنسبة للنظرة إلى أصل الحوادث ؛ يكمل الرسول فيقول إن الروح الذى قيده ليذهب إلى أورشليم قد رتب ما يحدث له .. « غير أن الروح القدس يشهد فى كل مدينة قائلا إن وثقاً وشدائد تنتظرنى » (أع ٢٠ : ٢٢ و ٢٣) . وليس هذا فى الرحلة الأخيرة لبولس فقط بل فى كل حياته . وليس هذا فى حياة بولس الرسول فقط بل فى حياة يوسف أيضاً ، ونعلم أن كل دقائق حياة يوسف قد رتبها الله بعنايته لاستبقاء الحياة ، مع أن يوسف لم يكن يعلم أى خطوة تأتيه ، وإلا لما اهتم بمصيره وشكا للساقى « لأنى قد سرقت من أرض العبرانيين وهنا أيضاً لم أفعل شيئاً حتى وضعونى فى هذا السجن » (تك ٤٠ : ١٥) . ولما قال له أن يذكره ويصنع له إحساناً (ع ١٤) .

هذا هو العرض بالنسبة لأفهامهم هم ، لكن ليس بالنسبة لحقيقة أصل الحوادث فان هذا هو من أعمال العناية ...

إن إبراهيم وهو يسمع الدعوة اذهب من أرضك ، ومن عشيرتك ، ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك ، فأجعلك أمة عظيمة ، وأباركك ، وأعظم اسمك ، وتكون بركة ، وأبارك مباركيك ، ولاعنك ألعنه ، وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض » (تك ١٢ : ١ — ٣) كان يرى هذا من وجهة نظره هو أنه « عرض » . ذلك لأنه « خرج وهو لا يعلم إلى أين يأتى » (عب ١١ : ٨) لكن من وجهة نظر الإيمان — والإيمان ينظر إلى العناية الموعودة — كان يعلم أن كل مواعيد الله ستتم له ، وأنه محمول على أيدى إله قد قرر له كل خير وبركة ...

نعم ولو كنا لسنا نعلم إلى أين نسير ، ولو لم نفهم ما يحدث لنا أو لو لاح لنا أنه صدفة ... لكننا لسنا ريشة فى مهب الريح ، لسنا مسلمين للصدف ، لأننا فى يدى إله قوى طيب حكيم معتن ،

قد رتب لنا كل خير وبركة ... ونحن نتبعه فى إرادة كاملة بكل اختيارنا ، مسلمين دفة حياتنا للعناية القائدة لنا ...

(٢)

كذلك يمكن تفنيد الصدفة علمياً — فمع أن من قال إن العالم وبخاصة الحياة وجدت بالصدفة كان عالماً ، ومع أن من ينكر العناية وأعمال العناية الخاصة منهم علماء كثيرين . وكان همهم فى هذا أن يقولوا إن العالم قد خلق بنظام وناموس لا يجوز لنا أن نفترض كسره بمعجزة ... لكن للأسف قد ساقتهم هذه الفكرة تمجيد « ناموس الطبيعة » إلى فكرة غير علمية أصلا وهى فكرة الصدفة .

(١) أما أولا . فإن الصدفة شذوذ على القاعدة العلمية الراسخة التى تقول بوجوب العلة للمعلول ، والسبب للنتيجة .

قبلاً هلل العالم للاكتشاف العظيم الذى يقول بأن المرض أصله جرثومة ، ولا يجوز أن ينسب للروح الشرير ، ويجب أن يعالج بالدواء وليس بالشعوذة ، وخرجنا من هذا بالفكرة العظيمة بأن لكل معلول علة ، ولكل ما يحدث سبب ، على أن الصدفة لا تقول هكذا ... إن الصدفة تقول بأن شيئا قد حدث بدون سبب ، ونتيجته قد حصلنا عليها بدون عامل لإيجادها وهذا هو الافتراء العلمى العجيب ، والتحيز غير العلمى متخذاً اسم العلم !!

قد تجرأ بعض العلماء وقالوا « من أوجد الله ؟ » لابد لعلة لوجوده لأن لكل موجود مسبب فى وجوده . والجواب العلمى لهذا أن كل الموجودات تفترض من ورائها واجب الوجود ، الذى يوجد كل شىء ولا يوجده أحد ، وهؤلاء العلماء يتجرأون أيضاً ولا يقبلون هذا الجواب السليم المنطقى المسلم به ... فما أعجب منطقهم ، إذ يقبلون وجوب وجود الصدفة . هل عسير أن نقبل وجوب وجود الله كعلة العلل ، خالق كل شىء الذى لم يخلق ؟ بينما سهل أن نقبل وجوب وجود الصدفة كعلة العلل ، وقد خلقت كل شىء ولم تخلق !! والله شخص ، والصدفة ليست شخصاً ، والأحق بكونه علة العلل هو الله .. كيف يرفض العلماء قانوناً عن وجود الله ويقبلون ذات القانون من أجل الصدفة هذا أمر عجيب !

وليس فقط بالنسبة لخلق ووجود الأشياء يلزم وجود علة ينكرها العلماء ، بل أيضاً صيانتها وحفظها وحمايتها وإدارتها ، كل هذه الأمور تشير إلى علة واجبة لها ، تدير كل شىء ولا تدار ، هى الله ، وليس الصدفة . قال الاستاذ لى الجيولوجى المشهور بعد حديث مستفيض عن اتفاق الانقلابات الجيولوجية مع ظهور أنواع جديدة فى عالم الحياة « إن هذه الاتفاقات كثيرة ، وقد ارتبطت بعضها ببعض بأحكام يقطع علينا القول بأنها حدثت عن طريق الصدفة ، ولا يمكننا تعليل هذا الارتباط إلا بالاعتقاد بأنها نتيجة مسبب أو محرك وراءها »[1] .

---

(1) The Flight From Reason

وليست هذه هى شهادة الجيولوجيا فقط بل شهادة علم الحياة . اقرأه فى اكتشاف باستور « إن الكائنات الحية لا يمكن أن تأتى إلا من كائنات حية مثلها » وهكذا ينقض نظرية جوريجورى بتولد الحياة من ذرات بعض المواد تحت بعض الظروف بمساعدة الطبيعة[1] .

هذه هى شهادة التاريخ العلمى المخلص كما يمثله المؤرخ الإنجليزى المعاصر « أرنولد توينبى » الذي يقول إن يد الله خلف التاريخ مسبباً لكل ما يحدث فيه من حوادث ، مقيماً دولا ومزيلا دولا .

وفى كلمة واحدة إن من قالوا بالصدفة بدل الخلق والعناية قد طرحوا وراء ظهورهم المبدأ العلمى الذى يقول بوجوب العلة للمعلول . وبدلا من ذلك جعلوا نتيجة تحدث من لا شيء بلا شيء .

(٢) ثم مبدأ علمى راسخ أيضاً اقتنع به كل عالم حقيقى . هو أن الكون العاقل النظامى لابد له من عقل أعظم ، ومهندس أعظم وراءه قد أوجده وصانه ... أما الصدفة فتفترض النظام من الفوضى بلا منظم ، وتفترض أن يكون التشويش عقلا وهذا لا يمكن أن يكون ...

هذا هو اكتشاف كل الأجيال « السماوات تحدث بمجد الله ، والفلك يخبر بعمل يديه » (مز ١٩ : ١) . إن الصدفة لا تقدر أن تخلق هذا العالم .. هذا الكون الذى يسوده الناموس ، لأن الصدفة ليست ناموساً بل كسراً للناموس (إن وجدت الصدفة) . إن الصدفة لا تقدر أن تحمل كل الأشياء بكلمة قدرتها (عب ١ : ٣) لأن الصدفة لا قدرة لها أن تحمل ولا وجود لها .. وهذا الكون يحتاج إلى صيانة شأن أى شيء آخر . لابد من قوة مفكرة عاقلة هادفة لكى ينشأ هذا الكون ويصان ...

أو اقرأ ما يقوله أحد علماء بلادنا دكتور حليم عطية سوريال الطبيب الأول لسجن أسيوط سنة ١٩٣٧ « وبهذه المناسبة (يتكلم عن بطلان نظرية التطور النشوءى) نذكر أن العلم الصحيح فى وقتنا الحاضر — كما يمثله العلماء الحقيقيون وليس الذين يسيرون فى ركابهم — يعتقد بوجود عقل مدبر وراء الكون ، ويعتقد أن أسرار الكون والحياة والمادة لا يمكن فهمها ولا إدراك سر وجودها بدون الاعتقاد بالعلة الأولى أو الخالق المدبر الذى يشرف على كل ما فى الكون . ويعتقد العلم أن الكون يشبه سفينة لها ربان حكيم يسيرها ويدير دفتها ولولاه لتحطمت وغرقت . ودليل ذلك ما نشاهده من النظام والترتيب والغرض فى وجود الكائنات الحية وارتباطها ببعضها ، والغاية أو الغايات التى خلقت لأجلها ، والنواميس التى تخضع لها من جماد وحيوان ونبات . فإننا إذا نظرنا إلى العالم نجده وحدة كاملة مرتبطة أجزاؤها بعضها ببعض ارتباطا وثيقاً .. ولا أحد ينكر أن كرتنا الأرضية مجهزة ومعدة إعداداً يجعلها صالحة للحياة ولبقاء الكائنات الحية بها وأن هذا الإعداد يستدعى ترتيبات دقيقة بخصوص بعدها عن الشمس وتكوين هوائها والمعادن التى تتكون منها قشرتها والسوائل التى تحيط بها بحاله لا تدع مجالا للشك بأن وراء تلك الترتيبات عقل مدبر مقتدر على كل شيء ، وبدون الاعتقاد به لا يمكننا أن نفهم أسرار الكون وغوامضه[2] .

---

(١) Esejel j mod Vowlelje P - 194.

(٢) تصدع مذهب داروين والاثبات العلمى لعقيدة الخلق (ص ٢٥ و ٢٦)

وإله عاقل حكيم لا يوجد فى عالمه صدفة .

أو دعنا نتكلم فى محيط تفكيرنا أنك إذا وجدت قطعة من حديد خردة ملقاة بإهمال على الأرض قلت هذه هى الصدفة ألقت هذه القطعة الحديدية (مع أن ما ألقاها هناك نسيان صاحبها أو إهماله أو سقطت منه أو كسرت من قطعة أخرى .. إلخ .. لكن دعنا نتجاوز) لكنك إذا وجدت آلة ميكانيكية تولد الكهرباء فى مكان ما متصلا بها الأسلاك ، وهى تدور وتؤدى عملها فإنك لا يمكنك أن تقول إن الصدفة قد صنعت هذه الآلة . أو الصدفة التى أوصلت بها الاسلاك ، أو الصدفة هى التى أدارتها : ثم لابد من وجود هدف من هذه الآلة ، والصدفة لا هدف لها مطلقاً !

طبق هذا المثل على الكون الذى تعيش فيه . إن هذا الكون لو أنه مشوش وبلا ترتيب فحتى هذا لا يدل على أن الصدفة قد أوجدته ، لكن يدل على أن خالقه غير عاقل ... لكن هذا العالم مرتب يسير حسب ناموس حكيم يشير إلى العقل الأعظم خالق الناموس ... كذلك لابد أن هذا الكون قد خلق لغرض ، ما دام هذا الكون يعمل ، ونحن نراه يعمل ... نرى كل ذلك يسير مساره ، نرى كل ذرة تتذبذب ذبذبتها ، نرى كل كائن يؤدى جسمه وظائفه الطبيعية ، نرى فيه الإنسان ، وحكمة الإنسان ، وأعمال الإنسان ، نرى كل الكون يتحرك حركته ، ويعمل عمله ، ولابد أن هذا قد أحدثه الإله المعتنى ، وليست الصدفة هى التى تحدث هذا ، ولن تصنع الصدفة ناموسا . وحيث يوجد الناموس لا توجد الصدفة .

(٣) وشيء آخر لا يطرقه العلم لأن العلم ينتحى ناحية المادة . لكن أريد أن نطرقه بأسلوب البحث العلمى ، وهو وجود الحياة والفكر والسلوك الأدبى البشرى . أما الحياة فقد قيل فيها الكثير وأنها ليست حركة ميكانيكية ، لكنها عنصر عجيب روحانى معطى النمو ينتج نظيره ، وقد رأينا أن هذا لا يأتى عن طريق الصدفة . جنبا إلى جنب تسير القوى المفكرة مع الحياة . والفكر ليس وليد الصدفة إنه نتيجة الفكر الأعظم . ومنحة منه .

لكن أعجب من هذا وذاك هو السلوك البشرى الأدبى ، فلو أن هذا حدث نتيجة صدفة غير هادفة لما دام واستمر وتواتر ... اننا نعلم أن السلوك البشرى اختيارى . ولو أن هذا السلوك كان نتيجة الصدفة لكان من الممكن أن يقف كون الإنسان مخلوقاً أدبياً فى وقت من الأوقات ، لكن دوام السلوك الأدبى يشير إلى دوام الناموس الأدبى . وهذا يخرج الأمر من كونه صدفة لكى يجعله فى محيط العناية الهادفة الحكيمة العظيمة ..

نعم حتى فى العلم لا مكان للصدفة ...

(٣)

فما هو التفسير الصحيح إذا لما ينسب للصدفة ؟ عكس الصدفة هو القصد والعناية الإلهية ، يقابله المسئولية البشرية التى تردد صدى أعمال عناية الله . وهذا نراه فى كل ميادين الحياة .

(١) دعنا نراه أولا فى ما ينسب للصدفة من أمور **الطبيعة** ، وبصفة خاصة الأحداث الطبيعية البارزة . إن ما نراه هو المظهر الطبيعى ولو أردنا تحليله ، لما كان أمامنا غير طريقين والبعض يختار

أن ينسب التغيرات والأحداث الطبيعية للصدفة . أما الطريق الآخر فهو عناية الله ... ولكى ندرس ما أعلن لنا فى الرأى الثانى دعنا نتأمل أحداثا من الكتاب المقدس .

خذ مثلا هلاك مدن الدائرة ، سدوم وعمورة ودائرتهما ... يقول الكتاب « فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء ، وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض ... وبكر ابراهيم . ونظر وإذا دخان الأرض يصعد كدخان الأتون . وحدث لما أخرب الله مدن الدائرة أن الله ذكر ابراهيم وأرسل لوطاً من وسط الانقلاب » . (تك ١٩ : ٢٤ — ٢٥ و ٢٧ — ٢٩) .

ما هى النار والكبريت ؟ وما هو الانقلاب ؟ وما هو دخان الأتون ؟ قال البعض هذا بركان أفنى تلك الدائرة . ولكن حين نقب فى حفريات تلك الدائرة لم توجد فيها بقايا بركانية وقال آخر لقد أهاج عليها ينبوعا من النفط المشتعل فدمرها ، ثم اندكت بشق أرضى صيرها أخدوداً . وأقول من الجائز . ثم نشأ رأى ثالث قال به بعض السوفيت حين ظهرت بعض الأطباق الطائرة منذ ١٠ سنوات نزل منها بعض الأقزام ، ثم استقلوها ثانية حين اقترب منهم . أحد الأشخاص قال السوفيت : إن هؤلاء من أهالى المريخ ولقد سبق لهم أن غزوا الأرض بغزو متفجر سبب انقلاب مدن الدائرة . ومن الجائز أن تكون فيما بعد آراء لا حصر لها .. لكن هذه كلها تصف المظهر فقط ماذا وراء تلك الأحداث ؟ وما الغرض منها ؟ ثم افرض أنها حدث طبيعى أو أنها حرب بشرية ، فما معنى أن يرتب لها الله ، ويتحدث عنها مع ابراهيم حديثاً مستفيضاً . ثم يخرج لوطاً قبل ذلك بقليل ويتعجلانه ، ثم لا يحدث شىء من الخراب مع تلك الدائرة إلا بعد أن يدخل لوط صوغر ؟ ولماذا تفتدى صوغر ذاتها ، مع أنها من تلك الدائرة ، وعرضة لكل ما يحل بالمدن التى حلت بها تلك الكارثة . كل هذا يخبر عن قصد « أهاج » الطبيعة « وخلص » غير المقصود بالهلاك . وحين يوجد القصد لا توجد الصدفة ... أما القصد فهو عناية الرب الذى قضى بذلك القضاء على شر الإنسان المسئول عن شره ...

أو خذ مثلاً آخر ما حدث عند حرب يشوع ضد الأموريين (يش ١٠ : ٨ — ١٤) . فنجد فيها حدثين طبيعيين الأول منهما : إهلاك حجارة البرد للأموريين ، والثانى وقوف الشمس فى كبد السماء .

ويبدو الأول مجرد أمر طبيعى لا يستحق التعليق عليه ، وأنه مجرد صدفة ، وحظ حسن ليشوع وأتباعه ، وحظ عاثر على الأموريين . لكن هذا ليس صحيحاً . وإلا فلماذا أصابت الحجارة جيش الأموريين دون جيش يشوع ؟ ثم لاحظ خط سيرهم من جبعون هاربين أمام يشوع إلى عقبة بيت حورون ، الى عزيقه والى مقيده . وقد سار يشوع وراء هؤلاء الملوك الخمسة ، وطريقه هو طريقهم ، لكن العجيب أن الحجارة تلاحق الأموريين حيث ساروا ، وحين يسير يشوع فى نفس الطريق تقف الحجارة منه !! نعم فى هذا قصد وليس مجرد الصدفة . والقصد أن الله قد قضى بهلاكهم ونصرة يشوع .

على أن وقوف الشمس والقمر يقتضى وقوف دوران الأرض الأمر الذى يستحق التأمل فيه

بعض التأملات . قال البعض بأن هذا لم يحدث وشكوا فى كلام الكتاب المقدس بالرغم من شهادة كتاب عالمى وهو سفر ياشر (ع ١٣) وآخرون قالوا بأن الكلمة العبرية لا تعنى أن تقف الشمس بل أن تصمت أى لا تحرقهم بحرارتها . فأرسل الرب لهم البرد يخفف من حرها عنهم ويسقط على أعدائهم(١) . إن صح هذا القول كان شهادة عظيمة للعناية الإلهية وليست الصدفة . إن وجود غرض يمنع احتمال الصدفة . فكم بالحرى أن ضرب عصفرين بحجر واحد ، ولاشك أن هذا يزيل من أمامنا فكرة الصدفة أكثر . على أن رأيا آخر يرى أن الآية جاءت استجابة لطلبة يشوع وأنها تفيد حدوث ما طلب « فوقفت الشمس فى كبد السماء ولم تتعجل للغروب » (ع ١٣) . وهذا أمر واضح لا يحتاج إلى العناء الذى بذله الراغبون فى تخفيف المعجزة لأجل العقل العصرى . أما أننا نؤمن بالمعجزات ، فهذا صحيح لأننا نؤمن باله العناية المتدخل فى الطبيعة ... نعم لقد وقفت الأرض عن دورانها حول محورها ذلك اليوم لكن ذلك يعنى أن الشمس الحامية فوق رؤوس يشوع وأتباعه ولم يعر ذلك التفاتاً من فرحة النصرة لكن الرب أعاره وأرسل العاصفة الثلجية التى عملت العمل المزدوج . إن الله فى عنايته يوقف فلك الأرض ، ويطفىء نار الشمس من أجل أحبائه نعم الرب وليس الصدفة . ويستجيب إله العناية للطالبين .

خذ مثلا ثالثاً عن الطبيعة ينسبونه للصدفة وهو صادر عن عناية الله ببشر مسئولين . ذلك الأمر الواضح فى نشيد دبورة « الكواكب من حبكها حاربت سيسرا نهر قيشون جرفهم » (قض ٥ : ٢٠ : ٢١) . قال البعض إن هذا هو انعكاس العبادة الوثنية للكواكب والنجوم وتأليهها مثل عطارد والزهرة والمريخ .. الخ واعتبارها آلهة .. ولم تكن دبورة وثنية لكنها تتكلم بالشعر وقد يأتى أى شىء فى الشعر . فتأثرت شاعريتها بعقائد ذلك العصر .. وطبعا لا نقبل هذا القول على من فى ابتداء كلامها بالنشيد قد ترنمت كثيرا بمجد الرب (٥ : ١ ــ ٥) . وقيل إن المقصود أن وابلا من النيازك قد سقط على سيسرا وجنوده فافنوهم ولا يبعد أن الرب فعل هذا . لكن الأرجح هو الرأى القائل : إن عاصفة هوجاء قد قامت ضدهم فى وقت كان فيه قيشون جافاً اسقطت وابلا من المطر الجارف على منابع قيشون .. فبعد ما أزعجتهم العاصفة فى البدء وبددتهم هربوا فى طريق النهر الجاف فجرفهم تياره المفاجىء .. هذه ظاهرة طبيعية قد نقول إنها عادية وقد ينسبها البعض للصدفة والحظ العاثر على سيسرا .. لكن من الواضح جداً أنها يد الرب . وإلا فلماذا لم يتأثر بها باراق وجيشه على قدم المساواة مع أولئك ؟ إن الريح العاصفة تحت أمر الرب (مز ١٠٧ : ٢٥) وتحت مشيئته كل المظاهر الجوية « فى السموات وفى الأرض وفى كل اللجج » . الرب هو « المصعد السحاب من أقاصى الأرض الصانع بروقاً للمطر المخرج الريح من خزائنه » (مز ١٣٥ : ٦ و ٧) .

ومع أن ناموس الطبيعة ثابت جداً وفق ما خلقه الله عليه لكن إلهنا يتدخل فى ذلك الناموس تدخلا ملحوظاً . مثلا توجد بعض الظواهر المفاجئة وبعض الانقلابات الجوية أو الفلكية الشاذة يعزوها بعض الفلكيين للصدفة ، لكن الأمر الذى لا يجوز أن يغرب عن بال الطبيعيين هو أنه لو

A Plummer « The Pulpit Com » . Josh E . W . mwnder ISBBP - 9
P . 446 - 9 .

تركت الطبيعة للصدفة (لا شيء) لسارت على ناموسها الرتيب . إن شيئاً (أو فى الحقيقة شخصاً) يتدخل فيها لكى يحدث لأغراضه كل ما يخرج عن القانون الرتيب . وهذا الشخص هو الله المعتنى .

٢ — وينسب كثير من العلماء **الاكتشافات** إلى الصدفة . يقولون قد اكتشف جالفانى أستاذ التشريح فى جامعة بولونا الكهرباء صدفة وهو يصنع عشاء من الضفادع لزوجته المتوعكة المزاج ، ويقولون قد اكتشف رونتجن أشعة إكس صدفة وهو يدرس البقعة المظلمة فى أنابيب كروكس . ويقولون إكتشف فلمنج البنسلين صدفة وهو يعد فصلا فى كتاب طبى عن الميكروبات العنقودية ، وقد كان كل اهتمامه منصباً على زرع الميكروب لدرجة أنه فكر فى البدء أن رجاءه خاب حين قتل الميكروب الذى كان شديد الاهتمام به حتى دهش لاكتشاف قاتل الميكروب العنقودى .. ولكن اسمع كلمات أحد هؤلاء معقباً على اكتشافه إذ يقول فلمنج « إن العناية الإلهية قد وضعت بين يدى بلسماً ساحراً يقضى على الميكروبات » .

هيا إلى الكتاب المقدس لنرى ما يقوله عن الاكتشافات . وفى الحقيقة لا يجب أن نتوقع الكثير من أقوال الكتاب عن الاكتشافات حيث أن أدوات الكشف والطريقة العلمية لم تعرف إلا أخيرا لكن فى الكتاب المقدس ما يشير ويظهر تدخل الله فى كشف المجهولات .

لقد اعطى سليمان الحكمة العجيبة من الله لكشف ما اكتشفه « عن الأشجار من الأرز الذى فى لبنان وإلى الزوفا الثابت فى الحائط » و « عن البهائم وعن الطير وعن الدبيب وعن السمك » (١ مل ٤ : ٢٣ و ٢٤) ومع استخدام الكتاب لكلمة « صادف » يعقوب مكاناً لكن ذلك المكان كان مرتباً له من الله حيث يستعلن له نفسه . كانت مقابلة شاول لصموئيل مرتبة من الله وليست مجرد صدفة وحادث عرضى عرض لباحث عن اتنه (قارن ١ صم ٩ : ٥ و ٦ و ٩ و ١٠ مع ع ١٥ — ١٧) . ولذا اكتشاف الملك لم يكن صدفة بل بعناية إلهية . وقد كشف سر حلم نبوخذ نصر لدانيال ليس بفطنة دانيال بل بعناية إلهية (٢ : ١٩) . ولهذا الإله الكاشف الأسرار قد شهد دانيال (ع ٢٨ و ٢٩) بل نفس نبوخذ نصر اقتنع بذلك (ع ٤٧) وهذا الإله دائما يقدم اكتشاف ما لا يعرفه الإنسان « ادعنى فأجيبك وأخبرك بعظائم وعوائص لم تعرفها » (ار ٣٣ : ٣) . إن الرب حين تسر عنايته « يكشف العمائق من الظلام ويخرج ظل الموت إلى النور » (أى ١٢ : ٢٢) .

بالنسبة لنا حتى عش الطائر لا نجده بمهارتنا فنقول « اتفق قدامك عش طائر فى الطريق فى شجرة ما أو على الأرض » (تث ٢٢ : ٦) لكن وجود ذلك العش ومفاجأتنا به مرتبان من الرب ليختبر شعبه أيحفظ الوصية ويعطف على تلك الطيور أم لا . (ع ٧) . ودائما الاكتشاف مذهل لنا لأنه ليس فى حسباننا إذ يأتى ، عرضا ، لكن إلهنا المعتنى يعرض ما نحتاج إليه أكثر ، وينير أبصارنا فتأتى هذه الاكتشافات بنفس الطريقة المفاجئة التى يأتى بها الوحى والإعلان . وكل ما يحتاج إليه الإعلان منا إلى العين المفتوحة لكى ينظر ما يرينا إياه الله . لأنه كم من أناس رأوا العفن قبل فلمنج و لم يكتشفوا فيه البنسلين .

٣ — وهنالك أمر ثالث ينسب للصدفة وهو **الاختراع** . لكن الصدفة ليست مكانه الحقيقى ،

ويعتمد الاختراع على ملكة الابتكار ، ومن الممكن أن ينسب إلى المهارة الإنسانية ؛ كما نسب ملك صور المهارة إلى حكمه عند الرجل الذى أرسله إلى سليمان الملك « والآن أرسلت رجلاً حكيماً صاحب معرفة وفهم ... ماهر فى صناعة الذهب والفضة والنحاس والحديد والحجارة والخشب والأرجوان والاسمانجونى والكتان والقرمز ونقش كل نوع من النقش ، واختراع كل اختراع يلقى عليه من حكمائك وحكماء سيدى داود أبيك » (٢ أى ٢ : ١٣ و ١٤) . إلا أن من ينسب الاختراع إلى الصدفة فذلك لأن تطبيق الناموس للاستفادة منه عملياً لا يؤتى كل شخص فى كل وقت . يحتاج الأمر إلى معرفة المبدأ الذى يبنى عليه الاختراع ، وهذا قد يأتى عرضاً (الاكتشاف) ثم الطريقة العملية لتطبيقه وهذه تأتى عرضا ومفاجأة .. مثال ذلك اختراع سماعة الطبيب التى بها يفحص دقات القلب وغير ذلك . ينسب اختراعه إلى فكرة خاطئة أتت إلى دكتور لينيك من لعب أطفال بقطعة خشب يضعها طفل على أذنه وآخر يخدش طرفها الثانى بمسمار . ثم شاركهم اللعبة التى أدت إلى اختراع السماعة . أقول قد تنسب ذلك للصدفة وكذا أى اختراع آخر ، ولكن ذلك الطبيب يعتبر « أن العناية الإلهية قد هدته إلى طريقة جديدة للفحص » .

وبالرغم من وجود الفطنة الإنسانية والمران والخبرة ، لكن كل اختراع مبعثة عناية الله هذا ما يذكره الكتاب عن بصلئيل بن أورى بن حور ، فيقول الرب « وملأته من روح الله بالحكمة والفهم والمعرفة وكل صنعة ، لاختراع مخترعات ، ليعمل فى الذهب والفضة والنحاس ، ونقش حجارة للترصيع ، ونجارة الخشب ليعمل فى كل صنعة » (خر ٣١ : ١ــ ٥) . وليس بعيداً أن يكون بصلئيل ذا خبرة من أرض مصر ، ومواهب طبيعية فى أمور فنية بسيطة ، على أن العمل الذى اختاره الله له كان يحتاج إلى حكمة خاصة لكى يعمل كل شيء حسب المثال الذى يشرحه له موسى ؛ ويحتاج إلى دعوة خاصة تحميه من منافسات كل من يحاول أن يقحم نفسه مدعياً أنه يستطيع أن يعمل عمله ، ويجب أن يحل مكانه .

إن الاختراعات علمية كانت أو فنية من روح الله ، ويستخدمها لأجل مجده . إن للرب فيها قصداً ولذا قدمها للذين اخترعوها . على أن الإنسان أحيانا ميال إلى الإساءة إلى المخترعات : « هذا وجدت فقط أن الله صنع الإنسان مستقيماً . أما هم فطلبوا اختراعات كثيرة » (جا ٧ : ٢٩) . والكلمة هنا تشير إلى الأفكار ، وهى اشتقاق آخر عن الكلمة الواردة عن بصلئيل التى تفيد الجهاز فى حد ذاته ، وهو أمر مفيد مقدس فى بيت الرب . وهذا يرينا كيف أن الجهاز أو الاختراع فى حد ذاته قد يستخدم لفكرة صالحة أو لفكرة شريرة ، وهذا يشير إلى مسئولية الإنسان . إن من عناية الله أن يرشد الإنسان إلى اختراع المستقيم ، أما الإنسان الشرير فيحول ذلك الإرشاد إلى اختراع الشرور ...

٤ ــ ثم أمر آخر ينسبونه للصدفة هو **حل المشاكل** . إن حل المشاكل بالأمر العسير فى معظم الأحيان ، ولكن فى بعض الأحيان يقول المتخلص من المشكلة « لقد حلت بأهون سبب » أو « أتى الحل من حيث لا أدرى .. » أو « من غريب الصدف أن وجد لهذه المشكلة حل ... » . وهذا هو حال الكثيرين فعندهم أن المشاكل إما أن تحل بالمهارة الإنسانية وإما أن تحل بالصدفة ..

وليس الأمر كذلك . مثلا كان يمكن أن تنسب نجاة بولس الرسول من الموت فى الهيكل حين أمسكه اليهود (أع ٢١ : ٣٠ — ٣٢) إلى صدفة أدخلت الأمير (ع ٣٥) وكان يمكن أن تنسب نجاته من الموت فى الطريق بالكمين (أع ٢٣ : ١٢ — ١٧) إلى صدفة معرفة ابن أخته بالكمين (ع ١٦) على أن بولس ينسب ذلك إلى « معونة من الله » ابقته إلى يوم وقف أمام أغريباس (٢٦ : ٢١ و ٢٢) . نعم إن عناية الله استخدمت الناس ، لكنهم ليسوا علة النجاة ، والناس أتوا يمثلون معونة الله لا الصدفة .

وما أكثر ما تنسب عثور راع على خروفه الضال بالصدفة (مت ١٨ : ١٣) على أن مقابله : عثور الله على الخطاة مبنى على مشيئة الله ... نعم على الراعى أن يجدّ فى البحث ، لكن عثوره على الضال بتدبير العناية الإلهية ، وليس بخبط الصدف العشواء .

ولا يمكن أن تفسر نصيب راعوث الذى « اتفق » أن أوصلها إلى قطعة فى حقل بوعز إلى الصدفة لأن هذا مرتب من عند الرب . فقد جاءت « لكى تحتمى تحت جناحيه » وكان نصيبها مكافأة لها (را ٢١ : ٣ و ١٢) وهكذا لقاطها الذى التقطته لإشباع جوعها بحسب قول حماتها (٢ : ١٧ و ١٨) كان مرتباً من الرب (ع ٢٠) وكذلك زواجها من بوعز كان مرتبا من الرب (٤ : ١٤) . وهكذا رتب الله حل مشاكلها جميعاً . قوتها ، ومستقبلها ... على أنها استجابت للعامل الخفى الذى يوجهها فى ضميرها أن تلتقط (را ٢ : ٢) وكذا استجابت للعامل الخفى الذى يوجهها فى حماتها لطلب حق الولى ...

وهكذا كل المشاكل لو أن أفهام البشر هى القوة التى تحلها لما حلت مشكلة ، لذا قال الحكيم « على فهمك لا تعتمد . فى كل طرقك أعرفه وهو يقوم سبلك » (ام ٣ : ٥ و ٦) . لكن على ذلك الإنسان الذى يوجهه الله ويدبر له أموره أن يكون طيعا فى يد الرب . وعمل العناية خفى وقد يسلك طرقاً غاية فى البساطة والطبيعية من أجل ذلك علينا أن لا نتأخر عن طاعة كل إرشاد سماوى بتسليم كامل للرب .

إننا مسئولون عن المشاكل التى لم تحل ، ذلك لأنه إما أننا لم نستشر الله ولم نعرفه فى طرقنا ، أو لأننا نقاوم مشيئته وطرقه التى تعمل فينا وبنا . أما المشاكل التى حلت فالقوة التى حلتها هى نعمة الله وعنايته لأناس قد طلبوا وجه الرب ودعوه فى وقت الضيق فأنقذهم ويستحق كل مجد (مز ٥٠ : ١٥) .

٥ — ثم ينسبون للصدفة **المقابلات الطارئة**: وربما كان هذا أشهر ما ينسب للصدفة وأكثره وهناك المثل القائل رب صدفة خير من ميعاد ، والمقصود به صدفة المقابلة . ومعظم الآيات التى وردت فيها كلمة « صادف » ومشتقاتها تفيد مقابلات طارئة غير مرتب لها من البشر ؛ وكثيراً ما تكون لهذه المقابلات آثار عظيمة سيئة أو طيبة ، على أن من يدقق فى أمر هذه المقابلات « المصادفة » أو « العارضة » بحسب وجهة نظر البشر يجدها مرتبة ترتيباً دقيقاً حكيما من إله العناية العجيب الحكمة .

قلت إن هذه المقابلات أشهر وأوسع ما ينسب للصدفة لذا لا أستطيع أن أورد إلا أمثلة منها .

وحتى القليل الذى سأورده يكفى لإثبات ترتيبها من الله . وقد تعمدت ذكر الأمثلة التى فيها كلمة صادف وأمثالها لأبين أن هذه الكلمة هى من وجهة نظر البشر بالنسبة لعدم إعدادهم للأمر ، لكن الله هو المعتنى الذى أعد له .

قد ذكرت فيما مضى تعليم صموئيل لشاول عما يحدث له وقد ذكر ثلاثة مقابلات وصفها بكلمة « تَصَادَفَ » « يصادفك » « تُصَادِفُ » (١ صم ١٠ : ٢ و ٣ و ٥) . على أن تلك المقابلات كان منبأ عنها ومرتبة من الله ولها غرضان الأول . طمأنينة قلب شاول من جهة الأتن التى يبحث عنها ، والثانى تقديم الأدلة الكافية لإقناعه وإعطائه الثقة بنفسه أن يختار للملك .

وقيل عن يهورام ملك اسرائيل وأخزيا ملك يهوذا « صادفاه (صادفا ياهو) عند حقل نابوت اليزرعيلى » (٢ مل ٩ : ٢١) على أن هذه المقابلة كانت مرتبة ترتيباً كاملا وقد أنبأ بها الرب على فم إيليا النبى أولا بالقضاء على بيت آخاب — ملك اسرائيل — لشرهم ووثنيتهم (١ مل ٢١ : ٢١ — ٢٤) بيد « ياهو بن نمشى » (١ مل ١٩ : ١٦ و ١٧ ، ٢ مل ١٠ : ١٧) . وفى نفس الوقت الذى فيه تنسب هذه المقابلة إلى ترتيب قضاء الله مع بيت آخاب قد نفذت بيد ياهو الذى يعتبر نفسه مسئولا عن ذلك « وفى الصباح خرج ووقف وقال لجميع الشعب أنتم أبرياء هاأنذا قد عصيت على سيدى وقتلته » (٢ مل ١٠ : ٩) .

ثم مقابلة إيليا لآخاب قال آخاب « هل وجدتنى ياعدوى ؟ » (١ مل ٢١ : ٢٠) لقد أتت فجأة على آخاب ولو وصفها لقال « صادفنى إيليا » . على أن هذا كان مرتباً بترتيب الاله الذى أمر إيليا قائلا « قم اذهب للقاء آخاب . هوذا هو فى كرم نابوت » (١ مل ٢١ : ١٨) .

ويقول يعقوب لعبده الأول « إذا صادفك عيسو أخي ... » (تك ٣٢ : ١٧) . ومن هذا يظهر توقع المقابلة وقد تحدث أولاً فإن حدثت أتت بطريق عرضى وفى مكان غير متوقع . على أن هذه المقابلة معد لها من الله إعداداً كاملا . فقد أعد لها يعقوب ، وأعد لها عيسو . لقد صلى يعقوب مطالباً الله بالوعد (ع ٩ — ١٢) واستجاب له الله وظهر له وباركه ، وضمن له السلامة (ع ٢٤ — الخ) وحول غيظ عيسو الخارج إلى أخيه بأربع مئة رجل مستعدين للحرب (٣٤ : ٦ ، ٣٣ : ١) إلى أخوّة وحنان (٣٣ : ٤) . وفى وصف يعقوب ذاته « لأنى رأيت وجهك كما يرى وجه الله فرضيت على » (٣٣ : ١٠) لم يكن بالصدفة ولن يكون أن يتغير العدو إلى حبيب !! إن هذه هى عناية الرب استجاب لها كل منهما .

وتوجد كثير من المقابلات فى الكتاب المقدس ينطبق عليها هذا الأمر لكن مما لا يدع مجالا للشك فى أنها مرتبة . مقابلتان إحداهما فى العهد القديم والأخرى فى العهد الجديد لا يمكن تركهما .

قال موسى وهرون لفرعون « إله العبرانيين قد التقانا » (خر ٥ : ٣) وفى ظاهر القول كأنه « فاجأنا بالملاقاة » على أن الله الإله الذى يرتب أموره .. وإن كانت المقابلة مفاجأة لموسى حين رأى المنظر فجأة لدرجة أنه قال « أميل .. لأنظر » (خر ٣ : ١ — ٥) ، لكن ليس مفاجئا للرب الذى دبر هذه المقابلة .

وكذا مقابلة الهية مفاجئة قد حدثت للنساء فى يوم القيامة : « فخرجتا سريعاً من القبر بخوف وفرح عظيم راكضتين لتخبرا تلاميذه . وفيما هما منطلقتان لتخبرا تلاميذه إذا يسوع لاقاهما وقال سلام لكما » (مت ٢٨ : ٨ و ٩) . فكلمات « وفيما .. إذا يسوع لاقاهما .. » تظهر عرض المقابلة بالنسبة للمرأتين . لكن يسوع كان قد رتب هذه المقابلة ترتيبا خاصاً لكى يحملهما برسالة خاصة .

بحسب رأينا البشرى يسير اثنان معا بعد أن يتواعدا (عا ٣ : ٣) لكى تعتبر الأمر مرتباً . وما عدا ذلك صدفة ، لكن الكتاب يقول إن ما لم يرتبه البشر قد رتبه الله بعناية فائقة الحكمة ، تستدعى استجابة البشر كمسئولين .

٦ — وينسب كذلك للصدفة **الحوادث** « العرضية » المفاجئة « قد ذكرت إن بعضاً يفضلون أن ينسبوا الحوادث الأليمة للصدفة لا إلى الله » وفى « الجامعة » يكاد يطلق كلمة العرض على الموت باعتباره حادثاً مفاجئاً (جا ٩ : ١١ و ١٢) على أنه معروف أن الموت أمر مدبر من الله . وقد سبق الدليل على أن السماح بالشر لايهين الله . بقى أن نأخذ بعض الحوادث التى ترد بها كلمات الصدفة لنرى تعليم الكتاب عنها .

يقول الحكيم « احفظ الرأى والتدبير .. حينئذ .. لا تخشى من خوف باغت ولا من خراب الأشرار إذا جاء » (أم ٣ : ٢١ و ٢٣ ، ٢٥) . والكتاب يفسر هذا قائلا « فالآن اسمعى هذا أيتها المتنعمة الجالسة بالطمأنينة ، القائلة فى قلبها أنا وليس غيرى ، لا أقعد أرملة ولا أعرف الثكل ، فيأتى عليك هذان الاثنان بغتة فى يوم واحد الثكل والترمل بالتمام قد أتيا عليك ، مع كثرة سحورك ، مع وفور رقاك جداً . وأنت اطمأننت فى شرك . قلت ليس من يرانى . حكمتك ومعرفتك هما أفتناك ، فقلت فى قلبك أنا وليس غيرى . فيأتى عليك شر لا تعرفين فجره ، وتقع عليك مصيبة لا تقدرين أن تصديها ، وتأتى عليك بغتة تهلكة لا تعرفين بها » (إش ٤٧ : ٨ — ١١) أو كما يقول الرسول « لأنه حينما يقولون سلام وأمان حينئذ يفاجئهم هلاك بغتة كالمخاض للحبلى فلا ينجون » (١ تس ٥ : ٣) . ومن هذا القبيل مجىء المسيح الثانى « فاحترزوا لأنفسكم لئلا تثقل قلوبكم فى خمار وسكر وهموم الحياة ؛ فيصادفكم ذلك اليوم بغتة » (لو ٢١ : ٣٤) .

وواضح أن عقاب الشرير المفاجىء مقصود مرتب من قبل الرب . لكن مفاجأته تأتى من عناد الشرير الذى لا يريد أن يسهر أو يتوب ، لذا فى وقت فيه يقول الشرير إن كل شىء حولى بخير ، يأتيه الشر الباغت . لكن كون هذا الشر ليس فى حسبان الشرير لا يعنى أنه غير مرتب . تماماً كما لا يعنى أن الصياد قد رتب أن يصيد نعامة قد دفنت رأسها فى الرمل .

هذه قلتها كأمثلة لما ينسبونه للصدفة ، وقد رأينا أن مكانها الحقيقى هو تدبير إله العناية العظيم الحكمة ، مسئول عنها البشر الذين لم يتيقظوا ، أو استحقوا جزاء الشر ، أو جزاء الخير .. البشر الذين طلبوا الله ، البشر الذين قد سلموا أنفسهم وأفكارهم لخدمة الله والناس .. كل ما ينسب للصدفة قد رتبه الله لكى تعمل كل الأشياء معاً للخير للذين يحبون الله الذين هم مدعوون حسب قصده » (رو ٨ : ٢٨) .

(٤)

من أجل ذلك أرجوك أن لا تخاف لأن لنا إلهاً حكيما قوياً يعولنا ويحمينا . أرجوك أن لا تنزعج لأن لنا إلهاً يهتم بنا ويقودنا ويرتب كل شيء لخيرنا . فى عالمه لا توجد صدفة بل هو المسيطر على كل شيء ولا يصيبنا أى شيء إلا بسماحه حتى سقوط شعرة الرأس (مت ١٠ : ٣ ، لو ٢١ : ١٧) . وعندما نسكن فى ستر العلى فهناك الأمان وهناك لا ضرر ... (مز ٩١) . إن عالماً تتقاذفه الصدف بلا ضابط بلا تدبير عالم مخيف حقاً ، لأننى لا أعلم ماذا قد يأتى على ، ولكن عالماً فى يد إله طيب صالح حكيم يجعلنى أعطيه مجداً فى قلبى ، وأتكل عليه لأننى حينئذ لا أخاف ، ولا أفشل ، ولا أنزعج .

لكن إلهى الحكيم هذا يقول لى أن لا أتواكل بل أسهر ، وأعمل ، وأسير فى طريق الصلاح .. إن الهنا يأمرنا أن نسهر ونذكر ، وأن نحفظ ، وأن نتوب ، وإلا فيأتينا كلص (صدفة ، إن جاز التعبير) فجأة بدون ترتيبنا ، لأنه قصد أن يفاجىء النائمين بترتيبه غير المعروف لنا (رؤ ٣ : ٢ و ٣) .

إن إلهنا لم يطلعنا على ترتيبات عنايته ، لذا وجب علينا السهر والعمل ، لكى يحل كل خير للساهرين من إله عجيب العناية بكل من يحتمون به .

تحديد عمر الإنسان

« إن كانت إيامه محدودة وعدد أشهره عندك وقد عينت أجله فلا يتجاوزه » (أى ١٤ : ٥)

« رجال الدماء والغش لا ينصفون أيامهم » (مز ٥٥ : ٢٣)

هل عمر الإنسان محدود ؟ إن نعم فما الذى يحدده هل قضاء إلهى يعين نهاية كل حى فى وقت بالذات ؟ أم أن الإنسان مسئول عن نهاية حياته بتصرفاته وما يعمله بنفسه ؟ وفى هذه الحالة كيف يقول الكتاب « رجال الدماء والغش لا ينصفون أيامهم » فهل يوجد إنسان لا يصل إلى نهاية العمر المحدد له ، إن كان هناك تحديد أم لا يوجد تحديد بالمرة ؟!

توجد أحوال فيها نلوم البشر على ما يفعلونه بحياتهم وعلى سبيل المثال فقط أقول كل حوادث الانتحار ... وتوجد أحوال فيها نرى العجب المثير : فهناك المهملون شر الإهمال الذين يعرضون حياتهم كل يوم للخطر ولكنهم لا يموتون ، وهناك أيضا الذين يحرصون كل الحرص على حياتهم ونجدهم يذهبون فى غمضة عين .

ما تفسير هذا ؟ ماذا يقول الكتاب بشأن عمر الإنسان ؟

ونحن عادة لا نسأل هذا السؤال بالنسبة لموت إنسان طبيعى تقدم به السن . لا يخطر ببالنا شىء من التساؤل مع أن هذا أيضاً يدخل ضمن تحديد عمره وحياته إلى هذا الوقت .. إننا عادة نسأل السؤال عندما نقابل ما نسميه حالة « شاذة » وبصورة خاصة حالات موت إنسان « فى مقتبل العمر » أو كما يقول بعض أشخاص الكتاب « فى نصف » الأيام ... هل تحدد عمرهم هذه اللحظة ، وكانت هذه هى نهايتهم أو « اقتنصوا » فى نصف أيامهم ؟[1] وفى كلتا الحالتين هل هذا قضاء الله أم مسئولياتهم ؟ وواضح أنه فى حالة تحديد عمر الإنسان ينسب هذا إلى الله وأن تركه ترك الأمور للإنسان .

(١)

ودعنا الآن نفحص بعض الأحوال التى تثير هذا التساول :

ولنبدأ بأحوال **الموت الطبيعى بعد مرض طال أو قصر** .. إن قصر مرض إنسان قال الناس « اختطف هذا اختطافا ! » وإذا طال قالوا « متى تأخذه وتريحنا وتريحه يارب ! » وفى كلتا الحالتين واضح من تعبير الناس أنهم ينظرون إلى العناية التى حددت العمر سواء بخطف أو بإمهال ..

---

(١) إش ٣٨ : ١٠ ، مز ١٠٢ : ٢٤ ، مز ٥٥ : ٢٣ .

لكن فى وقت المرض تأتى بعض النصائح إذهبوا به إلى الطبيب وكذا نجد مختلف الآراء فمن جهة يوجد من يقول : « المرض من يد الرب والشفاء من يده إذا شاء شفى ، ونحن تحت يديه . إنه عين أجلا للإنسان لا يتعداه بالدواء ، ولا ينقصه عدم الذهاب إلى الطبيب ... » . ومن جهة أخرى يوجد من يقول لا دخل فى هذا الأمر لعناية إلهية ، إن الله وضع علينا المسئولية لذا قد برأ نفسه منها ، وقد خلق الطب فلا تهمل ، أنت تقتل المريض بالإهمال ولا يجوز أن تأتى بالذنب على الله ، لا تدخل الله فى إهمالك .

وهنا أريد أن أسأل هذا السؤال : من المسئول عن المرض ؟ قد يكون المرض ضربة من الله[١] ، أو امتحانا[٢] . لكن ألا تقتضيه أحوالنا ؟! إن كان ضربة فذلك أستحقاقنا ، وإن كان امتحاناً فذلك احتياجنا ، وقد يكون المرض بعدوى ، فهذه مسئوليتنا إذ لم نعن أنفسنا ... نعم قد تظهر عناية الله ولطفه فى وقاية أولاده فى بعض الأحوال ، ولكن هذا لا يصرح للإنسان بالتعرض للعدوى وامتحان الله ..

ثم سؤال آخر ما مدى تأثير الطب ؟ هل يطيل العمر ؟ هل يشفى المريض ؟... إن الكتاب المقدس يقول واضحا بأن الشفاء من الرب[٣] ، فما وجه التوفيق بين الدواء والله هل الله أم الطبيب ؟

يذكر الكتاب المقدس بوضوح أن الشفاء هبة إلهية .. « أنا الرب شافيك »[٤] ويقصد شفاء الجسد من الأمراض حسبما ورد فى القرينة عن أمراض المصريين فى الكلام السابق . ويعد أيضا « وأزيل المرض من بينكم »[٥] . ذلك لأن هو وحده صاحب السلطان على الحياة والجسد ... « أنا أميت وأحيى ، سحقت وإنى أشفى »[٦] ولقد كان هدفا أمام المسيح أن يشفى الجسد ... هدفاً من أجله جاء إلى العالم « أرسل كلمته فشفاهم »[٧] ومن المبادىء المسيحية الثابتة أن « صلاة الإيمان تشفى المريض »[٨] أما انه يشفى بالصلاة فذلك لأنها هبة من الله ، وأما أن الصلاة يشترط أن تكون صلاة الإيمان فهذا حسب قول الرب يسوع نفسه « آمن فقط فهى تشفى »[٩] ذلك لأن الإيمان هو اليد التى تأخذ من الرب وتعطينا ..

من أجل هذا تسمع المرنم فى الكتاب يقول « الرب يعضده وهو فى فراش الضعف . مهدت مضجعه كله فى مرضه . » ثم يصلى « أنا قلت : يارب ارحمنى إشف نفسى لأنى قد أخطأت

---

(١) لا ١٤ : ٣٤ ، مز ١٠٧ : ٢٧ ، اش ٣ : ١٧ ، خر ٩ : ١٠ ، ١٢ : ٢٩ ، ١ صم ٢٥ : ٣٨ ، ٢ صم ١٢ : ١٥ ، مل ٥ : ٢٧ ، ٢ أى ١٣ : ٢٠ ، ٢١ : ١٤ و ١٥ ، ٢٦ : ٢٩ .

(٢) فى احوال كثيرة جدا فى الكتاب اهمها واشهرها مرض أيوب اى ٢ : ٨ و ٩ ، ١٩ : ٢١

(٣) خر ١٥ : ٢٦ ، ٢٣ : ٢٥ ، تث ٧ : ١٥ ، ٢ أى ١٦ : ١٢ ، مز ١٠٣ : ٣ ، ١٠٧ : ٢٠ ، ٢ مل ٢٠ : ١ — ١١ ، اش ٣٨ : ١ — ٨ ، مز ٢١ : ٤ ، مز ١١٦ : ٣ — ٨

(٤) خر ١٥ : ٢٦ (٥) خر ٢٣ : ٢٥

(٦) تث ٣٢ : ٣٩ (٧) مت ٨ : ١٧ ، مز ١٠٧ : ٢٠

(٨) يع ٥ : ١٥ (٩) لو ٨ : ٥٠

إليك[1] ومرة أخرى يصلى « ارحمنى يارب لأنى ضعيف . اشفنى لأن عظامى قد رجفت . »[2] وبعدما يحصل على هبة الرب يصلى شاكراً .. ودائما يحدث نفسه « الذى يشفى كل أمراضك »[3]

أجل الشفاء هبة إلهية .. وحين يتكلم الكتاب بهذا لا نرى شأنا لآخر غير الرب فى شفاء الناس ! وبذا يكون عمر الإنسان محدوداً بعد المرض أولا بحسب أمر الرب بالشفاء أو عدمه ...

لكن من جهة أخرى يتحدث عن الحاجة إلى طبيب كأمر مسلم به « لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى .. » [4] ويتحدث الكتاب أيضا عن تأثير الدواء : « أليس بلسان فى جلعاد أم ليس هناك طبيب ؟ فلماذا لم تعصب بنت شعبى »[5] بل يهتم إشعياء النبى برغم وعد الرب بالشفاء لحزقيا وبعلامة معجزية — يهتم إشعياء باستعمال الواسطة الدوائية : قرص التين [6] ويهتم يعقوب فى رسالته رغم تنبيره على أن الشفاء من أصل إلهى ، وإستجابة للصلاة بالإيمان يهتم باستعمال الواسطة الطبية المستعملة حينئذ وهى دهن الزيت[7] ويهتم بولس الرسول بنصح تيموثاوس باستخدام التذكرة الطبية التى وصفها له لوقا الطبيب الحبيب من أجل معدته وأسقامه الكثيرة وهى : الإقلال أو الإمتناع عن شرب الماء واستبدال ذلك بخمر قليل (عصير العنب) .[8]

وإذ يذكر الكتاب هذه وغيرها يعلم كأن الشفاء من واسطة الانسان ، كأن الله لا شأن له به !!

كيف نفسر هذا ؟! ثم مرة ينير الكتاب هلى أهمية الطبيب والدواء ومرة يحسب الله ذهاب آسا إلى الأطباء خطية يلومه عليها ؟! لكن لنقرأ الكتاب : « ومرض آسا فى السنة التاسعة والثلاثين من ملكه فى رجليه حتى اشتد مرضه . وفى مرضه أيضا لم يطلب الرب بل الأطباء »[9] نرى هنا إن الخطأ ليس أنه طلب الأطباء ، بل الأطباء بدل الرب .. ولا يقول يعقوب الرسول بأن الشفاء فى الزيت بل الشفاء من الرب استجابة للصلاة ومن يتكل على الدواء بدل الرب يخطىء ..

الرب هو الشافى لكنه أحياناً يسر أن يشفى بواسطة ، والواسطة سواء بسيطة كانت أم معقدة لا يجوز أن تكون متكلنا ، لأن الرب هو الشافى ، لكن لا يجوز أيضاً أن **نتجاهل الواسطة** لأن الرب يسر أن يشفى بها . نعم الرب غير محتاج إليها . لكنه أحياناً يسر بها بل ويصر أن نستخدمها ، وكما أن من يتكل على الطبيب بدل الرب ، وعلى الدواء بدل الرب يخطىء ، كذلك من يخالف أمر الرب — (سواء قبل هذا فى كلمات أم فى مجرد فرص الحياة) — ولا يستخدم الواسطة يخطىء ويكون عقابه عدم الشفاء ...

---

(١) مز ٤١ : ٣ و ٤ (٢) مز ٦ : ٢ (٣) مز ١٠٣ : ٣ (٤) مت ٩ : ١٢

(٥) أر ٨ : ٢٢ (٦) إش ٣٨ : ٤ — ٨ ، ٢١ : ٠ — ٨

(٧) ، (٨) (يع ٥ : ١٤) كان الزيت يستعمل فى التواريخ القديمة كعلاج عن طريق الدهن ومن يطالع تطور الطب يستطيع أن يصل الى معلومات كثيرة عن هذا العلاج . لكن حتى من الكتاب المقدس ذاته نستطيع ان نجد ما يفيد استخدام الزيت كعلاج (إش ١ : ٦) ولقد صار من ضمن عدة المسافر أن يحمل زيتا وخمرا للإسعاف واستخدمها السامرى الصالح لإسعاف من وقع بين اللصوص (لو ١٠ : ٣٤) .

(٩) (اتى ٥ : ٢٣) وصفه بيد لوقا رفيق بولس الذى كان معه فى السجن (كو ٤ : ١٤) وخرج معه ورافقه الى مكدونية من حيث كتب هذه الرسالة . وكان تيموثاوس يعانى استسقاء يؤذيه شرب الماء فنصحه بشرب عصير العنب المروى بدل الماء .

والقاعدة هنا : لنصلِ ، ولنصلِ بإيمان لأن الرب هو معطى الشفاء .. كأن ليس بأيدينا شيء قط .. ولنقم بكل ما نستطيع أن نعمله من وإسطة طبية كأن الله ليس له وسيلة لنجاتنا غير هذه — كل ما يستطيع الطب أن يمنحه لنا لنعتبره منحة الله ، كل ما يستطيع الدواء أن يجريه لنعتبره قوة الله ... وإلا لما كان قد استخدم هذا وذاك لشفائنا ...

وبعض الأمراض لها وقاية . فطالما نحن معرضون لها لنتخذ كل وقاية صحية منها ، من عدم التعرّض للمرض ، ومن مقاومة الحشرات الناقلة ، ومن عزل المريض ، ومن التطعيم بالمصل .. الخ إن الله هو الواقى لنا ، لكنه يستخدم هذه لأجل وقايتنا .

أؤمن بأننى إذا تعرضت عن جهل لمرض معد فى سبيل خدمة الرب ، أو فى سبيل القيام بواجبى — أؤمن بأن الله قادر أن يحفظنى ويقينى ولقد فعل ذلك كثيراً .. بل لقد أذهلنى فعل الرب ...

وأؤمن بأننى إذا شربت شيئا مميتا أو أكلت شيئا مميتا عن جهل أو من كيد حاسد فى خدمة الرب — أؤمن بأن الله قادر أن يحفظنى ويقينى ويحمينى ..

لكننى إذا علمت الأمر ، وعرفت أن هناك مرضاً معدياً ، أو هناك مكيدة مدبرة أو هناك وحشا ساماً ينتظرنى فإننى يجب على أن أتمم وصية الكتاب بعدم تجربة الرب — وعدم التعرض لشيء لا معنى له ، ولا لزوم له ، بل أن اتخذ الحيطة من كل الوجوه لأجل المحافظة على الوديعة التى استودعها الله بين يدى وهى حياتى من أجل خدمته ومجده ، لأن طالما أعلمنى الله بالأمر فلابد أن يقصد عمل الترتيبات ..

عندما يكون أمامنا الهدف ولابد من خوض المخاطر فلنفعل ذلك متكلين على الرب ولكن إذا كان ممكنا أن نصل إلى الهدف وفى نفس الوقت نتجنب المخاطر فلا معنى قط لتكلف شيء كان من الممكن الاستغناء عنه ...[1] إن الرب لا يعمل شيئاً عبثاً ولا يريد أن نفنى حياتنا عبثاً !!

الرب هو الشافى — الرب هو الواقى .. لكن كثيراً ما يقصد الرب شفاءنا ووقايتنا عن طريق وسائط .. وهذه الوسائط يضعها فى أيدينا ويجعلنا مسئولين عنها .. وبالتالى نحن مسئولون عن حياتنا ..

نحن لا نعلم ما قضى به الله ، لكن نعلم أن علينا أن نستخدم الواسطة الطبية أو الاحتياجات اللازمة فلنفعل ذلك فنجد أن الرب يقدم لنا شفاء وحياة ...

(٢)

ثم لنفحص ما يقول الكتاب بشأن عمر الإنسان فى حالة أخرى هى أحوال الموت الفجائى بسبب مرض كامن ، أو حادث طارىء ، أو أمور مجهولة ...

---

(١) قارن مخاطرة بولس فى سبيل الهدف (اع ٢١ : ١٣) وعدم رضاه بخطر المكيدة (٢٠ : ٣ ، ٢٣ : ١٦ — ٢١) او الجلد غير الضروريين (٢٢ : ٢٥) .

١ — بعض الأمراض بطبيعتها كامنة فى أجساد الناس لكنها فجأة تثور ، أو تكون هادئة لكنها فجأة تقضى على الإنسان ... وهى هكذا تهدد بالخطر فى أى وقت قد ترى إنساناً آخر تكون معه ، أو تعمل معه عملا ، أو ترجع معه من سفر ، أو تكون قد تناولت معه طعاماً ، وتندهش أن تسمع خبر إنتقاله الفجائى . وتقول لقد كان معى منذ ساعة !! ويقال لك . لقد كانت عنده ذبحة صدرية أو روماتيزم بالقلب ، أو حدث له انفجار بالمخ ، أو جلطة فى الشريان التاجى ، أو كان من قبل مريضاً بالسكر أو عنده ضغط عال ، أو عنده زلال أو التهاب البروستاتا .. أو وباء الخ ... .

لقد حدث تطور للمرض ، أو قلت مناعة الجسم له ، أو تعرض الإنسان لشىء أثار المرض إلى جهة الخطر .. الخ .

من جهة الاختصاص فى تحديد عمر الإنسان فى هذه الحالة : قضاء الله ، أم مسئولية الإنسان ؟

وفى الحقيقة لم يكن فى وقت الكتاب المقدس تشخيص علمى بالمعنى المفهوم اليوم ولا كانت أسماء هذه الأمراض معروفة حينئذ . وما كان يعتبر وباء حينئذ . لأنه ليس له علاج أضحى اليوم مرضاً عاديا .. وقليلة جداً هى حوادث المرض الفردى الوبيل(١) وفى جميعها يذكر الكتاب أن هذه ضربة من الرب .. وتوجد أوبئة على نطاق واسع شعبى مثل الطاعون(٢) وأوبئة أخرى لا نعرف أسماءها وكلها يذكر أنها ضربة من الرب .

أما كون هذه ضربة فالمقصود أن تكون عقاباً وأن تكون قاضية . فيكون الإنسان مسئولا عن شره الذى وجه نحوه غضب الرب ... وهكذا يتفق الأمر فى أن عمر الإنسان قد حدده قضاء الله بالضرب ، لكن الإنسان فى نفس الوقت مسئول عن ذلك ...

لكن بالنسبة للمرض كمرض . فضلا عن أنه ليس دائماً يفيد الموت الفجائى عقاباً من الله فيسود الغموض هنا ...

لكن نستطيع أن نتقصى بعض الأدلة والأشياء التى تنير لنا السبيل بحيث لا تبعد عن روح الكتاب .

من الجهة الأولى — لا نستطيع أن نحيد عن أن الله سمح بالمرض ، وكذا بتطور المرض سواء من وجهة عقابية (وهذا أكيد كما رأينا) أو من وجهة تأديبية أو لقصد الخير من كل ما يحدث للذين يحبون الله ... (وهذا واضح أيضا) وقد رأينا فيما مضى أن سماح الله قضاء ...

ومن الوجهة الأخرى ينصح المرضى بأنواع الأمراض المهددة ببعض الأمور :

(١) لا تتعرض للغضب ، (٢) غير عملك (٣) أبعد عن ذلك المكان (٤) لا تذهب تلك الرحلة (٥) إغفر لذلك المسىء (٦) تعاطى دواءك باستمرار (٧) سر على « رجيم » طعامى

---

(١) ١ صم ٥ : ٦) ونستطيع ان نشخص هذا الوبأ بالطاعون من ذكر الفئران (١ صم ٦ : ٤)

(٢) (غلا ١٤ : ٣٧ ، ١٦ : ٤٦ — ٥٠ ، ٢٥ : ٩ ، ٣١ : ١٦ ، ٢ صم ٢٤ : ١٥) وغيرها .

خاص ... إلخ ، ويحدث أن يعصى الإنسان أو يعاند وينقلب عليه مرضه !!

وحين ننظر إلى أى منهما منفصلا نخطىء .. نعم ليس لنا ما يصل الخيط المقطوع .. لكن كلاهما صواب إذا وضع إلى جانب الآخر ... ونحن لا نعلم ماذا قضى به الله فلنتم مسئوليتنا ...

٢ ــ وأشهر ما يحدث الموت الفجائى **الحوادث** على اختلاف أنواعها : هناك حوادث الطريق من تصادم للسيارات وسقوط الطائرات واحتراق القطارات وغرق السفن وحتى السفر على الدواب لم يخل من الأحداث . وكم ذهب ضحيته هذه الملايين ..

هناك حوادث العمل من تعرض للاختناق ، والغرق ، والحريق ، وصدمات الكهرباء ، وسقوط الأثقال على العمال ، واستنشاق هواء غير صالح .. الخ ما ضيع الكثيرين من الأنفس العاملة ..

هناك حوادث سقوط المنازل على أسر أو مجتمعات ، هناك حوادث اعتداء من إنسان أو حيوان ، هناك حوادث قتل غير متعمد .. أو حوادث الطبيعة .

بعض هذه الأنواع من الحوادث يخرج القتيل من الدائرة أو يبدو كذلك فهو ليس له يد فى نهاية حياته أو كما يقال لقد ذهب ضحية ذلك الحادث ... وبعض هذه الحوادث لا تتجه بالاتهام إلى إنسان قط . وفى نفس الوقت ليس إلهنا شريراً محباً للشرور !! من المسئول عن هذه الحوادث ؟...

من جهة قد رأينا فى فصل سابق (أنظر فصل السماح بالشر) أن الله قد سمح بوقوع هذه الأشياء .. وغموض أو خروج الدائرة عن اختصاص أحد يدعم هذه الفكرة .. وقد رأينا أيضا أن هذا لا يسىء إلى صلاح الله ..

ومن جهة أخرى نجد أن الإنسان ليس مسلوبا من الحرية والمسئولية ولا يشترط أن يكون القتيل نفسه هو الأداة المحركة لنهاية حياة نفسه ... فيمكن أن تقع المسئولية على آخر . بعض الحوادث سببها إنسان ضيع حياة آخرين . وبعض الحوادث واقعة أكيدا وكان يمكن أن يتوقى الإنسان تعرضه لها ، وبعض الحوادث يكون نفس القتيل مسئولا عن ضياعه فيها .. وبعض الحوادث ينقص فيها دفاع الإنسان عن نفسه .

لست أحاول أن أبحث عن شريك لله يتحمل المسئولية ! لا حاجة لذلك من جهة قضاء الله كمسير أمور الكون بمجد الله ولا يحوجه لذلك ... ومن جهة أخرى ليس الله مسئولا أمام أحد والكل مسئول أمامه ...

إننى أريد أن أقول إن إلهنا لم يخلقنا آلة ضائعة وسط الآلات ... ولقد أوجدنا أحياء وسط معترك الحياة علينا أن نشفق على الناس لكى لا يؤذى أحد بسببنا ، علينا أن نحمى الآخرين من أذى قد يقع ونستطيع دفعه عنهم ، وعلينا أن نحترص لأنفسنا فيما يحدث .. أن لا نكسر ناموساً وضعياً أو طبيعياً لأن الطبيعة لا ترحم من يكسر نواميسها ، ولأن كاسر الناموس الوضعى يسىء إلى الآخرين ..

لنترك قضاء الله لله ، ولنحذر نحن لأنفسنا ضد الحوادث .

٣ ــ ويوجد موت فجائى يشترك فيه المرض والحادث معاً . ذلك أن بعض الأمراض تتسبب فى الحوادث .

فالصمم يعرض الأصم للموت لأن أذنيه لا تسمعان الإنذار .

والعمى يعرض الأعمى للموت لأن عينيه لا تريان الخطر الآتى .

وبذات الطريق فقدان حاسة الشم يعرض للاختناق ، وفقدان حاسة اللمس يعرض صاحبه للحريق أو الصواعق ، وفقدان حاسة الذوق يعرض صاحبه للتسمم .

كذلك يوجد مرض شائع جداً بين الناس يؤدى إلى حوادث كثيرة ، والناس لا يدرون به وهو الهم ، يسير المهموم بلا تفكير لأن همه قد استنفد كل طاقته الفكرية ، وقد يسقط ، أو يصدم ، أو يخطىء أى خطا يضيع حياته .

من حكم على هؤلاء بنهاية الحياة ؟!

ليس هنا مكان بحث سبب العلة الأصلية فالأمر يطول بنا . لنسلم أن الله سمح بها وأن الإنسان مسئول عنها . لكن دعنا نتأمل فى الواقع هنا إنسان ذو عاهة أو مهموم سقط فى حادث قتله كيف تحدد أجله .

وبنفس الطريقة نجد العامل الإلهى واضح جداً .. سماح الله .. لكن مفهوم أن الأعمى له قائد ، والأصم حريص جداً ، وكذا كل من به عاهة يشعر بنقصه ويسعى لإكماله ، إما بشخص رفيق ، أو بشتى الطرق الأخرى ، فكيف وقع هؤلاء ؟ هنا تقع مسئولية عظمى عليهم ، مسئولية الإهمال ، وكذا على أقاربهم الذين أهملوهم أيضاً .

أما المهموم فهذا لم يسلم أموره لله فسلمه الله إلى مصيره . وهكذا فى جميع هذه الأشياء يوجد عنصر قضاء الله ، ويوجد عنصر مسئولية الإنسان ..

وكما سبق الحديث لنترك لله قضاءه ولنتمم مسئولياتنا ، لنترك الإهمال ، ولنتكل على الله ... نجد أننا قد نجونا من حوادث وصار قضاء الله لصيانتنا .

٤ ــ بقيت **الأحوال المجهولة** التى تسبب الموت الفجائى ، وفى الغالب لا تخرج عن كونها إحدى الأنواع الثلاثة الماضية . وبعض الأحوال المجهولة تكشفت فيما بعد وأرجعت سبب الوفاة إلى نوع من الثلاثة الماضية ..

مثلا قصة ذلك الرجل الذى مات فى ظروف غامضة لم تعرف حتى تجول سائح فى المقابر ورأى من الناحية المتهدمة من القبر جمجمة الميت وبها مسمار مدقوق بها ، فاتضح أن سبب الوفاة حادث اعتداء وكان من زوجة القتيل ذاتها لكى تتخلص منه وتتزوج بآخر !

أو وفاة عدة أشخاص فى مكان بمرصد حلوان بالقاهرة فى ظروف غامضة حتى جاء رجل ونظر إلى بقعة الرمال الجميلة . وقال هنا أفعى . وكانت من النوع المدفون . ولقد قتلها بعصا ثم عرف

سبب وفاة أولئك الأشخاص ...

ولا يبعد أن يكون مرض خفى على الأطباء لعدم اكتشافه بعد ، أو خفى لعدم شكوى المريض حتى استفحل الداء .

وفى هذه الحالة ما صدق على الأحوال الماضية يصدق على هذه الحالة الغامضة — قضاء الله ومسئولية الإنسان معاً ...

أما بالنسبة لنا فلنعلم أن آجالنا محدودة بقضاء الله لكن لا نعلم متى أو كيف .. لكن لنعلم أننا مسئولون أن نأخذ كامل الحذر من جهة كل الأمور .. خاصة أولئك الذين تكشفت لهم الأمور الخطيرة التى تتهددهم .. ولنعلم أنه عن طريق هذا الحذر يقينا الله ، أى أن مراعاتنا لمسئوليتنا داخل ضمن قضاء الله بتحديد أعمارنا .

(٣)

ولنفحص ثالثاً عينة أخرى من نهاية حياة البشر — هى أحوال الموت **أثناء غياب العقل** — ففى هذه الحالة ما مصدر تحديد عمر الإنسان ؟

١ — خذ مثلا فى أحوال السكر — قد يتسبب السكير فى موت غيره . هذا ليس المقصود بالبحث هنا . هذا يأتى تحت ما قدم فى فقرة سابقة من هذا الفصل (٢) . اما المقصود بالبحث هنا موت ذات السكير ، هو يتصرف الآن بلا عقل أثناء سكره ..

وقد يموت السكير بسبب ذات الخمر ، وهو المسمى علمياً بالتسمم الكحولى وقد يموت بأذى يلحقه بنفسه وهو لا يدرى تحت سلطان الخمر ، أو قد يموت فى حادث كان يمكن أن يتجنبه لو كان فى يقظة لكنه وهو لا يدرى بنفسه أو ماحوله ، وهو قد فقد قدرته على الحكم بالنسبة للبعيد والقريب بالنسبة للخطأ والصواب . يموت مثلا بصدمة من سيارة ينحرف نحوها فجأة وهو لا يدرى بقربها أو أن يكون هو ذاته سائقاً سيارته وهو مخمور فيصدمها صدمة تحطمه هو مع السيارة . أو يحاول أن يعتدى على أحد . دفاعا عن نفسه ، فتكون النتيجة أحياناً موت السكير .. الخ . ما أكثر تعرض السكير للموت .

زد إلى ذلك الهزء الذى يلحق بالسكير : « ضربونى فلم أتوجع لقد لكأونى ولم أعرف »[1] . ولست أريد أت أفيض فى الهزء بالسكير ، لكن المهم هنا أن ذلك الهزء قد يكون فيه الخطر على السكير .. مثلا ضربة أو لكأة قد تودى بحياته من مصدر تحديد حياة السكير ؟! فى كلمة واحدة السكير ميت منذ سكر ، وانما كل لحظة يعيشها هبة من الله حتى ينفذ فيه قضاء الموت فعلا كسكير . ولكن لنبحث هذا الأمر أيضاً من وجهة أخلاقية .

السكر عادة رديئة ، لا تتملك الإنسان إلا بتكرارها ، والسكير مسئول عن سكره بل مسئول

---

(١) ام ٢٣ : ٣٥

أيضاً مسئولية تدعوه للامتناع عن السكر والإقلاع عنه . هو الجانى على نفسه ، إذ هو المسئول عن السكر بكل ما يترتب عليه وكل ما يحتويه سواء كان يدرى دراية كاملة بعواقبه أم لا .. هنا مسئولية الإنسان ...

لكن من جهة أخرى نرى سماح الله للإنسان الحر الإرادة بالاندفاع نحو هذا الشر .. ونرى حكم الله عليه بالموت وهو فى حالة السكر .. فمبدئياً ، يوجد قضاء السماح بالسكر ذاته ، ومباشرة يوجد قضاء العقاب بالموت على السكير .

أرجو أن يكون واضحاً ما سبق أن بحثته معك وقتما درسنا (السماح بالشر) إن قضاء الله لا يرغم الإنسان .. بل يتصرف الإنسان بكامل حريته .. وهكذا لنترك قضاء الله .. ويهمنا القيام بمسئوليتنا : (١) أن لا نذوق الخمر .. (٢) إن كنا قد شربنا من قبل أن نتكل على الله ولا نعود إليها .. وهكذا نجد أن قضاء الله على السكيرين لا ينطبق علينا ، إننى أصلى أن يمنح الله نعمة لكل مستعبد للخمر وأن يحرره منها ، أن يعطى لكل من لم يختبروها أن يعافوها .

٢ ــ وهناك مثل آخر من أمثلة الموت أثناء غياب العقل هو موت المعتوه أو المختل العقل .

فى هذه الحالة لا يهم ظروف أو أسباب الموت ذلك النوع من الناس .. فإن المختل العقل غير مسئول عن حالة اختلال عقله .. الأمر الوحيد الذى يعتبر موضع البحث هنا هو سبب وتاريخ اختلال عقله .. لأن ذلك الإنسان يعتبر قد مات منذ ذلك الحين .. بعض الناس تختل عقولهم وهم كبار نتيجة لحادث نفسى أو عضوى .. وفى هذه الحالة تصل هذه الأحوال إلى مثيلتها . فقد تشبه السكر إذا كان المرء مسئولا عما حدث له أو تشبه الحوادث إذا كان يقع على مسئولية غيره .. وعلى أى حال هذا النوع من العته ينطبق عليه نظام قضاء الله ومسئولية الإنسان كالأمثلة الماضية .

لكن يحدث أحيانا أن يولد إنسان ناقص العقل .. ففى هذه الحالة يعتبر موت ذلك المعتوه ــ مثل ميلاده تماماً ــ عقاباً لوالديه الذين استحقا ذلك فى نسلهما ... أو أن يكون قصد الله أن يتمجد فيه . ففى هذه الحالة لا يموت المعتوه بل يشفى .. فإن لم يكن عقاباً كان تاديباً أو امتحاناً إلهياً لهما وفى هذه الحالة لا يهم المعتوه وأمر المعتوه بل ينظر لهذه الحالة على أنها إحدى الآلام التى تملأ هذه الحياة .

شكراً لله أن لنا عقولا تفكر . فلنصل صن يارب عقولنا ، ولنعمل على صيانة عقولنا ..

٣ ــ أو تأمل معى أحوال الموت أثناء النوم .. فهنا إنسان عاقل غير مخمور لكنه نائم لا يدرى بما يحل به .. وقد يموت خنقا بالغاز أو حرقاً بالنار أو بغدر إنسان كسيسرا[1] أو شمشون[2] أو من عضته أفعى أو أى شيء من مثل ذلك . أو نقرأ قصة أفتيخوس ونومه الثقيل وكيف سقط من الكوة وسط اليقظين ومات[3] أو ذلك الذى ألقاه اللصوص من القطار وهو نائم وأخذوا ما كان معه . (لم يكن النائم فى وعيه حتى يدفع عن نفسه ما أضاع حياته . ما مدى مسئوليته ،

---

(١) قض ٤ : ٢١ (٢) قض ١٦ :: ١٩ الخ
(٣) اع ٢٠ : ٩

وبأى معنى قضى الله بتحديدها ؟) .

حينما كنت صغيراً حدث هذا فى بلدتى تعود شخص أن ينام خارج بيته . ينقل فراشه وينام . وقد قيل له كثيراً : « لا تنم هكذا خارج البيت فلان وفلان يتربصان بك » . وكان دائما يجيب « لا يقدر ان علىَّ إنهما طفلان . من هما بالنسبة لى » . ويوما سمعنا بمقتله . لقد هجما عليه وهو نائم وقتلاه .

هذا الشخص واضح جداً أنه مسئول عن موته قتيلا . وقد سمح الله أن يسلمه لشره .. لكن ماذا عن المبالين ، وماذا عن الذين لم يتلقوا إنذاراً ؟!

بعض منهم لم يأخذوا الحرص الكافى فسكتوا مثلا عن موضع خطر فى بيوتهم مثل موقد النار ، أو عدم قفل الباب وإحكامه ، أو عدم نظافة بيوتهم أو عدم قفل الثغرات التى منها تأتى الوحوش ، أو عدم النوم فى وقت أمين استعداداً ليقظة أو نوم خفيف فى ساعات الخطر .. الخ .

فاذا لم يكن شىء من هذا اعتبر الموت وقت النوم كأى حادث .

إن كان الميت ملوماً فى شىء كان لومه سبب نهاية الأجل وقد سمح الله بهذا ، وإن لم يكن ملوما .. كان غيره الملوم فى حالة الحادث . وفى أحيان كثيرة يسود الغموض .. نحن لا نعرف كل شىء .. لكن نعرف أنه ما لم يسمح الرب فلا يقع أى شىء من ذلك .. إن إلهنا يحرص حتى على شعور رؤوسنا(١) وحين ننام فهو الحارس لنا وحين يقصد لا يصيبنا أى خوف أو خطر بالليل(٢) . لأنه حارس قدير ولا ينام(٣) . لكنه إن سمح فبالنسبة لمحبى الله للخير(٤) .. وبالنسبة لأعدائه عقاباً .

من هنا نرى قضاء الله . لكن أيضا نرى أننا مسئولون وككل حالة يجب أن نعمل ما علينا أن لا نترك أى باب مفتوح للشر .. أن نحفظ الرأى والتدبير ، فيلذ نومنا(٥) . أن نكون فى طاعة الرب فيكون لنا الوعد أن ننام وليس من يزعجنا(٦) ، أو على الأقل لا يكون الموت قصاصاً .. ثم نصلى مستودعين أنفسنا بين يديه ولتكن مشيئته ، ليس علينا أن ننزعج ماذا سيحدث بالليل هذا لا يهم . المهم أن لا نكون ملومين من جهة علاقتنا بالله حتى إذا كانت مشيئته أن يأخذنا بالليل فليأخذنا مستعدين .

٤ ـــ وهناك نوع ردىء من النوم يسمى « نوم اليقظة » يكون الإنسان فيه نائما مغمض العينين ، لكنه يقوم وهو فى نعاسه من فراشه ويمشى ويعمل أشياء وهو لا يحس بما يفعل . وحين يجىء الصباح يكون قد رجع إلى فراشه . ويسأل من أتى الأفعال التى أتاها هو بنفسه !! وهو لا يصدق

---

(١) لو ٢١ : ١٨ (٢) مز ٩١ : ٥ و ٦
(٣) مز ٤٦ : ٧ ، ١٢١ : ٤
(٤) رو ٨ : ٢٨
(٥) أم ٣ : ٢٤
(٦) لا ٢٦ : ٣ و ٦

قط أنه يعمل هذا حتى يؤكد له من يراه . وهذا مرض نفسى له أسبابه المختلفة باختلاف الأشخاص ، ويعالجه الأطباء النفسيون .

المهم هنا قد يقفز « النائم اليقظ » من نافذة ، أو تزل قدمه من فوق سطح منزل ، أو يختل توازنه فوق سلم .. الخ ، فيسقط ميتاً . المريض بنوم اليقظة معرض للوقوع فى خطأ يؤذيه — وهكذا فهو معرض للموت . لو حدث هذا فما مصدر تحديد عمره .

ويجب أن تبرز أمامنا الحقيقة بأن نوم اليقظة مرض . لا نلم المريض عليه لأنه يقوم ليلا ويمشى .. فهو يحتاج بدل اللوم إلى علاج .. لكن كأى مريض السكوت عن علاجه خطية .

ينطبق على هذه الحالة ما ينطبق على السكير من حيث أن على المريض أن يسعى للعلاج ومن حيث أنه يعلم بأن هناك خطراً يتهدده ولا يجوز التغافل عنه .. أجل هو مسئول ...

لكن كم من مريض بنوم اليقظة لم يمت ليس لأن حظه طيب ، ولكن لأن الله حفظه ، ويوم يسمح له الله ويكف عن حراسته يتم سقوط النائم .

إذا كنت مريضاً بنوم اليقظة فلا تقل إن أجلى تحدد أن أموت سريعاً ولا تقل متى أموت ؟! اسع للعلاج واطلب الرب وسلم حياتك بين يديه وهو يتم قضاؤه بشفائك وخروجك من هذه الحالة .

وفى كل أحوال غياب العقل لا تخلو من مسئولية إن لم تكن مباشرة فغير مباشرة . لكن فى جميعها لنوقن أن حافظنا هو الله .. فلنسلم له أنفسنا ، عاملين ما يطلبه منا ، ولنكن عند رضاه دائما ، حتى « إن عشنا فللرب نعيش وإن متنا فللرب نموت فإن عشنا وإن متنا فللرب نحن »[1] .

(٤)

ولنأت الآن لنرى أحوال موت فجائى بلا مرض فيه إزهاق للروح عن عمد وإصرار . أحوال لو ترك المائت بدون هذه المؤثرات لعاش ما يسمونه « بقية عمره » هل هذا العمر قد قصف أم استكمل .. وحيث أن بعض أحواله مؤكدة النهاية ما مصدر تحديدها ؟

١ — ما رأيك فى حكم الإعدام ؟ هل يعنى هذا أن البشر قد حددوا عمر إنسان ؟! هذا ما يبدو لمجرد النظرة السطحية حكم القاضى على هذا المجرم بالإعدام لكننى أرى عوامل أخرى غير القاضى قد حددت أجل المجرمين . إن المجرم مسئول عن جريمته ، وهو يعلم تماما أن « سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه »[2] يعلم يقيناً أنه سيموت يوماً . إن خطيته قد جرت عليه هذا الموت . إن أول من حكم بقصف عمر المجرم هو المجرم ذاته .. هذا من وجهة نظرنا إلى المسئولية البشرية لكن قضاء الله الذى سمح بذلك القضاء الذى رتب كل شىء .. قد حدد كل شىء مرسوماً سابقاً ويتأكد لنا عند التأمل فى أحكام بالإعدام قد تعدلت بالعفو ...

---

(١) رو ١٤ : ٨ (٢) تك ٩ : ٦

(٣) إش ٥٥ : ٧

وكما أنه ليس للمجرم الحق فى أن يقول قد أرغمنى القضاء على أن أكون خاطئاً فلا حق له أيضا أن يقول قد قضى الله بقصف حياتى ... لننظر نظرة منفصلة إلى قضاء الله ومسئولية الإنسان ... بالحرى لنترك الله قضاءه ويهم أن يترك « الشرير طريقه ، ورجل الإثم أفكاره ، وليتب إلى الرب فيرحمه وإلى إلهنا لأنه يكثر الغفران »[1] نحن لا نعلم ما هو قضاء الله ، لكن كل شرير تائب يثبت أن الله قد قضى بحياته لا بإعدامه .

٢ ــ الإعدام قتل بقانون . لكن يوجد قتل هو ذاته جريمة . سواء كان القتل انتقاماً أو كيداً أو طمعاً أو ثاراً الخ ــ ويختلف القتل عن الإعدام فى أن القتل غير متوقع ، ومصحوب بالشر من جانب الجانى ..

ولننظر أيضاً تحديد عمر القتيل : من مصدره ؟ بعض الناس لشر فيهم يقتلون ، وهكذا يشبهون حالة الإعدام . وبعض الناس يقتلون غدراً وآخرون يقتلون من أجل الخير ... والنوع الأخير واضحة فيه مسئولية الجانى على المجنى عليه ومسئولية المتطوع فاعل الخير .. كثيراً ما نأخذ جانباً واحداً لكلمة مسئولية كأن إنساناً عمل ذنباً يستحق عقاباً .. مسئولية أيضا تعنى الارادة الخيرة التى تستحق أن تثاب والمقتول من أجل عمل الخير مسئول عن عمل الخير . وهنا يظهر جلياً أيضا سماح وترتيب الله . وأبرز حالة لذلك موت الرب يسوع نفسه وكل شهيد كذلك قد تداخلت فيه مسئولية الإنسان من جهة ، وقضاء الله من جهة ، كل يعمل منفصلا .

٣ ــ وهناك قتل من نوع آخر هو الحرب ــ فيه يذهب الآلاف من خيرة الشباب (يسمون عسكريا اللائقون) هذا معناه أنهم يتوقع لهم الحياة .. هل بترت حياتهم ؟! هل استوفوا عمرهم من مصدر تحديد أعمارهم ؟

ليس الآن مكان الحديث عن إجازة الحرب أو تحريمها . لنعتبر الحرب أمراً واقعاً مسئوليته على مجرم الحرب . لكن موت أناس أو إمكانية عدم موتهم يتوقف على إحكام التكتيك الحربى ، وعلى طاعة الجند ، على ترابط الفرق ... على التعاون بين المحاربين .. على نجاح وصول المدد ونجاح وسائل الاتصالات ... الخ عند فشل شيء من هذه تحدث البلبلة ، وتضعف المقاومة ، وينعدم الدفاع .. وكل هذا يترتب عليه موت أفراد أو جماعات من المحاربين .

الحرب مسئولية جماعية بالنسبة لحياة المحاربين وهى مسئولية على أى حال . يقابلها من الوجهة الأخرى ، قوة الله وترتيباته . وسماحه .

لماذا مات هذا دون ذاك ؟ يرجع هذا إلى سماح الله من جهة قضائه لكن البشر مسئولون مسئوليتهم الجماعية عن الحرب .

٤ ــ وهناك قتل آخر هو أبشع جريمة بشرية وهو الانتحار ، وواضح أن المنتحر مسئول أولا وأخيراً عن موت جسده ونفسه .. حتى فى المجتمعات التى لا تعتبر الانتحار رذيلة وخطية فالانتحار

---

(١) إش ٥٥ : ٧

مسئولية إذ عمل طوعاً واختياراً حتى فى الأحوال التى فيها يصل المرء إلى اليأس من الحياة وأسباب الحياة ..

لكن هل انتحار أى شخص يحدث بعيداً عن قضاء الله ؟؟ كلا .. فى الكتاب المقدس حوادث انتحار قليلة جداً لكنها كلها تلقى ضوءاً على هذا الأمر دعنا نتأملها :

(أ) ولنبدأ بأشهر حادث انتحار ذكر فى الكتاب المقدس وهو انتحار يهوذا الأسخريوطى . « ثم مضى وخنق نفسه »[(١)] « وإذ سقط على وجهه انشق من الوسط فانسكبت أحشاؤه كلها »[(٢)] واضح أن يهوذا مسئول عن جريمة انتحاره وقتل نفسه بيديه . لكن من الجهة الأخرى نجد أن هذا كان إتمام نبوة عنه فى سفر المزامير[(٣)] يشير إليها سفر الأعمال[(٤)] هى خراب الدار وخلوها من السكان ، ونقل وظيفته إلى آخر ، كما كانت إتمام نبوة بفم الرب يسوع نفسه بالويل لمن يسلمه[(٥)] وحينما ينظر الرب يسوه إلى هذه الحادثة يقول « ولم يهلم منهم أحد (من التلاميذ) إلا إبن الهلاك ليتم الكتاب » [(٦)] أى قضى الله بالسماح ليهوذا بقتل نفسه عقاباً له على جريمة أخرى هى تسليم المسيح . وكما رأينا قضاء السماح بثبوت مسئولية الإنسان .

(ب) ثم حادث آخر فيه انتحر إثنان هما شاول الملك وحامل سلاحه : « فأخذ شاول السيف وسقط عليه ، ولما رأى حامل سلاحه أنه قد مات شاول سقط هو أيضاً على سيفه ومات معه »[(٧)] أما أنه مسئول وقد برزت حريته فى قتل نفسه فواضح من قرائن الحادث : « انجرح جداً من الرماة » فلم يشأ أن يموت بيد « الغلف » وآثر أن يقتله حامل سلاحه ، فلما أبى حامل السلاح ، قتل هو نفسه[(٨)] . وقد اقتدى به حامل سلاحه فقتل هو أيضا نفسه فعل مختار .

فهل كان هذا أمراً مقضيا به ؟ نعم . شاول هالك قد رفضه الرب[(٩)] عتيد أن يسقط بأى حال[(١٠)] وقد كان هذا نتيجة مقررة له حتى عند العامة — لدرجة أن فاهت بها العرافة[(١١)] على لسان صموئيل[(١٢)] قد أسلم الله شاول لقضاء الموت واختار شاول الطريقة التى بها مات وسمح له الرب بها .

وذات الشيء بالنسبة لحامل سلاحه . ويوجد رأى قديم جدا يقول بأن حامل السلاح هذا هو دواغ الأدومى . وليس هذا الرأى ببعيد حيث أن قرائن كتابية تتجه نحوه ولو أنها لا تقطع بالنص اللفظى بأنه هو ذلك أن دواغ الأدومى هذا كان « رئيس رعاة شاول »[(١٣)] وكان محصوراً أمام الرب فى خيمة الاجتماع . وقد شهد التجاء داود إلى أخيمالك الكاهن ومساعدات أخيمالك له[(١٤)]

---

(١) متى ٢٧ : ٥ (٢) اع ١ : ١٨ (٣) مز ٦٩ : ٢٥ ، ١٠٩ : ٨
(٤) أع ١ : ٢٠ (٥) متى ٢٦ : ٢٤ (٦) يو ١٧ : ١٢
(٧) ١ صم ٣١ : ٤ و٥ (٨) ١ صم ٣١ : ٣ و ٤
(٩) ١ صم ١٥ : ٢٣ (١٠) ١ صم ٢٦ : ١٠ (١١) ١ صم ٢٨ : ١٦ — ١٩
(١٢) ليس الآن مقام بحث حادثة العرافة التى لجأ اليها شاول ولى فيها رأى يفسرها كتابيا وعلميا لكننى أود أن أقول اننى لا اؤمن بمناجاة الأرواح .
(١٣) ١ صم ٢١ : ٧ (١٤) ١ صم ٢١ : ١ — ٩

وأدلى بشهادته أمام شاول فعندما حكم شاول بإعدام الكهنة رفض السعاة أن ينفذوا هذا الحكم ، فنفذه دواغ . فهذه الحادثة فيها مارس وظيفة الجلاد ، وبعد ذلك رقاه شاول إلى حامل سلاحه لما اعتبره فيه من إخلاص له .

لم يجرح حامل السلاح كشاول ولكنه اعتبر أنه انتهى بموت سيده ، ففعل مثله راضياً مختاراً .. لكن من جهة أخرى هناك قضاء الله . إن لم يصح الزعم بأنه دواغ لا ينتفى الرأى بأن هناك جانب قضاء الله ذلك أننا نربط بينه وبين شاول فى ذات العمل وسماح الله . أما إذا صح ذلك الرأى برز بصورة مدهشة جانب القضاء الالهى لأن كثيراً قد قيل عن دينونة الله لدواغ : « يهدمك الله إلى الأبد يخطفك ويقلعك من مسكنك ويستأصلك من أرض الأحياء[1] ولا يخفانا أن الخطف ، والقلع ، والاستئصال (الموت الفجائى) يصدق جداً على انتحاره بالمقارنة بمن يموت موت البطل فى الحرب . أما لماذا يقع على هذا العقاب ، فهو أنه حرف فى الشهادة ضد الكهنة وأبرزهم كأنهم خائنون[2] ، ثم لأنه وقع بهم فلوث يده بدم القتل — وقتل الكهنة بالذات[3] .

(ج) وشخص آخر قضى على نفسه بالانتحار هو أخيتوفل « وأما أخيتوفل فلما رأى أن مشورته لم يعمل بها ، شد على الحمار وقام وانطلق إلى بيته إلى مدينته ، وأوصى لبيته وخنق نفسه ومات ودفن فى قبر أبيه »[4] وقد قلت قضى على نفسه ذلك أنه خنق نفسه وكان يمكن ألا يفعل ذلك ، كان يمكنه أن ينزوى أو لا ينزوى كان يمكن أن يعيش لو لم يقتل نفسه . هذا من جهة ما يقال عن مسئوليته ... وقد قتل نفسه بدافع كبرياء رجل ناجح تعرض للفشل مرة ... فعل اختيارى محض .

لكن هناك أيضاً عامل القضاء الإلهى .. كانت هناك صلاة داود « حمق. يارب مشورة أخيتوفل »[5] وقد استجاب الله وحمقها فرفضها وتأمل النص الكتابى فيما يختص بذلك « فإن الرب أمر بإبطال مشورة أخيتوفل الصالحة لكى ينزل الرب الشر بأبشالوم »[6] وإذ كان أبشالوم وفتنته ضد مشيئة الله فأخيتوفل الذى « بين الفاتنين مع أبشالوم »[7] ضد مشيئة الله أيضاً ، وسينزل به الشر كما بأبشالوم ، نعم قضى الله بالسماح لأخيتوفل بقتل نفسه عقاباً له .

(د) وخامس قتل نفسه هو الملك « زمرى » الذى حين رأى « أن المدينة قد أخذت دخل إلى قصر بيت الملك وأحرق على نفسه بيت الملك بالنار فمات »[8] وبعد ذلك مباشرة يرد أن هذا قضاء الله مستفاداً من القول « من أجل خطاياه التى أخطأ بها بعمله الشر فى عينى الرب »[9] .

---

(١) مز ٥٢ : ٥

(٢) الشهادة (١ صم ٢٢: ١٠) المحمل الذى حملها إلى فهم شاول (ع ١٣) والحكم على هذه الشهادة بأنها جائزة (مز ٥٢ : ١ — ٣)

(٣) قارن فعلة دواغ بخوف عبيد شاول (١ صم ٢٢: ١٧ و ١٨)

(٤) ٢ صم ١٧ : ٢٣ (٥) ٢ صم ١٥ : ٣١

(٦) ٢ صم ١٧ : ١٤ (٧) ٢ صم ١٥ : ٣١

(٨) ١ مل ١٦ : ١٨ (٩) ١ مل ١٦ : ١٩

إن انتحاره وبهذه الصورة بالذات دليل أكيد لمسئوليته لأنه حتى بعدما أشعل النار كان يمكن أن يرجع إلى نفسه ويهرب منها ، غيره بعد ما قفز إلى الماء بقصد الانتحار تغلبت بعد ذلك عليه رغبة الحياة ، فتعلق بشيء ما ، أو عام وخرج أو صاح فأنقذ ! وغيره أنقذ كذلك من النار ، أما هو فأصر أن يموت .. وأما أن ذلك حدث عقاباً من أجل خطاياه ضد الرب فهذا سماح الرب له — قضاء السماح .

(هـ) بقى حادثان يجب أن أشير إليهما رغم علامة الاستفهام التى بعد كل منهما .. ويجب الإشارة إليهما لأنهما يظهران قضاء الله ومسئولية الإنسان بصورة مدهشة الوضوح .

هناك شروع سجان فيلبى بالانتحار[1] .. وعلامة الاستفهام هنا هى أمر لم ينفذ ما شرع فيه لم يمت فعلا ، لكن هذا كان نتيجة لعدم سماح الله لهذا الشروع فى الإتمام . وقد كانت الواسطة محبة وحنان بولس الرسول الذين بهما قاد الله هذا الوثنى إلى النعمة والخلاص[2] .. أما عن عمر ذلك الانسان فكاد ينتهى وبيده هو ، وبالرغم من أنه لم يصدق على هذا الرجل لكن يؤكد لنا مسئولية كل منتحر . وأما أن المنتحر فلا يمكن أن يموت إلا نتيجة لسماح الله بذلك — القضاء الذى يسمح له بتسليمه نفسه وحياته لرغباته فى نهاية نفسه .. فهذا واضح من أن هذا السجان لم يفلح فيما عمل وكذا كثيرون .

وهناك حادثة أخرى يجب الإشارة إليها هى شمشون ونهايته .. « وقال شمشون لتمت نفسى مع الفلسيطينيين » ونفذ ذلك بأن « إنحنى بقوة » بين العمودين « فسقط البيت » على شمشون مع الفلسطينيين[3] .

قلت فى هذه الحادثة علامة استفهام . وهى ما يثار حول شمشون : أيعتبر هذا انتحاراً أم لا ، هل ذهب إلى جهنم أم السماء . وبالنسبة لموضوعنا هنا تحديد عمر الإنسان لا يعنينا هذا السؤال فالجميع يرون أن حياته انتهت فلنبحث الموضوع من حيث قضاء الله ومسئولية الإنسان .

من جانب شمشون فهو يدرى تماما أنه سيموت ومع ذلك طلب أن يموت معهم لأن هذا هو الطريق الوحيد لانتقامه[4] . الطريق الوحيد لإماتتهم ... ومع ذلك رغب فى ذلك الموت كما رأى أن الموت خير له من الحياة وهو أعمى ذليل فرغب أن ينتهى .. هنا مسئولية الإنسان .

لكن هناك قضاء الله ، ويظهر من ناحيتين : الأول استجابة الرب لشمشون ، صلى شمشون : « أذكرنى وشددنى باالله هذه المرة فقط فانتقم نقمة واحدة عن عينى من الفلسطينيين »[5] .

---

(١) أع ١٦ : ٢٧ .
(٢) أع ١٦ : ٢٨ — ٣٤
(٣) قض ١٦ : ٣
(٤) ع ٢٨
(٥) ع ٢٨

واستجاب الرب ولولا استجابته لما هدم البيت ولما مات شمشون أو غيره . والناحية الثانية هي أن الله رضى بتلك الاستجابة غيرة منه على اسمه القدوس الذى أهين كلما مجد هؤلاء الوثنيون أوثانهم : اجتمعوا ليذبحوا ذبيحة عظيمة لداجون إلههم ويفرحوا ، وقالوا قد دفع إلهنا ليدنا شمشون عدونا . ولما رآه الشعب مجدوا إلههم لأنهم قالوا قد دفع إلهنا ليدنا عدونا الذى خرب أرضنا ، وكثر قتلانا »[1] وهنا اشتعلت نار غيرة الرب على الوثنيين الذين نسبوا نصرة لوثنهم الذى هو لا شيء . ونسوا أن الله هو الذى فرط فى شمشون بسبب نقضه لعهد انتذاره . وقضى الله بالاستجابة لشمشون .

وهكذا نرى فى كل حالة انتحار ــ قتلا اختيارياً للنفس مصحوباً بقضاء الهى .

وهناك من يقول هذا انتحر خارج إرادته . وهذا ما تشترط شركات التأمين لصرف مبلغ لمنتحر . على أننى أقول ما لم يكن المنتحر قد فقد عقله أو وعيه فالانتحار خارج الإرادة غير موجود .. على أن الانتحار خارج العقل أو الوعى ليس انتحاراً بل يمكن أن يسمى حادثاً من حوادث الجنون وسبق الحديث عنه وأنه ضمن نطاق مسئولية الإنسان وقضاء الله معاً .

٥ ــ بقى أن أقول كلمة عن قتل فى ظروف يسأل عنها القتيل ذلك أنه أهمل أن يدافع عن نفسه أو يهرب من الموت ــ أقصد من المجرمين الذين يريدون قتله .. وحين أقول الدفاع عن النفس لا أشترط أن يقتل المرء من يهاجمه فى سبيل نجاته هو . ليكن هذا آخر أواخر طرق الدفاع .. ولا أريد أن أخوض كثيراً هنا فى موضوع خارج نطاق بحثى . يكفى أن نلقى ضوءاً على بعض الأمور من حيث قضاء الله ومسئولية الإنسان ..

عندما تعرضت حياة بولس الرسول لكمين يهودى مستعد لقتله اتخذ كل طريق من أجل النجاة[2] .. وعندما اتهمه اليهود بتهم تتطلب قتله « احتج » أى دافع عن نفسه بكل قوة[3] والآن أريد أن نفرض جدلا أن بولس الرسول لم يستخدم واسطة نجاته ــ إذن لكان مات ولكان هو مهملا وقد قاده إهماله للموت !! شكراً لله أنه فعل ما كان ينبغى أن يفعل .

لكن بولس الرسول بعد كل هذا يقول إن نجاته بقضاء الله .. « فإذ حصلت على معونة من الله بقيت إلى هذا اليوم شاهداً للصغير والكبير .. »[4] وقد عين له الله واسطة خلاصه من شروع اليهود فى قتله . ولولا حرص الله على حياتنا بل حتى على شعور رؤوسنا لسقطنا[5] .

نعم قضاء الله يحرص علينا وعلى حياتنا ويدافع عنا ، وروحه القدوس يعطينا ما ندافع به[6] إلا أننا نحن يجب أن نستخدم عطية الروح للدفاع .. أى أن من يهمل دفاعه عن نفسه يموت مسئولا عن نفسه مقضياً عليه من الله .

---

١ ــ ع ٢٤ ٢ ــ أع ٢٣ : ١٢ الخ ٣ ــ أع ٢٤ : ١ ــ ٢١

٤ ــ أع ٢٦ : ٢٢ ٥ ــ مت ١٠ : ٣٠

٦ ــ لو ١٢ : ١١ و ١٢ .

ثم نأتى لموت الطفولة لنرى ماذا يقول الكتاب عنه باعتباره نهاية عمر قصير من حدده هكذا ؟

وينفجع الشاعر على الصغار قائلا

إن الفجيعة بالرياض نواضراً لأجل منها بالرياض ذوابلا

وينظر إلى موت الصغير على أنه قصف لعمره :

لهفى على تلك الفضائل فيهما لو أمهلت حتى تكون شمائلا

لماذا يموت الصغار ؟

١ ــ يذكر الكتاب عدة أسباب لهذا الأمر أولها كضربة من الرب كما حدث لابن داود من بثشبع (٢ صم ١٢ : ١٣ ــ ١٥ و ١٨) وأبكار مصر (خر ١١ : ١ و ٥) وبنى يهوذا قبل السبى مع والديهم لأن الرب نزع سلامه عنهم ومراحمه وإحسانه (إر ١٦ : ٥ و ٦) وأمثالها . ويرى الكتاب أن ذلك لأن الرب يرد يده عليهم كما على الكبير .

٢ ــ قتل المحاربون أطفال الخطاة بأمر من الرب (١ صم ١٥ : ٣) .

٣ ــ قتل هيرودس الغيور الشرير أطفال بيت لحم حسب نبوة من الرب (مت ٢ : ١٦ ــ ١٨) .

٤ ــ وقد يضم الرب الأطفال (لأنهم محبوبون لديه مر ١٠ : ١٦) من وجه الشر ، أو قبلما يعملوا شرا وهكذا يعطى لهؤلاء كما لمثلهم ملكوت السموات (مت ١٩ : ١٤) .

وسواء كان موتهم مجداً أو ضربة ، فإن الكتاب يذكر أن الرب قضى بذلك ، وسواء سألنا : أأخطأ هذا أم أبواه ، أم لم نسأل ، فواضح فيها قضاء الرب سواء قضاء القصد أو السماح : وسواء سئل الآباء أكلوا الحصرم وأسنان البنين ضرست ، وافتقد الرب إثم الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضيه أم لا .. فإن قضاء قضى به من الرب لحكمة عنده ــ لابد أن يتم .

لكن لننظر الأمر من الوجهة الأخرى : هل الإنسان مسئول ؟ وإن نعم فمن هو المسئول ؟

من الوصية الخامسة : أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب الهك ، نرى أن الطفل الذى يدركها مسئول . ولكن معظم من يصدق عليهم صفة الطفولة دون سن المسئولية ويموتون . فهل تقع المسئولية على أيديهم ؟

يتحدث الكتاب عن :

(١) أمراض وراثية ورثها الصغار من الكبار وواضح أن هذا يوقع اللوم على الوالدين .

٢ ــ وعن إهمال قد يحدث من الأبوين أو أحدهما قد يضيع حياة الصغير (١ صم ٣ : ١٢ و

١٣ ـــ ١ مل ١ : ٦ ، ٤ : ٥ و ١٩) سواء الإهمال الذى يسبب حادثا أو إهمال علاج المرض أو إهمال التربية .

٣ ـــ وقد يقتل أحد الأبوين ابنه فى وقت الجوع (٢ مل ٦ : ٢٨ ، مرا ٢ : ٢٠ ، ٤ : ١٠) أو لأى سبب آخر .

٤ ـــ أو يكون الأب قد جنى على ابنه فعرضه لغضب الرب نتيجة خطية الأب .

من هنا نرى أن الإنسان مسئول : الأبوان أو الصغير ؟

وفى موضوع كهذا لا نستطيع أن نغفل شهادة العلم كيف ينظر العلم إلى موت الطفولة ؟

يروى الثقات فى طب الأطفال أن نسبة موت الطفولة :

١ ـــ تزيد فى المناطق المزدحمة بالسكان عنها فى الأقل كثافة .

٢ ـــ تزيد بين أبناء غير المثقفين عنها بين أبناء المثقفين .

٣ ـــ تزيد بين الأوساط العمالية وخاصة غير المؤهلين عنها بين ذوى الوظائف[1] .

٤ ـــ تتناقص باستمرار مع تقدم الطب (أى تتناسب مع تقدم الطب تناسباً عكسياً[2])

٥ ـــ يقل حيث تجد الأم الحامل أو المرضع العناية البيئية والغذائية والطبية اللازمة وحيث يجد الأطفال الاهتمام بتحصينهم ضد الأمراض المعدية .

من هذا نجد أن الإنسان كلما بذل جهده كلل هذا الجهد بالإقلال من موت الطفولة . والعكس صحيح .. أى أن الإنسان مسئول مسئولية كاملة عما بين يديه من أسباب تحول دون موت الطفل .

ومن حديث العلم نجد أن أسباب الموت :

١ ـــ أسباب خلقية كالتشوهات التى تصيب الجنين وكل أسبابها مسئول عنه الإنسان .

٢ ـــ ولادة جنين قبل موعده (الناقص) ومن إنقاذ الكثيرين من الأطفال ولدوا هكذا نرى أن موت الطفولة مسئول عنه المهمل .

٣ ـــ إصابة الجنين أثناء الولادة وهنا يسأل مختلف من الناس .

٤ ـــ ولادة طفل بدم شاذ نتيجة كون دم الأم من الفصيلة التى يقال لها (- R H) (قيل

الأرقام فى (١ ـــ ٤) لى والمادة العملية من

Plack's Medical Diet وضع (Will A . R . Thomson)

١ ـــ من محاضرة للأستاذ دكتور حنا رزق الأستاذ فى الجامعة الامريكية بالقاهرة القيت على مجمع الخدام بمجمع الوجه البحرى سنة ٥٣ .

٢ ـــ فى كتابهما Asynopsis of Hygisne ص ٢٨٠

إن الطفل الأول عادى والثانى يمكن إنقاذه لو غير دمه ، والثالث يسقط قبل ولادته ميتا) .

٥ ـــ الحوادث . وفيها ينسب الإهمال أو القتل العمد للمتسبب .

٦ ـــ العدوى . وهنا يجب الوقاية والعلاج .

على أن حديث العلم لا يمكن أن يغفل قضاء الله سواء رضى أم لم يرض . فهناك أولاد الأطباء أنفسهم يموتون رغم الجهاد . ويكتشف الطبيب خطأه الطبى . وهناك الأحوال التى لا يستطيع الطب تعليلها . وهناك الأحوال التى لا يمكن السيطرة عليها خاصة الأحوال التى تتسبب عن (١ ـــ ٤) وتثبت إحصائية أوردها روبرت وشو سنة ١٩٦٣ تذكر ذلك وتذكر أنها تحدث فى الأسبوع الأول من الميلاد وهى معظم وفيات الأطفال فى تلك السنة . وهى لم تتغير حتى الآن ليس فى أرقامها ولكن فى كونها فى الأسبوع الأول وفى كونها منظم الوفيات .

هذا دليل على أن شيئا أبعد من إمكانات الإنسان فيه السماح من الله .

لنقبل تعزية الرب من قضى بموت الطفل ، ولكن فى نفس الوقت يجب أن نقوم بكل ما نستطيع القيام به لإنقاذ حياة من يتعرض للموت .

(٦)

تعرضت من قبل لقصة حزقيا وإضافة ١٥ سنة إلى عمره ، وقصة شفائه بقرص التين . وفيما مضى ما يكفى للقول بأن الله قضى وأن الإنسان مسئول . ولكن لا أستطيع الوقوف دون الإشارة إلى : هل المفهوم أن عمر حزقيا المقضى به هو ما قبل الشفاء (وفى هذه الحالة يوجد نقض للقضاء لأن العمر امتد) . أم عمره هو حتى نهاية الخمس عشرة سنة المضافة (وفى هذه الحالة كيف يقول له الله لأنك تموت ولا تعيش !؟

والجواب قضى الله بأن يتم إنذار حزقيا بقضاء يضاف إليه آخر نتيجة إتمام قضاء ثالث هو صلاة حزقيا التى حول الله قلب حزقيا ليصليها .

إن قضاء الله فى حلقات يجب أن تتم جميعها .

وسيأتى الكلام عن الصلاة فى فصل آت .

ولكن هنا أريد أن أذكر بعض الملاحظات أختتم بها :

١ ـــ إن قضاء الله بعمر الإنسان مخبوء عنا إذ لا نعرف متى ؟ أو أين ؟ أو كيف نموت .. ولنترك هذا له .

٢ ـــ لا تنشغل على قضاء الله خشية أن ينقص يوما أو بعض يوم . إن الله يعرف كيف يجرى قضاءه .

٣ ـــ لا تخف أن « تجدف » على الله عندما تحافظ على الحياة ، حياتك أو حياة غيرك بأن تتجنب

أخطار الموت كأنك تقاوم مشيئة الله . لأنه من قال لك إن الله أنهى العمر حتى هذا الحد ! وكم من الناس أعلن لهم كحزقيا . بل وحزقيا لم يخطىء حين صلى أو حين وضع قرص التين !

٤ ـــ حقا إننا ننظر إلى الموت بنظرة تختلف عن العهد القديم الذى قبلما يموت المسيح كان يرى الموت عقاب الخطية جسدياً . لكن لا يخفى أيضاً أننا حين نعيش فلنا رسالة ويجب أن نؤديها .

٥ ـــ الحياة وديعة فى أيدينا ، نحن مسئولون عنها ويجب أن نحفظها ، ولنتمم مسئوليتنا كأن الله لم يقض ، وسنجد حياتنا تمتد إلى الأجل المعين من الله ، أما إن أهملنا فستتصف حسب قضاء الله .

هبة رزق الانسان

« كلها إياك تترجى لترزقها قوتها فى حينه » مز ١٠٤ : ٢٧

« العامل بيد رخوة يفتقر ، أما يد المجتهدين فتغنى » أم ١٠ : ٤

ما مصدر رزق الإنسان ؟ مجهوده ومهارته ، أم هبة من الإله الرازق ؟

هل صحيح هذه الأمثال ؟ : « يطعم العامل والبطال والنايم على جنبه » « إجر جرى الوحوش غير رزقك ما تحوش » « اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب » .. الخ

بعض الناس يؤمنون بأن الرزق هبة ولذا هم اتكاليون .. وكأن إيمانهم هذا ساقهم إلى الكسل . وآخرون يؤمنون بمسئولية الإنسان وجهده ولذا لا يضعون فى حسابهم قضاء الرب وعمله فيهم . بل حتى لو صلوا « خبزنا كفافنا أعطنا اليوم » فلا أكثر من كلمات حفظوها . وكلا الطرفين يجيب عن السؤال : « ما مصدر رزق الإنسان » بطريقة متجاهلا الحق فى الجانب الآخر ..

وكما رأينا وبنفس الطريقة : رزق الإنسان هبة من الله ، ولكن الإنسان مسئول فى الوقت نفسه ولسبب القضاء الإلهى أن يحصل هذا الرزق . ولكل من هذين الطرفين إثباته فى الكتاب المقدس وسأورده بعد حين أما الآن فأرى خيراً أن نبدأ بالجمع بين الفكرين الذين يخال للبعض أنهما متنافران : كيف رزق هبة ؟ وفى نفس الوقت علىَّ أن أسعى ؟

(١)

وهناك بعض المقارنات تجمع بين الفكرتين فى فصل واحد أو فى فصول تتحدث عن نفس الموضوع .

وقبلما ندخل فى هذا البحث أريد أن أذكر القارىء بأننا لا نحاول أن نربط الخيط المقطوع . إن ما ينطبق على قضاء الله ومسئولية الإنسان بصفة عامة ينطبق هنا بصفة خاصة وهو أن منطقنا ضيق الأفق لا يجمع كل المقدمات وقد أخفى الله سر ارتباط جزئى الخيط لكى ينبر على مسئوليتنا . لكن لكى نعرف أن كلا الأمرين حق ويقين ، وليس هناك تناقض فلننظر فى هذه المقارنات :

١ — يقول الحكيم : « أيضاً كل إنسان أعطاه الله غنى ومالاً وسلطه عليه حتى يأكل منه ويأخذ نصيبه ويفرح بتعبه فهذا هو عطية الله . » (جا ٥ : ١٩) فهو يدعو الغنى والمال الذى يحوذه ذلك الإنسان عطية من الله ، وسلطانه عليه عطية من الله ، ويكرر ثالثة فى ختام الأمر « فهذا هو عطية من الله » .. لكنه فى نفس الوقت يقول « ويفرح بتعبه » .. تعب ذلك الإنسان ..الذى كون الغنى والثروة .. عطية الله لكن حقق الله العطية بتعب الإنسان ، ويسأل الإنسان أن يتعب لكى

ينال العطية ..

٢ — « ولئلا تقول فى قلبك قوتى وقدرة يدى اصطنعت لى هذه الثروة ، بل اذكر الرب الهك إنه هو الذى يعطيك قوة لاصطناع الثروة ، لكى يفى بعهده » (تث ٨ : ١٧ و ١٨) وهنا نرى تنبيراً صارخاً على أن الثروة هبة من الله لدرجة أن من يقول فى قلبه بغير ذلك يرجعه الله إلى رشده ، ولكن فى نفس الوقت توجد الإشارة إلى القوة ، وقدرة اليد ، واصطناع الثروة ، وهذا عمل الإنسان ، لكن ليس فى هذا تنافر أو تناقض إذ أن هذه القوة والحكمة هما عطية من الرب ، ويجب على الإنسان أن يعمل لأن الرب أعطاه أن يعمل وقدّره أن يعمل .

٣ — وقد قال الرب يسوع لتلاميذه : « حين أرسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا أحذية هل أعوزكم شىء ؟ فقالوا لا . فقال لهم لكن الآن من له كيس فليأخذه ومزود كذلك . ومن ليس له فليبع ثوبه ويشترى سيفاً .. فقالوا يارب هوذا هنا سيفان فقال لهم يكفى » (لو ٢٢ : ٣٥ — ٣٨) . أولا أرسلهم بلا استعداد لأنه ضامن قوتهم : الفاعل مستحق أجرته ضامن سلامتهم ، ولكن أخيراً حين أنذرهم بأنه سيتخلى عنهم ، أمرهم بالاستعداد ولكن ما فائدة الاستعداد ؟ لا ترد إشارة إلى كيف استخدموا ما فى الكيس وهل يكفيهم ؟ وإلى أى وقت ؟ ترد إشارة إلى استخدام السيف وقد منع الرب نفسه بطرس من استخدامه (يو ١٨ : ١٠ و ١١) . وهنا نرى أن استعداد البشر وجهد البشر لا شىء بدون نعمة الرب وعلمه . لكن رغماً من هذا نرى هنا أن الرب طلب منهم ذلك الاستعداد أما أنه لا يجدى فهذه حالة خاصة ، ولكن لأنه مسئولية الإنسان .

٤ — ولا يمكن أن يغرب عن بالنا قول الرب « فلا تهتموا بالغد لأن الغد يهتم بما لنفسه يكفى اليوم شره » (مت ٦ : ٣٤) . فلماذا يوماً ما حذر الرب فرعون فى حلم مقرر مرتين بأن يخزن طعاماً إلى ما بعد سنين الشبع لكى يكفى سنين سبعة كاملة !؟ أليس هذا اهتمام بالغد ؟ (تك ٤١) وهنا يجب أن نضع فى بالنا بأن الاهتمام شىء ، والاستعداد شىء آخر . الأول عدم إيمان ، وأما الاستعداد فهو القيام بالمسئولية . والإيمان يعنى أن الله يعولنا . والاستعداد يعنى أننا نقوم بواجبنا الذى يطلبه منا بأن نؤمن به ، ونتكل عليه . قال يوسف تعقيباً على هذا الاستعداد : « لأنه لاستبقاء حياة أرسلنى الله أمامكم » (تك ٤٥ : ٥) هذا ترتيب الرب الذى به يرزق الجياع فى زمان الجوع . وهذا يتم عن طريق مسئولية الإنسان الحر الذى يجب أن ينفذ أمر الرب الواهب .

٥ — وفى نفس الوقت الذى ينهانا الرب « لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لأجسادكم بما تلبسون » (مت ٦ : ٢٥) نرى بولس الرسول يوبخ الذين بلا ترتيب ، معنى « بلا ترتيب » : « لا يشتغلون شيئاً بل هم فضوليون . فمثل هؤلاء نوصيهم ونعظهم بربنا يسوع المسيح أن يشتغلوا بهدوء ويأكلوا خبز أنفسهم » (٢ تس ٣ : ١١ و ١٢) بل وصل به الأمر أن يقول لهم « إن كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل أيضاً » (ع ١٠) . وقد رأينا فى الفقرة السابقة أن لا تعارض بين عدم الاهتمام ، وبين القيام بالمسئولية . وهنا أريد أن أقرر أن عدم الاهتمام إيمان بهبة الرازق . فهل يعارض موقف الرسول هذا الأمر . يقول الرسول « فمثل هؤلاء نعظهم بيسوع

المسيح » (ع ١٢) فالرب يسوع المسيح قائل الأمر الأول هو عينه الذى باسمه موضوع الوعظ الأخير . وهو الذى وبخ الكسل مراراً (مت ٢٥ : ٢٦) ونادى بالسهر وعمل الواجب (مت ٢٤ : ٤٢ — إلخ) وقال عن نفسه : « أبى يعمل حتى الآن وأنا أعمل » (يو ٥ : ١٧) . وقد كان شعوره بالواجب عظيماً (يو ٩ : ٤) .

٦ — الأمر الوحيد الذى لا يطلب منا أن نعمله وفيه ذكر الخير ورزق هو « ترتب قدامى مائدة تجاه مضايقى » . (مز ٢٣ : ٥) ذلك لأنه يخرج عن قدرتنا أن نمنح أنفسنا سلاماً ، إنه عطية الرب صرفاً .

(٢)

والآن أريد أن نرى هبة الرب للإنسان رزقاً . هذا أمر ثابت فى الكتاب : « الذى يعطى خبزاً لكل بشر » (مز ١٣٦ : ٢٥) ولهذا فإن « أعين الكل إياك تترجى وأنت « تعطيهم طعامهم » فى حينه : تفتح يدك فتشبع كل حى رضى» (مز ١٤٥ : ١٥ و ١٦) . لهذا مكتوب « يرزق القوت بكثرة » (أى ٣٦ : ٣١) ومن غيره يعطى الخبز للجياع (مز ١٤٦ : ٧) . إنه الرب بصفة كونه الخالق والمعتنى هو أيضاً الرازق .

وإذا كان الرب يقدم هذه النعم المادية بصفة عامة بل حتى للطيور التى يعطيها فتلتقط (مز ١٠٤ : ٢٨) فبصفة خاصة يقدمها للناس الذين ينتمون إليه .. الذين يسمعون لوصاياه : « إذا سلكتم فى فرائضى .. أعطى مطركم فى حينه ، وتعطى الأرض غلتها ، وتعطى أشجار الحقل أثمارها ، ويلحق دراسكم بالقطاف ، ويلحق القطاف بالزرع ، فتأكلون خبزكم للشبع ، وتسكنون فى أرضكم آمنين » (لا ٢٦ : ٤ — ٦) . ثم يعطى مطر زرعك . وخبز غلة الأرض فيكون دسماً وسميناً . وترعى ماشيتك فى ذلك اليوم فى مرعى واسع.. » (إش ٣٠ : ٢٣ — ٢٦) . نعم هذه مكافأة للصالحين ، على أنها ليست إلا نعمة من الرب فى نفس الوقت تسود فيها كلمة « تعطى » .

وبصفة أخص للذين ينتظرون الرب « الأشبال احتاجت وجاعت وأما منتظرو الرب فلا يعوزهم شىء من الخير » (مز ٣٤ : ١٠) . ذلك لأن الله يملأ .. كل احتياجهم « بحسب غناه فى المجد فى المسيح يسوع » (فى ٤ : ١٩) .

ويوماً من الأيام احتاج إيليا للطعام فى وقت جوع فعاله الله بالغربان « وقد أمرت الغربان أن تعولك .. وكانت الغربان تأتى إليه بخبز ولحم صباحاً وبخبز ولحم مساء . وكان يشرب من النهر » (١ مل ١٧ : ٢ — ٦) فلما يبس النهر قال له الرب أن يذهب إلى صرفة صيدون : « وقد أمرت هناك امرأة أرملة أن تعولك » (ع ٩) . وكان ذلك فى وقت جوع ، حتى الماء عز فيه . ولم يكن للأرملة حتى الوقود . بل كانت تقش العيدان وقوداً وكل ما لديها من طعام هو « ملء كف من الدقيق فى الكوار ، وقليل من الزيت فى الكوز » (ع ١٢) . لكن كانت لها كلمة الرب : « إن كوار الدقيق لا يفرغ وكوز الزيت لا ينقص حتى يعطى الرب مطراً على وجه الأرض » (ع١٤) . وفى وقت آخر عال الرب إيليا مباشرة عن طريق ملاك أتاه بكعكتى رضف وأكل

مرتين وسار بقوة تلك الأكلة أربعين يوماً (١ مل ١٩ : ٥ — ٨) .

وأعجب بعمل الرب مع أرملة النبى المدين حين سدد دينها من دهنة زيت وفاض لها ما عاشت به هى وإبناها (٢ مل ٤ : ١ — ٧) .

بل يعطى الرب خيراً للأشرار أيضاً ! « وهى لم تعرف أنى أنا أعطيها القمح والمسطار والزيت وكثرت لها فضة وذهباً جعلوها لبعل » (هو ٢ : ٨) . وهكذا يتم ما يقوله المثل « آكل خيره وعابد غيره » . ورغم هذا فمن نعمة الرب أنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ، ويمطر على الأبرار والظالمين » (مت ٥ : ٤٥) . أو كما يرد فى لوقا : « فإنه منعم على غير الشاكرين والأشرار » (لو ٦ : ٣٥) .

وبالإمكان أن نسأل لماذا يحسن الله إلى الأشرار بالرزق ؟ والجواب :

١ — قد يقصد الرب بذلك أن يوبخ الشرير فيتوب .

٢ — أو أن يمتحن به المؤمن المجرب لكى يصفو المؤمن كالذهب .

٣ — أو أن يكون وفاء الرب أجر الشرير عن عمل حسن فى حياته لأنه لن يجازى عليه بعد الموت ولا يمكن أن يكون الرب مديناً لأحد (لو ١٠ : ٢٥) .

٤ — أو لكى يملأ الرب كيل الشرير إتماماً للقول يسمنهم للذبح (إر٢٥ : ٣٤ ، يع ٥ : ٥ اقرأ أيضاً مز ٣٧) .

لكن على أى حال الرب هو المحسن إليهم بالخير .

وبعض الناس يستجيبون لخير الرب . كان يعقوب بعيداً عن الرب كل البعد ، لكنه فى بدء رحلته ، هارباً من وجه أخيه عيسو ، نذر نذراً للرب قائلا : « إن كان الله معى .. وأعطانى خبزاً لآكل ، وثياباً لألبس .. يكون الرب لى إلهاً » (تك ٢٨ : ٢٠ و ٢١) . وقد تمم الرب ليعقوب مطلبه (تك ٤٨ : ١٥) وقطع عهداً مع يعقوب .

والكتاب يقول إن الله « لم يترك نفسه بلا شاهد وهو يفعل خيراً يعطينا من السماء أمطاراً وأزمنة مثمرة ويملأ قلوبنا طعاماً وسروراً (أع ١٤ : ١٧) . وهكذا يكون رزق الإنسان شاهداً للإنسان عن الله ، قائداً للإنسان إلى الله — فإذا لم يستجيب الإنسان فإن الله يقول « آثامكم عكست هذه ، خطاياكم منعت الخير عنكم » (إر ٥ : ٢٥) .

(٣)

وصنع الرب للخير شهادة أيضاً على أن الرب هو معطى الخير — ما يجب أن نفهمه هنا هو أن الإنسان من نفسه لا يقدر أن يفعل شيئاً أو يكتسب شيئاً ، إن تركه لذاته افتقر وجاع وتعرى . وقضاء السماح هذا — أن لا يعطى الرب شيئاً للإنسان — هو قضاء منع الرزق . لأن الرب عندما يقصد أن لا يعطى فهذا سماح بأن يمنع . وفى ما قيل عن قضاء السماح (فى فصل السماح بالشر)

ما يكفى لإثبات هذا . ولكن هنا أريد أن نتأمل فى شهادة السماح بمنع الخير على أنه لا خير ولا رزق بعيداً عن الرب وقصده الطيب للذين يريد أن يعطيهم .

منذ قليل رأينا أن الله أحياناً يعطى الشرير وله فى ذلك قصد ، وكذا أريد أن نعرف هنا أن الله أحياناً يحرم التقى وله فى ذلك أيضا قصد . ومع أن السائد أن يحرم الرب الشرير . لكن أريد أن لا نغفل الجانب الذى حير أناساً كثيرين وهو حرمان الأتقياء من الخير ...

فى مزمور ٣٧ نرى الشرير عاتياً وارفاً يتسلط على المؤمن لدرجة أن المؤمن يغار منه . ويحذر الرب من ذلك لأن الشرير سيسقط ، وأن الرب لا يترك المؤمن فى يده ، وأن العقب لإنسان السلامة .

ونرى الحقيقة ذاتها من الجانب الآخر فى مزمور ٧٣ إذ يظهر المؤمن مصاباً متعباً مظلوماً متألماً متسلطاً عليه الشرير ، ثم يعلن الرب له فى مقادس العلى ما يصونه من الزلل . برأى الرب يهديه ، وبعد إلى مجد يأخذه ، هنا على الأرض يمتحن المؤمن لكى يصفى بالنار إيمانه ، وهو أثمن من الذهب الفانى (١ بط ١ : ٦ و ٧) أو لكى يتعمق فى الطاعة للرب (عب ٥ : ٨) ولكى يشترك فى قداسة الله (عب ١٢ : ١٠) لأن « من تألم فى الجسد كف عن الخطية » (١ بط ٤ : ١) . ويمكن أن يساوى هذا الأمر سلب الأموال ، أو خسارتها ، أو الحرمان من الخير (عب ١٠ : ٣٤) . وأحياناً نؤدب من الله لكى لا ندان مع العالم (١ كو ١١ : ٣٢) بنفس الطريقة التى فيها استوفى لعازر البلايا فى حياته (لو ١٦ : ٢٥) . لكن أكثر أحوال آلام المؤمن وخسائره لا دخل للخطية فيه . بل قصد منه أن يكتسب المؤمن اختباراً عميقاً للرب ، كما قال أيوب : « بسمع الأذن سمعت عنك أما الآن فقد رأتك عينى » (أى ٤٢ : ٥) .

فى كل هذه الأحوال نرى واضحاً أن الرب لم يعط المؤمن رزقاً ، ولو أعطاه لناله .

على أن الشرير يختبر ذات الاختبار فقط لأغراض إلهية أخرى :

١ ــ إذ يمنع الله الرزق عن الشرير لكى يقوده إلى التوبة « وأنا أيضاً منعت عنكم المطر إذ بقى ثلاثة أشهر للحصاد . وأمطرت على مدينة واحدة ، وعلى مدينة أخرى لم أمطر . أمطر على ضيعة واحدة ، والضيعة التى لم يمطر عليها جفت .. فلم ترجعوا إلى يقول الرب » (عا ٤ : ٧) . وهكذا كم استخدم الرب نعمه لكى يقود الإنسان إلى الشكر والتوبة فلم يتب ، فعاد فمنعها عنه لكى يقوده إلى التوبة ، والعجيب أن الإنسان لا يستجيب لكل وسائل الرب التى يعامله بها لكى يتوب . وعلى أى حال فكما رأينا أن الله هو الذى وهب فى تلك الحالة ــ هو الذى منع فى هذه الحالة أيضا .

٢ ــ وقد يمنع الرب الرزق عن الشرير عقاباً . وقد ورد فى هذا الكثير . فمن البدء قال الله « ملعونة الأرض بسببك بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك وشوكاً وحسكا تنبت لك وتأكل عشب الحقل . بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التى أخذت منها » (تك ٣ : ١٧ ــ ١٩) . ومنذ ذلك الحين والشرير « تائر هو لأجل الخبز حيثما يجده ، ويعلم أن يوم الظلمة مهيء

بين يديه » (أى ١٥ : ٢٧) . وفضلا عن قساوة التعب يمنع الرب المطر . لذلك فالأشرار فى العوز والمحل (انعدام المطر) مهزولون عازقون اليابسة التى هى منذ أمس خراب وخربة » (أى ٣٠ : ٣) . ونتيجة ذلك العوز للخبز والماء : « فيأكلون الخبز بالوزن وبالغم ، ويشربون الماء بالكيل وبالحيرة لكى يعوزهم الخبز والماء ، ويتحيروا الرجل وأخوه ويفنوا بإثمهما » (حز ٤ : ١٦) وقد قلت ورد فى هذا الكثير واكتفى بالإشارة إلى (إش ٣ : ١ ، لا ٢٦ : ٢٦ ، تث ٢٨ : ٤٨ — ٥٣ ، إر ١٤ : ١٦ ، حز ٦ : ١٢ ، رؤ ١٨ : ٨) .

٣ — وقد يمنع الرب الرزق والخير بسبب عدم الأمانة فى دفع العشور . يقول الرب « أيسلب الانسان الله ؟ فانكم سلبتمونى فقلتم بم سلبناك ؟ فى العشور والتقدمة قد لعنتم لعناً وإياى أنتم سالبون هذه الأمة كلها . هاتوا جميع العشور إلى الخزنة ليكون فى بيتى طعام وجربونى . بهذا قال رب الجنود إن كنت لا أفتح لكم كوى السموات وأفيض عليكم بركة حتى لا توسع . وانتهر لكم الآكل فلا يفسد لكم ثمر الأرض ولا يعقر لكم الكرم فى الحقل قال رب الجنود ، ويطوبكم كل الأمم لأنكم تكونون أرض مسرة قال رب الجنود » (ملا ٣ : ١١٨) . وهنا مفهوم أن الرب يعد بأن الخير يزيد وأن الخسارة تزول لمن يقدم العشور بأمانة لكنه يخاطب قوماً تلبسوا بتهمة سالبى الله فى هذه الأشياء . لهذا وقعت عليهم اللعنة ؟ وما نص اللعنة ؟ يقول الرب « وألعن بركاتكم بل قد لعنتها .. هأنذا أنتهر لكم الزرع وأمد الفرث على وجوهكم ؛ فرث أعيادكم فتنزعون معه » (ملا ٢ : ٢ و ٣) .

ومثل خطية عدم الأمانة فى العشور عدم الأمانة من نحو بيت الرب الذى يقود إلى الإهمال . « هل الوقت لكم أنتم أن تسكنوا فى بيوتكم المغشاة وهذا البيت خراب . والآن فهكذا قال رب الجنود : اجعلوا قلبكم على طرقكم . زرعتم كثيراً ودخلتم قليلا . تأكلون وليس إلى الشبع ، تشربون ولا تروون ، تكتسون ولا تدفأون ، والآخذ أجرته يأخذ أجرة لكيس منقوب » (حج ١ : ٤ — ٦) .

وهنا يواجهنا البعض بالسؤال : العشور نظام عهد الناموس نحن فى نظام عهد النعمة لسنا تحت ناموس . وهذا صحيح لكنه هذا لا يعنى أننا محلولون من دفع شىء للرب . كل وصية فى الناموس تجد إتمامها فى عهد النعمة وأكثر من إتمامها . بل ذات القلب يتغير . إن الفرق الذى أتى به عهد النعمة هو :

(أ) ليس الناموس واسطة خلاصنا بل نعمة المسيح .

(ب) نحن نتمم مطاليب الناموس وأكثر ليس خوفاً بل من حياة إنسان جديد غيرته النعمة . وقد أمر الرب يسوع أن ندفع العشور ، ولكنه فى نفس الوقت لا نترك الوصايا الأخرى . لكن هل ندفع عشوراً ؟ للرب الكل . نحن ومالنا لمن اشترانا . ومن يد الرب نعطيه . أى ما لم يزد على العشور على الأقل يجب أن تكون العشور ، وبروح أسمى من روح العشور .

ترك البعض تقديم العشور وأهملوا بيت الله . لهذا منع عنهم الرزق وعظمت عليهم الخسائر —

وواضح أن هذا عمل الرب .

٤ — وقد يمنع الرب الرزق عن الكسلان . قال مثلهم : « يرزق العمال والبطال والنايم على جنبه ! » فهل ينادى مثلهم بالبطالة والكسل ؟ قد يرزق الكسلان مرة أو بضع مرات ؛ ولكن ليس إلى الأبد ، وقد يرزق كسلان ولكن ليس كل الكسالى . إن الشاذ لا يمكن أن يعمم كقاعدة ... أما القاعدة أصلا فهى أن المجتهد هو آخذ نصيبه والكسلان محروم . وإليك الدليل من الكتاب المقدس :

« عبرت بحقل الكسلان وبكرم الرجل الناقص الفهم فإذا هو قد علاه كله القريص ، وقد غطى العوسج وجهه ، وجدار حجارته انهدم ، ثم نظرت ووجهت قلبى رأيت وقبلت تعليما . نوم قليل بعد نعاس قليل وطى اليدين قليلا للرقود ، فيأتى فقرك كعداء وعوزك كغاز » (أم ٢٤ : ٣٠ — ٣٤) . ومن اهتمام الوحى بهذه النتيجة أن كررها مرتين (أولا فى أمثال ٦ : ٦ — ١١ ثم الموضع أعلاه) . على عكس دعاة الكسل فى مثلهم .

إن النائم على جنبه = « النفس المتراخية تجوع » (أم ١٩ : ٥) . وبنفس المعنى ترد فى كلمات أخرى « نفس الكسلان تشتهى ولا شىء لها » وبالعكس « ونفس المجتهدين تسمن » (أم ١٣ : ٤) . والسبب فى جوع الكسلان أنه « لا يحرث فى الشتاء فيستعطى فى الحصاد ولا يعطى » (أم ٢٠ : ٤) .

سأعود إلى هذا الموضوع عندما أتكلم عن مسئولية الإنسان ولست أريد أن أخوض فيه هنا . لكن يكفى أن يأخذ الأمر من جهة عمل الرب أنه يحرم الكسلان .

(٤)

حتى الآن تأملنا معا فى قضاء الله — هبة رزق الإنسان فهل هذا يسمح بعد بمسئولية على الإنسان . هل له يد فى رزقه .

قلت : الخيط مقطوع ، أى حينما يتكلم عن هبة رزق الإنسان كأن الله يمنح من يريد ، ويمنع من يريد ولا يد للإنسان . وحين يتكلم ، من الجانب الآخر فى مسئولية الإنسان كأن الله لا شأن له فى هذا الأمر . كيف هذا ؟ هذا هو الأمر الذى رأيناه من قبل فى كل قضاء الهى . وقد رأينا فى هذا الموضوع ذاته أمثلة تجمع الاثنين كليهما . ثم رأينا قضاء الرب على حدة . ولننظر الآن فى مسئولية الإنسان على حدة أيضاً .

أوجب الرب الإله العمل على الإنسان منذ البدء من عهد آدم . ويخطىء البعض إذ يظنون أن العمل عقاب وتذنيب للإنسان بسبب خطيته لأن العمل كان سابقاً للخطية . أما العقاب فهو التعب فى العمل ؛ لأن الإنسان يفلح أرضاً ملعونة كلما عمل فيها خرج له فيها الشوك والحسك !! . « ملعونة الأرض بسببك . بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك وشوكاً وحسكاً تنبت لك وتأكل عشب الحقل . بعرق وجهك تأكل خبزاً » (تك ٣ : ١٧ — ١٩) . هذا هو العقاب الذى استجد

على العمل . أما العمل ذاته فيقول عنه قبل ذلك « وأخذ الرب الإله آدم ووضعه فى جنة عدن ليعملها ويحفظها » (تك ٢ — ١٥) . أى أنه منذ البدء قال الله بأن على الإنسان أن يسعى لكى يكسب رزقه .

والرب يسوع ذاته آدم الثانى مثالنا وقدوتنا فى أسمى الحالات بلا خطية وبلا ذنب أو تذنيب قضى كل حياته عاملا سواء كنجار ، أو كمعلم ، أو صانع معجزات ، أو فاعل مشيئة الذى أرسله (إقرأ مر ٦ : ٣ ، مر ١ : ٣٧ — ٣٩ ، أع ١٠ : ٣٨ ، يو ٤ : ٣٤ ، ٦ : ٣٨ و ٤٠) .

وقد علم بالاجتهاد فى العمل وقد رأينا هذا قبلا .

كذا علم بولس الرسول : « غير متكاسلين فى الاجتهاد » (رو ١٢: ١١) ودائماً كان شعاره : « نتعب عاملين بأيدينا » (١ كو ٤ : ١٢) . وقد جعل عمله هذا أساس تعليمه للمؤمنين أن يكسبوا رزقهم بالاجتهاد ، والعمل متخذين مرشديهم قدوة ؛ فكان يعمل كخيام (= صانع خيام) (أع ١٨ : ٣) . ويعلم عن هذا قسوس أفسس فقال لهم : « أنتم تعلمون أن حاجاتى وحاجات الذين معى خدمتها هاتان اليدان ، فى كل شيء أريتكم أنه هكذا ينبغى أنكم تتعبون وتعضدون الضعفاء » (أع ٢٠ : ٣٤ و ٣٥) . وكذا قال لأهل تسالونيكى فى كلتا رسالتيه بأن يكسبوا قوتهم بالكد والتعب مثله ، وأن من لا يعمل لا يستحق طعامه فضلا عن رزقه أو أجرة . (١ تس ٢ : ٩ ، ٢ تس ٣ : ٦ — الخ) .

إن المبدأ السامى الذى قرره الرب يسوع وبولس الرسول « الفاعل مستحق أجرته » (مت ١٠ : ١٠ ، لو ١٠ : ٧ ، ١ تى ٥ : ١٨) يعنى أن يكسب الإنسان رزقه بالعمل وبلا عمل لا استحقاق له فى لأجر — لا رزق .

(٥)

ويمكننا أن نلاحظ مسئولية الإنسان عن رزقه سلبياً أيضاً . فنجد أنه لا رزق للكسول . وقد بدأنا حديثاً عن هذا الأمر حين كنا نتأمل كيف يمنع الله الرزق عن الكسول .. فنرى أن الله يحتم مسئولية الإنسان وينهى عن الكسل . وأريد هنا أن نرى هذه النواهى ؛ وهكذا أن نرى أن فى عدم الاجتهاد ، وفى الكسل حرمان من الرزق :

يرد فى أمثال سليمان الحكيم أقواله الموحى بها فى هذا الشأن وقد أوردت بعضها وإليك بعضاً آخر :

« العامل بيد رخوة يفتقر أما يد المجتهدين فتغنى » (أم ١٠ : ٤) . وهنا لا يكتفى بأن الكسلان يفتقر ، بل حتى العامل ولكن ليس باجتهاد كامل يفتقر . وقد وضع اللوم على تلك اليد الرخوة فى انعدام رزقها ؛ ذلك لأن « الرخاوة لا تمسك صيداً أما ثروة الإنسان الكريمة فهى الاجتهاد » (١٢ : ٢٧) .

ولا يكتفى بأن يصف الكسلان بأنه واقف فى طريق رزقه الآن ، بل أكثر من ذلك فإنه يهدم

رزقه الموجود إذ يقول عنه : « أيضاً المتراخي في عمله هو أخو المسرف » (أم ١٨ : ٩) . وكذا يشبهه بالسكير : « لأن السكير والمسرف يفتقران والنوم يكسو الخرق » (٢٣ : ٢١) . وهكذا تكون نتيجة الغنى الكسول الفقر ، مثل نتيجة المسرف والسكير إن « من له يعطى فيزداد ومن ليس له فالذى عنده يؤخذ منه » (مت ٢٥ : ٢٩) .

وقد يظن الكسول أن يخلد للراحة حين يستسلم للكسل لكنه فى الحقيقة يغير عملا بآخر ، فيترك عملا مجهداً مجزياً إلى عمل ساكن هدام . لأنه لابد أن تتحرك اليد فبدلا من أن تبنى تهدم ، وتتحرك الرجل ، فبدلا من السعى إلى الرزق تسعى إلى الإنفاق ، وطالما وجد ما ينفقه أسكرته لذة قضاء احتياجاته بلا عناء فيأتى الوقت الذى فيه ينهى كل ما ادخر : فتشتهى نفسه ولا شيء لها (١٣ : ٤) ويستعطى ولا يعطى (٢٠ : ٤) .

لهذا يقدم الحكيم النصيحة اللاذعة : « اذهب إلى النملة أيها الكسلان . تأمل طرقها وكن حكيما . التى ليس لها قائد أو عريف أو متسلط وتعد فى الصيف طعامها وتجمع فى الحصاد أكلها . إلى متى تنام أيها الكسلان ؟ متى تنهض من نومك . قليل نوم بعد قليل نعاس . وطى اليدين قليلا للرقود فيأتى فقرك كساع وعوزك كغاز » (أم ٦ : ٦ — ١١) .

إن الكسل رذيلة تقود إلى رذائل أخرى منها الفضول كما يقول بولس الرسول : « لأننا نسمع أن قوماً يسلكون بينكم بلا ترتيب لا يشتغلون شيئاً بل هم فضوليون ! » (٢ تس ٣ : ١١) . وكذا إلى الاتكالية ، لأن من لا يعمل يعتمد على غيره حتى لو كان الميراث الذى يرثه وهذا نقص فى الشعور بالمسئولية ، ونقص فى ذات الشخصية . لهذا يقول الحكيم سليمان : « يد المجتهدين تسود أما الرخوة فتكون تحت الجزية » (أم ١٢ : ٢٤) . وكذا « أرأيت رجلا مجتهداً فى عمله أمام الملوك يقف ، لا يقف أمام الرعاع » (أم ٢٢ : ٢٩) . وواضح أن الكسل قبل أن يخفض مقام أولئك قد خفض حالهم ورزقهم ، وأساء إلى مظهرهم ومعاملاتهم .

أجل الإنسان مسئول عن رزقه ويجب أن يعمل ويجتهد بلا كسل وفى نشاط دائم . هكذا أمر الله وهكذا يوصى الكتاب وهكذا اختبار كل البشر . وهكذا يجب أن نسلك كمؤمنين : أن نتعب عاملين الصالح بأيدينا ليكون لنا أن نعطى من له احتياج » (أف ٤ : ٢٨) . وطبعاً مفهوم ضمنا أن نرزق لأنفسنا ويزيد عنا فنعطى .

(٦)

قلت لا نريد أن نربط الخيط المقطوع لأننا لا نستطيع لكن كلا الطرفين صحيح بشرط ألا نفرض عدم وجود الآخر : أى أن الرزق هبة من الرب لكنّ الإنسان فى نفس الوقت مسئول أن يجتهد . وكما سبق فقلت إن الإنسان مسئول أن يجتهد ليس رغماً من أن الله حدد رزقه ، ولكن بالحرى لأن الله منح له رزقاً فيجب أن يجتهد لنواله . لأن من دون عمل الرب لا جدوى للمجهود . لكن لأن الرب يرزق فللعمل أجر ونجاح ، إن قضاء الله يفتح باب الأمل ، وقد اتضح هذا المبدأ على قياس ما سبق فى موضوعات أخرى .

لكن الأمر الذى ينبغى أن نسلم به هو : رغم عدم فهمنا كيف يجتمع الطرفان معاً فإنهما لا يتناقضان فى تدبير الله لنا . وقد رأينا كيف اجتمعا معاً سواء فهمنا اتفاقهما أم لا . ذكرت بعض المقارنات فى بدء هذا الموضوع وأريد هنا أن أذكر شيئاً آخر لأعمق به الفكرة أنه ليس بالرغم من نعمة الله نحن نجتهد ولكن بحكم نعمة الله نحن نجتهد وبتشجيع هذه النعمة .

واضح جداً أن مثل الفعلة فى الكرم (مت ٢٠ : ١ — ١٥) يتحدث جلياً عن نعمة الرب : « أريد أن أعطى هذا الأخير مثلك ، أو ما يحل لى أن أفعل ما أريد بمالى ؟ » (ع ١٤ و ١٥) وفعله ما يريد بماله أن يزيد حسب غنى نعمته ولا يظلم : فإن ساوى هذا بذاك ليس إلى أدنى (فيكون قد ظلم من له أكثر) بل إلى أعلى (وهكذا أنعم على من له أقل) . هذا هو عمل النعمة . لكن هذا المثل ذاته الذى فيه التنبير على النعمة ينبر أيضا على المسئولية : « فقال لهم : لماذا وقفتم ههنا كل النهار بطالين ؟ » وهم أظهروا قبولهم للمسئولية وعدم تكاسلهم . وأن الأمر خارج عن إرادتهم إذ لم يستأجروهم أحد . فأمرهم صاحب الكرم بالعمل . (ع ٦ و ٧) حينما نتأمل فى كيف قدرت لهم الأمور ، نتأمل فى نعمة الرب . وحينما نتأمل فى الأوامر نتأمل فى مسئولية الانسان .. ونحن ننظر إلى كل منهما على حدة حسب فكرة الخيط المقطوع الذى قصد الرب أن يظل هكذا ليس لكى نسأل أو نحاول جاهدين أن نوفق . بل لكى يتعمق فينا النظر إلى مسئوليتنا كأن الله لا دخل له فى رزقنا ، لكى نجرى ونجتهد ونعمل نحو رزقنا .

(٧)

ومع أننا لا نطالب بالتوفيق بين الفكرين لكن أرجو أن أجيب عن بعض المسائل التى تواجهنا ونحن أمام هبة رزق الإنسان ومسئوليته عن رزقه بحسب ما يلقيه الكتاب عليها من نور .

نعم نحن لا نربط الخيط المقطوع ، ولكن توجد فى أذهاننا أسئلة كثيرة لها وقعها الفكرى والاجتماعى علينا لا يجوز أن نتغاضى عنها ، وأريد هنا أن نعطيها بعض الاهتمام .

١ — هل يتعارض عدم الاهتمام مع الاجتهاد لأداء العمل نحو طلب الرزق ؟

أكاد أقول إن سبب هذا التساؤل عدم فهم معنى الاهتمام من جهة ، ومن جهة أخرى تجاهل مطلب الرب ممن ينصحهم بعدم الاهتمام .

ما معنى الاهتمام ؟ هل يقصد عدم التفكير ؟ أو عدم الإعداد ؟ كلا .. الكلمة فى الأصل اليونانى[1] يتقسم بالأثقال أو الهموم أو يتمزق تحت وطأتها . فحين قال الرب « لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لأجسادكم بما تلبسون » (مت ٦ : ٢٥) ، لم يقصد لا تفكروا أو ترتبوا أموركم أو تسعوا لكسب الطعام والشراب واللباس ؛ بل قصد أن لا تمزقكم

(١) هذه الكلمة تتكون من كلمتين فى اليونانى الأولى بمعنى ينقسم (مت ١٢ : ٢٧) ، والثانية التى ذكرت كما هى هنا (لو ٢٩ : ١٦) وهى صنجة تستعمل للرزق تعنى ثقلا حين لا تستعمل للدلالة على صنجة الميزان أو ما يساويه من النقود .

الحيرة والارتباك من جهتها (لو ١٢ : ١٩) . أن نبعد « هموم هذا العالم » التى تخنق الكلمة (مر ٤ : ١٩) .

وحين عقد مقارنة بين الإنسان والطيور ، وبصفة خاصة الغربان (لو ١٢ : ٢٤) (وبالذات هذا الطير الذى لا يعتنى بصغاره) (أى ٣٨ : ٤١ ، مز ١٤٧ : ٩) عقد مقارنة ليس من جهة الأعداد لأن الإنسان يختلف عنها ، ومن طبعة أن يعمل — بل المقارنة هى تشابه الصنفين الإنسان والطير من حيث كونه موضع اهتمام الله . ونفس الشيء بالنسبة للباس ليس المقصود أن يركب الإنسان كالزهرة على عود ولا يغزل ثوبه وينسجه ، بل أن كليهما موضع عناية الله ، وعلى الجميع ألا ينزعجوا ، بل على الإنسان أن يعمل واجبه تاركاً فكرة النجاح والنتائج على الله المعتنى : أن يتكل على الرب أولا ، وأن يفعل الخير ثانياً (مز ٣٧ : ٣) فيتم له الوعد « كنت فتى وقد شخت ولم أر صديقاً تخلى عنه ولا ذرية له تلتمس خبزا » (ع ٢٥) .

مطلوب من الطائر أن يطير يجمع طعامه .. بل حتى فرخ الغراب أن يفتح فمه فيستقبل خيط الحشرات النازل عليه من عند الله . وحتى الزهرة عليها أن تمتص عصارة الأرض وطاقة الشمس وثانى أكسيد الكربون من الهواء وتجهزها لنفسها أفلا يطلب بالأولى من الإنسان العاقل أن يعمل ؟ بلى لكن حرم عليه الهم لأنه عدم إيمان .

٢ — هل يؤمن الرب على تصرفات الذين يريدون أن يغتنوا بأى طريق ؟ مثلا يذكر الكتاب عن عمل يعقوب لكى تلد المواشى ما يريد هو حسب الاتفاق بينه وبين خاله (تك ٣٠ : ٣١ الخ) وبغض النظر عن فكرة الوحم والنظرة إليها علمياً ، المهم أن يعقوب يقول لزوجته : « فقد سلب الله مواشى أبيكما وأعطانى (تك ٣١ : ٩) : ونحن نخطىء عندما نفتكر أن الله أعطى يعقوب بنفس المعنى الذى طلب يعقوب أن يصل إليه ؛ أن يغتنى على حساب خاله . ولو أن هذا لا يبرىء يعقوب من النية الرديئة . أما عن عطية الرب فلقصد عنده منعها من لابان — هى ليست غنم لابان أخذها الله وأعطاها ليعقوب . هى للرب . (أنظر خر ١٩ : ٥ ، لا ٢٥ : ٣٣ ، أى ٢٩ : ١٤ ، مز ٢٤ : ١ ، ٥٠ : ١٠ ، ٦٠ : ٧ ، ٨٩ : ١١ ، حج ٢ : ٨) . والرب له الحق أن يعطيها لمن يشاء قصد أن يعطيها ليعقوب لا للابان .. أما يعقوب فحسابه على « قصده » الشرير فله باب آخر وقد حاسبه الرب على ذلك . وهكذا لا يؤمن الرب على أفعال من يريد أن يغتنى على حساب الآخرين .

يحرم الرب السرقة (خر ٢٠ : ١٥ ، أف ٤ : ٢٨) يحرم الرب جحد الوديعة (٦ : ١ — ٤) يحرم الرب ظلم الأجير (إر ٢٢ : ١٣ — ١٦) يحرم الرب الغش فى المكيال والميزان (عا ٨ : ٥ و ٦) والاستغلال (إش ١ : ٢٢ ، عا ٨ : ٦) .

أن يكسب الانسان رزقه هذا جميل ، ولكن أن يشتهى ما لغيره فهذه خطية ، والتطلع إلى الغنى إطلاقاً كهدف خطية لأنه عبادة للمال (مت ٦ : ٢٢ — ٢٤) « لأن محبة المال أصل لكل الشرور الذى إذ ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة » (١ تى ٦ : ١٠) . لذا

فإن محب المال لا يتورع عن أن يأتى أى جريمة وأى ظلم . لأن من يريد أن يكون غنياً لابد أن يسقط فى تجربة وفخ وشهوات كثيرة ومضرة تغرق الناس فى العطب والهلاك » (ع ٩) .

اسع نحو رزقك ولكن أهجر الطرق الملتوية للكسب . عش فى خوف الله الذى يرى ويسمع . ويعتنى أيضاً .

٣ — هل أقوال الرب يسوع « لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض » ؛ « خبزنا كفافنا أعطنا اليوم » ؛ « فلا تهتموا للغد لأن االغد يهتم بما لنفسه يكفى اليوم شره » تحرم الادخار ؟

هذه لا تعارض فكرة الادخار : الآية الأخيرة رأينا فيها فكرة الكتاب بأن الخطأ هو الهم وليس الترتيب . فيمكن أن نرتب للغد (ونقول إن شاء الرب وعشنا) . ولكن لا يجوز أن ننشغل ونتزعج للغد لأن الرب قال : « لا أتركك ولا أهملك » . والآية الثانية تعنى ذات الشرع فى صلاتنا . إذ أننا حين تواجه الغد نلقيه بإيمان على الله لهذا حتى الصلاة من أجله لا تذكر هنا . لكننا حين نواجه اليوم وحاجات اليوم (خبزاً وغير خبز — كل ما يتصل بالجسد) نطلبه من الرب — أما الادخار فلا يعارض أن تصلى من أجل حاجة اليوم . لأنه بكل بساطة إذا كان ليس لدى ما يكفى يومى فمن أين آتى بما أدخره لغدى ؟ أما الآية الأولى فلها موضوع آخر وهى لا تعارض فكرة الإدخار . تكملتها « لأنه حيث يكون كنزك فهناك يكون قلبك أيضا « والادخار ليس ما يوضع عليه القلب ، بل إيداع شيء من فائض اليوم لحاجة الغد ويشترط أن يكون ترتيباً طبيعياً وبلا هم » .. إن ما يعارضه الرب يسوع هو ما قاله الغنى الغبى « لأن لك خيرات كثيرة موضوعة لسنين كثيرة » (لو ١٢ : ١٩) . هى موضوعة فى مخازن عظيمة وقلبه موضوع عليها . كما أن كنوز ذلك العصر هى الثياب ، معرضة للعث (يع ٥ : ٢) النقود معرضة للصدأ (يع ٥ : ٣) والثمار يأكلها السوس فى المخازن . لذا قال الرب هذه كنوز لا تجدى . وواضح أن الادخار بعيد عن هذا الأمر .

لكن من الوجهة الأخرى تجد فى الكتاب ما يبرر الادخار بل يوصى به فى بعض الأحيان :

كان الإدخار الذى نادى به ونفذه يوسف ادخار القمح فى مصر بإعلان من الله (تك ٤١ : ٣٣ — ٣٦) . وكان الادخار الذى نادى به بولس حين جميع تقدمات من أجل المسيحيين فى فلسطين من أجل جوع عتيد أن يكون أيضاً (أع ١١ : ٢٨ — ٣٠) وكلمات بولس الرسول فى هذا الصدد هى الإدخار بمعنى الكلمة (١ كو ١٦ : ١ — ٤) . ورغم أن الرب يسوع يعلم كيف يطعم تلاميذه فى الوقت المناسب ، وقد أطعمهم والآلاف أ يضاً من الخبزات القليلة لكنه قال أيضاً « اجمعوا الكسر الفاضلة لكى لا يضيع شيء » (يو ٦ : ١٢) . ومع أن الرب المعتنى الذى قال أنا نصيب اللاوى والكهنة (تث ١٨ : ١ — ٨) فهو يدعو وبتشديد « أن هاتوا جميع العشور إلى الخزنة ليكون فى بيتى طعام » (مل ٣ : ١٠) . كان الرب يعول شعبه قديماً فى البرية معطياً إياهم الطعام المسمى « المن » وكان يقدمه لهم ستة أيام وأما اليوم السابع فلا . لذلك طلب منهم أن يدخروا طعام يوم كامل للغد (خر ١٦ : ٢٢ — ٣٠) .

لا غبار على الادخار فى شتى أنواعه طالما أنه (١) بلا هم . (٢) محفوظ ليوم الحاجة من

يوم فائض . (٣) ليس متكل صاحبه ، بل واسطة نقدمها فى يد الرب باعتباره هو معطى هذا الآن لذلك اليوم . (٤) مع القول إن شاء الرب وعشنا .

وإلا فما رأيك فى من يتقاضى مرتبه شهرياً أو موسمياً أو سنوياً أينفقه فى يومه ثم يوزع الباقى أو يبدده ، أو « يستدين » ثم يسدد حين ينال شيئاً ! الادخار والتخطيط ترتيب : أما الدين خطية ! وما يصدق على التخطيط لموسم يصدق على التخطيط حتى لعمر بشرط أن هذا لا ينسينا أن حياتنا بخار ، لهذا لم يكن ادخارنا لنا ، كان لمن بعدنا .

٤ — هل الغنى خطية ، ومهلك ، ومعطل للخلاص ؟ وإذا كان الرب هو واهب الرزق فهل يصدق هلاك الذين وهبهم !؟

الغنى معطل للخلاص ومهلك أحياناً شأنه كشأن أى نعمة وبركة ونجاح وامتياز ، وهذا يعتمد على موقف الإنسان منه فقد يسىء الإنسان استعماله ، وقد يحسن ، وعلى موقف الإنسان تترتب النتائج . لهذا فهو ليس خطية ولكن الخطية هى فى سوء استعماله . ولو نمتحن كل الفصول الكتابية التى تتحدث عن خطر الغنى نجد هذا الأمر واضحا أنه ليس فى الغنى ذاته بل فى الاستعمال السيىء . أما الغنى فبركة من الله .

(أ) هناك تعقيب الرب على ترك الغنى له حزينا لأنه كان ذا أموال كثيرة : « ما أعسر دخول ذوى الأموال إلى ملكوت الله » فتحير التلاميذ من كلامه فأجاب يسوع أيضاً وقال لهم « يابنى ما أعسر دخول المتكلين على الأموال إلى ملكوت الله » (مر ١٠ : ٢٣ — ٢٤) اقرأ كل القصة فى (مت ١٩ : ١٦ — ٢٩ ، مر١٠ : ١٧ — ٢٥ ، لو ١٨ : ١٨ و ٢٥) .هنا المال متكل الغنى ، عطله من أن يتكل على المخلص ؟ المال متعة الغنى عطله من سلوك طريق إنكار الذات فى التلمذة .

(ب) وقد فسر الرب سر فشل المزروع بين الشوك بأن « هم هذا العالم وغرور الغنى يخنقان الكلمة فيصير بلا ثمر » .ليس إذا الغنى بل « غرور الغنى » .

(ج) وخطأ الغنى الذى أخصبت كورته (لو ١٢ : ١٦ — ٢١) ليس فى كونه غنى بل فى كونه « يكنز لنفسه وليس هو غنياً لله » ولهذا يجعله الرب يسوع عبرة ، ويحذر من سلوكه قائلا : « انظروا وتحفظوا من الطمع : فانه متى كان لأحد كثير فليست حياته من أمواله » — (ع ١٥) والطمع ، والإثرة ، والاتكال على المال كانت أخطاء ذلك الغنى .

(د) ويوجد فرق بين من يشتهى الغنى ، من يحب المال ويبتغيه ، ومن يعطى الغنى الأول « يسقط فى تجربة وفخ وشهوات كثيرة غبية ومضرة تغرق الناس فى العطب والهلاك . وأما الثانى فيسعى فى طريق السلامة (١ تى ٦ : ٥ — ١٠ قارن ع ١٧ — ١٩) .

(هـ) يخطىء الغنى عندما « يتسلط » و « يجر » الآخرين إلى المحاكم و « يجدف » على الاسم الحسن (يع ٢ : ٦ و ٧) . وهذه الأشياء آتية من قلب الغنى المتكبر لا من الغنى فى حد ذاته .

(و) ويتوعد الكتاب الأغنياء ويعلن أن نصيبهم الشقاوة القادمة ، وخسارة الغنى ذاته ، ليست لمجرد كونهم أغنياء ، بل بسبب ظلمهم الفعلة الذين استخدموهم ، والتنعم وتربية القلوب كما فى يوم الذبح (أى أكلوا كدهم) والحكم الجائر على البار الذى لا يستطيع أن يقاوم سطوة الغنى (يع ٥ : ١ — ٥) .

(ز) ويعلن الكتاب أن محبة الله لا تثبت فى الغنى ليس لمجرد كونه غنى بل لأنه أغلق أحشاءه على المعتاز (١ يو ٣ : ١٧) .

من هذا كله نرى أن الغنى ليس خطية فى ذاته بل الخطية فى الإساءة التى بها يسيء الغنى . والإنسان أصلا مسيء ما لم يغيره الرب . وسواء كان الإنسان غنياً أم لا فإنه من ذاته لا يستطيع أن يخلص بذات استحالة دخول جمل من ثقب إبرة لأن بالجهد الشخصى لا يقدر أحد أن يخلص بل بالنعمة .

لكن من جهة أخرى أريد أن نرى أناساً عمل فيهم الرب وعاشوا حياة القداسة ونالوا المجد وهم أغنياء : ابراهيم « كان .. غنياً جداً » (تك ١٣ : ٢ ، ٢٤ : ٣٥) صار أبا المؤمنين ودعى خليل الله (رو ٤ : ١١ ، يع ٢ : ٢٣) . سليمان « تعاظم .. على كل ملوك الأرض فى الغنى والحكمة (١ مل ١٠ : ٢٣) ورغم زيغانه وقتا ما لكنه رجع للرب ، وسفر الجامعة يرينا جمال حياة الغنى المكرس (اقرأ جامعة) . وحزقيا الملك عنده من الغنى ما يمكنه من الصمود فى حرب ضد ملك قوى (٢ مل ٢٠ : ١٢ — ١٨) سار أمام الرب بالأمانة وبقلب سليم (٢ مل٢٠ : ٣) . وأيوب « أعظم كل بنى المشرق » (أى ١ : ٣) كان رجلا كاملا ومستقيما يتقى الله ويحيد عن الشر » (ع ١) . ويوسف الرامى (مت ٢٧ : ٥٧) كان تلميذاً ليسوع وزكا الذى كان غنياً شريراً (لو ١٩ : ٢) حصل على الخلاص مع أهل بيته وصار ابن ابراهيم (ع ٩) . وليديا بياعة الأرجوان (أع ١٦ : ١٤) آمنت واعتمدت (ع ١٥) . وسرجيوس بولس والى قبرس (أع ١٣ : ٧) آمن مندهشاً من تعليم الرب (ع ١٢) . وفليمون الذى له قدرة أن يمتلك عبداً ويقدر أن يعول الرسول فى زيارته (فل ١ : ٢٢) ليس مجرد مؤمن بل الكنيسة فى بيته وابنه أرخبس خادمها (ع ٢) .

لهذا يوصى الكتاب الأغنياء « أن يزدادوا فى كل عمل صالح » « ويفرقوا » (٢ كو ٩ : ٨ — ١٠) « وأن لا يستكبروا ولا يلقوا رجاءهم على الغنى ، بل على الله الحى الذى يمنحنا كل شيء بغنى للتمتع . وأن يصنعوا صلاحاً وأن يكونوا أغنياء فى أعمال صالحة ، وأن يكونوا أسخياء فى العطاء ، كرماء فى التوزيع ، مدخرين لأنفسهم أساساً حسنا للمستقبل لكى يمسكوا بالحياة الأبدية » (١تى ٦ : ١٧ — ١٩) .

٥ — أنعطى المحتاج ؟ بفكرة أن الله لو قصد أن يعطيه لأعطاه — ولو استحق لأخذ ؟ إلى أى حد نطبق قول الحكيم : « فيستعطى ولا يعطى » (أم ٢٠ : ٤) .

الذى يحرم من العطاء هو الكسول كما يظهر من أول الآية المذكورة : الكسلان لا يحرث بسبب

الشتاء فيستعطى فى الحصاد ولا يعطى » . ولا يشترط أن يكون الفقير شريراً بالعكس قد يكون « غنياً فى الإيمان » (يع ٢ : ٥) وقد يغنى كثيرين (٢ كو ٦ : ١٠) . وحتى غير المؤمنين لم لا نعطيهم ؟ إننا لا نعطي لاستحقاق من يأخذ ، بل من طيبة من يعطى .

والكتاب فى أماكن كثيرة يعلم بأن نعطي ونزداد فى كل عمل صالح كما هو مكتوب : « فرق أعطى المساكين بره يبقى إلى الأبد » (٢ كو ٩ : ٨ ــ ١٠) . وهكذا يثبت الشرير الذى يسرق أنه تغير بأن يعطى من له احتياج (أف ٤ : ٢٨) . وزكا المختلس الذى وعد أن يعطى نصف أمواله للمساكين ، وامتدح الرب ذلك (لو ١٩ : ٨) بل أمر الرب بذلك صراحة : بيعوا ما لكم وأعطوا صدقة . اعملوا لكم أكياساً لا تفنى ، وكنزا لا ينفد فى السماوات حيث لا يقرب سارق ، ولا يبلى سوس ، لأنه حيث يكون كنزكم هناك يكون قلبكم أيضاً » (لو ١٢ : ٣٣ و ٣٤) .

وسليمان الحكيم ذاته الذى قال : « فيستعطى ولا يعطى » (المشار إليها قبلا) . يقول « من يرحم الفقير يرحمه الرب » (أم ١٩ : ٧) وليس أقوى من هذه العبارة تعبير يأمر بالعطاء . لمن ؟ : للمحتاج ، كيف ؟! الطريق المنظم أفضل ، وفى الخفاء .

(٨)

وختاماً أريد أن أذكر بعض المبادىء التى يجب أن لا تغيب عن بالنا فى هذا الأمر :

١ ــ **الرب هو واهب الرزق** وهذا مشجع للإنسان لكى يقوم بمسئوليته نحو الحصول على هذا الرزق .

٢ ــ **الكسل خطية** يجب أن يكون المؤمنون المتكلون على الرب أبعد ما يمكن عنها .

٣ ــ **يجب الابتعاد عن أى طريق معوج** فى الحصول على الرزق وكذا الابتعاد عن أى طريق معوج فى إنفاقه أيضا .

٤ــ **الاستعداد للغد شىء آخر غير الاهتمام بالغد** ، ويجب أن لا نترك المستقبل مفتوحاً فى إهمال وتواكل فإن كانت مشيئة الرب أن نعيش ليتمجد إسمه فى ما رتب لنا عن طريق الادخار ، وإلا فانه يتمجد فى من بعدنا .

٥ ــ **أمر الرب اجمعوا الكسر** وهذا يجعل مبدد ماله والمفرط فى أصغر الأشياء سائراً ضد طريق الرب يسوع وضد طريق الرب الرازق .

٦ ــ طالما أن الرب هو الرازق فكوننا نعمل للحصول على الرزق لا يمنع من **الاعتراف بجميل الرب** متمثلا فى تقديم تقدماتنا للرب . لهذا يجب الأمانة فى تكريس مالنا للرب وأقل ما يمكن العشور .

٧ ــ إذا كان الرب يعطى فنحن على مثاله يجب أن نعطى . وليكن هذا من قبيل تقديم الرب رزق آخرين عن طريقنا .

جدوى الصلاة

« إن طلبنا شيئاً حسب مشيئته يسمع لنا » (١ يو ٥ : ١٤)
« لستم تمتلكون لأنكم لا تطلبون » (يع ٤ : ٢)

يسأل السائل : هل من جدوى للصلاة ؟ هل أحصل على ما أطلب بناء على طلبى أم بناء على مشيئة الله . وإذا كانت مشيئة الله تتحكم فى استماعه لى فما جدوى طلبتى ؟ وكيف فى هذه الحالة يقول لستم تمتلكون لأنكم لا تطلبون ؟!

أو فى صورة أخرى : هل تؤثر صلاتى على مشيئة الله ؟ أو تلغى مشيئة الله صلاتى ؟

(١)

وقبل أن ندخل فى هذا الموضوع أريد أن نلقى نظرة إلى الغرض من الصلاة كما يراه البعض :

١ ــ يرى البعض الصلاة واجباً إن فعله يثاب عليه . وفعلا كان ينظر الكثير فى وقت المسيح إلى الصلاة هكذا (مت ٦ : ٦) وخرجوا عن طلب ثواب الله لكى يمجدوا من الناس ، فإذا بهم فى رياء يصلون لكى يظهروا للناس ، وقد وبخهم الرب لذلك . على أن المسيحية لا تنظر إلى الصلاة كواجب لأن زمن النعمة لا يقوم بالفرائض والنواهى (كو ٢ : ٢٠ ــ ٢٣) .

٢ ــ يرى البعض الصلاة شركة مع الله . وهى فعلا هكذا ، بل الصلاة فى شركتها تسمو بالإنسان جداً وتجعله فى جو إلهى . لكن هؤلاء بالنسبة لهم لا يجوز أن تكون الصلاة طلبة . وفى رأيهم أن نبقى مع الله وأن نحس بوجوده ، فهو أمامنا ، وعن يميننا لكى لا نتزعزع ، أما الطلبة فلا تليق بأناس إلههم يعلم ما يحتاجون إليه قبل أن يسألوه وهو يعطيهم قبل أن يسألوه . أما أن الله يعلم قبل أن نسأله فهذا صحيح ، وأما أنه يعطينا قبل أن نسأله فهذا ليس دائما صحيح ، بل ربما نادراً صحيح . لأن الكتاب يقول « لستم تمتلكون لأنكم لا تطلبون » . ولنا أمر الرب : « اسئلوا . أطلبوا . اقرعوا » .

٣ ــ ويرى البعض فى الصلاة طلبة ولكن لا يجب أن نطلب الماديات . إن طلبة الماديات طلبة حقيرة . لهذا يجب أن نطلب ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لنا (مت ٦ : ٣٣) . ويبدو أن هذا كلام معقول وصواب لأنه نص كلام الرب يسوع . لكن هؤلاء لم يفهموا أمرين :

(أ) الأول مركز فى كلمة « أولا » وأن كلمة تزاد لا تعنى أنها تعطى بلا طلبة .

(ب) والثانى فى معنى كلمة « اطلبوا » : ارجع لما قبل الآية المذكورة هنا تجد أن القرينة تفيد بأن المقصود بكلمة أطلبوا : « اهتموا » أنظر (لو ١٢ : ٢٩) ، وفى هذه الحالة يكون المعنى أن نرفض الهم من جهة الأمور المادية وأن يكون همنا الوحيد ليس ما نأكل وما نشرب كالأمم ، بل

أن نلقى هذه على الله فى الصلاة وأن « نهتم » بملكوت الله وبره .

٤ — والبعض يرى فى الصلاة تمريناً روحياً وفى رأيهم أن نطلب ما نطلب وليعطنا الرب ما يعطينا وأما ما يرفض فهو يرينا أن الرب لا يريد هذا : أو الصلاة اختبار لما هية إرادة الله — للعلم بالشىء ! ومن المؤسف أن يأخذ أحد بهذا الرأى كأنه يقول إن الله غير جاد فى أمره لنا بأن نصلى ! هل تستطيع أن تلمس هذا فى قول الرب يسوع ؟: « إلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمى ، أطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملا » (يو ١٦ : ٢٤) .

٥ — الصلاة طلبة لأى شىء نحتاج إليه — بل وطلبة محددة — هى « سكب النفس أمام الرب » (١ صم ١ : ١٥) كما فعلت حنه . ومن جواب عالى الكاهن لها أن الرب يعطيها سؤلها الذى سألت من لدنه » (ع ١٧) . نفهم أن سكب النفس هو السؤال والطلبة . فلما تم لها قالت « لأجل هذا الصبى صليت فأعطانى الرب سؤلى الذى سألته من لدنه » (ع ٢٧) .

هذا مثال لما يعنيه الرب يسوع بالقول : « اسألوا تعطوا . أطلبوا تجدوا اقرعوا يفتح لكم » (مت ٧ : ٧) .

بالنسبة لموضوعنا فالرأى الأول خارج عن دائرته لأنه لا يطلب شيئاً بل يؤدى واجباً . والثانى خارج أيضا لأنه لا يطلب شيئا بل يطلب شركة مع الله والشركة لا تخلو منها الصلاة ، ولكن هؤلاء لا يبحثون عن استجابة . والثالث لا يتعارض لما يعارض إرادة الله شكلا أو موضوعاً — والرابع تطرف مع الرأى الذى يقول . الله يتحكم فى صلاتى . وجعل الصلاة ليست صلاة بل كلمات . إن استجيبت فالأمر ليس لأن الشخص صلى بل لأن العطية آتية على أى حال وإن رفضت فالسبب أن المعارضة واضحة لهذه الصلاة .

نلاحظ هنا أيضا أن الآراء تشعبت لأن وراءها سؤال : هل تغير الصلاة فكر الله ؟ أو وراءها آخر ، هل لصلاتنا فائدة ؟ . إن نعم فما هى حال كون بعض الطلبات ترفض ؟ والغريب أن الأمر يحتاج أن يواجه بصراحة بلا لف ولا دوران . وليست مواجهة منطقية بل كتابية لأن منطقنا تعوزه المقدمات الكافية كما سبق وقلت .

فلا نخف من أن نقول الصلاة طلبة محددة . ومطلوب منا أن نصلى وأن نطلب طلبات عظيمة . ليس كتمرين لنا ، بل نطلبها بقصد الحصول عليها . وهنا يواجهنا الأمر الذى حاول أن يتخلص منه كثيرون : أتستجاب صلاتى لأننى طلبت أم لأنها مشيئة الله . ثم أترفض صلاتى لعيب فىَّ وفيها ، أم لأن الله يرفض حيث أن مشيئته ضد صلاتى .

(٢)

يعلم الكتاب المقدس بأن الصلاة تستجاب إن كانت حسب مشيئة الله وإلا فلا .

١ — إن طلبنا شيئا حسب مشيته يسمع لنا » (١ يو ٥ : ١٤) . إن الله حريص على فعل

مشيئته وقد أذهل هذا الأمر حتى غير المؤمنين به ـــ البحارة والمسافرون مع يونان شهدوا قائلين : « لأنك يارب فعلت كما شئت » (يون ١ : ١٤) . إن الرب مهيمن على كل شيء بمشيئته : « كل ما شاء صنع ، فى السموات ، وفى الأرض ، فى البحار ، وفى كل اللجج » (مز ١٣٥ : ٦) وأين الجواب الحقيقى الشافى المسكت لكل من لا يؤمنون باله حين يسألون « أين هو الههم ؟ » إن إلهنا فى السماء كلما شاء صنع » (مز ١١٥ : ٢ و ٣) .

٢ ـــ نعم الله حريص أن يفعل مشيئته لهذا ليس « من يقاوم مشيئته » (رو ٩ : ١٩) ولا يمكن أن تستجاب صلاة تقاوم مشيئته .

طلب بلعام أن يلعن شعب الرب . ولكن لم يشأ الرب أن يسمع لبلعام (تث ٢٣ : ٥ ، يش ٢٤ : ١٠) .

ويذكر الكتاب عن بنى اسرائيل أنهم تمردوا على الرب وعبروا الأردن وذهبوا لمحاربة السكان الأصليين خلافاً لمشيئة الرب الذى قصد أن يبيد كل ذلك الجيل المتمرد فانكسر بنو اسرائيل فرجعوا وبكوا أمام الرب (صلوا) ولكن لم يسمع الرب لصوتهم ولا أصغى إليهم (تث ١ : ٤١ ـــ ٤٦) .

٣ ـــ وقد لا يقول الرب كلا . ولكنه يشاء أن يؤجل الاستجابة . ورغم أن الرب ليس ضد الطلبة لكنه ضد زمنها . لذا يتمهل على مختاريه الصارخين إليه نهاراً وليلا لأن الزمن الذى فى مشيئته لم يحن بعد (لو ١٨ : ٧) .

وقد يظن الإنسان أن إمهال الله ترك له فيقول « الهى الهى لماذا تركتنى ، بعيداً عن خلاصى ، عن كلام زفيرى ، الهى فى النهار أدعو فلا تستجيب . فى الليل أدعو فلا هدو لى » (مز ٢٢ : ١ و ٢) . وبحسب النصوص التى جاءت فى هذا المزمور نجد أنه نبوة عن المسيح الذى يفيد الكتاب بأنه « سمع له » (عب ٥ : ٧) لهذا فطلبة أخرى فى نفس المزمور « أما أنت يارب فلا تبعد . ياقوتى أسرع إلى نصرتى » (ع ١٩) .

كلنا اختبرنا هذا الاختبار وقلنا « انتظاراً انتظرت الرب فمال إلى . وسمع صراخى . وأصعدنى من جب الهلاك ، من طين الحمأة ، وأقام على صخرة رجلى ، ثبت خطواتى، وجعل فى فمى ترنيمة جديدة تسبيحة لإلهنا » (مز ٤٠ : ١ ـــ ٣) . لكن هذه الاستجابة كانت بعد الانتظار ، لأن مشيئة الرب أن يتمهل .

صلى إرميا لأجل الشعب الذى تواضع وتضرع ؛ يطلب إرشاد الرب . يقول الكتاب « وكان بعد عشرة أيام أن كلمة الرب صارت إلى إرميا » (إر ٤٢ : ٢ ـــ ٧) . يجب أن نراقب على المرصد لكى نعرف ماذا يقول الرب وماذا نجيب عن شكوانا (حب ٢ : ١) وقد ينتظر يومين حتى يموت لعازر فيقيمه (يو ١١: ٦) أو ثمانية وثلاثين سنة ولو ييأس المفلوج (يو ٥ : ٥ ـــ ٩) أو اثنتى عشر سنة ويحدث أن تتأخر نازفة الدم كثيراً (مت ٥ : ٢٥ و ٢٦) .

نعم قد يتأخر . وقد رنت نغمة اليأس فى أصوات وحياة البعض . ولكن يجب أن ننتظر الرب

إن زمنه ليس زمننا . وفى الزمن الذى حسب مشيئته يستجيب .

٤ ــ أجل . فى الزمن الذى حسب مشيئته يستجيب . وأحيانا يكون ذلك فور الدعاء « ويكون أنى قبلما يدعون أنا أجيب ، وفيما هم يتكلمون بعد أنا أسمع » (إش ٦٥ : ٢٤) . هكذا كانت الاستجابة فورية لطلبة إيليا المطر (١ مل ١٨ : ٣٦ ــ ٣٨) . هكذا كانت الاستجابة لصراخ موسى إلى الرب فى مارة حين تذمر شعب اسرائيل قائلين ماذا نشرب لأنه فوراً فى ذلك الوقت « أراه الرب شجرة فطرحها فى الماء فصار الماء عذباً » (خر ١٥ : ٢٥) .

هكذا كانت استجابة الرب لصلاة صموئيل حين طلبوا ملكاً . وقد قصد أن يوقع خشية الرب فى قلوبهم . « فدعا صموئيل الرب فأعطى رعوداً ومطراً فى ذلك اليوم . وخاف جميع الشعب الرب وصموئيل جداً » (١صم ١٢ : ١٨) . وكان ذلك فى أيام الحصاد حين يستحيل المطر فى فلسطين (ع ١٦ و ١٧) .

هكذا كانت الاستجابة لرجل الله إذ تضرع وطلب وجه الرب فرجعت يد الملك (يربعام ابن نباط) (١ مل ١٣ : ٦) فقد أصيبت هذه اليد بالشلل لأن الملك مد يده وأمر بأن يمسكوا رجل الله ــ ونتيجة لشلل اليد لم يستطع أن يردها إليه . فطلب الملك أن يصلى رجل الله إلى الرب فترجع يده إليه . وفعلا أستجيبت الصلاة فوراً (١ مل ١٣ : ١ ــ ٦) .

وهكذا كانت الاستجابة لصلاة أليشع فى العملية فى شونم ، حيث الصبى ابن المرأة الشونمية ميت مضجع فى سرير اليشع . يقول الكتاب : « فدخل وأغلق الباب على نفسيهما كليهما وصلى إلى الرب . ثم صعد واضطجع فوق الصبى ، ووضع فمه على فمه ، وعينيه على عينيه ، ويديه على يديه ، وتمدد عليه فسخن جسد الولد ، ثم عاد وتمشى فى البيت تارة هنا وتارة هناك ، وصعد وتمدد عليه فعطس الصبى سبع مرات ثم فتح الصبى عينيه » (٢ مل ٤ : ٣٣ ــ ٣٥) .

ما أكثر الاستجابات الفورية التي لا يتسع المكان لذكرها كلها ، فاكتفى بذكر واحدة أيضا هى أن دانيال النبى حينما صلى معترفاً بخطيته وخطية شعبه استجاب له بتوضيح مصيره وكان ذلك على أسرع وجه : « بينما أنا أتكلم وأصلى .. وفهمنى .. » (دا ٩ : ٢٠ ــ ٢٢) .

٥ ــ وقد يستجيب الرب ولكن ليس حسب نص الطلبة بل حسب حاجاتنا . لهذا فمشيئة الرب أن يغير ما نطلب إلى ما يشاء أن يعطينا .

طلب موسى أن يعبر الأردن لكى يرى الأرض التى وعد الرب على يديه أن يعطيها لقومه ولكن الرب رفض نص طلبة موسى و لم يرفض روحها . رفض أن يدع موسى يعبر ، لكنه أمره أن يصعد إلى الجبل ليرى الأرض . فرأى الأرض دون أن يعبر (تث ٣ : ٢٣ ــ ٢٧) .

أرسلت الأختان مرثا ومريم إلى يسوع « هوذا الذى تحبه مريض » (يو ١١ : ٣) وفى هذا الخبر طلبة للشفاء ، بدليل أنهما كليهما قالا له فى أول مقابلة : « لو كنت ههنا لم يمت أخى » (ع ٢١ و ٢٢) أى أنهما كانتا ترجوان أن يأتى ليشفى أخاهما . وواضح أن الرب لم يستجب

هذه الطلبة حسب نص ومنطوق قائلها ، بل استجاب مطلوباً آخر أن يقيم ميتاً هو لعازر ، وليس أن يشفى مريضاً هو لعازر ، وذلك لأنه أراد أن يتمجد (ع ٤ و ١٥ و ٤٢ — ٤٥ ، ١٢ : ٩ — ١١ و ١٧) أى أن الرب استجاب الطلبة بعد أن غير المطلوب إلى ما هو حسب مشيئة الله .

وقد طلب بولس الرسول أن يرفع عنه ملاك الشيطان تلك « الشوكة فى الجسد » بل وصلى ثلاث مرات ولكن الاستجابة كانت بغير ما طلب بولس إذ أن الرب قال له « تكفيك نعمتى لأن قوتى فى الضعف تكمل » (٢ كو ١٢ : ٧ — ١٠) . وبهذا ضمن له عدم تعطيل الشوكة له ، وعدم إضعافها له ، وعدم تعريضها إياه للسخرية من الذين يرونه بل وجعلهم يقبلونه كالرب يسوع — كملاك من الله (غل ٤ : ١٤ و ١٥) . استمر بالرغم منها يدرس حتى آخر حياته (٢ تى ٤ : ١٣) وقد كان تطويب الغلاطيين له مدهشاً للرسول ذاته . لم يرفع الشوكة بل أعطى القوة لأن هكذا كانت مشيئة الرب .

٦ — وقد يستجيب الرب بأن يعطى أكثر من المطلوب ! حسب مشيئته « والقادر أن يفعل فوق كل شيء أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر بحسب القوة التى تعمل فينا (أف ٣ : ٢٠) . فاذا كانت طلباتنا حقيرة بالنسبة لمشيئة الله ، أعطانا ليس الطلبة الصغيرة التى نطلبها (مهما كانت فى نظرنا عظيمة) بل الطلبة التى تفوق طلبنا أو حتى تفكيرنا .

طلبت حنة ابناً وحين أعطاها الرب صموئيل افتكرت أن هذه هى كل الاستجابة (١ صم ١ : ٢٧) ولكن الرب بين لها عملا أنه يريد استجابة أوسع من طلبتها (١ صم ٢ : ٢١) .

وقد طلب سليمان حكمة (١ مل ٣ : ٩) ولكن الرب رأى أن يعطيه أكثر من هذا ، فأعطاه فعلا قلباً حكيماً ومميزاً فاق من قبله ومن بعده ثم يزيد العطايا : « وقد أعطيتك ما لم تسأله غنى وكرامة ، حتى أنه لا يكون رجل مثلك فى الملوك كل أيامك » (ع ١٠ — ١٣) .

وقد صلت الكنيسة من أجل بطرس بلجاجة (أع ١٢ : ٥) وقد فاقت الصلاة كل انتظارات الكنيسة لدرجة أنهم اتهموا رودا (التى أذاعت لهم خبر استجابة الرب) بالهذيان (ع ١٢ — ١٧) .

ما معنى هذا : يرفض حين يشاء ويستجيب حين يشاء ؛ يتمهل طويلا أو كثيراً أو يستجيب فوراً ؛ وقد يعطى ما يطلب أو يعدل ما يطلب بإبداله أو إكثاره ... ما معنى ذلك إلا أن مشيئة الرب فعلا تتحكم فى صلواتنا .

(٣)

لكننا نجد أيضاً أن الإنسان مطلوب منه أن يصلى : مسئول أن يصلى :

١ — أمر الرب بأن نصلى لهذا يجب أن نصلى . أمر الرب سليمان « اسأل ماذا أعطيك » (١ مل ٣ : ٥) . وأمر « اطلبوا الرب ما دام يوجد » (إش ٥٥ : ٦) . كذلك « اطلبوا من الرب المطر فى أوان المطر المتأخر » (زك ١٠ : ١) . أما أمر الرب يسوع فواضح ومشدد : « اسألوا تعطوا

أطلبوا تجدوا . اقرعوا يفتح لكم لأن كل من يسأل يأخذ ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له » (مت ٧ : ٧ و٨) . وهكذا يجعل الرب طلبتنا أساس العطية . وأعاد نفس التعليم حين قال فى ليلته الأخيرة فى الخدمة الأرضية « أطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملا » (يو ١٦ : ٢٤) . كذا أمر الله يتضح من قول يعقوب فى رسالته « وإنما إن كان أحد تعوزه حكمة فليطلب من الله الذى يعطى الجميع بسخاء ولا يعير فسيعطى له » (يع ١ : ٥) . ويلوم من لا يملك باعتبار أنه لم يطلب (يع ٤ : ٢) ، إن أمر الرب لنا أن نصلى يجعلنا مسئولين أن نصلى .

٢ ـــ يبين الكتابُ أن عدم الصلاة خطية . فإن الأصل فى غير المصلين أنهم هم الوثنيون (مز ٧٩ : ٦) وقد حذا حذوهم الأشرار والظالمون (مز ١٤ : ٤ ، ٥٣ : ٤ ، هو ٧ : ٧) . فإن حدث هذا من مؤمن وجه إليه اللوم كمقصر : « وأنت لم تدعنى يايعقوب » (إش ٤٣ : ٢٢) . عدم الصلاة يدل على اليأس من رحمة الرب (إش ٤ : ٧) . أو رغبة التمادى فى الشر (دا ٩ : ١٣) . ولذا يقولون لله « أبعد عنا وبمعرفة طرقك لا نسر » (أى ٢١ : ١٤) . بل وبالله نفسه لا يتلذذ لذلك لا يدعوه (أى ٢٧ : ٨ ـــ ١٠) ويصف بها المرتدين من وراء الرب (صف ١ : ٦) . ومن المؤسف أنها حدثت من مسئولين عن عمل الرب « لأن الرعاة بلدوا والرب لم يطلبوا من اجل ذلك لم ينجحوا وكل رغبتهم تبددت » (إر ١٠ : ٢١) . وقد وبخ وثنى النبى يونان قائلا « مالك نائماً قم اصرخ إلى الهك » (يون ١ : ٦) . فقد « يكون عدم الصلاة خطية فى ذاته ، أو هروبا من الله بسبب خطية أخرى ، وهكذا تزداد خطية على خطية . فإن كان عدم الصلاة خطية فهذا يوجب علينا أن نصلى .

٣ ـــ وبالعكس كانت حياة أفضل وأنجح الناس حياة صلاة . فداود : يوجه بالغداة صلاته نحو الرب وينتظر (مز ٥ : ١ ـــ ٣) . ويدعو نفسه « أما أنا فصلاة » (مز ١٠٩ : ٤) ، وآخرون لياليهم مليئة بالصلاة وسط الهموم (مز ٤٢ : ٨) والآلام (أع ١٦ : ٢٥) . وما أجمل قول المرنم « فأدعوه مدة حياتى (مز ١١٦ : ٢) . إن من تعود الصلاة واختبر بركاتها حتى لو أجبر على تركها فلن يصغى إلى التهديدات ، بل ويصلى وكواه مفتوحة (دا ٦ : ١٠) ويذكر الكتاب عن حياة قضيت فى الصلاة : حنه النبية (لو ٢ : ٢٧) ، وقائد المئة كرنيليوس (أع ١٠ : ٢) ، وخدمة امتزجت بالصلاة (أع ٦ : ٤ ، ١٠ : ٩) ، وصلاة دائمة من أجل المخدومين (رو ١ : ٩ ، أف ١ : ١٥ و ١٦ ، كو ١ : ٩ ، ١ تس ٣ : ١٠ ، ٢ تى ١ : ٣) . ولذا يدعوهم كذلك أن يصلوا بمواظبة (رو ١٢ : ١٢ ، ١ تس ٥ : ١٧) ، ويمتدح منهم من يفعل ذلك (١ تى ٥ : ٥) . لست فى حاجة لكى أذكر أسماء أناس فى عصرنا الحاضر عاشوا حياة مباركة مثمرة لأنها كانت حياة صلاة ، فالكتب والاختبارات تملأ وقتك بهذا . وبلا استثناء كل نجاح حقيقى ، وخدمة ممجدة للرب وحياة مكرسة وراءها حياة الصلاة .

٤ ـــ حينما يتحدث الكتاب عن مسئوليتنا عن الصلاة يعلم بهذا كأن الله محتاج لأن نرفع إليه صلواتنا : « بل بالصلاة والدعاء مع الشكر لتعلم طلباتكم لدى الله » (فى ٤ : ٦) . بل ويقول الكتاب « ياذاكرى الرب لا تسكتوا ولا تدعوه يسكت » (إش ٦٢ : ٦ و ٧) .

قال البعض إن الصلاة لا تعلم الله عن حاجتنا ، وقالوا أيضاً الصلاة لا تغير فكر الله . وهؤلاء

أخذوا جانباً واحداً من الحقيقة هو جانب القضاء الإلهى — الذى كان موضوع الجزء الماضى من هذا الفصل . لكن حين يتحدث الكتاب عن مسئولية الإنسان فكأن الله لم يقض . أو فى هذه الحالة كأن الله يتأثر بصلاتنا لدرجة تغيير الموقف .

لنلق نظرة على صلاة فى العهد القديم وأخرى فى العهد الجديد ونكتفى بهما كمثالين لهذا الأمر :

جاء إشعياء النبى إلى حزقيا الملك المريض وقال « هكذا قال الرب أوصى بيتك لأنك تموت ولا تعيش . فوجه وجهه إلى الحائط وصلى إلى الرب » فأمر الرب النبى أن يعود إلى الملك قائلا « قد سمعت صلاتك . قد رأيت دموعك هأنذا أشفيك . فى اليوم الثالث تصعد إلى بيت الرب وأزيد على أيامك خمس عشر سنة » (٢ مل ٢٠ : ١ — ٦) لن أتعرض هنا لقضاء الله وعمر الإنسان فقد كان هذا الموضوع حديث سابق لكن هنا موضوع تأثير الصلاة . وهنا يعلم الكتاب عن الصلاة المستجابة من وجهتها الإنسانية وكأنها هى كل شيء ولها مطلق التأثير على أعمال الله .

والصلاة الأخرى فى العهد الجديد هى طلبة المرأة الكنعانية التى كانت تصيح وراء المسيح لكى يخرج الروح النجس من ابنتها فقابلها أولا بالصمت ثم بعد ذلك بالرفض (مت ١٥ : ٢٣ و ٢٤) ثم بعد ذلك برفض شديد وكلمات قاسية (ع ٢٦) ولكنها كانت تطلب بإيمان مدحه الرب يسوع ، وشهد لعظمته ، وأعطاها ما تريد (ع ٢٧ و ٢٨) أما أن الرب كان قد قصر خدمته الأرضية على خاصته فهذا واضح جداً من الكتاب (يو ١ : ١١ ، مت ١٠ : ٥ و ٦) ولا نستطيع أن نقول قط بأن الرب لم يكن جاداً فى رفضه للمرأة أولا . إن مجرد رغبة اليونانيين أن يقابلوه كانت نذير موت المسيح على الصليب (يو ١٢ : ٢٠ — ٢٤) . لهذا فالتفسير الصحيح للرفض والقبول هو أن للصلاة معنى وتأثير حين ننظر إليها من وجهة نظر بشرية . وهذا هو الجزء من الحقيقة الذى يجب أن نتثبت منه هنا . وهذا يجعلنا مسئولين أن نصلى .

٥ — وقد قال الرب أيضاً بأنه ينبغى أن يصلى فى كل حين ولا يمل (لو ١٨ : ١) وضرب مثلين لذلك :

المثل الأول : هو مثل صديق نصف الليل الذى يعلم فيه الرب بأنه إذا كان الصديق يستجيب لنداء صديقه بدافع محبة ذاته ؛ فكم بالأولى الله الذى هو المحبة الحقيقية الخالصة ؛ وإذا كانت اللجاجة تغلب العوامل الذاتية ، فكم بالحرى تهيب إلى الأب المحب الذى لو أمهل بالنسبة لمختاريه لكنه لا ينساهم ؛ وإذا كانت الصداقة تكفى أن تكون أساساً لمطالب الصداقة فكم بالحرى أبوة الله الأب الصالح (لو ١١ : ٥ — ١٣) .

والمثل الثانى هو مثل قاضى الظلم الذى يعلم بأنه إذا كانت اللجاجة تحرك إنساناً قاسياً فكم بالحرى الاله المحب يستجيب لها .

لكن إذا كان الصديق المحب لذاته ، والقاضى الظالم القاسى يحتاجان إلى إقناعهما والضغط عليهما باللجاجة فهل كذلك الله ؟! هذا هو الفرق الجوهرى . قيل إن اللجاجة لازمة ليس للضغط على الله بل لتعميق حاجتنا أمام الله وتجهيزنا لاستقبال الاستجابة .

على أن هذا ليس كل شيء . وحقاً أن تعميق شعورنا بالحاجة وإعدادنا للاستجابة لازمين ، لكن إذا كنا نتخذ هذا تفسيراً للمثلين وهو كل شيء ؛ لكان هذا هروبا من الحقيقة التى يعلمها الرب يسوع « اسألوا تعطوا » . الحقيقة التى تظهرُ فى كلمات الرسول « لتعلم طلباتكم لدى الله » . الحقيقة التى يعلمها النبى « ياذاكرى الرب لا تسكتوا ولا تدعوه يسكت » . الحقيقة التى يعلمها كل الفكرة بأن قضاء الله يشتمل على أن الإنسان مسئول .

٦ — المفروض فى الصلاة أن تستجاب إلا إذا كان فينا أو فيها عيب يمنع الاستجابة وضمن عيوب الصلاة أن تكون ليست حسب إرادة الله .. (سآتى إلى شروط الاستجابة أخيراً) .

فإذا كان الأمر كذلك كان هذا معناه أن نصلى لأن للصلاة جدوى وثمرة .

(٤)

وكما لنا عادة بأن نقرن الأمرين كليهما أريد أن نلقى نظرة لهذا الأمر هنا . هل يذكر الكتاب الاثنين معا ؟

١ — قبل كل شيء يجب أن لا يغيب عن بالنا أنه إذا كان الرب يأمرنا بأن نصلى فهذا معناه أنه حين يعطينا طلباتنا استجابة لصلاتنا ، وحين يمنع عنا لأننا لم نصل فهذا معناه أن مشيئته أن نصلى . وكما ثبت لنا سابقاً أن ضمن قضاء الله أن نكون مسئولين ، فهكذا ضمن مشيئة الله أن نصلى وأن يعطى لنا ما يشاء الله استجابة لطلباتنا .

٢ — وكثيراً ما وعد الرب بالاستجابة وكان أمره لنا بالصلاة مقرونا بالوعد . فالأمر يمثل مسئولية الإنسان ، والوعد يمثل مشيئة الله . ولقد وعد الرب كثيراً باستجابة الصلاة ، أكتفى بذكر بعض منها :

« يدعونى فأستجيب له . معه أنا فى الضيق أنقذه وأمجده » . مز ٩١ : ١٥

« البائسون والمساكين .. أنا الرب أستجيب لهم .. » إش ٤١ : ١٧

« حينئذ تدعو فيستجيب الرب ، تستغيث فيقول هأنذا » إش ٥٨ : ٩

« ويكون أن قبلما يدعون أنا أجيب . وفيما هم يتكلمون بعد أنا سامع » إش ٦٥ : ٢٤ .

« هو يدعو باسمى وأنا أجيبه » زك ١٣ : ٩

« وكل ما تطلبونه فى الصلاة مؤمنين تنالونه » مت ٢١ : ٢٢

« وأنا أقول لكم إسألوا تعطوا . أطلبوا تجدوا . اقرعوا يفتح لكم لأن كل من يسأل يأخذ ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له . فمن منكم وهو أب يسأله ابنه خبزا أفيعطيه حجرا .. إلخ » (لو ١١ : ٩ — ١٣) . لاحظ أن هنا الوعد تكرر ثلاث مرات دليلاً اكيداً لوعد الاستجابة ، ودليلاً أكيداً أيضاً على أن مشيئة الله أن يجيب المصلين .

ومهما سألتم باسمى فذلك أفعله ليتمجد الآب بالابن . إن سألتم شيئاً باسمى فإنى أفعله » (يو ١٤ : ١٣ و ١٤) . لاحظ هنا أيضاً أن مشيئة الابن فى الاستجابة ، هى تمجد الآب أيضاً لذا فوعد الاستجابة دليل أكيد على أن هذه هى مشيئة الله . وفى نفس الوقت هى الصلاة التى يرفعها كل طالب من الله شيئاً .

« إن ثبتم فىَّ وثبت كلامى فيكم تطلبون ما تريدون فيكون لكم » (يو ١٥ : ٧) وفى هذا الوعد نرى توافق مشيئة الإنسان وهو حر مختار لمشيئة الله .

« ومهما سألنا ننال منه لأننا نحفظ وصاياه ونعمل الأعمال المرضية أمامه » (١ يو ٣ : ٢٢) .

لذا فحين نقول إن الرب يعطى استجابة للصلاة فهذا صحيح . وحين نقول إن الرب يستجيب حسب مشيئته هذا صحيح أيضاً . كلاهما متضمنان فى الوعد أن يستجيب للصلاة .

٣ ــ وذات تفسير الكتاب لاستجابة الصلاة يسندها لعناية الله ؛ لدرجة أن يدعوه الكتاب « سامع الصلاة » (مز ٦٥ : ٢) . كان منع المطر بترتيب إلهى مسبق (١ مل ١٧ : ١) وكذا كان إعطاء المطر بترتيب مسبق (١٨ : ١) على أن منع المطر ونزوله استجابة لطلبة إيليا (١٨ : ٣٦ ــ ٤٥ ، يع ٥ : ١٧ و ١٨) . وكذا كان من عناية الرب خلاصه لأورشليم من ملك أشور (٢ مل ٢٠ : ٦) على أن هذا تم استجابة لصلاة حزقيا الملك وإشعياء النبى (٢ أى ٢٢ : ٢٠ ــ ٢٣) . وكان من عناية الرب خلاص بطرس من السجن ومن كل انتظارات اليهود (أع ١٢ : ١١) . على أن هذا تم استجابة لصلاة بلجاجة كانت تصعد من الكنيسة من أجله (ع ٥) . وغير هذا كثير مستفاد منه نفس المعنى وهو إن عناية الرب المبنية على مشيئته رتبت أن يصلى الناس وأن يستجيب الله . وعمل العناية ، وكذا فعل الصلاة كلاهما حق لا يعارض أحدهما الآخر ، وانما التعارض الذى يلوح لمن لا يستطيع أن يربط الخيط المقطوع طبيعى كشأن أى شيء عن قضاء الله ومسئولية الإنسان .

٤ ــ نرى المبدأين يسيران جنباً إلى جنب حين ننظر فى عمل الروح القدس فى المصلين : « وكذلك الروح أيضاً يعين ضعفاتنا . لأننا لسنا نعلم ما نصلى لأجله كما ينبغى ولكن الروح نفسه يشفع فينا بأنات لا ينطق بها ولكن الذى يفحص القلوب يعلم ما هو اهتمام الروح لأنه بحسب مشيئة الله يشفع فى القديسين » (رو ٨ : ٢٦ و ٢٧) .

من المؤسف جداً أن نخطىء الطلبات التى يجب أن نصلى لأجلها ، ويقول الرب يسوع لتلميذيه يعقوب ويوحنا ابنى زبدى « لستما تعلمان ما تطلبان » (مت ٢٠ : ٢٢) . وإذا كنا بسبب هذا الجهل « نطلب ردياً » فإننا لن نأخذ (يع ٤ : ٣) هذا لو ترك المرء فى الصلاة لنفسه .. بالضبط كالخاطىء لن يجد طريق الخلاص ، ولن يستطيع أن يخلص بمجهوده وحده . لهذا سر الله أن يخلصنا بالنعمة .. أن يعمل فينا : للتوبة ولقبول الرب يسوع المخلص . وعلى الإنسان أن يستجيب لأن الله يعمل فيه .

وبنفس الصورة سنضل الطريق بدون العون الإلهى فى ما يجب أن نصلى لأجله كما ينبغى . لن

نستطيع أن نطلب طلبة حسب مشيئة الله بدون روح الله الذى « بحسب مشيئة الله يشفع فى القديسين » .

فاذا كان « القديسون » يصلون فهم يصلون مدعمين بشفاعة الروح ، ولذلك فهم يصلون فى دائرة مشيئة الله . ولذا تستجاب طلباتهم .

وبنفس القدر الذى نرى فيه الإنسان حراً مسئولا بالنسبة لخلاصه حال كون الله يعمل فيه .. بنفس ذلك القدر نجد الإنسان مسترشداً محمولا بروح الله فى موضوع طلباته . إن روح الله لا يغضب الإنسان على طلبات بالذات ، بل يعمل فيه لجعلها طلباته ذاتها . وهو عليه أن يستجيب حرا مختاراً ، لشفاعة الروح .

يقول الرب « أطلبوا الرب مادام يوجد » (إش ٥٥ : ٦) . والروح يرشدنا إلى طلبته حتى لا تضيع الفرصة . ويقول الرب « أطلبوا المطر فى أوان المطر المتأخر » (زك ١٠ : ١) . والروح هو الذى يشفع فينا لكى نعلم أنه توجد فرصة لنعمة الله . وهكذا حين نطلب حسب مشيئة الله نعطى .

٥ ـــ لا يشترط قط أن صلاتنا يجب أن تكون ضد مشيئة الله وتجاب ؛ لكن نوقن بجدوى الصلاة . بالضبط كما أننا لا نعتبر الإنسان حراً لأنه ثائر على الأوضاع أو ضد مشيئة الله .. إذ أنه ممكن جداً أن يكون الإنسان حراً ويوافق مشيئة الله ، ويسير فى طريق الصلاح . وكذلك ممكن جداً أن يصلى ويجاب وتكون هذه الصلاة وفق مشيئة الله .

وهكذا نعتبر أن للصلاة جدوى وقيمة وفائدة ، حال كونها وفق مشيئة الله .

ولهذا يجب أن نقول دائماً لتكن مشيئتك .

٦ ـــ إن حتمية الصلاة تبرهن لنا صحة الرأيين معاً . فالإنسان مطبوع أن يسأل من يجد عنده حاجته . فاذا لم نسأل الله سألنا غيره . ولقد ضل هذه الضلالة من كانوا فى زمن دانيال لعلة لكى يهلكوا دانيال لكن هذا الطريق كان طبيعياً لهم . فقد عبدوا المخلوق دون الخالق ؛ واختلف دانيال عنهم ... وفى عصرنا الحاضر من لا يطلب من إله يطلب من البشر . وهل نفرض أن لأحد حقاً بأن يطلب والله لا حق له أن يوافق أو يعارض . ولأسأل القارىء : هل أى من يطلب منك أمراً ، أى أمر أنت مستعد أن تعطيه دون موافقتك ؟

كل يصلى .. وكل يرجو موافقة المصلى إليه . وعند توافق الطلب مع مشيئة المعطى تجاب ..

فلننظر فى طلبة طلبها مصلى واستجيبت :

(أ) من طلبها صلى وأجيب

(ب) والمصلى إليه مشيئته توافق وتجيب .

٧ ـــ ما لم نصل بنهم . وفى هذه الحالة نضع أنفسنا مكان الله نرتب أمورنا بعيدين عنه . ونفشل

لأننا لا نستطيع . سنفشل فى الحياة الروحية ونفشل فى الحياة العملية أمام المشاكل والحاجات .. الخ ورغم هذا إذا لم نصل تظل الهموم علينا والهنا ينادينا لكى نلقى عليه همومنا فى لصلاة حتى يحل محلها سلام الله الذى يفوق كل عقل يحفظ قلوبنا وأفكارنا فى المسيح يسوع .. » (فى ٤ : ٦ و ٧) .

هل من يلقى الهم وينال السلام ، ثم ينال الطلبة بحسب مشيئة الله لم تجده صلاته ؟

٨ ــ قد تستجاب صلوات فى ظاهرها تعارض مشيئة الله . أما كونها تستجاب فهذا يعلن بصورة قاطعة جدوى الصلاة لأن طالبها قد طلبها وأعطيت . وأما كونها (فى ظاهرها) تعارض مشيئة الله ، فهذا لا يعنى أنها تعارض مشيئة الله . مثلا طلبة بلعام أن يذهب حسب دعوة بالاق للعنة الشعب الخارج إليه . قد عارضها الله وأصر عليها بلعام فسمح له الله لأنه يعلم كيف يحول اللعنة إلى بركة . نرى هنا أن الطلبة قد تحققت وأن الله رب العناية قد سمح بذلك . نعم ليست مسرته أو أمره ولكن سماحه . وبهذا ليست ضد مشيئته (اقرأ القصة كاملة فى عدد ص ٢٢ ــ ٢٤) .

لست هنا أريد أن أبحث هل الطلبات التى ضد مسرة الله مجدية ونافعة ؟ لأن فعلا هذه الطلبات ضارة وكان خيراً لو رفضت ، وهذا يبين الحكمة الإلهية فى رفض كثير من طلباتنا ، ولكن كثيراً أيضاً تجاب وبهذه الصورة وتجلب علينا تعباً كثيراً وألماً كثيراً ولكن الله يجيب لأنه يعلم كيف يحول الشر إلى مجده .

لكن موضوعنا هنا هو إذا استجيبت هذه الطلبة دلت على أن للصلاة جدوى ، وأن لله مشيئته الصالحة التى لابد من تحكمها فى الصلاة .

(٥)

وينير أمامنا السبيل أكثر عندما نتأمل فى اختبار الرب يسوع وكذلك اختبار الكنيسة فى الصلاة .

وقبلما نتأمل فى اختبار الرب يسوع أريد أن نلاحظ بعض الملاحظات حتى لا يكون فى هذا الموضوع غموض :

أولا : واضح أن الرب يسوع صلى وصام أيضاً (مت ٤ : ١ و ٢) . صلى بلجاجة وجهاد (لو ٢٢ : ٤١ ــ ٤٤) لدرجة أن عرقه كان كقطرات دم (ع ٤٤) . وقد صرف ليالى فى الصلاة (٦ : ١٢) قد صلى كما لم يعمل أحد لدرجة أن تلاميذه طلبوا أن يتلقنوا منه درس الصلاة فإذا كان يوحنا قد علم تلاميذه أن يصلوا مثله ؛ فهم أرادوا أن يصلوا مثل معلمهم (١١ : ١) .

ثانياً : بعض صلوات الرب يسوع شفاعية ، والآخر من أجل نفسه وبرنامجه ، ولكن فى كليهما يسود عنصر الخضوع لإرادة الآب .

ثالثاً ــ هل للرب يسوع حاجة للصلاة مثلنا . وما قيمة الصلاة بالنسبة له أما إنه فى حاجة للصلاة فنعم ، ولو أن موضوع صلاته من أجل نفسه وطبيعتها تختلف .

يعلم الكتاب بأن الرب يسوع كما أنه إله ، فهو إنسان أيضاً ؛ لاهوته ملازم للناسوت وبنفس

الوقت ناسوته ملازم للاهوت أى إذا اعتبرنا أنه كإنسان له قدرة أعظم من إنسان ، وطبيعة أرفع من إنسان باعتبار أنه إله أيضاً ، فهو كذلك إذا اعتبرناه إلهاً فله أيضاً طبيعة الإنسان وحاجاته ، وكما يقول الكتاب عنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد . لهذا كإنسان يحتاج أن يصلى نعم يقول « أيها الآب » « ياأبتاه » ولكن ذات الصلاة فيها الخضوع للآب ، وطلب مشيئته .

على أن موضوع طلباته وموضوع تجربته ليس مثلنا ؛ فهو ليس مجرباً بالشر لكى يصلى ساهراً ضد الشر . وهو ليس عاجزاً يستغيث .. إنما تجربته وصلاته كلاهما تتجهان نحو برنامج خدمته الجهارية .

ومع أن الأناجيل تذكر عن الرب يسوع كثيراً أنه صلى ولكن نص صلواته قد ذكر منه القليل سواء بالنص أو الموضوع ولكن حتى حين لا يذكر شيء فالقرينة يمكن أن تدل على موضوع الصلاة .

ولنبدأ من البدء (أقصد بدء الخدمة الجهارية إذ ليس لنا أى إشارة إلى صلاة قبلها) وأول صلاة يخبرنا عنها الكتاب أثناء المعمودية : « وإذ كان يصلى انفتحت السماء ونزل عليه الروح بهيئة جسمية مثل حمامة وكان صوت من السماء قائلا أنت ابنى الحبيب بك سررت » (لو ٣ : ٢١ و ٢٢) فإذا كان موضوع الصلاة كما يبدو هو أخذ الإشارة بالبدء فى العمل . وكانت الاستجابة . لذا فقد كان يطلب مشيئة الآب بتوقيت العمل .

ثم بعد المعمودية قضى أربعين يوماً فى صوم ولاشك ترافقه الصلاة (مت ٤ : ١ و ٢) . ماذا كان موضوع الصلاة ؟ بما أن المجرب أتاه يشير عليه بأن يبدأ بإظهار لاهوته معجزياً أمام الجميع حتى يملك ملكا منظوراً سياسياً ويضيع عليه فرصة الصليب — فلاشك كان موضوع الصلاة طلب المشيئة الإلهية فى كيف يبدأ .

ولقد لازمه المجرب بهذه التجربة على فم ومساعى الكثيرين حتى الصليب : « إنزل من الصليب ! » أى أن المجرب « فارقه إلى حين » (لو ٤ : ١٣) وقد كان الرب دائما يصلى قبلما يأتى المجرب فيأتى ويجده ساهراً .

ففى أوائل خدمة بعد يوم سبت حافل بالمعجزات فى المجمع فى كفر ناحوم وفى بيت سمعان ، تحير كل العابدين وبهتوا من تعليمه واجتمعت كل المدينة على الباب (مر ١ : ٢١ — ٣٤) . ترك المكان باكراً ومضى إلى موضع خلاء يصلى (ع ٣٥) « فتبعه سمعان والذين معه ولما وجدوه قالوا له إن الجمع يطلبونك . فقال لهم لنذهب إلى القرى المجاورة لأكرز هناك أيضاً لأنى لهذا خرجت » (ع ٣٦ — ٣٨). لقد أحس بتجربة الملك الذى يسد عليه طريق الصليب ، فصلى أن تكون مشيئة الآب من أجل خلاص الجنس البشرى .

ثم شفى أبرص وحذره من أن يقول لأحد ولكن الخبر ذاع أكثر واجتمعت إليه جموع كثيرة (لو ٥ : ١٢ — ١٥) .. ثم يعقب البشير قائلا : « وأما هو فكان يعتزل فى البرارى ويصلى » (ع ١٦) . لقد كانت الشهرة تجربة بالنسبة له ، وكانت لتتلف عمله الفدائى لولا أنه غلبها بالصلاة

حتى تتم المشيئة بالفداء .

وفعلا بعد إشباع الجموع الخمسة آلاف من خمسة أرغفة شعير وسمكتين وفضلت اثنتا عشر قفة (يو ٦ : ١ — ١٣) لما رأى الناس الآية التى صنعها يسوع قالوا إن هذا هو بالحقيقة النبى الآتى إلى العالم . وأما يسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكاً انصرف أيضاً إلى الجبل وحده » (ع ١٤ : ١٥) . ويذكر الكتاب أنه مضى إلى الجبل ليصلى منفرداً (مت ١٤ : ٢٣ ، مز ٦ : ٤٦) .

حتى حين سأل تلاميذه « من يقول الناس إنى أنا ابن الإنسان » كان ذلك فى اختلاء « فى قيصرية فيلبس » (مت ١٦ : ١٣) . وبعد ما صلى على انفراد (لو ٩ : ١٨) وذلك حرصاً على تنفيذ إرادة الآب ؛ فلابد أن تكون الصلاة كذلك . أما مشيئة الآب وحرصه عليها فيظهر من أنه (١) أخبرهم بصلبه بمجرد تحققهم من كونه المسيح . (٢) وأوصاهم أن لا يخبروا أحداً بذلك (٣) ووبخ بطرس الذى عارض هذه المشيئة (مت ١٦ : ٢٠ و ٢١ و ٢٣) .

وكلما تقدم الزمن نحو إتمام هذه المشيئة كلما زاد الجهاد فى الصلاة نحوها . فعلى جبل التجلى حيث صعد الرب « ليصلى وبينما هو يصلى صارت هيئة وجهه متغيرة ولباسه مبيضاً لامعاً . وإذا رجلان يتكلمان معه وهما موسى وإيليا اللذان ظهرا بمجد وتكلما عن خروجه الذى كان عتيداً أن يكمله فى أورشليم » (لو ٩ : ٢٨ — ٣١) . وواضح أن الخروج هو الصلب (عب ١٣ : ١٢ و ١٣) وقد كان ظهورهما استجابة للصلاة أى أن الصلاة كانت عن خروجه أيضاً .

ثم بعد ذلك قبل الصلب بأيام طلب اليونانيون أن يروا يسوع فتمثل له الصليب وعندئذ رفع هذه الطلبة « أيها الآب نجنى من هذه الساعة . ولكن لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة . أيها الآب مجد اسمك » (يو ١٢ : ٢٧ و ٢٨) اقرأ (يو ١٢ : ٢٠ — ٣٠) . نلاحظ هنا الصراع الذى يعتمل فى قلب الرب — وما أريد أن أؤكده هنا أن الصليب بالنسبة للرب ليس هيناً : لعنة ، عذاب ، حمل خطية كل البشر ، وكل ما تستحقه خطية البشر من إله قدوس لا يتساهل مع الخطية . ما أبشع الصورة وما أثقل الحمل وما أرادأ المصير ولو لم يكن للرب إحساس بأن الصليب ردىء بهذه الصورة فما كان عمله كافياً لفدائنا ! لكن بعد الطلبة « نجنى » يأتى الاستدراك ولكن لأجل هذا أتيت .. وهذه هى الإرادة الإلهية وقد خضعت لها إرادة التخلص من الصليب . ولهذا بعد طلبة الاستدراك تأتى طلبة مجد الآب وقد استجيبت هذه الصلاة فوراً وظاهراً أمام كل السامعين « مجدت وأمجد أيضاً » (ع ٢٨) .

وقد تكرر هذا المنظر وهذه الطلبة وهذا الاستدراك فى جسثيمانى . فقد صلى الرب ثلاث مرات وبلجاجة وجهاد ودموع (لو ٢٢ : ٤١ — ٤٤) للقادر أن يخلصه من الموت (عب ٥ : ٧) يقول الكتاب « وسمع له من أجل تقواه » . فهل الصلاة المشار إليها هنا طلبة للخلاص من الصليب ؟ أم من الموت قبل الصليب أم طلبة القيامة كما يقول بعضهم بهذا أو ذاك ؟ وكيف استجيبت ؟

ولست أريد أن ندرس هنا أفكار المفسرين . لكن أريد أن نقرن الروحيات بالروحيات . يدعو الرب الصليب الكأس ، وقد طلب أن يعبر عنه إلا إذا كانت هذه مشيئة الله ، ومن حديث الرب

مع ابنى زبدى ، كأس وصبغة ، ومن حديثه مع التلاميذ فى الإنباء بصلبه نرى نظرته إلى الموت على الصليب فى بشاعته . من هذا نرى ما يجول فى نفسية الرب بالنسبة لحمل الصليب . لذا طلب أن تعبر عنه هذه الكأس مراراً « ولكن » .. وفى كل مرة تأتى هذه الـ « ولكن » وهى تحمل الخضوع لإرادة الآب . وقد استجيب له هذا الخضوع . سمع له من أجل تقواه : خضوعه لمشيئة الآب . بالضبط كما سبق أن سمع له بالطلبة مجد اسمك ، وواضح أن مجد اسم الله فى إتمام مشيئته (مت ٦ : ٩ و ١٠) .

أعود فأكرر أن الرب يسوع كان كإنسان يصلى وهو يطلب مشيئة الله . وكما قال لتلاميذه قبلما يصلى فى جسثيمانى : « صلوا لكى لا تدخلوا فى تجربة » (لو ٢٢ : ٤٠) فكان يصلى هو قبلما يأتى موعد التجربة كما هى عادته فى كل مرة ، وكان يصلى مبتدئا بالإرادة التى تصارع الصليب « ياأبتاه إن أمكن فلتعبر عنى هذه الكأس ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت » (مت ٢٦ : ٣٩) . ثم « ياأبتاه إن لم يمكن أن تعبر عن هذه الكأس إلا أن أشربها فلتكن مشيئتك (ع ٤٢) وكذا ثالثة ذلك الكلام بعينه (ع ٤٤) .

وقد وجه بعد ذلك الحديث إلى تلاميذه « هوذا الساعة قد اقتربت » : الساعة التى طلب النجاة منها إلا إذا كان لابد أن لا تجوز عنه كأسها . اقتربت الساعة (ع ٤٥) . وهى مشيئة الله وقد طلبها وبقوة الطلبة التى طلب النجاة منها . لأنه أخضع طلبة النجاة لطلبة مشيئة الآب . فسمع له وتمت مشيئة الآب .

وفى طلبات أخرى تظهر هذه المشيئة بأجلى بيان : ظل طول الليل يصلى قبلما يختار الاثنى عشر (لو ٦ : ١٢) وأعتقد أنه كان يصارع هل أختار يهوذا ؟ إنه سيخوننى ! وكأنه يقول ولكن لتكن مشيئتك إذ لابد أن يسلمنى للصلب . إذا كان الصليب مشيئتك ويهوذا الطريق إليه فإننى أختاره .

ظهرت فى طلبته من أجل بطرس الذى كان يصارع هذه المشيئة وقد تحطمت أعصابه بسبب تسليم الرب ، على غير ما كان يطلب بطرس وقد ظهر لبطرس خاصة (مر ١٦ : ٧ ، ١ كو ١٥ : ٥ ، لو ٢٤ : ٣٤) وتعلم بطرس من الرب رأساً أن هذا هو الطريق إلى خلاصنا (١ بط ١ : ١٨ ــ ٢١) طريقاً معروفاً سابقاً محتوماً (أع ٢ : ٢٣) طلب من أجل بطرس لكى لا يفنى إيمانه (لو ٢٢ : ٣٢) وكان ذلك حسب مشيئة الله .

أما فى صلاة الرب الكهنوتية فتظهر طلبة مشيئة الله ، ومعرفة الآب والوحدة حسب وحدة الرب يسوع والآب ورؤية المؤمنين المجد الذى أعطاه الآب للابن . طلبات ممن أعطاهم الآب للإبن ، من حفظوا كلام الآب وعرفوا أن الرب يسوع مرسل منه . أعلن فيها أنه أكمل العمل الذى أعطاه الآب له ، ويطلب المجد الذى كان له ..

وعلى الصليب صلى الرب ثلاث صلوات كلها من أجل نفسه « إغفر لهم » لأن هذه هى مشيئة الآب . (لو ٢٣ : ٣٤) وطلب فى آخر كلمة له على الصليب « فى يديك أستودع روحى » (لو ٢٣ : ٤٦) وفى كلتا الطلبتين الأولى والثالثة يوجه الحديث للآب « ياأبتاه » أما الصلاة الثانية

على الصليب فكانت « إلهى إلهى لماذا تركتنى » (مت ٢٧ : ٤٦) وهى الصلاة الوحيدة التى وجه فيها الحديث للآب « إلهى » فهو هنا يقف كإنسان يفتدى الناس أمام الله الذى يقتص من الخطية والخطاة فى شخص المسيح فيقول : « إلهى » . لكن من جهة أخرى لكى يظهر أن المسيح غير مرفوض ويظهر عواطف الآب من نحو ابنه الحبيب فقد أزاح الغضب الإلهى الممثل فى ظلمة دامت ثلاث ساعات .. الذى فيه ناب عمن يستحقون الظلمة الخارجية لأنه بقيت له دقائق قليلة جداً ويسلم الروح . ولابد أن يصفو الجو حتى يسلم الروح بالكلمات « ياأبتاه » .

فماذا عن الطلبة « إلهى إلهى لماذا تركتنى » والترك والرفض ، وغضب وعذاب هو الموت الروحى — الحرمان من الله : أشبه بالطرد من الجنة ، وهو الطرح فى الظلمة الخارجية .. وإذا كان الرب يسوع باعتبار كونه إنساناً نائباً عن البشر احتمل كل ذلك لكنه باعتبار كونه ابناً لابد أن ينهى هذا الطرح من قدام الله أو ترك الله له . لذا فوراً بعد هذه الكلمات ظهرت الشمس لأن مشيئة الله الرضى عن عمل الرب يسوع وشخصه .

قد قصدت أن أطيل فى هذا الموضوع لكى أتعرض لكل صلوات الرب التى لا توجد فيها واحدة لم تطلب حسب مشيئة الآب . وإذا كان قد علمنا أن نصلى « لتكن مشيئتك » فهذا لأنه قد صلى هو نفسه حسب مشيئة الآب وعلينا أن نتمثل به . لنطلب طلبتنا فى نور مشيئة الله .

(٦)

ولقد تمثلت الكنيسة بربها فكل صلاة يرويها سفر الأعمال عن الكنيسة تحكى نفس الاختبار : طلبة مشيئة الله فى الصلاة واستجابة معجزية .

صلت الكنيسة : أيها الرب العارف بقلوب الجميع عين أنت من هذين الاثنين أيا اخترته . ليأخذ قرعة هذه الخدمة والرسالة التى تعداها يهوذا ليذهب إلى مكانه » (أع ١ : ٢٤ — ٢٥) . وهذه الصلاة غنية عن التعليق والتنبير على أنه حسب مشيئة الله أنها تقول « عين .. أيا اخترته » .

وصلاة الكنيسة حين عين السبعة الشمامسة (٦ : ٦) غير مذكورة بالنص ولكن فكرتهم كانت بركة عظيمة جداً ليس فقط للكنيسة فى جيلهم بل للكنيسة عامة ، إن تكريس العلمانى ، وتنظيم العمل ، وإيجاد نوع من التخصص فى الخدمة الكنسية فهى أنه حسب تقديم مواهب خاصة حسب عطية الروح (رو ١٢ : ٤ — ٨) .

لكن فرز برنابا وشاول واضح أنه كان حسب قول الروح (١٣ : ٢) ، ففرزوهما بالصلاة والصوم (ع ٣) .

صلت الكنيسة بعد عتق الرسولين بطرس ويوحنا (أع ٤ : ٣٣) وطلبت النظر إلى تهديدات الرؤساء ، وعطية المجاهرة ، تتبعها الآيات على أيديهم . أما عطية المجاهرة فهى حسب وعد الرب « ومتى قدموكم إلى المجامع والرؤساء والسلاطين فلا تهتموا كيف أو بما تحتجون أو بما تقولون لأن الروح القدس يعلمكم فى تلك الساعة ما يجب أن تقولوه » (لو ١٢ : ١١ و ١٢) وأما الآيات

فهذه كانت حسب برنامج الرب لنشر إنجيله (مر ١٦ : ٢٠) وقد استجاب الله هذه الصلاة بزلزلة وملء الروح وكلام المجاهرة (أنظر أع ٤ : ٢٣ — ٣١) .

وصلوات استفانوس قبيل استشهاده هى ذات كلمات الرب يسوع بفارق واحد أنه يخاطب الرب يسوع فى حين أن الرب يسوع يخاطب الآب بقبول الروح وهذا ناشىء عن الفرق بين شخصيهما وما ترتب على ذلك (وهذا ليس فى هذا البحث) . لكن المهم أنه مثل الرب يسوع صلى حسب مشيئة الله . وهو حسب الرب يسوع طلب غفران خطية مضطهديه (٧ : ٥٩ و ٦٠) .

وقد حل الروح القدس على السامريين استجابة للصلاة (أع ٨ : ١٥ — ١٧) . وواضح أن الرب وعد بأن الآب السماوى يعطى الروح القدس للذين يسألونه (لو ١١ : ١٣) .

ولست فى حاجة لأن أعيد ما قلت إن طلبة الكنيسة عتق بطرس من السجن كان استجابة للصلاة (١٢ : ٥ و ١١ و ١٢) التى يرضاها الله .

وبنفس الطريقة صلاة بولس وسيلا فى فيلبى (١٦ : ٢٥) .

وبعد أخذ ورد لم تستطع الكنيسة فى صور أن تثنى بولس عن الذهاب إلى أورشليم حيث تنتظره القيود (٢١ : ٧ — ١٣) ولما لم يقنع سكتنا قائلين « لتكن مشيئة الرب » (ع ١٤) .

ظل شاول فى بيت يهوذا فى دمشق مدة ثلاثة أيام صائماً مصلياً يطلب « ماذا تريد يارب أن تفعل » (٩ : ٦) ومنتظراً الإجابة فى صلاة مستمرة (ع ١٢) . وقد استجيب بأن فتحت عيناه ، واعتمد ، وامتلأ من الروح القدس ، وكرز بالمسيح (ع ١٧ — ٣٢) .

أما بطرس وهو يصلى من أجل قيامة طابيثا (٩ : ٤٠) فرغم أن الكتاب لا يذكر لنا نص الصلاة . فإن بطرس كان يتكلم ويأمر ويصلى مملوءاً بالروح القدس ، وتصرف تصرفات أشبه بما عمل الرب ذاته لأنه يتحرك بمشيئته وقد امتلأ بروح قدسه : أخرج الجميع خارجاً (ع ٤٠ قابل ٩ : ٢٥) دعا الميت ياطابيثا قومى (ع ٤٠ قابل مر ٦ : ٤١) ورغم أن الميت لا يسمع إلا صوت ابن الله (يو ٥ : ٢٨ و ٢٩) فنفهم أن بطرس لم يكن هو المتكلم بل روح الله فيه ؛ ولذا قامت طابيثا . وبالجملة كل ما فى هذه الحادثة هو من الروح القدس بما فيه الصلاة .

وكل صلاة تستجاب حسب مشيئة الله .

فأين هنا قوة الصلاة إذا كانت تتحكم فيها مشيئة الله . نعود ثانية لنقرر أننا نصلى فى دائرة المشيئة . وسعيد هو من يعرف ما هى ، ويختبر ما هى « إرادة الله الصالحة المرضية الكاملة » (رو ١٢ : ٢) .

(٧)

ما شروط استجابة الصلاة التى لو لم تتوفر فشلت ؟ وما هى مفشلات الصلاة التى لو تجنبناها استجيبت . وسوف أذكرها بمجرد الذكر مع التوضيح بالشواهد وأكتفى بهذا على أن أركز التأملات

على ما يختص بمشيئة الله .

١ ــ تستجاب الصلاة إن قدمت بإيمان : « إن كان لكم إيمان ولا تشكون فلا تفعلون أمر التينة قط بل إن قلتم أيضا لهذا الجبل انتقل وانطرح فى البحر فيكون . وكل ما تطلبونه فى الصلاة مؤمنين تنالونه » (مت ٢١ : ٢١ و ٢٢) .

لهذا فمن مفشلات الصلاة الارتياب (يع ١ : ٦ و ٧) وعدم الإيمان فى اتباع الرب (مت ٦ : ٢٤ ، أف ٤ : ١٣ و ١٤) . وليس طلبة الرب من أجل الحاجة ولكن الانصراف عن الرب ذاته (هو ٧ : ١٤) .

٢ ــ ومن شروط الصلاة المستجابة الطاعة : « ومهما سألنا ننال منه لأننا نحفظ وصاياه » (١ يو ٣ : ٢٢) ذلك لأن الإثم يعطل استجابة الصلاة (مز ٦٦ : ١٨) .

وقد وردت فى الكتاب فى مواضع كثيرة آيات تفيد أن الخطية بشتى صورها تعطل الاستجابة . يعطلها العصيان (تث ١ : ٤٥ ، ١ صم ١٤ : ٣٧ ، ٢٨ : ٦) وكذلك الخطية السرية (مز ٦٦ : ١٨) واحتقار الناموس (أم ٢٨ : ٩) وسفك الدم (إش ١ : ١٥) والعناد (تك ٧ : ١٣) . وليس فقط الخطية بل عدم عمل الخير . مثلا : عدم الرحمة (أم ٢١ : ١٣) وعدم اتخاذ موقف إيجابى فى طاعة كاملة لما يرشدنا إليه الرب (أم ١ : ٢٨ إقرأ أم ١ : ٢٤ ــ ٣٣) أنظر أيضا (أم ١٥ : ٢٣ ، يو ٩ : ٣١) .

٣ ــ على أن الصلاة يجب أن تحتوى فى ذاتها مقومات استجابتها وليس مجرد أن المصلى يجب أن يكون مقبولا . فالصلاة فى محتوياتها وطلبتها يجب أن تكون مقبولة وهذا ما نهتم به هنا بالنسبة لموضوعنا ــ أقصد يجب أن تكون الصلاة حسب مشيئة الله . « إن طلبنا شيئاً حسب مشيئته يسمع لنا » (١ يو ٥ : ١٤) .

وطلبة حسب مشيئته هى الطلبة الجيدة بعكس الطلبة المرفوضة التى يقول عنها الرسول « لأنكم تطلبون ردياً لكى تنفقوا فى لذاتكم » (يع ٤ : ٣) .

يشترط الرب لاستجابة الصلاة أن تكون باسم المسيح (يو ١٤ : ١٤) ومن شخص ثابت فى المسيح (يو ١٥ : ٧) . ولو ألقينا نظرة إلى لفظ باسم المسيح لرأينا معناها تماما مثل حسب مشيئته . والعبارة باسم المسيح لا يقصد بها أن تذيل صلاتنا بالقول « باسم المسيح استجبنى . آمين » بل أن تكون الصلاة هى الصلاة التى يوافق عليها المسيح الصلاة التى أطلبها من المسيح ومن أجله ولأجل مجده . لأنه لا عبرة فى صلاة تختلف عن روح المسيح ولو ذيلت بلفظ « باسم المسيح استجب آمين » !

وكذلك الثبات فى المسيح يعنى حياة المسيح فينا فهو الذى فىَّ يعيش : « أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فىَّ » ، وبنفس القوة أصلى لا أنا بل المسيح يصلى فىَّ ، أى أن الصلاة إذا كنا نطلبها ثابتين فى المسيح تكون حسب مشيئته .. وبالضبط كما كان المسيح يصلى .

إن القاعدة أن الصلاة الجيدة أو التى هى حسب مشيئة الله هى التى تستجاب . ولكن أحياناً يسمح الله ويقبل أن يجيب صلاة رديئة ليست حسب مسرته ! ليس أن الله قد غير مشيئته ، ولكن الله تجت إلحاحنا سمح . ولا يعنى هذا تغير مشيئته بالضبط مثل زيادة خمس عشرة سنة على أيام حزقيا الملك لا تعتبر تغيير قضاء الله بالنسبة لعمر الإنسان . وقد سبق الحديث فى هذا الموضوع .

وحين يستجيب الله صلاة ليست حسب مسرته بل حسب سماحه ؛ فذلك ليس لأن الصلاة أرغمته على ذلك ، بل لأنه يحول كل شيء لأجل مجده .

إلا أن هذه الصلاة على أى حال خطر على طالبها : وكان خيراً لو لم تطلب .

لقد زيد على عمر حزقيا حسب طلبته خمس عشرة سنة فيها تشامخ وأرى ما عنده لملك بابل فكانت النتيجة أن صدر أمر الرب بأن كل ما عنده سيحمله ملك بابل ! (٢ مل ٢٠ : ١٢ — ٣١) وفى ذات الخمس عشرة سنة ولد له ولد هو منسى كان من أشر ملوك نسل داود . وقد وضع منسى معول الهدم فى مملكة أبيه . على أن الرب سمح بأن يستجيب هذه الصلاة والدموع لكى يجرى قضاءه على مملكة يهوذا .

وصلاة أخرى من هذا النوع هى استجابة الرب لشهوة بنى إسرائيل ما يأكلون فى البرية « بل اشتهوا شهوة فى البرية وجربوا الله فى القفر . فأعطاهم سؤلهم وأرسل هزالا فى أنفسهم » (مز ١٠٦ : ١٥) . استجابة أدت إلى هزال فى النفس .

ولقد طلب بنو اسرائيل ملكا ، يقول الرب عن هذه الطلبة : « حيث قلت أعطنى ملكا ورؤساء . أنا أعطيتك ملكا بغضبى وأخذته بسخطى » (هو ١٣ : ١٠ و ١١) .

وإن دلت هذه الصلوات المستجابة لحكمة عند الله ضد مصلحة طالبيها الأشرار إن دلت على شيء فهى تدل على أن للصلاة قيمة ولكن هنا معكوسة ، ولنتخذها تحذيراً لنا لكى نعرف مشيئة الرب ونطلبها أو نطلب طلباتنا ونقول « لتكن مشيئتك » .

(٨)

لنصل طالبين مشيئة الله : لتكن مشيئتك .

ومرة أخرى أريد أن أقول حينما نطلب مشيئة الله لمواجهة احتياجاتنا فنحن فعلا نصلى والاستجابة هى استجابة طلباتنا . وضمن مشيئة الله أن نطلب حاجاتنا بحسب مسرته .

عرف الرب مشيئة الآب وطلبها .. أو خضع لها . وعلينا نحن أيضاً أن نسير فى حياة الصلاة التى سارها الرب أمامنا .

حين نقول لتكن مشيئتك فهذا يعنى أننا نخضع لمشيئته ، ونصلى طالبينها . وإذا كان الرب يسوع نفسه يقول « ياأبتاه إن أمكن فلتعبر عنى هذه الكأس ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت » (مت ٢٦ : ٣٩) فبالأولى نحن .

إننا سنخضع لمشيئة الله . فما لم نخضع فى الصلاة راغبين — نخضع لما يجربه الرب صاغرين (٢ صم ١٢ : ٢٢ و ٢٣ ، أى ١ : ٢٠ — ٢١) . وبالمقارنة بين خضوع طالب مشيئة الرب حراً مصلياً ، وخضوع من يجرى عليه ولا يستطيع أن يغير شيئاً نجد أن الصلاة طلبة حقيقية حال كونها فى مشيئة الرب .

وحين نقول لتكن مشيئتك فإننا نطلب طلبة فعلا هى إتمام مشيئة الله التى لا نعرفها . فى هذه الحالة نحن نقدم للرب حاجاتنا ، وأى رد من الرب على حاجاتنا يتمم مشيئته ويسدد حاجاتنا . وقد يكون الرد حتماً (أى ١٩ : ٧) ولو عمل الرب حسب طلباتنا وفى مواعيدنا لأخذنا ما نريد دون شكر (لو ١٧ : ١٨) أو ننتكس (يو ٥ : ٥ و ١٤) . لهذا فصمته مع أيوب وغير أيوب ليس معناه الرفض ، فقد تأتى بعده شهادة طيبة « عظيم إيمانك ليكن لك كما تريدين » (مت ١٥ : ٢٣ — ٢٨) .

ومن الممكن أن نطلب مشيئة الرب ذاتها ونحو هذه الغاية يجب أن نخطو خطوتين هما (١) الانقياد بالروح ، (٢) والثبوت فى المسيح .

فيما مضى ورد الكفاية عن حاجتنا لشفاعة الروح فينا حتى نطلب ما ينبغى أن نطلبه ، لأن الروح يشفع فى القديسين حسب مشيئة الله . والآن أريد فقط أن أبين أن هذا يأتى لمن ينقاد بالروح (ع ١٤) يوجد ارتباط وطيد بين الحياة المقدسة والصلاة المستجابة . وهذا هو السر فى أن الله يسمع للأتقياء وليس للعصاة (كما رأينا) أما الارتباط فهو فى من يبعث إلى الحياة المقدسة ويعين عليها — الروح القدس وهو ذاته الذى يرشدنا إلى ما يجب أن نصلى لأجله .

فما معنى أن ننقاد بروح الله ؟ وكيف ؟ إن من ينقاد بروح الله ليس تحت ناموس (غل ٥ : ١٨) ولا يستجيب لشهوات الجسد (٥ : ١٦) لكنه يحيا حياة عالية متمماً برنامجاً يطلبه الروح (غل ٥ : ٢٣ و ٢٤) يسميه ثمار الروح بالمقارنة بأعمال الجسد . أى أن هذا يعنى أن نمتلىء بالروح وحينئذ يثمر فينا الروح وهذا يوافق القول « يشفع فينا بأنات لا ينطق بها » سنجد أنفسنا ننطق طلبات هى مشيئة الله حسبما يثمر فينا الروح ، وسنجد أنفسنا لو لم ننطق تتنهد فيترجم الروح هذه الأنات إلى صلوات . بكل بساطة الامتلاء بالروح وكفى . والروح يعمل ما يلزم .

على أننا عندما نمتلىء بالروح إما أن نطيع الروح حين يحركنا للخدمة ، أو نطفئه (١ تس ٥ : ١٩) ونحزنه (أف ٤ : ٣٠) يقول الروح اعمل هذا فنعمله فيأتى إرشاد آخر ويزاد لنا النور . وهكذا ننمو فى معرفة مشيئة الله (هو ٦ : ٣) .

عندما نكون مستعدين تماماً لتنفيذ كل ما يطلبه الروح ولا نحتسب لشىء ولا أنفسنا ثمينة عندنا حتى نتم بفرح سعينا والخدمة التى أخذناها من الرب يسوع (أع ٢٠ : ٢٤) فإن الروح يرشدنا إلى إرادة الرب (٢١ : ١٣ و ١٤) وهو فى هذه الحالة مستعد لتقديم الصلاة المجابة .

والواجب الثانى أو الخطوة الثانية التى يجب أن نخطوها هى أن نثبت فى المسيح . إن حياتنا الجديدة هى أن يحيا المسيح فينا ، وثمرنا أن يثمر فينا ، وبرنا هو ما يظهره فينا وقوتنا ما يعمل فينا . فثباتنا على هذه الحال ، وعدم تزعزعنا عنها ، يجعل لكلامه موضعا فينا . وكلامه هو إظهار مشيئة الله ...

« فلنثبت » فيه ، و « ليثبت » فينا . كلمة « يثبت » تعنى يسكن . وكوننا نسكن فى المسيح معناه أن يكون الوسط الذى نعيش فيه ، هو ما يملأ تفكيرنا ، ويشغل آمالنا . وأن يسكن فينا معناه أن يستخدم كل قوانا حسب غرضه بكل حرية وكل قوة .

وجدير بالذكر أن نتأمل فى أن ثبوت المسيح فينا « أمر » وليس وعد . معقول أن يأمرنا بأن نثبت فيه . ولكن كيف يأمرنا بأن يثبت هو فينا ؟! لكن حين نعرف أن ذلك يتطلب تسليمه كل شيء ليستخدمه فهذا هو المعقول فى الأمر . لذا نعود مرة أخرى إلى ما قيل عن الروح القدس وعمله هذا يتطلب استجابة كاملة منا إلى ما يمليه علينا . فهنا يتطلب الرب يسوع استجابة كاملة إلى ما يعمله فينا وبنا . ولا غرابة فى هذا فالروح القدس من عمله أن يسكن المسيح فى قلوبنا لكى يستخدم كل قوانا : « لكى يعطيكم بحسب غنى مجده أن تتأيدوا بالقوة بروحه فى الإنسان الباطن ليحل المسيح بالإيمان فى قلوبكم » (أف ٣ : ١٦ و ١٧) .

وبكل بساطة حين نمتلىء من الروح القدس يستخدمنا الابن والروح لمجد الآب ونكون فى جو هو مشيئة الله فنطلب بكامل حريتنا طلباتنا وحاجاتنا وهى فى ذات الوقت مشيئة الله وتجاب .

(٩)

نعم لنصل ولا نكف عن الصلاة .

لنصل « فى الروح » وهذا يعنى فى مشيئة الله . وإن كنا لا نعرف ما هى مشيئة الله = لا نعرف ما نصلى لأجله كما ينبغى ، فالروح يفعل ذلك إنه يقودنا ، والرب يسوع الساكن فينا يحرك فينا الطلبات التى ينبغى أن نطلب .. فلنصل ولا نرتبك أهى مشيئة الله أم لا ، تجاب أم لا . لأنه طالما أننا نصلى فى الروح . فسنجد النتائج العجيبة حسب مشيئة الله .

لنصل ونعمل لأن الصلاة دون عمل تعتبر إهانة لله . فلا يكن ما نطلبه شيء وما ننفذه آخر . بل لنعمل كما نطلب ونهيىء أنفسنا لاستقبال الاستجابات العظيمة .

إن الله يجيب فى وقته وبطريقته . فلا نستعجل ولا نفشل إذا أتت استجابته على غير ما طلبنا . بل بالحرى لنفرح أن الله يريد لنا الأفضل .

الصلاة أعظم قوة فى الوجود ، ليس فى أنها تسخر الله لمطالبنا بل لأنها تطلب نعمة الله من أجل احتياجاتنا . ومن هنا يجب أن نقدمها بتواضع وخضوع وتسليم وإيمان .

(رابعاً)

القضاء والواجب

أجل قضى الله قضاء حقيقياً فعالا أزلياً ثابتاً وفى ذلك فالإنسان حر مسئول . وقد رأينا قضاء الله ومسئولية الإنسان . ورأينا أن من ضمن قضاء الله مسئولية الإنسان ، ولكى تكون هذه الحقيقة واضحة تمام الوضوح فأريد أن نستوضحها الآن إذ نتأمل فى :

- الوسيلة التى يتم بها القضاء .
- ماذا أفعل .

الوسيلة التى يتم بها القضاء

« العنوا ساكنيها لعناً لأنهم لم يأتوا لمعونة الرب »

(قض ٥ : ٢٣)

من هم ؟ وما تقصيرهم بالذات ؟ وهل يحتاج الرب إلى معونة إنسان ؟ تقول الآية : « العنوا ميروز قال ملاك الرب العنوا ساكنيها لعناً لأنهم لم يأتوا لمعونة الرب . معونة الرب بين الجبابرة » (قض ٥ : ٢٣) .

وميروز هى بلدة وقعت فى نصيب يساكر على امتداد وادى يزرعيل (أو مجدو) ولقد أصابتها لعنة لم تصب أحداً غيرها من الذين لعنتهم أو وبختهم دبورة فى نشيدها . لقد كانوا بعيدين عن الموقع بالنسبة لميروز فكانت لعنتهم أخف . لكن لماذا ؟ وماذا فعلت وفعلوا .

لقد حدث هذا فى حكم القضاء حين أخطأ شعب اسرائيل وعملوا الشر فى عينى الرب « فباعهم الرب بيد يابين ملك كنعان الذى ملك فى حاصور » (قض ٤ : ١ و ٢) . فلما تابوا خلصهم الرب بيد دبورة النبية وباراق (ع ٤ — ٦) وكانت الواقعة الحربية التى فيها انكسر جيش يابين بقيادة سيسرا . وهرب سيسرا وكان لا بد من القبض عليه .

كانت ميروز على طريق سيسرا وهو هارب من موقع هزيمته (وادى يزرعيل) إلى خيمة حابر القينى (فى قادش) وكان يمكن أن تقتنص ميروز الفرصة الثانية بالقبض على سيسرا بعد أن ضيعت الفرصة الأولى بعدم اشتراكها فى المعركة التى دارت على مرأى عين منها . لكنها ضيعتهما كليهما وتركت سيسرا يعبر بها بسلام دون أن تقبض عليه وتسلمه لقضاء الرب عليه .

هذا هو تقصيرها . ويدعوه الكتاب « لم يأتوا لمعونة الرب »

فهل يحتاج الرب إلى معونة ؟

لقد قضى الرب بأن ينهزم سيسرا ويقتل (قض ٤ : ٩) وأعطيت الفرصة لميروز لكى تكون واسطة إتمام ذلك القضاء . فتركت تلك الفرصة تعبر وتضيع منها وقصرت فاستحقت اللعن .

إن التعبير « لمعونة الرب » تعبير قوى يدل على أهمية الوسيلة لإتمام القضاء الإلهى .

(١)

ولنلق نظرة الآن على ما يقوله الكتاب بالنسبة لارتباط القضاء بالوسيلة .

يظهر الكتاب أن القضاء الالهى يشمل الوسيلة لتنفيذه . وسنمر بعد قليل على أمثلة من الأقضية الالهية ووسائلها التى بها تمت . على أننا هنا نريد أن نرى هاتين الحقيقتين الهامتين (١) أن الوسيلة هى نحن بحريتنا واختيارنا وأننا مسئولون عمنا يطلب ما (٢) وأن هذه الوسيلة جزء لا يتجزأ من قضاء الله . وهذا هو الارتباط القائم بين قضاء الله ومسئولية الانسان .

يمكن فعلا أن يهزم الرب هزيمة مباشرة أى إنسان ، ولو يسلط عليه الكواكب من خيكها أو نهر قيشون الجارف (قض ٥ : ٢٠) أو أن ينزل عليهم البرد من السماء (يش ١٠ : ١١) أو يجعل الأعداء يحارب بعضهم بعضا (١ صم ١٤ : ٢٠ ، ٢ أى ٢٠ : ٢٣) . وعلى أى حال هذه وسائل يستخدمها الرب لكنه كثيراً ما يدعونا نحن لنكون وسيلة . يمكن أن يطعم الرب أى جائع عن طريق الغربان (١ مل ١٧ : ٤ — ٦) أو المن نازلا مباشرة من السماء (خر ١٦ : ٤) أو اللحم خارجا مباشرة من البحر (عد ١١ : ٣٠ — ٣٢) . ولكنه كثيراً بل هذه هى العادة أن يأمرنا نحن بأن نعطى الجائع (١ مل ١٧ : ٩) . يمكن للرب أن يخلق حماراً خصيصاً لكى يجلس عليه وهو داخل إلى أورشليم (وما أعظم هذا العمل إن عمل !) لكن مالك كل البرايا يرسل إلى صاحب جحش بالذات ويقول « الرب محتاج إليه » (مر ١١ : ٣) وحينما يقول « معونة الرب » (قض ٥ : ٢٣) أو الرب محتاج إليه (مر ١١ : ٣) فهذا يعمق مكاننا فى قضاء الله كوسيلة .

وكان يمكن أن يصعق الرب سيسرا فى الطريق لكنه ترك الأمر لميروز فأفلتته على أن الرب قضى بأن يباع سيسرا « بيد امرأة » (قض ٤ : ٩) فكان من ضمن قضاء الله على سيسرا واسطة إتمام ذلك القضاء .

إننا لا نعلم شيئا عن قضاء الله . لكننا نعلم أن قضاء الله يجعلنا مسئولين لأننا الواسطة التى يطلب منها أن تمم هذا القضاء . لسنا مسئولين عن القضاء ولكننا مسئولون عن الوسيلة .

وهنا تظهر حريتنا بأجلى بيان وهنا أيضا تظهر مسئوليتنا . والحرية للقبول أو الرفض فمن يتقبل فقد قبل بكامل حريته ، ومن يرفض فقد رفض بكامل حريته . على أننا لا نلاحظ الحرية فى القبول بل فى الرفض . ورغم أن هذا ليس كل الحقيقة لكن لأنه بعضها فيمكن أن نلجأ إليه لإثباتها بمقارنتها بالنقيض .

عرض على ميروز أن تكون واسطة الله للقضاء على سيسرا ورفضت وقد قبلت ياعيل ذلك . عرض على الابن الأكبر « يابنى اذهب اليوم اعمل فى كرمى ، فرفض ثم ذهب أخيراً إذ ندم وأما الابن الأصغر فقبل بالكلام ولكنه رفض بالعمل (مت ٢١ : ٢٨ — ٣٠) وغير ذلك كثير .

قلت من قبل إن قضاء الله ثابت لا يتغير ولكن بعض الأحيان يبدو كأنه يتغير ..وتلاحظ كلمة مثل « ندمت على أنى قد جعلت شاول ملكا » (١ صم ١٥ : ١٠) « رأى الرب فندم على الشر

وقال للملاك المهلك كفى الآن رد يدك » (١ أى ٢١ : ١٥) أو الزيادة التى تمت على عمر حزقيا الملك » (٢ مل ٢٠ : ٥ — ٦) .

وفى الحقيقة هذه لا تعنى تغير القضاء بل تعنى موعد الوسيلة التى عينها الله فى قضائه لكى يتم بها القضاء النهائى . لأنه فى الفصل الأول من هذه الشواهد يذكر الكتاب صريحاً بأن الله « لا يندم » (١ صم ١٥ : ٢٩) فكيف تفسر هذه الكلمة ندمت . لو تنظر فى ملك شاول على الإطلاق من حيث قضاء الله تجد الله يقول « أنا أعطيتك ملكا بغضبى وأخذته بسخطى » (هو ١٣ : ١١) ولم يلحظ صموئيل الغضب فى إعطاء الرب ذلك الملك للشعب لأن الرب أخفاه . لهذا أظهر الله لهم السخط ورأوا فى ذلك الندامة . لكن لماذا لأن الملك عصى الرب أن يكون واسطة فى يد الرب ، وهكذا رفض نفسه كواسطة لإتمام رفض الرب المقضى به عليه .

وفى المثال الثانى نرى أنه لم يكن قضاء الرب إبادة الشعب . فقد قال داود « دعنى أسقط فى يد الرب لأن مراحمه كثيرة جداً ولا أسقط فى يد إنسان » (١ أى ٢١ : ١٣) وفعلا كان عند رجائه فى الرب على أن هذا يدل على الواسطة التى بها تم قضاء الرحمة ولكن حين نتأمل هذا من وجهة قضاء الرب المعلن نجد أن الرب قد حدد هذا المكان ليكون بيتاً للرب — بيدر أرنان اليبوسى (١ أى ٢١ : ١٥ و ١٨) السبب المباشر وقوف الملاك عند هذا الحد فى ذلك المكان من أن يهلك الشعب بخطية داود ؛ فبنى المذبح حسب أمر الرب وقد رأى داود مناسبة ذلك المكان لأنه حد الرحمة . على أن الرب قد اختار ذلك المكان من قبل . من (٢ أى ٣ : ١) نعلم أن بيدر أرنان اليبوسى كان فى « جبل المريا » وهذا هو ذات المكان الذى اختاره الرب لكى يقدم ابراهيم إبنه اسحق لله ثم فداه بكبش معلق فى غابة (تك ٢٢ : ١ — ١٤) . المهم فى موضوعنا هنا أن الرب قال لابراهيم « خذ ابنك وحيدك الذى تحبه اسحق واذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك » (ع ٢) يقول الكتاب « فلما أتيا إلى الموضع الذى قال له الله بنى هناك ابراهيم المذبح » (ع ٩) . وفى ذات المكان بنى الهيكل . وقد كانت غاية الله أن يوقف الملاك عن أن يهلك الشعب فى ذات المكان الذى فيه أوقف يد ابراهيم أن تهلك اسحق .

وأما المثال الثالث فلا يحتاج إلى زيادة عما قلته عنه فى عدة أماكن سابقة من نواحى مختلفة إلا أن قضاء الله لم يتغير ولكن وضع الله ضمن قضائه وسيلة إتمام القضاء بأن يمتد عمر حزقيا استجابة للصلاة وباستعمال العلاج حتى يصل إلى العمر المقضى به .

الوسيلة يترتب عليها ترتيبات تؤدى إلى قضاء الله . ولأن الوسيلة فى أيدينا ، وتحت اختيارنا وهى قابلة للأخذ والرد لذا نتائجها بنفس الطريقة قابلة للأخذ والرد . الوسيلة وليس قضاء الله . إننا نجهل القضاء لكننا نرى الوسيلة ونحكم على ما نراه .

(٢)

ويمكننا أن نرى دور الوسيلة فى ما يطلب منا من واجبات نتائجها إتمام قضاء الله :

١ — هناك وسيلة الخلاص . قضى الله بخلاص من اختارهم للحياة الأبدية وجهز لهم فداء كاملا

لهم من يدعونهم إلى أمجاد هذا الخلاص .. وعلى الإنسان أن يستجيب ، والإستجابة الإنسان هى الوسيلة التى هو مسئول عنها لكى يخلص .

يدعو الله الإنسان أن يتوب . والتوبة كوسيلة نحو الخلاص ضمن مسئولية الإنسان . وأما كونها وسيلة نوال الإنسان للخلاص فهى لأنه ما لم يبغض الإنسان الخطية ويتجه نحو الله بدلها يصير كمريض لا يطلب طبيباً ويموت فى مرضه . وواضح أن تغيير الاتجاه من الخطية إلى الله ضمن إرادة الإنسان .

ولقد جهز الله الخلاص للإنسان ومطلوب منه أن يقبل المخلص . بالإيمان ولنا فى العهد القديم عدة أعمال رمزية توضح هذا . طلب الله من كل شعبه أن يضعوا الدم على العتبة العليا والقائمتين حول الباب حيث هم داخلا ، وقال الرب فأرى الدم وأعبر عنكم . وجعل هذا شرطاً لنجاة البكر . وأما المثال الثانى فهو فى الحية النحاسية فالناظر إليها يبرأ من السم الذى نفثته فيه الحية المحرقة . وكلا الأمرين يشترطان للنجاة والخلاص ، وهما رمزان للمسيح المصلوب وفى كلا الرمزين يظهر عمل الإيمان . وهذا مثال لقبول الرب يسوع والمخلص بالايمان .

وما دمنا بصدد مسئولية الإنسان التى تتركز فى إتمام الوسيلة نحو الخلاص اذكر هنا أن إنسانا آخر غير الخاطىء مسئول عنه هو من يستخدمه الله كوسيلة لدعوته للحياة الأبدية : « كيف يسمعون بلا كارز » (رو ١٠ : ١٤) لهذا يجب أن يقوم الكارز بمهمته كرقيب للناس (حز ٣ : ١٧ — ٢١) .

٢ — كذلك لنتأمل فى وسيلة النجاة . ولنأخذ بذلك مثالا : نجاة بولس الرسول والمسافرين معه من خطر الغرق فى رحلتهم إلى رومية (أع ١٧) أما كون نجاتهم مضمونة مقضى بها فهذا واضح من الرؤيا التى تؤكد للرسول نجاتهم « لأنه وقف بى هذه الليلة ملاك الاله الذى أنا له والذى أعبده . قائلا لا تخف يابولس ينبغى لك أن تقف أمام قيصر وهوذا قد وهبك الله جميع المسافرين معك ، لذلك سروا أيها الرجال لأنى أؤمن بالله أنه يكون هكذا كما قيل لى » (ع ٢٣ — ٢٥) . لكنه بعد ذلك قال إن أكل الطعام يكون مفيداً لنجاتهم (ع ٣٢ — ٣٦) وكذلك بقاء النوتية معهم فى السفينة (ع ٣٠ و ٣١) نعم قضى الله بأن ينجو الجميع ، ولكن حدد الله الوسيلة لهذه النجاة وهى قوة الآكلين ورفقة النوتية .

ومثال آخر للقضاء بالنجاة تصحبه الوسيلة . سكن داود فى صقلغ حين كان منفيا يطارده شاول وسكن معه رجاله . وبعد رجوعه إلى صقلغ حيث يسكن وجد كل النساء قد سيقوا سبايا ، وكل الممتلكات قد نهبت . وسأل داود الرب فأجابه بأن : « الحقهم فإنك تدرك وتنقذ » (١ صم ٣٠ : ٨) على أن داود لم يستطع أن يجد مكانهم إلا بمساعدة المصرى المتروك (ع ١١ — ٢٠) ذلك لأن الله عين أيضاً الواسطة التى بها تم القضاء . وأما حرية الانسان فى الوسيلة فواضح من أن المصرى طلب ألا يسلمه داود إلى سيده .

٣ — ويطلب منا وسيلة الشفاء .. قال الرب بأن المرضى فى حاجة إلى طبيب . (مت ٩ :

١٢) وحقاً إن الشفاء من الرب لكن قد يشفى الرب عن طريق واسطة . ويكفى ما ذكر قبلا[1] فى هذا الموضوع . وكلما نحتاج إليه هو تعميق الفكرة بأن هذه الواسطة مسئوليتنا .

وقد ذكرت فى المكان المشار إليه وجود وسائل يستخدمها الرب لشفائنا ووقايتنا : التين لشفاء حزقيا ، عصير العنب لشفاء تيموثاوس ، الزيت حسب وصية يعقوب ، وأنواع التطعيم .. الخ

وقد ذكرت أيضاً أنه فى كل حالات الشفاء عمل الهى ، هناك وعد لحزقيا بالشفاء مدعماً بعلامة غير عادية . ولكن يصر الله أن يستعمل التين ؛ وهناك قوة الله لشفاء تيموثاوس ولكن مهم أن يبطل شرب الماء ويستبدله بعصير العنب ، وينبر القديس يعقوب على أن صلاة الإيمان تشفى المريض ولكن ينصح بدهن الزيت .. الخ . وهذا يعنى أن الله يسر بأن يتخذ وسيلة للشفاء ففى هذه الحالة وجب استعمالها . ومن لا يفعل يقصر ويعصى الرب فيتم عليه قضاء الرب بعدم الشفاء .

نحن لا نعلم ما قضى به الرب وهل قضى بالشفاء أو الموت . لكننا نعلم أن الرب يقول لنا استعمل كذا . وقد يكون صوت الطب هو صوت الله فى هذه الحالة . وقد يكون تحذير الصديق هو تحذير الله فى هذه الحالة . فمن لا يسمع يكون قد أتم وسيلة هلاكه . إننا مسئولون عن إتمام وسيلة الشفاء .

٤ ــ ونحن مسئولون أيضاً ضمن قضاء الرب عن وسيلة النجاح .

النجاح هبة من الله ، وبدون الله لا نجاح قط . هذا ما يقرره الكتاب بتنبير شديد : « إن لم يبن الرب البيت فباطلا يتعب البناؤون . إن لم يحفظ الرب المدينة فباطلا يسهر الحارس . باطل هو لكم أن تبكروا إلى القيام ، مؤخرين الجلوس ، آكلين خبز الأتعاب ، لكنه يعطى حبيبه نوماً » (مز ١٢٧ : ١ و ٢) . فهنا يقول الكتاب إن بانى المدينة هو الرب ، وهو حافظ المدينة . على أن الرب يبنى البيت عن طريق البناء وتعب البناء ، وكذلك يحفظ الرب البيت عن طريق الحارس وسهر الحارس .

يبكر الزارع ذاهباً إلى حقله ليعمل ، ويقضى كل اليوم فى الحقل آكلا أى شيء يتفق فى الحقل ، أما أكلته الرئيسية التى يأكلها بين أولاده ففى المساء ، وهذه يأكلها متأخراً لأنه حضر من الحقل متأخراً . هل من داع لذلك إذا كان الرب هو الذى ينمى (١ كو ٣ : ٦) أليس الأفضل له أن ينام لأن الأرض من ذاتها تأتى بثمر والزارع لا يعرف كيف (مر ٤ : ٢٦ ــ ٢٩) ؟ كلا إن الرب قضى بأن يعطى الإنسان عن طريق اجتهاده فهذا الزارع هو وسيلة الرب لإنجاح الزرع .

هذا هو ما يقر به نحميا حينما قال « فصلينا إلى إلهنا وأقمنا حراساً ضدهم نهاراً وليلا بسببهم » (نح ٤ : ٩) وهذا يعنى أنه يطلب النجاح من الرب الحافظ لأن الحفظ عمل الرب وقضاء الرب وهبة الرب ، لكن نحميا لا يهمل مسئوليته كواسطة إتمام ذلك القضاء ..

---

(١) أنظر الفصل عن تحديد عمر الإنسان ــ الجزء الأول .

ويمكن أن نطبق هذا الكلام على النجاح المادى سواء لتاجر أو صاحب أعمال .

ويمكن أن نطبقه على النجاح الوظيفى والمهنى .

ويمكن أن ينطبق على تحصيل ونتائج طالب العلم .

أى نجاح وكل نجاح هبة من الرب ، لكنه يأتى عن طريق وسيلة هى الإنسان . وهبة الرب مبنية على قضائه الذى جعل الوسيلة إليه حراً مختاراً مسئولا . ويجب أن يتمم المطلوب منه . لهذا يقال « من طلب العلى سهر الليالى » بهذا التعبير « توهب المعالى للمجدين » . لأن وكما رأينا « السعى ليس للخفيف ، ولا الحرب للأقوياء ، ولا الخبز للحكماء ولا الغنى للفهماء ، ولا النعمة لذوى المعرفة ، لأن الوقت والعرض يلاقيانهم كافة » (جا ٩ : ١١) على أن هذه كلها توهب لهم حينما تكون مسرة الرب لنجاحهم . وعن طريق هذه الامتيازات ذاتها .

فقط فى وسيلة النجاح يجب ألا تتعوج كيعقوب فى خداعه لأبيه وخاله . حقاً إنه نال النجاح لأنه هكذا مشيئة الرب ، ولكن حسبت عليه خطيته .

٥ — ثم نحن مسئولون كوسيلة لإتمام عمل الرب . ولدرجة أن الكتاب يقول « ملعون من يعمل عمل الرب برخاء » (إر ٤٨ : ١٠) . لكن هذا عمل الرب . نعم ، ونحن وسيلة إتمامه وهو يدعونا : « ياابنى اذهب اليوم اعمل فى كرمى » (مت ٢١ : ٢٨) . ويترك لنا أن نذهب أو لا نذهب . وسيعمل العمل ولكن بالواسطة التى قضى بها . وهى نحن لذا يجب أن نعمل العمل .

جعل الرب النبى (وبنفس الدرجة كل من وضعهم فى مكانه) رقيباً للناس مطلوب منه أن يحذرهم . هذا هو عمل الرب . والرب يأمره اعمل هذا ، قل لهذا ، قابل هذا ، تكلم مع هذا .. إهمال خادم الرب يوقعه تحت طائلة المسئولية ، وقيامه بالعمل يجعله أهلا لمكافأة المسئولية .

العمل عمل الرب ، والقوة من الرب ، والكفاءة لأدائه من الرب ، والدعوة من الرب ، لكن مطلوب منا أن نستجيب . يقول الكتاب « بدونى لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً » (يو ١٥ : ٥) . وكذلك يقول بولس الرسول ليس أننا كفاة من أنفسنا أن نفتكر شيئاً كأنه من أنفسنا بل كفايتنا من الله » (٢ كو ٣ : ٥) . لكن حين تكون لنا الكفاية ؛ وحين يعمل فينا الرب يسوع ؛ مطلوب منا أن نعمل عمل الرب .

يذكر الكتاب عن يوناثان بن شاول أنه « مع الله عمل » (١ صم ١٤ : ٤٥) ويذكر عن الرسل أنهم « كرزوا فى كل مكان والرب يعمل معهم ويثبت الكلام بالآيات التابعة » (مر ١٦ : ٢٠) وعن بولس وسيلا أنهما « عاملان مع الله » وأن الكورنثيين « فلاحة الله بناء الله » (١ كو ٣ : ٩) . هذا تعبير آخر للقول بأن الله يعمل بواسطة الأشخاص : « أعطانا خدمة المصالحة : أى أن الله كان فى المسيح مصالحاً العالم لنفسه غير حاسب لهم خطاياهم ، وواضعاً فينا كلمة المصالحة . إذاً نسعى كسفراء عن المسيح كأن الله يعظ بنا ، نطلب عن المسيح تصالحوا مع الله » (٢ كو ٥ : ١٨ — ٢٠) . لاحظ هنا هذه التعبيرات : واضعاً فينا كلمة المصالحة — سفراء عن المسيح — الله يعظ بنا — نطلب عن المسيح .. كل هذه تدل على أننا وسائل عمل مقضى

به ؛ نعمله مكلفين من الله ، ونحن بكامل حريتنا .

ولأننا أحرار ، ولأننا مكلفون ، ولأننا مؤهلون ، فنحن مسئولون : « فمن يعرف أن يعمل حسناً ولا يعمل فذلك خطية له » (يع ٤ : ١٧) . أو كما قال الرب : « وأما ذلك العبد الذى يعلم إرادة سيده ولا يستعد ولا يفعل بحسب إرادته يضرب كثيراً . ولكن الذى لا يعلم ويعمل ما يستحق ضربات ، يضرب قليلا » (لو ١٢ : ٤٧) .

وعندما يتكلم الرب عن عمله لا يوافق قط على موقف غير إيجابى (أقول غير إيجابى وليس سلبياً) لأنه لا يكفى أننا لا نهدم بل يجب أن نبنى : « من ليس معى فهو علىَّ ومن لا يجمع معى فهو يفرق » (مت ١٢ : ٣٠) . لذا فواسطة عمل الرب كالحراث لا يجوز أن ينظر إلى الوراء ، ويجب أن ينكر كل ما يعطل عمل الرب حتى أقرب قرابة وأحب حبيب . وكل هذه أفعال إرادية مطلوب منا عملها بمحض اختيارنا . ونلاحظ وجود الحرية والمسئولية فى رد فعل حوار الرب بينه وبين هؤلاء السائلين فى (لو ٩ : ٥٧ — ٦٢) .

تطلب منا الواجبات سواء من أجل خيرنا ، أو الآخرين ، أو عمل الرب ، فحين نتممها نكون وسيلة إتمام قضاء إلهى .

(٣)

وبنفس الطريقة ولو من اتجاه عكسى يتضح دور الوسيلة فى ما يقع به البشر من أخطاء تتم قضاء إلهيا .

١ — ولعل أبرز مثال لذلك صلب المسيح . صلب المسيح قضاء أزلى « ماض كما هو محتوم » (لو ٢٢ : ٢٢) « مسلماً بمشورة الله المحتومة » (أع ٢ : ٢٣) « اجتمع .. ليفعلوا كل ما سبقت فعينت يدك ومشورتك أن يكون » (أع ٤ : ٢٨) « دم المسيح معروفاً قبل تأسيس العالم » (١ بط ١ : ١٩ و ٢٠) .

ولقد كان لتنفيذ هذه المشورة المحتومة عدة وسائط :

(أ) سلمه يهوذا ذاهباً بنفسه إلى رؤساء اليهود (مت ٢٦ : ١٤ — ١٦) . ويقول الرب بأن له ويلاً لأنه مسئول عن ذلك كواسطة (لو ٢٢ : ٢٢) .

(ب) سلمه رئيس الكهنة ممثلا لمجمع السنهدريم إلى بيلاطس . وبهذا اشتركا كلاهما فى خطية الحكم عليه ويقول الرب عنهما « لذلك الذى أسلمنى إليك له خطية أعظم » (يو ١٩ : ١١) . ولقد أحس بيلاطس بوخذ الضمير فى هذا « من هذا الوقت كان بيلاطس يطلب أن يطلقه » (ع ١٢) ويدين الوحى كل رؤساء اليهود ومجلسهم وشعبهم الصارخ « أصلبه » (يو ٩ : ١٥ لو ٢٣ : ١٣ و ٢١) يدينهم بالقول « وبأيدى أثمة صلبتموه » (أع ٢ : ٢٣) .

(ج) اجتمع عليه « هيرودس ، وبيلاطس البنطى ، مع أمم وشعوب إسرائيل » (أع ٤ : ٢٣) .

كأن هؤلاء كلهم وكأن اجتماعهم وسائل تحقيق قضاء الله « ليفعلوا ما سبقت فعينت يد الله ومشورته أن يكون » (أع ٤ : ٢٨) .

لست فى حاجة لأن أسأل هل هذا قضاء الله أم مسئولية الإنسان لقد ناقشنا هذا السؤال قبلا ، لكن هنا أريد أن أقول هذا قضاء الله تم بواسطة إنسان .. بل بواسطة خطية إنسان ؛ لأن الله يدير كل شيء لأجل مجده وإتمام مقاصده . بل عين كيف يتم القضاء ووسيلته الحرة المختارة .

٢ — وشيء آخر مقضى به هو العثرة : « لابد أن تأتى العثرات » ويكمل الرب : « ولكن ويل لمن تأتى بواسطته العثرة » (مت ١٨ : ٧) . وفى مكان آخر ينبر على القضاء أكثر « لا يمكن إلا أن تأتى العثرات » (لو ١٧ : ١) .

وفاعل العثرة لا يقصد أن يتمم قضاء إلهياً ، بل يقصد أن يتمم مفاسده وشره . والقضاء الإلهى لا يرغمه لكنه يستخدمه كواسطة .

وتوجد أمثلة لمعاثر طرحت كثيرين فى العهدين القديم والجديد ، فأهلكت المتعثر وأوجبت العقاب على المعثر .

هناك نساء سليمان اللاتى أملن قلبه وراء آلهة أخرى (١ مل ١١ : ٤) وإيزابل التى أغوت آخاب فباع نفسه ليعمل الشر أمام الرب (١ مل ٢١ : ٢٥) وابنتها التى فعلت نفس الشيء بيهورام الملك زوجها (٢ أى ٢١ : ٦) .

هناك الأنبياء الكذبة فى أورشليم الذين أعثروا سامعيهم بالنفاق (إر ٢٣ : ١٥) ورؤساء الكهنة الذين هيجوا الجميع لكى يطلبوا باراباس وليس يسوع (مر ١٥ : ١٦) وعليم الساحر الذى طلب أن يفسد الوالى عن الإيمان (أع ١٣ : ٨) .

هناك المسيحيون الذين بسبب خطاياهم يجدف على اسم الله بين الأمم (رو ٢ : ٢١ — ٢٤) .

هناك المضلون بتعاليمهم التى تنتشر كالخميرة بين الناس (غل ٥ : ٩ — ١١) وكالخميرة أيضا عثرة الشرير والخبيث (١ كو ٥ : ٦ — ٨) .

هناك الذين أعثروا آخرين بطعامهم وشرابهم (رو ١٤ : ١٥ و ٢١ ، ١ كو ٨ : ١٠ و ١١) .

وسواء كانت العثرة ضلالة عن الإيمان أو ضلالة عن الطريق المستقيم فإن الكتاب يحذرنا منها ويأمرنا « كونوا بلا عثرة » (١ كو ١٠ : ٣٢) ويفتخر الرسول بأنه لا يجعل عثرة فى شيء لئلا تلام الخدمة (٢ كو ٦ : ٣) ويصلى من أجل القديسين لكى يكونوا بلا عثرة إلى يوم المسيح (فى ١ : ١٠) . أما الرب فإنه فى تحذيره الخطر الخطير عن العثرة بالقول « إن أعثرتك يدك فاقطعها .. إن اعثرتك رجلك فاقطعها .. إن أعثرتك عينك فاقلعها » (مر ٩ : ٤٢ — ٤٩) .

إن المعثر بحسب تعليم المسيح خير له لو طوق عنقه بحجر رحى وطرح فى البحر من أن يعثر أحد هؤلاء الصغار (لو ١٧ : ٢) . وليس أدل من هذا على أنه حر ومسئول .. ومن القول لابد أن تأتى العثرات نجد بأن هذا قضاء إلهى .. ومن الكلمة « بواسطة » نجد أن هؤلاء المتسببين

فى العثرة وسائل إتمام القضاء .

٣ ــ وخاطىء آخر يستخدمه الله لإجراء قضائه ــ هو الشرير الذى يسميه قضيب غضبه الذى به يجرى قضاء العقاب أو التأديب على آخرين . أما كون اعتبار هذا خاطىء فظاهر من سلوكه طريق الشر ، وهو بنفس الطريق الذى يسلكه العاثر لا يريد أن يحقق قضاء إلهياً . بل يحقق شهواته ولكن الله يجرى به قضائه . وعندما يكمل كيله ويفيض كأسه يقصف الله قضيب غضبه ــ ذلك الشخص الذى حول شروره لأجل تأديب وعقاب الآخرين .

يقول الرب « ويل لأشور قضيب غضبى » (إش ١٠ : ٥) . أما إن أشور قضيب غضب الرب فذلك لأن الله عندما غضب على شعبه اسرائيل بسبب خطاياهم ووثنيتهم ، استخدم أشور لأجل عقابهم . لكن أشور فعل من منطلق طمعه لأن يخضع شعوباً لأن يبيد ويقرض أمماً ليست بقليلة فإنه يقول أليست رؤسائى جميعاً ملوكاً » (ع ٥ ــ ٨) . فمتى انتهت رسالته كأداة غضب الرب عاقبه (ع ١٢) فيقيم عليه سوطاً (ع ٢٦) .

وقد استخدم الرب الكلدانيين لعقاب بنى اسرائيل (إر ٥ : ١٥) فلما انتهت رسالتهم هذه عاقبهم بالقضاء على بابل قضاء ذريعا ، فلم تقم لهم بعده قائمة (إر ٥١ : ٤١ و ٤٦ و ٤٩) .

ما معنى هذا ، معناه أن واسطة عقاب الرب ــ العصا فى يد الرب ــ مسئولة . هى الوسيلة لإتمام القضاء على أنها تعمل بحرية ولأغراضها ، ويعاقب الرب هذه الشرور فى الشرير ...

(٤)

إن ما يلوح لنا من تغير ظاهرى فى القضاء ــ فهو تغير الوسيلة وليس فى القضاء ، لأننا ننظر إلى المعلومات التى أمام أنظارنا وهى الوسيلة ونجهل القضاء . ولتوضيح هذا لنأخذ بعض الأمثلة :

١ ــ لنعد إلى « ميروز » ودورها مع سيسرا . أضاعت ميروز الفرصة التى قدمت لها للقبض على سيسرا وهو مار بها كما رأينا ، فأبادته ياعيل . قد تغيرت الوسيلة ، رفضت الوسيلة الأولى الفرصة واقتنصتها الثانية (قض ٥ : ٢٣ و ٢٤) على أن القضاء هو أن « يبيع الله سيسرا بيد أمرأة » (قض ٤ : ٩) وتم برفض ميروز ، وقبول ياعيل ..

٢ ــ قال مردخاى لأستير « إن سكت سكوتاً فى هذا الوقت يكون الفرح والنجاة ... من مكان آخر ، وأما انت وبيت أبيك فتبيدون ، ومن يعلم إن كنت لوقت مثل هذا وصلت إلى الملك » (إش ٤ : ١٤) . لقد قضى الرب بالفرح والنجاة ولكن إذا لم توافقى على كونك الوسيلة سيستخدم الرب وسيلة أخرى لإجراء قضائه والوسيلة العنيدة تهلك . أو فى كلمة أخرى كما يقول الرب لملاك كنيسة فيلادلفيا : « تمسك بما عندك لئلا يأخذ أحد إكليلك » (رؤ ٣ : ١١) لأنه إن لم يقم بما يطلب منه فلن يتعطل عمل وقضاء الرب . سيقوم آخر به ويكافأ وتضيع على الوسيلة العنيدة .

٣ ــ طلب من اللاويين أن يجمعوا تبرعات من أجل بيت الرب ، فلم يبادر اللاويون (٢ أى

٢٤ : ٥) فعمل الملك صندوقاً وجعلوه فى باب بيت الرب خارجاً وامتلأ الصندوق بالتقدمات (ع ٨ : ١١) .

٤ ــ رفض موسى دعوة الرب بعد طول أناة الرب عليه وقال موسى « أرسل بيد من ترسل » (خر ٤ : ١٣) فحمى غضب الرب ودعا هرون ليكون كاهناً له (ع ١٤ : ١٦) . موسى رفض أن يكون الوسيلة لإتمام قضاء الرب فسر الرب بأن يختار هرون لها .

٥ ــ وهكذا وبنفس الطريقة لم يتغير قضاء الرب بالنسبة لعمر حزقيا ، بل تغيرت الوسيلة إذ دخلت وسيلة الصلاة لإتمام قضاء الرب حتى يزاد لحزقيا بقية عمره أى (خمسة عشر سنة) حتى يكتمل عمره حسب قضاء الرب .

(٥)

كل قضاء يتم عن طريق وسيلته المقضى بها .. عندما يطلب منا شيء أو نحذر من شيء فلنستمع لتوجيهات الرب ولنكن الوسيلة التى عينها الرب ، فنجد أنفسنا نقيم قضاء الله المبارك من أجلنا ، أو عن طريقنا .

لسنا نعرف ما هو قضاء الرب لكننا نعرف أمره ، وواجبنا فلنتممه بكل أمانة . وكما هو مكتوب « كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوتك » (جا ٩ : ١٠) . ولنكن الوسيلة المباركة بيد الرب .

ماذا أفعل

« يارب ماذا تريد أن أفعل » (أع ٩ : ٦)

« ياسيدى ماذا ينبغى أن أفعل لكى أخلص »

(أع ١٦ : ٣٠)

أعود مرة أخرى إلى السؤال الذى بدأنا به أولا ــ هل الإنسان مسير أم مخير ؟ ليس لكى أجيب عليه ، فقد أجبت ، وثبت لنا أن الله قد قضى ولكن الإنسان مخير ليس بالرغم من قضاء الله ولكن ضمن قضاء الله .

لكن قصدى هنا هو أن أقول لماذا تتحير ؟ لا تتحير قط ، ولكن اعمل . والسؤال الواجب على كل فم هو ليس « هل » بل ماذا أفعل . أو فى كلمة أخرى لا تهتم بمعرفة القضاء ، ولكن اهتم بمعرفة واجبك الذى أنت مسئول عنه . إن القضاء مكتوم عنك إلا إذا شاء الله أن يفك لك أختامه ، ولكن واجبك معلن لك بوضوح ومطلوب منك أن تقوم به .

لقد سأل هذا السؤال كثيرون[1] نأخذ منهم اثنين على سبيل المثال هما شاول الطرسوسى ، وسجان فيلبى .

والأول يصلح للدرس باعتبار أنه لاهوتى ، يعتقد أنه يرضى الله ويفعل مشيئته واتضح له غير ذلك وبما أنه يريد أن يسير على نفس الغاية إرضاء الله ــ أن يتمم قضاء الله من جهته قال « ماذا تريد أن أفعل » .

والثانى يصلح للدرس باعتبار أنه سمع عن شىء يقال له « الخلاص » ينادى به بولس وسيلا ، وربما عانده أو استهزأ به وعذب المنادين به . وقد سمع فى صوت الطبيعة ما يؤكد حقيقته ، ويريد أن يأخذ جانب مسئوليته من هذا الموضوع الذى اتضحت له أهميته بصورة ترعده وتحيره فقال : « ماذا ينبغى أن أفعل لكى أخلص ؟ » .

ولننظر إلى هذين السؤالين بحسب موقف قائليهما من موضوعنا الخاص : نجد أنهما سؤال واحد يعبر عن طلبة معرفة الواجب ، وليس القصد الأزلى . ماذا أفعل أنا وليس ما هو قضاء الله بالنسبة لخلاصى أو خدمتى . نجد أنه سؤال يعبر عن رغبة إنسان حر مختار يسأل عن مسئوليته فيختار أن يعمل مشيئة الرب . وهكذا نجد أنه سؤال يبدأ بالمسئولية وينتهى بإتمام القضاء الإلهى .

(١)

ماذا أفعل ؟ سائل هذا السؤال يريد أن يعرف مسئوليته . وليس أن يعرف القضاء .. وقلت

---

(١) اذا اردت أن تعرف عن أكثر من المثالين المأخوذين اقرأ (لو ٣ : ١٠ ، يو ٦ : ٣٨ ، أى ٧ : ٢٠) كما أنه ينعكس على أقوال أخرى مثل (مز ٤٠ : ٨ ، يو ١٥ ، ١٤ ، مت ٢٥ : ٤٠ : ١تى ٤ : ٦) .

وأعيد قد نعرف القضاء لكن ليس بجهادنا وجهودنا ، ولكن بإعلان من الرب ، وللرب الحق فى أن لا يعلنه ، لأنه ملكه ، وقصد إخفاءه كما رأينا .

لكن معرفة واجبنا الذى نحن مسئولون عنه أمر معقول ومعلن . قد يأتى من الرب عن طريق أمر ، وقد يأتى عن طريق نهى . وقد يأتى عن طريق جواب الرب لنا حين يسأل « يارب ماذا تريد أن أفعل » . لكن المهم هنا هو موضوع الأمر والنهى والجواب : هو مسئوليتنا — واجبنا — الواسطة — التى تتمم القضاء وليس القضاء ذاته .

حتى الصلاة لكى يكشف الرب لنا قضاءه غير مرغوب فيها « ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التى جعلها الآب فى سلطانه » (أع ١ : ٧) لكن من الواجب والمعقول أن نقوم بواجب الشهادة (ع ٨) لذا عرفهم الرب يسوع هذا الأمر المطلوب منهم .

لهذا صلى الكثيرون : « عرفنى الطريق التى أسلك فيها لأنى إليك رفعت نفسى » (مز ١٤٣ انظر أيضاً مز ٢٧ : ١١) « يارب اهدنى إلى برك » (مز ٥ : ٨) « دربنى فى حقك وعلمنى » (مز ٢٥ : ٥) علمنى أن أعمل رضاك » (مز ١٤٣ : ١٠) .

قلت إن القضاء لا يكشف إلا بإعلان . وحتى هذا أمر نادر جداً . الأمر العادى أنه سفر مختوم ، أما ما يعلنه الله دائماً فهو واجبنا أى الواسطة التى بها يتم القضاء ... عرّف الرب اليعازر الدمشقى وهداه إلى عروس اسحق استجابة لصلاته (تك ٢٤) وقاد الرب الشعب فى عمود سحاب نهاراً وعمود نار ليلا . وأرشدهم بروحه (خر ١٣ : ٢١ ، نح ٩ : ١٩ و ٢٠ ، مز ٧٨ : ١٤) . لم يكشف لهم الرب موعد وصولهم ولا من أين سيدخلون . لكنه دار بهم « وأتاهم » حتى يأتى الوعد ، وحتى يموت من حرم من الدخول وحتى يهيىء لهم كل الظروف ... وكل هذه كانت مخبوءة عنهم إلا ما أعلنه لهم وفى وقت خاص .

وطالما نحن مسئولون عن الواسطة فعلينا أن نعرفها . هى واجبنا وعندما نعرفها فنحن مطالبون بها .

قال من أخذ الوزنة الواحدة « ياسيد (عرفت) أنك إنسان قاس تحصد حيث لم تزرع وتجمع من حيث لم تبذر .. الخ » فأجاب سيده وقال له « أيها العبد الشرير والكسلان (عرفت) أنى أحصد .. الخ » فكان ينبغى أن تضع فضتى عند الصيارفة (أنظر مثل الوزنات مت ٢٥ : ١٤ — ٣٠) . وفى تعقيب آخر فى مثل الأمناء (لو ١٩ : ١١ — ٢٧) يقول السيد « من فمك أدينك أيها العبد الشرير (عرفت) أنى انسان .. الخ » من هنا نرى أننا ندان عن معرفتنا .

أولا نحن مسئولون عما نعرف .

ثم نحن مسئولون أن نعرف .

إن جهلنا بما يجب علينا تقصير لا يعفينا من المسئولية ، بل بالعكس نكون مجرمين فى واجبنا من نحو « الحق » . العمى الإرادى أردأ من العصيان ! وما أشر دينونة الذين وضعوا برقعاً على

قلوبهم !! (٢ كو ٣ : ١٤ و ١٥) .

قال الرب يسوع « وأما ذلك العبد الذى (يعلم) إرادة سيده ولا يستعد ولا يفعل بحسب إرادته فيضرب كثيراً . ولكن الذى لا يعلم ويفعل ما يستحق ضربات ، يضرب قليلا » (لو ١٢ : ٤٧ و ٤٨) . لاحظ هنا أن الجهل لم يعفه من العقاب فهو يضرب ، ولو أن الجهل خفف من العقاب . لاحظ أيضاً أن هذا ليس الشخص الذى رفض المعرفة فهو لا يعلم أصلا ، ولم يرفض المعرفة ، أما من يرفض المعرفة فأشر من العارف العاصى !

إن قضاء الله لا يعنى أننا منساقون مجبرون .. بل يعنى أن لله مشيئة فينا علينا أن نسعى لمعرفتها وتنفيذها .. وبذا نحن مسئولون أمام مشيئة الله وقضائه ويجب أن نقول ماذا تريد أن أفعل ؟

« فى كل طرقك أعرفه وهو يقوم سبلك » (أم ٣ : ٦) .

عرفنا طريق خلاصنا : الرب يسوع المسيح . كل من ينظر إلى صليبه يبغض الخطية ، وكل من أيقن أنه لا يستطيع أن يخلص نفسه يجد الخلاص فى المسيح إذ يقبل نعمته المجانية فى صليبه وقيامته .. أى مطلوب منك : اعلم أنك خاطىء — ابغض خطيتك وحول قلبك عنها — قرر أنك لا تستطيع أن تخلص نفسك — التجىء بالإيمان إلى الرب يسوع المخلص برجاء كامل أنه قد قبلك وغفر خطاياك وصيرك إنساناً جديداً » .

لكن بالنسبة لحياتنا الخاصة وسلوكنا ، بالنسبة لما يعترضنا من الحياة فى طرقها المتشعبة : أى الطرق نختار ؟ هنا يجب أن ندقق مصلين بإخلاص « ماذا تريد يارب أن نفعل ؟ » وليس هنا مكان الرد على أى الطرق نختار ، أنت تختار بارشاد روح الله ، ولكن أريد أن أضع بعض النقاط التى تنير السبيل أمامنا بصورة عامة كما ظهرت فى إرادة الله لحياة كثيرين :

١ — « هذه هى إرادة الله قداستكم » (١ تس ٤ : ٣) لذا امتنع عن أى شر أو شبه شر (١ تس ٥ : ٢٢) فمهما كانت الطريق جذابة والعمل فى نظرك جميل ، ولكنه فيه شبه الشر أرفضه .

٢ — ابعد عن العثرة حتى لو جاز لك ما تعمل . لكن من أجل الأخ الذى مات المسيح لأجله لا تعمل ما يعثره (١ كو ١٠ : ٢٣ — اخ رو ١٤) .

٣ — ترك الرب لنا مثالاً لكى نتبع آثار خطواته (١ بط ٢ : ٢١ ، يو ١٣ : ١٥) . لذا فى كل مرة لا تعرف فيها ماذا يجب أن تفعل سل نفسك ماذا كان يفعل المسيح لو كان مكانى ؟

٤ — درب فهمك الروحى حتى تميز الأمور المتخالفة (فى ١ : ٩ و ١٠) لأنك أحياناً تقف أمام مفاضلة بين أمرين كلاهما حسن ، وتريد أن تعرف أيهما أحسن ، وهذا يحتاج إلى صلاة وتعمق فى عشرة مع الله حتى تميز فضل أحدهما على الآخر .

٥ — ضع مجد الله أمامك واختر ما يمجده ، وارفض ما لا يمجده . إن مشيئة الله مرتبطة بقداسته ومجد اسمه ، وهدف حياتنا أن نمجده ، فيجب أن يستثنى كل ما هو دون ذلك .

الله ، كذلك يرشدهم إلى العمل حسب مشيئة الله (رو ٨ : ٢٧) . هذا هو المقصود بمسحة التعليم من الروح القدس « وأما أنتم فالمسحة التى أخذتموها منه ثابتة فيكم ولا حاجة لكم إلى أن يعلمكم أحد بل كما تعلمكم هذه المسحة عينها عن كل شيء وهى حق وليست كذباً ، كما علمتكم تثبتون فيه » (١ يو ٢ : ٢٧) .

٧ ــ أطع الحق المعطى لك يعطى لك زيادة . وإلا فعصيان مشيئة الله المعلنة لك تحجب عنك الرؤى الآتية (إدرس بهذا المعنى يو ٧ : ١٧ ، مت ١٣ : ١٢ ، هو ٦ : ٣) . عندما نخدم الخدمة المطلوبة منا مقدمين أجسادنا « ذبيحة حية مقدسة » عندئذ « نختبر ما هى إرادة الله » (رو ١٢ : ١ و ٢) . طبعاً لا حاجة بى إلى القول بتجنب السير ضد أى حق معلن عن مشيئة الله . فعندما يقول الرب لى صراحة فى الكتاب لا . يعنى لا . لست أقصد بحسب الناموس نعيش لنخلص . ولكن فى مستوى قداسته يكمل الناموس .

٨ ــ قد تأتى ضدك أصوات تشوش على الإرشاد الإلهى فى ذهنك . لا تصغ لها . الروح يقود بولس إلى أورشليم (أع ٢٠ : ٢٢) ولكن كثيرين حاولوا منعه من ذلك (٢١ : ١٢ و ١٣) . وحقاً إن الروح يشهد بأنه سيقيد (٢٠ : ٢٣ ، ٢١ : ١١) ولكن الروح لم يقل له لا تذهب بل قاده ، لذا فبولس بأكثر تشديد صمم أن يذهب . المهم كيف تميز بين صوت الروح وصوت الشيطان (مت ١٦ : ٢٢ و ٢٣) ؟ لا طريق إلا بأن تألف صوت المسيح (يو ١٠ : ٤ و ٥) . ومرة ثانية أقول « صل » صل حتى ترى الرب « أمامك .. وعن يمينك » (أع ٢ : ٢٥) .

« يارب ماذا تريد أن أفعل » عرفنى ...

(٢)

وبإمكاننا أن نفعل إرادة الله ــ أى بإمكاننا ، فى حيز إرادتنا الحرة أن ننفذ القضاء الإلهى .

إن من يسأل سؤالا كهذا « ماذا تريد أن أفعل » لا يفرض أى مناقشة لإمكانية عمل بل يأتى بروح استعداد ظاهر للتنفيذ . أى أنه لا يحسب أى حساب لعدم إمكانية العمل المطلوب . بالعكس يعتبره أمراً مسلماً به أن ذلك المطلوب منه ممكن تنفيذه .

إن الإنسان ميال لأن « يثبت بر نفسه » (رو ١٠ : ٣) ولهذا فهو يفتكر أنه ممكن . وهكذا كل الذين أرادوا أن يخلصوا بمجهودهم وبرهم الذاتى . وعلى نفس القياس كل الذين يفترضون أى نجاح لمجهودهم ومهارتهم (تث ٨ : ١٧ ــ الخ) .

أريد أن أعيد هنا قول الرب يسوع « بدونى لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً » (يو ١٥ : ٥) . لكن أريد أن أعيد تأكيداته بأنه معنا يقدرنا . وأنه لم يطلب منا شيئا إلا وأعطانا القوة .

أمر الرب يسوع ذا اليد اليابسة « مد يدك » (مر ٣ : ٥) ومفهوم أن يداً يابسة لا تمتد . ولكن صاحب اليد اليابسة مد يده فعلا « فعادت يده صحيحة كالأخرى ».وذلك لأن مع أمر الرب كانت القوة أيضاً لتنفيذه .

وبنفس المعنى نفهم أمره لمفلوج أن يقوم (مر ٢ : ١١) وأن يحمل سريره ويذهب إلى بيته (أنظرأيضا يو ٥ : ١ — ٩) . وما هذا إلا لأن مع الأمر كانت القوة التى قدرت المفلوج أن يقوم .

ولقد كان أمر الرب لمتى العشار مستحيلا « اتبعنى ! » (لو ٥ : ٢٧) . لكن متى (لاوى بن حلفا) « ترك كل شىء وقام وتبعه » (ع ٢٨) قام ضد عادة الخطية المتمكنة فيه ، ضد التراث الردىء الذى يجره خلفه من مهنته كعشار ، مما نفر منه كل فرد فى أمته ، وكان ممكناً أن يعوقه بيأس شديد ، ضد مخاوف المستقبل ؟ كيف يعول نفسه وأسرته حين يترك عمله ، وقد لا يجد عملا آخر ، لأن الناس أبغضوه ؛ ضد مخاوف الموت إذ أن الرب قد دعا « غيورين » أيضاً إلى زمرة تلاميذه لو ٦ : ١٥ ، أع ١ : ١٣ ، وقد يقتلونه ! لكن « تبع » الرب ضد كل هذا لأن مع الأمر أعطيت القوة .

فى المجال الروحى يقول الكتاب « لذلك يقول استيقظ أيها النائم وقم من الأموات فيضىء لك المسيح » (أف ٥ : ١٤) . أى أن قوله يمكن أن يسمعه الميت (من لا يسمع) . وما دام يناديه وقد سمع فإن نعمة الرب تعمل فيه . إذ يدعوه دعوة فعالة . والطاعة ممكنة ؛ والتغيير ممكن .

وكذلك فى كل مجال .

ماذا أفعل ؟ اسمع ما يأمرك به الرب وأطع . فإن ذلك ممكناً لك لأن مع الأمر تأتى إليك قوة إلهية تعين على التنفيذ . لقد رأينا ذلك فى الحديث على مصدر القداسة البشرية حينما درسنا الآية «لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرة » فى ٢ : ١٢ و ١٣[1]

لهذا نحن مسئولون عن إتمام « ماذا ينبغى أن نفعل » .

لنا من الرب مواعيد عظيمة وثمينة : أنه يعطى المعيى قوة ، ولعديمى القوة يكثر شدة » (إش ٤٠ : ٢٩) . وقد قال « قوتى فى الضعف تكمل » (٢ كو ١٢ : ٩) .

لذا فحين يقول لنا « ماذا يريد أن نفعل » فإننا مسئولون عن تنفيذ ذلك لأننا نستطيع .

وإن كان قضاء الله قد جعله فى سلطانه وهو مخبوء عنا . لكنه « يعطى قوة » وبناء عليها نطالب بمسئولية : « تنالون قوة متى حل الروح القدسُ عليكم وتكونون لى شهوداً » (أع ١ : ٨) .

« ماذا أفعل » ؟ لنسأل هكذا بإخلاص . فإن كنا مخلصين فى طلب واجبنا ، ما كان عندنا تساؤل عن قضاء الله . لأننا حين نقول ماذا تريد أن أفعل فإننا نسلم بإراداته ونسأل عن واجبنا وليس العكس .

(٣)

يوجد المتمردون المتكبرون الذين يسلمون بإرادتهم ، ويسألون هل قضى الله ؟ هل يريد الله ؟ هل رسم الله لنا طريقاً ؟ هل .. ولا رد على هذا أفضل من قول المسيح لأورشليم : « كم مرة أردت

---

(١) انظر ص ٨٨ — ٩٢ و ٩٣ .

أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا » (مت ٢٣ : ٣٧) .

والأمر الغريب أن كثيرين لا يفهمون أنه ممكن أن تتوافق إرادة الله وإرادتهم . وفى نفس الوقت يكونون بكامل حريتهم ، ويكون الله قد قضى قضاءه . لماذا لا يرى هؤلاء حريتهم إلا فى عدم وجود قضاء إلهى ؟ لماذا لا يرون حريتهم إلا فى عدم وجود النعمة ؟ لماذا لا يرون حريتهم إلا فى وسط الفوضى ؟ يسلمون بأن يقبل الطالب رأى مدرسه ، ويسلمون بأن يقبل الشارى السعر الذى حدد للسلعة . ويسلمون بأن يزوروا بعضهم بعضاً فى موعد حددوه ، ويسلمون بأن يحفظوا عهودهم ومواثيقهم بعضهم مع بعض ، ويسلمون بأن يحيا الأزواج فى وفاق ، ويسلمون بأن يخلص الأصدقاء بعضهم لبعض . وغير ذلك كثير . فكم بالحرى يجب أن يكون التوافق بين الإرادة البشرية والسماوية .

إن السؤال ماذا تريد أن أفعل ؟ سؤال يعترف بحرية وإرادة السائل ضمناً ، ويعترف بتأكيد إرادة الله تصريحاً ، ويفترض التوافق التام بينهما .

وبناء على هذا التوافق التام يكون الاخلاص واجبا علينا حين نسأل وعندما نسأل سؤالنا بإخلاص يقدم لنا الله طلبتنا بأن يعرفنا ماذا علينا .

يقول الرب يسوع : « إن شاء أحد أن يعمل مشيئة الذى أرسلنى يعرف » (يو ٧ : ١٧) . وعلى مدى إخلاصنا ورغبتنا فى الطاعة نعرف . والقد تحدثت فى هذا [1] ولا حاجة لى هنا أن أقول أكثر من أن الرغبة الحقيقية المخلصة دليل الموافقة الأكيده من إرادة بشرية حرة على قضاء إلهى سابق ؛ وأن هذه الرغبة الحقيقة المخلصة دعاء مجاب من إله يعرِّف من له ماذا يريد منهم .

الإخلاص سبيل المعرفة .

وهو أيضاً سبيل القوة لتنفيذ ما يريد الرب .

ليس من إخلاص أقوى من أن نقول « لست أحتسب لشىء ولا نفسى ثمينة عندى حتى أتمم بفرح سعيى والخدمة التى أخذتها من الرب يسوع » (أع ٢٠ : ٢٤) . وهذا هو ما أرشده الرب إليه لكى يعمل ما دعاه إليه . وهذا هو ما قدره الله عليه . إذ يقول « وأنا أشكر المسيح يسوع ربنا الذى **قوانى** أنه حسبنى **أميناً** إذ جعلنى **للخدمة** . » (١ تى ١ : ١٢) . بإخلاص طلب أن يعرف ماذا يفعل حسب إرادة الله . وكان فى إخلاصه أميناً ، وفى تنفيذ ما طلب منه أميناً ، لهذا أعطى القوة لكى يخدم ما يريده الله ، فاحتمل ببطولة « حتى القيود كمذنب » بقوة ممن قام من الأموات » (٢ تى ٢ : ٨ و ٩) .

وإذا كان شعارنا « يتعظم المسيح فى جسدى سواء كان بحياة أم بموت » (فى ١ : ٢٠) . فهذا الإخلاص لابد أن ينال قوة من الله تحقق غايته حتى **يتعظم** المسيح فى أجسادنا بأن نفعل مشيئته .

---

(١) انظر ص ٩٨

ليس المطلوب منا معرفة القضاء ، ولا حتى داع لذلك . إنما المطلوب أن نكون مخلصين فى طلب معرفة واجبنا الذى نحن مسئولون عنه وفى سبيل ذلك لنتفرغ من أنفسنا لكى نقدر أن نمتلىء من قوة الله ، ومن معرفة الله .

وحيث أننا سبق فرأينا — كما رأى شاول أننا نعيش فى خطأ إرادتنا الشخصية فإن طلبتنا مشيئة الله لكى تكون مشيئتنا موافقة جداً لحريتنا ، وإننا بكامل حريتنا نريد التصحيح . إن تفرغنا من أنفسنا لا يضيع حريتنا بل يصحح حريتنا . فنحن الذين نسأل ، ونحن الذين نطلب ونقبل القوة لكى ننفذ مشيئة الله .

« مات (المسيح) لأجل الجميع كى يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم بل للذى مات لأجلهم وقام » (٢ كو ٥ : ١٥) . على أن هذا لا يعنى انعدام حريتهم بل تأكيدها وتصحيحها وتحويلها من غاية وطريق خطأ إلى طريق صحيح .

غايتنا التفرغ من النفس لكى نعيش لأجل من مات لأجلنا وقام .

وطريقنا التفرغ من النفس لكى نتمم مشيئة من مات لأجلنا وقام .

فلنكن مخلصين برغبة حقيقية ، وإنكار للذات ، طوعاً واختياراً متممين ما نعرفه ، الأمر الممكن لنا .

بعد كلمة « ماذا أفعل » هو الفعل ذاته ، والتنفيذ ذاته . وقد سألنا ماذا نفعل ؟ وأعلن الرب لنا ماذا نفعل : فلنتمم . إن دائرة سؤالنا « ماذا أفعل » وليس « ماذا قضيت » أو « هل أنا » ؟ وقد أعلن الرب ماذا يريد منا أن نفعل :

قال لنا : أن نقر بأننا خطاة ، وأننا لا نقدر أن نخلص أنفسنا ، وأن نبغض الخطية من القلب ، وأن نقبل المخلص بالإيمان متكلين على عمله من أجلنا . فلنفعل : ولنخلص .

قال لنا : أن نسلك بالقداسة « حسب الروح » « منقادين للروح » لا حسب الجسد فلنفعل ؛ ولنعش قديسين .

قال لنا : أن نحترس ولننظر أن لا نسقط وأن نكون ممسكين فى يديه فلنفعل ، ولنحترس .

قال لنا أن نخدمه خدمة حقيقية مصلين أن يأتى ملكوته كما فى السماء كذلك على الأرض فلنفعل .

قال لنا أن نقوم بكل وبأى واسطة وأى واجب ، قد أعلنه لنا من أجل شفائنا ومن أجل قوتنا ومن أجل نجاتنا ، وغيرنا .. فلنفعل ..

بالنسبة لنا ليس المهم ما هو قضاء الله ، ولا نحن مسئولون عن إتمامه . وانما المهم هو ما هو واجبنا ، الأمر الذى إن قصرنا فى أدائه ندان .

وقد رأينا أنه ليس من الممكن أن نعرف قضاء الله فهذا سفر مختوم ولكن من الممكن أن نعرف ما هو واجبنا ومن الممكن أن نتممه .

والإخلاص من جانبنا هو أن لا نتدخل فى ما لا يعنينا ، بل أن نتمم واجبنا . هذا خير لنا من الله ، أو نتكهن ماذا تكون ، أو نعترض عليها ؛ ونفعل كل هذا بلا فهم ، ولن نصل إلى نتيجة ، ولن نغير من أمر القضاء شيئاً ، بل تعود على أنفسنا بالضرر والألم ؛ فضلا عن أننا نخطىء . والأجدر بنا أن نقوم بواجبنا . وفيه نجد الرد على كل أسئلتنا ، وحتى اعتراضاتنا ــ إن جاز لى أن أقول .. مع قوم يتمردون !

(٤)

لماذا نتحير بلا طائل ؟ إنك تسأل هل الإنسان مخير أم مسير ؟ يقول الكتاب الإنسان مخير : هل قضى الله ؟ يقول الكتاب نعم : كيف ؟ وماذا ؟ ليس لك أن تسأل ؟ ليس لك أن تعرف الأزمنة والأوقات التى جعلها الآب فى سلطانه . ولست مستحقاً أن تفك ختوم السفر وتفتحه ! الحمل وحده مستحق ــ الأسد الغالب وحده مستحق (رو ٥ : ١ ــ ١٠) . وما أكثر الحكماء والفهماء الذين أخفيت أسرار الله عنهم . ولكن إذا صارت المسرة أمام الله أعلنها للأطفال ! (مت ١١ : ٢٥ و ٢٦) . وقد صار للابن سلطان الإعلان . وماسر أن يعلنه أعلنه ، وما يسر أن يوضحه لنا من حكمة فى ما يصنع يوضح (مت ١١ : ٢٧) . وقد قال لنا : أهم أن تتفكر فى مسئوليتك من أن تبحث فى متاهات فى أشياء جعلها الآب فى سلطانه (أع ١ : ٨) .

لكنه أعلن فى الكتاب أن أى شىء نتمم واسطته التى قال بها الله . يتم بناء عليها القضاء الذى قضاه الله ، وجعل له تلك الواسطة أولا . مثلا لا تستطيع أن تعرف من ومن مختارون ؟ ولكن تعرف أنك أنت إذا قبلت الرب يسوع مخلصا خلصت وأنك إن انقدت بالروح قادك إلى مراقى القداسة ، وأنك إن جاهدت ضد الخطية ناظراً أن لا تسقط ثبت .. فتعرف أنك ضمن المختارين للحياة الأبدية . وذلك إذا استجبت لعمل الله فيك أن تعمل وأتممت الواسطة التى يتم بها القضاء .

أى بكل بساطة لاتهتم بالقضاء بل تمم مسئوليتك ــ واسطة اتمام القضاء ــ تجد أن القضاء الذى تممت واسطته قد تم واتضح لك .

أنت مخير وذلك ضمن قضاء الله . مخير أن تتمم واسطة إتمام قضاء الله . أى فكِّر فى ماذا تفعل وليس فى ماذا قضى .

هذا هو طريق الإيمان . .

هذا هو طريق السعادة .

هذا هو طريق الفلاح .

وأعط مجداً لله الذى يعطيك النعمة والقوة لكى [illegible]

« يالعمق غنى الله وحكمته وعلمه ! ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء لأن من عرف فكر الرب أو من صار له مشيراً ؟ أو من سبق فأعطاه فيكافأ لأن منه وبه وله كل الأشياء ، له المجد إلى الأبد آمين » (رو ١١ : ٣٣ ــ ٣٦) .

حار كثيرون من رجال الفكر وعلماء اللاهوت ، على مر السنين ، فى مناقشة العديد من القضايا التى تتصل بعلاقة الانسان بالله .

فما مدى حرية الإنسان وإرادته ، فى مقابل قضاء الله وإرادته ؟ وهل الإنسان مسير أم مخير ؟ وقضايا أخرى يجيب عليها هذا الكتاب بأسلوب واضح بسيط ، يسرنا أن نقدمه لقارىء العربية .

